أقوال الآباء وكتاباتهم
(علم الباترولوجى)
[الكتاب الرابع]

القديس يوحنا الذهبي الفم



القمص تادرس يعقوب ملطى

الكلية الإكليريكية
بالإسكندرية

أقوال الآباء وكتاباتهم

علم الباترولوجى PATROLOGY

٤

القديس يوحنا الذهبى الفم

سيرته ـ منهجه وأفكاره ـ كتاباته

القمص تادرس يعقوب ملطى

رقم الايداع ٤٩١٢ / ١٩٨٠



حضرة صاحب القداسة والغبطة

البابا شنودة الثالث

بابا الإسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية

مقدمـــة

الكنيسة فى حيـاة الذهبى الفم

يرسم لنا هذا الاب — بسيرته وعظاته وكتاباته — أيقونة حية لحيـاه الكنيسة تكشف لنا عن سر حياة الكنيسة التى لا يحدها مكان ، ولا يحصرها زمان ، ولا يطويها تاريخ .

بمعنى آخر ، أود أن اقف معك فى هذا الكتاب لا لنتابع أحداثا خارجية — عاشها القديس أو عاشتها الكنيسة فى أيامه — انتهت وعبرت، ولا لندرس عظات وكتابات نطق بها لسانه او سجلها لنا قلمه ، بل لننطلق سويا بالروح القدس الى اعماق كنيسة المسيح ، نتعرف على سر حياتها ونقبل سـماتها حية فينا !

ففى سيرته نختبر **الكنيسة السماوية المتهللة** ، **المعاشـة على الارض** وسط الآلام . فقد احب يوحنا الحياة الملائكية ، وعشق البتـولية ، ومارس التسبيح والترنيم ، وانطلقت نفسه من يوم الى يوم نحو الابديات . لكنه فى هذا كله لم يتجاهل واقعه ، كانسان يحمل جسدا ويسكن على الارض بين البشر، لذا مارس ايمانه بالابدية خلال واقع عملى ، سواء فى بيت أمه ، أو ديره أو وحدته أو فى دار الاسقفية كشـماس أو كاهن أو أسقف ، على منبره وسط استحسانات الجماهير او فى منفاه . . .

انعكس ذلك على كرازته ، فقد جاءت عظـاته انجيلية ، ففى بلاغـة اسلوبه غالبا ما يقدم لنا تفسيرا واضحا وبسيطا للكتاب المقـدس ، يحمل المسحة الروحية السماوية ، مطبقا فى الحياة العملية ، متعرضـا للمشـاكل الواقعية ، مطالبا سامعيه بالسلوك العملى فى المسيح يســوع ، فهو ليس بالواعظ الذى يسحب سامعيه الى تأملات عقلية كثيرة ، ولا يدخـل بهم الى تفاسير رمزية مبـالغ فيها ، ولا يحـدثهم بفكر فلسـفى عميق ، ولا يكلمهم بمصطلحات لاهوتية صعبة ، ولا يشغل ذهنهم بمناقشات وجـدال كثير مع الهراطقة . . . لكنه يصب كل همه فى الدخول بهم الى الانجيل العملى تسندهم نعمة الله الغنية . . .

أما عن عظاته فقد دعم فمه الذهبى بحياته الذهبية ، فكان له قلب نارى وروح لا يهدأ ، يحب خلاص النفس فى غير حدود ، مقـدما حيـاته — **بروح**

الكنيسة الكارزة ــ مبذولة من اجل كل احد . لقد انطلق بالكرازة يبعث فى غيرة روح الكرازة والخدمة ... مؤمنا أن كل مسيحى فى ممارسته لمسيحيته لابد أن يكون خادما للنفوس .

كشف لنا يوحنا فى رعايته **روح الكنيسة التعبدية** ، لا يلهيه ازدحام الجماهير وتدفقهم لسماع عظاته عن النحيب عليهم من أجل قداستهم ، ومطالبتهم بالروح التعبدية الهادئة المقدسة ليمارس المؤمنون حياتهم الكنسية السرائرية بخوف ورعدة! لقد درب شعبه على حياة «الشركة مع القديسين» يحتفل معهم بأعياد الشهداء مرتين أو ثلاث مرات كل اسبوع ، يذكر عمل الله فى حياتهم ويطلب صلواتهم ... كما كان يلذ له ان يقرأ رسائل الطوباوى بولس فى هذه التذكارات ، حتى قال عنه « استولت على لذة سماع ذلك البوق الروحى (بولس الرسول) ... انى اعرف صوت صديقى ، ويكاد يخيل الى انى أراه أمامى واسمع خطابه » ...

هكذا فى حياة ذهبى الفم نرى الكنيسة متلألئة ، تحمل طاقات نامية فى العبادة والكرازة ... لكنها أيضا كنيسة متألمة ومجروحة ، يحاول الهراطقة والوثنيون صلبها ، كما يتعرض أولادها للضعفات (١) !

تكشف لنا حياته جانبا هاما من جوانب « الحياة الكنسية » هو **«وحدتها»** فقد هاجم ذهبى الفم بطريق أو بآخر ثنائية الغنوسيين ، الذين احتقروا المادة وخاصموا الجسد .. واعلن ذهبى الفم الكنيسة بكونها كنيسة مؤمنين يعيشون على الارض باجسادهم ...

كما حطم ذهبى الفم كل ثنائية فى الحياة الكنسية ، ليس هناك حياة تأملية واخرى عاملة ، ولا حياة رهبانية واخرى كارزة ، لكنها حياة واحدة . احب الرهبنة وعشق الوحدة وسعى اليها لكن فى غير اعتزال قلبه للبشرية أو تضييق أحشائه عن حملها . دخل الوحدة لا العزلة ، ممارسا « وحدة مع الله» لا « عزلة عن الناس » . وعندما دعى للخدمة لم يبك وحدته بل نقل معه فى قلبه روح الوحدة والنسك خلال بذله فى الخدمة . وعندما استبعد الى المنفى نقل معه فى غربته رهبنته الداخلية وكرازته !

هذه لمحات سريعة أرجو أن نتلمسها فى دراستنا هذه ، لكى نعيشها ونحياها ، فنبدأ بسيرته ، ثم منهجه وافكاره الكنسية واللاهوتية ، واخيرا كتاباته .

المؤلف

+ + +

---

(١) كثيرون فى عرضهم لسير القديسين يخفون ضعفاتهم أو يحاولون تبريرها ، مع اننا لا نؤمن بالعصمة من الخطأ . على العكس فان كشف ضعفاتهم لا يقلل من كرامتهم بل يعطى للنفوس الضعيفة رجاء وقوة للجهاد . هذا ما انتهجه الكتاب المقدس فى عرضه لسير الآباء والانبياء والرسل .

الباب الأول

القديس يوحنا الذهبي الفم

ST. JOHN CHRYSOSTOM

سيرته

+ بدء حياته ٢٤٧ — ٢٧٠م
+ رهبانيته ٣٧٠ — ٣٨٠م
+ شموسيته وقسوسيته ٣٨١ — ٣٩٨م
+ أسقفيته ٣٩٨ — ٤٠٣م
  - الشماسة اولمبياس
  - طريق الآلام
  - مشكلة الاخوة الطوال
  - مجمع السنديان
+ نفيه ٤٠٣ — ٤٠٧م
  - فى نيقية
  - الى قيصرية
  - فى كوكوزة

الفصل الأول

مبدء حياته

٣٤٧ — ٣٧٠ م

لله در النســاء

فى أنطاكية اذ كان ليبانيوس Libanius أعظم خطباء عصره يحتضر (١)، التف حوله تلاميذه يسألونه عمن يخلفه فتنهد الفيلســوف الوثنى قائــلا (٢) « يوحنا لو لم يسلبه المسيحيون منا ! » . فقد اكتشف هذا الفيلسوف السورى مواهب تلميذه يوحنا وفصاحته ، وكان يأمل أن يسلمه قيادة مدرسته من بعده غير أن كنيسة بيته كانت أقدر على جذب قلبه !

لقد مات الوالى سكوندس Secondus قائد الجيش الرومانى migister militum بســوريا ، تاركا زوجته أنثوسا Anthusa فى السنة الرابعة من زواجها ، وهى لاتزال فى ريعان شبابها وبهجة الجمال مع وفرة الغنى . تركها فى العشرين من عمرها فحام الشبان حولها يطلبون ودها ، لكنها وضعت فى قلبها أن تكرس حياتها لخدمة طفليها : ابنتها التى سرعان ما انتقلت ، ورضيعها يوحنــا (٣) .

لقد كرست أنثوسا حياتها فى جدية لتربية طفلها ، لينشأ غصــنا حيا وفعالا فى كرم الرب . وقد لمس جميع معارفها من مسيحيين ووثنيين ما فعلته هذه الام فى حياة ابنها ، حتى اضطر الفيلسوف الوثنى ليبانيوس أن يشــهد عنها قائلا « لله در النساء عند المسيحيين ! » .

يــد الله الخلاصية :

تشرب يوحنا روح الحق على يدى امه التقية، التى ارضعته لبن تعاليمها منذ الطفولة . لكنها لم تكتف بهذا بل اجتهدت فى تثقيف عقله بالعلوم والمعارف،

---

(١) عام ٣٩٥ .

(2) Sozomen : Ecc. His 8 : 2 .

(٣) ولد يوحنا عام ٣٤٧م حسب تقــدير Montfaucon و Tillemont و Neander و Stephens و Venables و Schaff وغيرهم . بينما يحــدد Baur وغيره التاريخ ٣٥٤ أو ٣٥٥ ، أما Villemain فيحدده بــ ٣٤٤ .

فاودعته لدى ليبانيوس يتدرب على البلاغة والمنطق ، ولدى اندروغاثيوس Androgathius يدرس الفلسفة (٤) .

نبغ يوحنا نبوغا فريدا ، واعجب به الكثيرون ، فتنبأ الكل له بمستقبل باهر ومركز سام . واحس هو بذلك فاراد اظهار قدراته ومواهبه بممارسته المحاماة نحو عامين ، يرفع الى القضـــاء دعاوى المظلومين والفقراء ببـــلاغة وفصاحة ، حتى صـــار يوحنـــا محط آمال الكثيرين والكثيرات ، يتوقعون له منصبا قضائيا فى وقت قصير . اما هو فاذ تبسمت له الدنيا انجذب الى ملاهيها ومسارحها وانديتها ، لكن تعـــاليم أمه بقيت حية فى داخله ، فكان بين الحين والآخر يتوق لو كرس حياته للفلسفة الحقة يمارس الانجيل ويعيش من أجل الابدية .

كانت يد الله تعمل فى حياته ، فبعثت اليه صديقه القديم ، رفيق الصبا، باسيليوس (٥) ، الذى كان يسلك بحياة انجيلية تقوية ... الذى روى عنه يوحنا نفسه قائلا (٦) : « مال الميزان بيننا ، فعلت كفته ، وهبطت كفتى تحت ثقل شهوات هذا العالم والاهواء التى ينغمس فيها الشباب » .

بدأ باسيليوس يستميله نحو حب الله ، فانجذب يوحنا ، واشتاق لو كرس كل حياته للتعبد ودراسة الكتاب المقدس، فترك المحاماة وتلقفه مليتيوس Meletius أسقف انطاكية الارثوذكسى ، وتلمذه ثلاث سنوات ، ثم منحه سر العماد حوالى عام ٣٦٩ أو ٣٧٠ م ، وهو فى حوالى الثالثة والعشرين من عمره وكان العماد بداية انطلاقة روحية جادة ، اذ يقول عنه بالاديوس Palladius انه منذ ذلك الحين (٧) « لم يحلف قط ، ولا افترى على أحد ما ، ولا نطق

(4) Socrates : Ecc. His. 6 : 3 .

(٥) غير باسيليوس الكبير ، صار أسقفا على رفانيه Raphanèe بجوار انطاكية سوريا .

(6) De Sacerdotio 1 : 3 .

(٧) وصلت الينا سيرته عن طريق بالاديوس أسقف هيلينوبوليس ببثينيه Palladius of Helenopolis ، وهو معاصر له وصديقه الحميم .

بالاديوس هذا اشهر مؤرخ للرهبنة المصرية ، تلميذ الاب أوغريس . ولد فى غلاطية عام ٣٦٣ أو ٣٦٤ م ودرس العلوم الكلاسيكية . وفى عـــام ٣٨٨ ذهب الى مصر وتعرف على كثير من الرهبان والمتوحدين . التقى بالقـــديس مقاريوس الكبير عام ٣٩٠ فى آخر حياته ، ثم بقى حوالى تسع سنوات يتتلمذ على يدى أوغريس ، واذ مرض نصحه الاطباء بالسفر الى فلسطين .

غالبا ما رسم أسقفا على هيلينوبوليس بواسطة ذهبى الفم عام ٤٠٠م وقد انشغل كثيرا بالصراعات الخاصة بالأوريجانية

بكلمة باطلة ، ولا سب ولا حتى سمح بأى مزاح طريف » .

= رافق ذهبى الفم ، وبسببه استجوب فى مجمع السنديان (البلوط) عام ٤٠٣ كمتهم بالاوريجانية ، حيث حكم عليه بالنفى الى صعيد مصر .

نفذ الحكم عام ٤٠٦ م حيث بقى الى عام ٤٠٨ فى Syene بالصعيد ، مسجلا لنا عمله « حوار فى حياة القديس يوحنا ذهبى الفم » فى منفاه من أجله .

وفى عام ٤٠٨ ذهب أنتينوه بالصعيد أيضا ليقضى بها حوالى أربعة أعوام اذ سمح له بالعودة من مصر عام ٤١٢م ، وتسلم اسقفية اسبيونا Aspuna بغلاطية وقد تنيح بعد مجمع أفسس (٤٣١م) بقليل .

أما أعماله فهى :

١ ــ التاريخ اللوزياكى Historia Lausiaca ، وضعه عام ٤١٩/٤٢٠م وهو العمل الذى أعطاه شهرة عظيمة . قدمه الى احد حجاب البلاط فى عصر ثيؤدوسيوس الصغير يدعى Lavsus ، حيث وصف الحركة الرهبانية فى مصر وفلسطين وسوريا وآسيا الصغرى فى القرن الرابع ، مقدما مصدرا أساسيا وأصيلا لتاريخ الرهبنة الاولى ، لا عن سماع من آخرين ، انما خلال حياته بين الرهبان والنساك ، اذ أحبهم وتنقل بينهم وعاش وسطهم ، حتى لقب بهيرودوت آباء البرية « Herodotus of the Desert Fathers » لم يسجل دفاعا عن الرهبنة ، لكنه كتب ما رآه من فضائل دون أن يتردد عن ذكر ضعفات الرهبان .

لم يكتب لنا نظرية معينة يعتنقها ، لكنه أورد حقائق وروايات مسجلة بروح أبيه الروحى « أوغريس البنطى » .

جاء تاريخه يشمل سير آباء كثيرين وردوا فى كتاب « تاريخ الرهبان فى مصر The History of the monks in Egypt » الذى لا يعرف واضعه (حوالى سنة ٤٠٠م غالبا بواسطة رئيس الشماس الاسكندرى تيموثاوس) يصف رحلة لجماعة من سبع اشخاص الى نساك مصريين عام ٣٩٤/٣٩٥ . كما جاء البعض فى التجمعات المتنوعة التى ظهرت تحت اسم « اقوال مأثورة للآباء أو ابو ثجماتا باتريم Apophthegmata Patrum » ... وقد سجل لنا Meyer فى مجموعة Aucient Christian Writers مجلد ٣٤ ، مقدمة رائعة من « التاريخ اللوزياكى والدراسات الحديثة فيه ... » .

٢ ــ حوار عن حياة القديس يوحنا Dialogus de Vita S. Joannis كتبه بمشاعر صادقة ، حيث سجل لنا حياة صديقه ذهبى الفم ، والكاتب فى منفاه Syene بصعيد مصر ، يعانى الآلام بسببه . جاء العمل فى شكل حوار بين أسقف وشماس ، يظهر فيه القديس يوحنا بطل الرواية ، اذ يختمه الشماس بقوله « ليذكر الله كل ذبيحة ليوحنا ، فقد ثابر فى صراحة حتى الموت » .

يعتبر اهم مصدر لحياته فى سنته الاخيرة ، لكنه بلا شك يحمل تحيزا مرا =
ضد البابا ثاوفيلس الذى حكم عليه بالنفى .

الشرارة تلتهب !

يقول بالاديوس (٨) أن مليتيوس Meletias رئيس كنيسة انطاكية قد لاحظ على هذا الشاب بهاء طلعته ، فانجذب الى جمال شخصيته ، وسمح له بمرافقته على الدوام ، مدركا بعين النبوة ما يكون عليه ... واذ عمده اقامه قارئا أو اغنسطسا anagnostes عام ٢٧٠ م .

هكذا استطاع صديقه باسيليوس لا أن ينتشله من أمواج البحر الجائشة ، انما كان يسنده على الدوام ، مشتاقا ان يعيش معه على الدوام مكرسين قلبيهما للعبادة ...، فقد حثه على أن يعيشا معا فى الحياة الرهبانية .

روى لنا ذهبى الفم بنفسه أحداث هذه الفترة ، قائلا (٩) :

« لم يكن يحتمل مفارقتى لحظة واحدة .

كان يحثنى على الدوام أن نترك بيتنا ونسكن معا .

واذ اقنعنى بذلك صار الامر تحت التنفيذ ، لكن نحيب أمى المستمر عاقنى عن تلبية طلبه ، أو بالحرى أن انعم انا بهذه العطية على يديه .

لقد شعرت أمى أنى أفكر فى هذه الخطوة ، فدخلت بى حجرتها الخاصة ، وجلست بجوارى على السرير الذى انجبتنى عليه ، وسكبت سيولا من الدموع ، ثم نطقت بكلمات تستحق الرثاء أكثر من دموعها ، ففى نبرات الحزن قالت لى :

يا بنى ، لم تكن ارادة السماء أن أنتفع بقوة أبيك طويلا ، فقد ولى موته الآلام التى اجتزتها من ولادتك ، تاركا اياك يتيما وأنا أرملة قبل الاوان ،

= جاء هذا الحوار على نمط كتاب « فيدون » لأفلاطون .
ويمكن الرجوع للنص الانجليزى فى كتاب :
H. Moore : The Dialogue of Palldius concerning the Life of Chrysostom (SPCK) , London , 1921 .

٣ — عن الهنود والبراهمة : On the People of India and the Brahmins
مقال صغير جاءنا تحت اسم بالاديوس يتكون من اربعة أجزاء ، يبدو أن الجزء الاول وجده من عمله ، حيث يقدم لنا سجلا لخبرات دارسى مصر فى رحلته الى الهند .

جاء النص كله فى مخطوط "A" . Alexander Novel, Codex Paris, Cr . 1711
وفى ترجمة لاتينية منسوبة للقديس امبروسيوس . راجع :
Quasten : Patrology, Vol III. p 176 — 180 .
B. Altaner : Prècis de Patrologie, ch 6 : 46 .
Ancient Christian Writers, vol 34, introd .

(8) Dial. 5. (9) De Sacerdotio 1 : 4 , 5.

اواجه كل مشاق الترمل التى لا يدركهـا بحق غير اللواتى اختبرنها . فان الكلام يعجز عن وصف العـواصف والزوابع التى تجتاح صـبية تركت بيت والديها منذ عهد قريب ، واذ هى عديمة الحنكة فى تصريف الامور يصيبها فجأة حزن لا يطاق ، وتجد نفسها ملتزمة ان تتحمل اعباء اهتمامات اثقل بكثير مما يحتمله سنها وجنسها . فعليها ان تصلح كسل الخدام وتحذر خبثهم ، وتصد الفخاخ التى ينصبها لها الاقرباء ، وتتحمل بشجاعة اهانات جباة الضرائب .

اذا خلف الراحل طفلا ، ولو كان بنتا فان الام تعتنى بها كل العناية ، غير أن النفقات والمخاوف تكون أقل وطأة . أما الابن (الولد) فيسبب لهـا ربوات من المخاوف مع هموم يومية كثيرة ، بغض النظر عن النفقات الباهظة التى يتحتم على الام بذلها ، اذا أرادت أن تهذبه بما يليق بالاحرار .

ومع ذلك فان شيئا من هذه الامور لم يقدر أن يدفعنى الى زواج آخر ، أن أدخل بزوج آخر بيت ابيك ، فبقيت وسط الاعصار فى صميم العاصفة ، لا أحاول الخروج من حالة الترمل المتقدة كفرن صاهر للحديد . وقد ساعدنى على ذلك — فى المقام الاول — النعمة النابعة من فوق . ولم تكن تعزيتى وسط هذه التجارب المرعبة قليلة ، اذ أنظر دوما وجهك فأرى فيك صورة الراحل ، حية وصادقة تماما . اذ كنت بعد رضـيعا لم تتعلم الكلام ، فى سن يلهى فيه اصغر الاولاد والديهم ، كنت انت سر تعزيتى !

أضف الى ذلك ، انك لا تقدر أن تلومنى انى احتملت ترملى بشجاعة لكنى أنقصت ميراثك . الامر الذى يحدث لكثيرين عندما يتيتمون . أما أنا فقد حافظت على ميراثك كاملا . لم احذف منه شيئا كنفقات لازمة لتهذيبك لتكون فى مركز لائق ، فقد دفعتها من مالى الخاص ، من مهر زواجى !

لست اقول هذا لتوبيخك ، انما اطلب منك مقابلة احســانى لك بأمر واحد : لا تدفعنى الى الترمل ثانية ! لا تحيى فى الحزن الـذى القيتــه لكى استريح .

انتظر موتى ،

لقد بقى لى قليل ثم أرحل .

حقا يتطلع الصبى الى عمر طويل ، أما نحن الذين كبرنا فليس لنا الا أن نترقب الموت .

عندما توارى جسدى التراب ، لا يوجد ما يعوقك .

لكنى مادمت حية فاقبل الحياة معى .

اتوسل اليك الا تعصى الله باطلا ، ولا تسىء الى بغير سبب ، فانى لم اخطىء اليك فى شىء وسط هذه الشدائد الثقيلة .

لو كنت تشتكى على انى الزمك بالارتباك فى اهتمامات عالمية ، أو أجبرك على العمل ، فلا تلتزم حتى بقوانين الطبيعة ... بل اهرب منى كما من عدو!

لكن ، ان كنت على العكس ، اصنع كل شىء من أجل راحتك خلال رحلة هذه الحياة ، فاسمح على الاقل بهذا الرباط ، ان لم يوجد شىء آخر يلزمك بالبقـاء معى .

حقا تستطيع أن تقول ان ربوات الناس يحبوك ، لكن ليس من يقدم لك الراحة هكذا فى حرية مثلى ! ليس من يغير على خيرك مثلى !

بهذه الكلمات واكثر منهـا نطقت أمى ، فرويت هذا للشـاب النبيـل (باسيليوس) ... » .

فى طاعة أذعن يوحنا لتوسلات أمه الارملة التقية ودموعها ، اذ رأى من الحكمة أن يخضع لها ويطيعها، فقد تركته حرا يتفرغ للعبادة والتأمل والدراسة، ممارسا حياته النسكية الانجيلية بغير عائق .. فان كانت ظروفه لا تسمح له بالدخول فى الحياة الرهبانية الديرية ، لكن الرهبنة ليست مظهرا ، انما هى فى جوهرها حياة داخلية يستطيع يوحنا أن يمارسها فى العالم حتى يشاء الله له أن ينطلق فى الوقت المناسب !

للحال حول يوحنا بيت أمه الى شبه قلاية ، لا بالاسم أو الشـكل ، لكن فيه انعزل عن الاهتمامات الزمنية ليمارس « وحدته مع الله » ودراسته فى الكتاب المقدس .

عاش يوحنا ناسكا ، يحب الله ويهيم فى التسبيح له، يكثر الصلاة ويقلل الطعام . يفترش الارض وينام القليل ، ممارسا السكون فى بيته ليرتفع قلبه نحو السماء ، مختبرا « الحديث مع الله » .

لعله فى هذه الفترة التقى بالاب تيؤدور الذى كان رئيسا لجماعة رهبانية بجوار أنطاكية (١٠) ومعلما لمدرسة انطاكية يدافع عن قانون الايمان النيقوى ضد الوثنيين والهراطقة ... مقتبسا منه منهجه فى تفسير الكتاب المقدس (١١) .. والذى انضم الى جماعته فيما بعد .

---

(10) Soc 6 : 3 , Soz 8 : 2 .

(١١) راجع الباب الثانى من هذا المجلد « منهجه الانجيلى » .

هروب من الاسقفيـــة !

بلا شك كان يوحنا على اتصـــال دائم على الاقل باحـــدى الجماعات الرهبانية المقيمة بجوار انطاكية ، ينقل عنها الحياة الرهبانية . ليختبرها فى بيته ... حيث بدات رائحة المسيح الذكية تفوح فى قلبه بقوة ، وانطلقت فى بيته ، فانجذب الكثيرون اليه ، أما هو فكان حريصا على « الوحدة » واذ خلا كرسيان فى سوريا اتجهت الانظار حالا نحو يوحنا وصديقه باسيليوس ليتسلما عمـــلا رعويا .

قال يوحنا (١٢) : « شاع بغتة خبر أزعجنا كلينـــا ، أنا وباسيليوس ، وكان حديث القوم أن نرقى الى المقام الاسقفى . حين وقفت على ذلك النبأ، أخذ منى الخوف والقلق كل مأخذ . كنت أخشى أن أقسر على قبول السيامة الاسقفية ، وبقيت مضطربا ، وسائلا ذاتى : لاى الاسباب خطر مثـــل ذلك الخاطر فى شأنى ؟ » .

كان ذلك وهو بعد شاب فى الخامسة والعشرين من عمره ، حين أخــــذ منه الخوف كل مأخذ ، لماذا ؟

لقد امتاز يوحنا بوضوحه وصراحته مع نفســـه ومع من هم حـــوله ، لا يعرف التردد ، لا فى داخله ولا فى مظهره ... اذن فلماذا الخوف والقلق ؟

امور كثيرة جالت فى فكره ، فقد كان يوحنا يتهيأ داخليا ـــ من يوم الى آخر ـــ للانطلاق نحو الحياة الديرية متى سمح له الله بذلك ، كل ما يربطه بالمدينة أمه الارملة التقية الوحيـــدة ! وفى نفس الوقت كانت الكنيســـة بكل جراحاتها تملأ قلبه وتمتص كل مشاعره ، كانت نفسه مرة فى داخله من اجل فساد حياة المسيحيين واغراءات اليهود والاعيبهم وســـموم الهراطقة ، هذا كله بجانب حياة البذخ والترف التى تعيشها انطاكية بأسرها ... كان قلبه يدمى كل يوما مشتهيا أن يرى خلاص الجميع ! هذان الاتجاهان ـــ ميله الديرى وحبه لخلاص الناس ـــ لم يخلقا فى داخله يوما ما صراعا : الدير أم الاسقفية؟ أو بمعنى اصح : الرهبنة أم الخـــدمة ؟ فهو ان دخل الدير يتهلل بالحيـــاة الملائكية ، وان خدم يفرح بالبذل كل يوم من أجـــل الخراف الضـــالة ... لا يشعر بصراع فى محبته للطريقين ... فلماذا القلق .؟

لو ان يوحنا قد شعر بقدرته على تسلم العمل الاسقفى لما هرب ، وان هرب فهو لا يحمل تمنعـــا ظاهريا لعلة أو لاخـــرى ... يود الهروب ليس تفضيلا لحياة على أخرى ، ولا هربا من المسئولية ، لكن فى احساس داخلى

---

(١٢) هنرى ترديف : القديس يوحنا الذهبى الفم (منشورات المعهد) ، ص ١٩ .

بضعفه عن تسلم مثل هذا العمل الرعوى الســـامى . وفى نفس الوقت ان هرب تبعه صديقه باسيليوس فيكون قد أفقد الكنيسة راعيا جليلا ، يشتهى أن يراه عاملا فى كرم الرب !

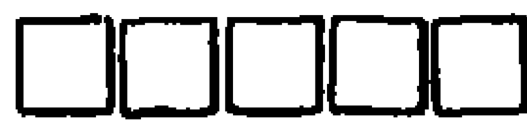
أمور كثيرة شغلت قلب يوحنا وفكره ، لكنه اذ التقى بصديقه باسيليوس لم يكشف له شيئا ، ليس خبثا لكن من أجل خير الكنيسة . ربما تحادثا معا فى « العمل الاسقفى وبركة البحث عن الخراف الضالة » فى صـــدق وأمانة ، فحسب باسيليوس فى هذا الحديث موافقة ضـــمنية على قبول الســـيامة . خاصة أنه يعلم أكثر من غيره ما يكنه قلب يوحنا صديقه من شـــوق جاد نحو خدمة النفوس .

رضخ باسيليوس للسيامة متوقعا بفرح سيامة صديقه يوحنا ، ليعملا معا بروح واحد ، يسند أحدهما الآخر . لكن جاء دور يوحنا فاختفى فى الجبال، الامر الذى أحزن قلب باسيليوس ، فاضطر أن يكتب اليه يؤنبه على فعلـــه هذا وخداعه له ، أو ما يسميه بخيانة العهد ...

لم يرد يوحنا ان يترك صديقه متألما ، فكتب اليه فيما بعد مقالا غاية فى الابداع ، يكشف له عن حقيقة موقفه بروح صريح واضح ، اتضاع مع محبة وعلم غزير ... الا وهو مقاله « عن الكهنوت De Sacerdotio » ، المـــؤلف الذى يغذى أجيالا من الكهنة والخدام .

كتب فى بلاغة ممتزجة بروحانية صادقة ، فبكل اتضاع يروى فى غير خجل أن توقفـــه عن دخول « الدير » سره دموع امه ، ثم عاد يتحـــدث عن العمل الكهنوتى كعمل الهى فائق ، هو عمل السيد المسيح نفسه ، العامل فى كهنته . . وفى غير خجل يعلن شوقه للخدمة بل وشهوته لها ، فهو لم يهرب الى الجبال هربا من الأسقفية ، لكنه مع شوقه لها يشعر بعدم أهليته ! لقد عرف أن الاسقفية بذل وألم ، لكنها تحتاج الى مؤهلات روحية عالية وقدرات !

لقد خط هذا الشاب مقـــاله فى ست كتب ، وكأنه كان يكتب دســـتورا يلتزم به فى حياته الكهنوتية ، أمام الله ونفسه .



الفصل الثانى

رهبـانيـة

٣٧٠ — ٣٨٠ م

هدات عاصفة رسامته اسـقفا فعاد الى الظهور فى انطاكية ، لـكن سرعان ما تنيحت والدته فخلا له السبيل للانطلاق نحو الحياة الديرية بجوار انطاكية ، يسعد بأربع سنوات من اعذب أيامه ، يقضيها فى التأمل والصـلاة والدراسة تحت قيادة شـيخ مختبر يدعى ديؤدور (١) ، الذى يعتبر احـد مؤسسى مدرسة انطاكية اللاهوتية ، وقد رسم أسقفا على طرسوس فيما بعد . وكان يزامله صديقاه منذ الدراسة عند ليبانيوس وهما ثيؤدور (٢) الذى صار أسقفا على موبسويست Mopsuestia ومكسيموس الذى صار اسقفا على سيليكية .

على أى الحالات ، فهؤلاء فى مجموعهم لا يمثلون مجرد جماعة نسكية بل وأيضا جماعة دراسية ، وضعوا على عاتقهم تفسـير الكتاب المقدس بالمنهج الانطاكى ، ألا وهو المنهج اللغوى أو الحرفى ، التاريخى . يقوم هذا المنهج على التفسير البسيط حسبما تشرحه اللغة ، لذا دعى « المنهج اللغـوى أو

---

(١) ألاب ديؤدور الطرسوسى Diodore of Tarsus يعتبر أحد أعمـدة الكنيسة الانطاكية فى أيامه ، اهتم بالرد على الهرطقات والبدع . قال عنه يوليانوس الجاحد أن ديؤدور قد تزود بلسانه المملوء حقدا ضد الآلهة القديمة بواسطة حكمة أثينا نفسها . دافع عن لاهوت المسيح فى كتابه « صخرة عظيمة فى المحيط » (Theodoret 4 : 22) .

نفى فى عهد فالنز الى ارمينيا عام ٣٧٢ حيث قامت بينه وبين القـديس باسيليوس الكبير صداقة ثم عاد الى انطاكية ورسم اسقفا على طرسوس .

فى القرن التالى (عام ٤٣٨) حمله القديس كيرلس الاسكندرى مسئولية ظهور النسطورية ، الامر الذى أدى الى ابادة الكثير من كتاباته .

(٢) أب مثقف كمعلمه ، وهو معلم المبتدع نسطور ، الأمر الذى أدى الى ادانته كمسئول عن ظهور النسطورية وكان مصير كتاباته كمصير كتابات معلمـه .

الحرف » ، كما قام على تأكيـد الحقائق التاريخيـة كما وردت فى الـكتاب المقدس كحقائق واقعيـة وليست أعمالا مجازية رمزية ، لذا سمى أيضـا بالمنهج التاريخى ...

اعمـاله الكتابية :

١ ـ اذ انطلق يوحنا الى الدير تهللت نفسه فيه ، أحس انه فى السماء عينها ... وقد بقيت أحاسيسه هذه تلازمه كل أيام خدمته ، اذ نجـده تارة يقول (٣) : « **بالنسبة للقديس اللجوء الى الدير هو هروب من الارض الى السماء !** » ، وأخرى يصف الراهب فى قلايته (٤) : « كأنما يسكن عالما آخر ، هو فى السماء بعينها . لا يتحدث الا فى السمويات . عن حضن ابراهيم وأكاليل القديسين والطغمات المحيطة بالسيد المسيح » .

على أى الحالات فانه فى فرحة قلبه أراد أن يجذب بعض أصـدقائه من نطاكية ، خاصة ثيؤدور ، للحيـاة الرهبانية ، فسـجل لنا مقاله الاول : « **مقارنة بين الملك والراهب** (٥) Comparatio regis et monachi » جاء فيها أن الملك يتحكم فى مدن وشـعوب وجيـوش ، أما الراهب فيتحـكم فى شهواته . الملك يحارب برابرة ليوسـع رقعة أراضـيه ووفرة غناه ، أما الراهب فيحارب الشياطين ويهدى نفوسا وينال من السيد المسيح اكليلا . الملك نهاره وليله مملوءان آلاما ومشكلات أما الراهب فبالفرح والسلام يقضى حياته . الملك يهدى ذهبا ، والراهب يقدم نعمـة وتعزيات . الملك يصعب عليه استعادة امبراطوريته ان فقدت، لكن الراهب ، يسهل أن يقوم من سقطته. أما عن الموت ونتائجه ، فمن منا لا يرتعب خـوفه على الملك ، أما الراهب فالجميع يطمئن لمصيره .

فى هذه المقارنة يبعث فى أهل أنطاكية الانطلاق نحو الحياة الديرية اذ كان الشباب يتنافسون على مراكز القيادة والحكم والادارة .

يعلق A. Moulard (٦) على كتابه هذا أن ذهبى الفم كتبه بعد شهور من دخوله الدير ، اذ يرى كل شيء ورودا ، وان صح لنا القول انه فى « شـهر العسل » ! .

على اى الاحوال بقى ذهبى الفم أمينا فى حبه للرهبنة رغم تفضيله لخدمة النفوس والكرازة .

٢ ـ فى عام ٣٧٣ كان غضب فالنز قد جاش على الارثوذكس ، فألزم

(3) 1 Tim PG 62 : 575. (4) Mat. PG 58 : 643.

(5) PG 47 : 387 — 392.

(6) Anatole Moulard : Saint Jean chrysostome, sa vie, son oeuvre, 1949, p 34.

تساكهم ورهبانهم على الخدمة العسكرية والمدنية ، واعتبر بعض المسيحيين فى النسك ضربا من الجنون ، وقامت حملات عنيفة ضـــد الرهبنة مما اضطر يوحنا أن يخط كتبـــا ثـــلاث تحت اسم (٧) Adversus oppugnatores vitae monasticac يهاجم أعداء الرهبنة ويفند حججهم ، محمسا الآباء أن يرســـلوا اولادهم الى الرهبان لينالوا تعليما علميا ويمارسوا حياة الفضيلة .

فى هذه الكتب اعلن لنا بهاء الرهبنة وجمال حياتها النسكية ، كما قدم لنا صورة مشرقة لهذه الحياة كما كانوا يعيشونها فى ذلك الحين . فالرهبان يسكنون القلالى المنعزلة ، يعيشون بنظام الشركة تحت قيادة أب abbot . كانوا يلبسون ثيابا من وبر الابل أو شعر الماعز ، فوق « تونية » من التيل . يستيقظون قبل الشروق ، ويبدأون يومهم بالتسبيح والصلوات المشتركة تحت قيادة الاب . عندئذ يذهبون الى أعمالهم الموزعة عليهم من قراءة ونسخ وأعمال يدوية تقدم أثمانها للفقراء . أما طعـــامهم فمن الخبز والماء وقليـــل من بعض الخضروات ... ينـــامون على مرقـــد من القش ولا يحتـــاجون الى شىء ، متحررين من كل قلق وهم لا يعرفون كلمتى « لى ولك » ، اللتين تســـببان الكثير من المشاكل فى العالم . ان رحل احدهم لا ينوحون عليه ، بل يقدمون شكرا لله . يحملونه الى القبر وسط تسابيح الحمد ، اذ هو لم يمت بل صار كاملا . لقد سمح له أن يرى وجه المسيح .

فى اختصار ـــ بالنسبة لهم ـــ الحياة هى المسيح والموت ربح (٨) !

لقد بقيت هذه الصورة حية فى داخله حتى بعد انغماســـه فى الخدمة ، فنراه يحدث شعبه عن الحياة الديرية قائلا (٩) :

« كأنما نجلس على سرير من العشب كما كان السيد المسيح يجلس فى البر !

كانت الغالبية منهم يتناولون وجبتهم فى الهواء الطلق ، الســـماء لهم سقف ، والقمر سراج ، ليسوا فى حاجة الى زيت ولا الى خدم . وكأنما القمر يتلألأ بجلاله لهم وحدهم ! » .

مرة اخرى يرفع أنظارهم الى برية مصر مسجلا لنا احاسيسه الرهبانية الصادقة ، قائلا (١٠) :

« هلموا الى برية مصر لتروها افضل من كل فردوس ! »

---

(7) PG 47 : 319 — 386 .
(8) Cf N & PNF , s . 2. p 9 .
(9) Mat. PG 58 : 653 .
(10) Mat. PG 58 : 87 (hom 8 : 6) .

ربوات الطغمات الملائكية فى شكل بشرى ، وشعوب من الشـــهداء ، وجماعات من البتوليين . . . لقد تهدم طغيان الشيطان وأشرق ملكوت المسيح ببهائه !

مصر هذه أم الشعراء والحكماء والسحرة . . . ، حصنت نفسها بالصليب!

لم تفعل هذه الامور الصالحة (الحياة مع المسيح) فى المدن فحسب بل وفى البرارى اكثر من المدن . اينما حللت فى هذا البلد تشاهد معسكر المسيح، القطيع الملوكى ، ودولة القوات العلوية !

لا نجد هذا بين الرجال فحسب بل وبين النساء أيضا . . . فقد مارسن طلب الحكمة فى صورة لا تقل عن الرجال ، لا مثل قضاة اليونانيين وفلاسفتهم الذين يتسلحون بأتراس وركوب الخيل ، انما يخضن معارك أشد ضراوة !. .

السماء بكل خوارس كواكبها ليست فى بهاء برية مصر الممتلئة من قلالى النســاك » .

٣ ــ تحدث ذهبى الفم فى المقالين السابقين عن مجد الرهبنة فى صورة عامة ، لكن هناك حالتين فرديتين كادتا أن تحطما أعمال الرهبنة ، هما حالتا ثيؤدور وستاجير .

لقد انجرف صديقه ثيؤدور وراء شهوته فأعجب بامراة جميلة تــدعى Hermoine . فترك طريق الرهبنة وأراد الزواج منها ، لــكن يوحنـــا أسرع فكتب مقالين لصديقه " Paraeneses ad Theodorum lapsum " يدعوه فيهما للتوبة والعودة الى الحياة الرهبانية .

لقد شعر ثيؤدور باليأس ، كيف وهو راهب يهوى بشهوته الى الزنا، وينخدع فى الشهوات . . . وهنا يبرز يوحنا كطبيب ماهر يعرف كيف يعـــالج النفس . فلا يوبخه على سقطته ولا يدخل به فى أمجاد الرهبنـــة فى تأملات عقلية عالية ، ولا يؤنبـــه كثيرا على كسره نذر الرهبنـــة ، لكن بروح الحب والترفق يسند ضعفه ويكشف له محبة الله وحنانه . . . لقد برز يوحنـــا فى معالجته للنفوس المحطمة . . . يدفعها نحو القيام من السقوط فى رجاء .

وكانت خلاصة حديثه « من يخطىء يكون قـــد سقط فى ضعف بشرى ، أما من يستمر فى الخطأ فيبطل انسانيته ليصير شيطانا » .

لقد اثمرت الرسالتان ، وتاب ثيؤدور حيث عاد الى الرهبنـــة ، الامر الذى وجه الانظار الى شخصية يوحنا كخادم للنفوس .

٤ ـ تعزية ستاجيريوس Ad Stagirium a daemone vexatum

كتب مقاله هذا فى ثلاث كتب موجهة الى راهب شاب ، يشجعه فى تجربة قاسية حلت به . لقد انهمك ستاجير فى ممارسة نسكية عنيفة ، أصيب بنوبة صرع وحكم عليه البعض أن به روحا نجسا .

نقل الراهب الى انطاكية للعلاج فتضاعف الهجوم على الرهبنة ، وأحس الراهب كأن الله لا يعتنى به ، فأنكر عناية الله وفكر فى الانتحار .. فأسرع اليه يوحنا يكتب له يعزيه فى شدته .

نحو الوحدة :

عاش يوحنا أربع سنوات فى الدير يمارس حياة الشركة ، يحسبها أجمل فترات عمره . فقد أحب الرهبنة حبا لا يوصف ، وتغنى بتعزياتها ، وامتلأ قلبه خلالها بحب السمويات ... وقد حسب أن العالم قد نسيه كما نسى هو العالم لكن كتاباته الرهبانية التى سجلها لجذب أصدقائه نحو الدير أو لدفاعه عن الرهبنة والرهبان ، سحبت أنظار الناس اليه ، فانفتحت قلايته لهم وافتقدوه فترات هدوئه ... أما كتاباته لثيؤدور وستاجير فقد كشفت للكنيسة عن موهبته فى الخدمة ، والتهاب قلبه بخلاص الآخرين ، وحكمته فى رعايتهم ...

سحبته كتاباته الرهبانية من غير أن يدرى خارج الدير ، اذ لم يجد بدا الا أن يهرب من المجد الباطل الى « الوحدة » يمارس حياة أكمل .

انطلق الى الوحدة كما يقول بالاديوس (١١) ـ « ثلاث دفعات ، فى كل مرة قضى ثمانية شهور حارما نفسه من النوم بصفة تكاد تكون مستمرة ، يدرس انجيل المسيح بشغف ... خلال هذين العامين لم يستلق نهارا ولا ليلا ، فانهارت طاقته وأصابه نوع من الفالج ... فأحس بعجزه عن الاستفادة من هذه الحياة وعاد الى الكنيسة (بانطاكيا) .

عاد بعد عامين الى انطاكيا بعد أن مارس حياة الوحدة بنجاح ، وكأن يد الله قد الزمته خلال مرضه بالعودة للخدمة والكرازة فى نضوج روحى وبغير ضجر أو تردد . أو لعل الله قد رأى ميوله الداخلية الدفينة فى نفسه نحو خدمة النفوس ، بالرغم من حبه للنسك والوحدة فألزمه بالخروج . فهو نفسه الذى يقول :

« خير للانسان أن يكون أقل فضيلة ويهوى خلاص غيره من أن يسكن الجبال ويرى أخوته يهلكون ! » .

---

(11) Dialogue PG 47 : 18 .

« لو صنع الانسان كل التقشفات ، لو اقمع جسده بكل نسك ، لو صام حياته كلها ، ونام على الحضيض ، لو وزع كل مقتنياته على الفقراء والمساكين ، فهذه كلها لا توازى خلاص النفس » (١٢) .

أخيرا نختم حديثنا عن هـذه الفترة بأمرين ذكرا عنه خـلال حيـاته الديرية (١٣) :

١ ــ اذ كان فى دير الرهبان رأى أزيكوس مرشده رؤيا الهيـة : ان شخصين بلباس أبيض اقتربا من تلميذه يوحنا وهو يصلى ، وأمسـكا بيديه وقالا له : ان سيدنا يسوع المسيح قد أرسلنا اليك . ثم ناوله أحدهما كتابا وقال له : أنا يوحنا الرسول ، خذ هذه الهدية المرسلة اليك من قبل الله لكى يساعدك على فهم الكتاب المقدس . ثم ناوله الآخر مفاتيح ، وقال له : أنـا بطرس ، وقد أعطيتك هذه المفاتيح دليل السلطان المعطى لك من قبل الهنا . وكان يوحنا جاثيا ووجهه الى الارض ، فأجاب : أنا لست أهلا لذلك . فعانقه القديسان وغابا عنه .

٢ ــ أنا أسدا تسلط على أهل تلك النواحى وافترس كثيرين، فلما شعر القديس بذلك أقام صليبا ، فنظروا فى الغد واذا بالاسد ميت تحت الصليب !

+ + +

---

(١٢) للمؤلف : الحب الاخوى ، طبعة ١٩٦٤ ، ص ٧٣ .

(١٣) الاسقف اسيذورس : الخريدة النفيسة فى تاريخ الكنيسة ، طبعة ١٩٦٤ ، ج ١ ، ص ٢٧٣ . قطف الازهار من مروج الاخبار ، طبعة بيروت ١٨٩٥ ، ص ٤٣ ، ٤٤ .

الفصل الثالث

شموسية وقسوسية

٣٨١ — ٣٩٨ م

شمـــوسيته :

حوالى عام ٣٨١ عاد يوحنا الى انطاكية ، فتلقفه اسقفها مليتوس بفرح عظيم ، ورسمه شماسا رغم معارضته ، فقام بعمل الشموسية من توزيـــع الصدقات على المعوزين ، وافتقاد المرضى والحزانى ، والمحافظة على نظـــام الكنيسة وهدوئها ، ومعاونة الاسقف فى خدمة الاسرار الالهية ، وحمل التناول المقدس الى المرضى .

بين هذه الخدمات الطقسية والخدمات الاجتماعية الكنسية كان يوحنـــا يقتنص كل فرصة للدراسة والكتابة ، فان كان ليس من حقه كشماس أن يعظ انشغل بالكتابة فى نوعين : كتب دفاعية وأخرى لها مسحة نسكية .

مقـــالان دفاعيان

١ — كتب مقاله عن « القديس بابيلاس وضد يوليانوس ، موجها للامم:
De S . Babylas, Contra Julianum et Centiles " .

فى هذا المقال يمتدح ذهبى الفم القديس الشهيد بابيلاس أسقف انطاكية الذى نقل جسده الى دافنيته Daphnè بجوار انطاكية . لقـــد حاول يوليانوس اقامة الوثنية بتقديم ذبائح للاله ابولون الذى رفض الكلام ، آمرا نقـــل رفات بابيلاس من جواره ، ففشلت محاولاته وانتهى الامر بحرق المعبد . . .

لقد قارن بين الوثنية المنهارة بغير اضطهاد ، والمسيحية المجدة وسط الضيق والآلام . . . كما وجه الحديث نحو التوبة معلنا قوتها وانها افضل من المعجزات . . .

٢ — المقال الثانى (١) « ضد اليهود والامم مبرهنا على لاهوت المسيح ،
Contr Judaeos et Gèntiles quod Christian sit deus .

كتبه فى أواخر دياكونيته ، ويشك البعض فى أصالة نسبته لذهبى الفم . لجأ

---

(1) PC 48 : 813 — 838 .

الى البرهنة على لاهوت المسيح من نبوات العهد القديم واقوال السيد المسيح ومعجزاته . لقد اوضح ان الصليب الذى كان علامة الموت المرعب قد صار بركة ، يخلع الملوك اكاليلهم لكى يلبسوا الصليب ... يوضع الصليب على ثيابهم الرسمية ، على تيجانهم . يوجد حيث تقام صلواتهم ، وعلى المائدة المقدسة ، يشرق الصليب أكثر بهاءا من الشمس ! » ...

مقالات عن الحياة المسيحية بمسحة نسكية

بدأ يكتب أثناء دياكونيته عن الحياة المسيحية فى اتجاه نسكى :

١ — عن البتولية (٢) جاء مقاله فى جزئين : الجزء الاول يهاجم الهراطقة الذين يحتقرون الزواج ، والجزء الثانى المفهوم المسيحى للبتولية ، لا يمارسها غير « القادرين على الخوض فى معاركها » من أجل الملكوت .

فى مقارنته بين الزواج والبتولية ربما بالغ ذهبى الفم مفرطا فى وصف العراقيل التى تشغل الانسان ، كما تحدث عن الزواج انه لم يوجد الا بعد سقوط آدم وحواء كعاقبة من عواقبه . وهذه نظرية غير مقبولة .

٢ — عن الندامة De Compunctione(٣) فى كتابين ، أحدهما موجه الى الراهب ديمتريوس والثانى الى الراهب ستلخيوس Stelechius ، حيث يظهر ذهبى الفم طبيعة لتوبة واصالتها .

جاء فيه « هو مرض (عدم الندامة) أصابنا جميعا ... ليس من هو ذو ايمان كامل السلامة . فان اصابة البعض أثقل ، والبعض أخف ، لكن جميعهم مصابون ! ...

ان جاءنا غريب وعرف وصايا المسيح ولمس اختلال حياتنا ، أما يظن أنه ليس للمسيح أعداء ألد منا ، فان الطريق التى نسلكها تجعله يسأل نفسه : أنريد أن نكون على عكس طريق وصاياه ؟! » .

٣ — مقال « الى ارملة شابة (٤) » يعزيها فى زوجها ترازيوس ، ويبعث فيها روح الخدمة ، اذ يليق بها أن تتطلع الى عريسها السماوى يسوع ، تخدمه !

٤ — الزواج الوحيد (٥)

دون استهجان للزواج المكرر — يعبره اقل مقاما من حالة الترمل ، اذ هو دليل على الفهم فى ملذات الجسد ، وفيه عدم أمانة للزوج الاول كما للثانى ، مع دخول الارملة فى مشاكل كثيرة ان كان لها أولاد من الزوج الاول .

---

(2) PG 48 : 533 — 596 .
(3) PG 47 : 393 — 422 .
(4) PG 48 : 599 — 610 .
(5) PG 48 : 609 — 620 .

٥ — المجد الباطل وتربية الاطفال (٦) De inani gloria et de educandis liberis . فيعالج الرذيلة الاولى فى حياة شعب انطاكية وهى المجد الباطل الذى يدفع بهم الى الفجور والتنعم ، بينما العمل المسيحى هو الاهتمام بتربية الاولاد . فالانتقال من الحديث عن المجد الباطل الى تربية الاطفال — فى رأى القديس يوحنا — انتقال طبيعى مادام الفساد هو جذور كل نقص فى تربيـــة الجيل الجديد .

هذا الكتاب له اهميته كوثيقة تاريخية هامة عن التربية المسيحية فى ذلك الحـــين .

٦ — عن « الكهنوت (٧) De Sacerdotio » فى ست كتب يأتى الحديث عنه فيما بعد ان شاء الرب وعشنا بشىء من التفصيل مع بقية كتابات القديس .

قســـوسيته :

دعى الاسقف مليتيوس لحضـــور المجمع المســـكونى بالقسطنطينية ؛ فاصطحب معه الكاهن فلافيان Flavian ، ووكل شئون الكنيسة بأنطاكية فى يدى شماسه القديس يوحنا . وفى أثناء انعقاد المجمع تنيح الاسقف مليتيوس فبكاه يوحنا بكونه أباه ومرشده .

اجمع آباء انطاكية على رسامة فلافيان (فلابيانوس) خلفا له ، وهذا بدوره قام برسامة الشماس يوحنا كاهنا .

فى كنيسة القديس بولس عام ٣٨٦ ، بعد خمسة أعوام فى خدمة الدياكونية المملوءة ثمارا ، أحنى القديس ركبتيه أمام المذبح لكى توضع اليد عليه ، يحمل موهبة الكهنوت . . . ثم يقوم يقبله الاسقف وأخوته الشمامسة قبلة السلام !

كان يوما حافلا اكتظت فيه الكنيسة بالمصلين ، الكل يتزاحم ليرى الكاهن الجديد ، الناسك المتعبد ! لقد وقف بينهم لاول مرة يعظهم كأب يتحـــدث مع أولاده ، فيطلب صلواتهم عنه ، مقدما الشكر لله من أجل صنيعه معه ، مادحا الاسقف فلافيان ، مذكرا الحاضرين بالاسقف مليتيوس فى غير اسهاب ، خاتما حديثه باعلانه عن الحاجة لصلواتهم حتى يبدأ خدمته الجديدة كما يليق فى الرب

---

(6) PG 48 : 623 — 692 .

سبق ترجمته الى العربية وتبويبه ونشره تحت اسم « رسالة تعزية : للقديس يوحنا ذهبى الفم الى أرملة شابة » : الناشر كنيسة الشـــهيد مار جرجس باسبورتنج .

(7) PG 47 : 623 — 692 .

يليق بنا أن نقف قليلا لتفهم « الوعظ » فى عينى الكنيسة الاولى ، أنه ليس وظيفة يمتهنها من درس البلاغة ، ولا من حفظ نصوصا من الكتاب المقدس أو تعلم شرحه ... لكنه تربية ، تنبع عن روح الابوة التى يتسلمها الراعى فى سر الكهنوت ، فيمارسها الاسقف كأب يتحدث مع أولاده ، ليس فقط الذين قبلوا الايمان ، بل يتحدث مع الجميع .

عند الضرورة كان الكاهن يعظ ، فالشماس يوحنا مع شهادة الكثيرين عن بلاغته وفصاحته وجاذبية شخصيته وقوة كتاباته لم يعتل المنبر ليعظ الا عند تقبله روح الابوة برسامته كاهنا ...

انطاكية فى ايامه :

رسم لنا القديس يوحنا فى عظاته صورة واضحة عن حال انطاكية وما اتسم به شعبها ، فقد قدر عدد سكانها بمائتى الف نسمة ، نصفهم من المسيحيين ، وقلة من اليهود الذين يحاولون خداع المسيحيين وجذبهم للشعائر اليهودية ، أما الوثنيون فمع ضخامة عددهم لكنهم فقدوا قوتهم وجبروتهم . أما المسيحيون فقد كان الكثيرون منهم يترددون على المسارح والملاهى والاندية فى هذه المدينة التى كانت مضرب الامثال فى ملاهيها وملذاتها ، يقصدها الشعراء والقواد والملوك للاعجاب والتغزل فى جمال معالمها ...

هذا بجانب الانقسام الذى عاشت فيه كنيسة انطاكية قرابة خمسة وثمانين عاما (٣٣٠ — ٤١٥ م) ، تنقسم الى ثلاث جماعات ، كل يسندها عدد من الاساقفة المتحمسين لها :

أ — جماعة الارثوذكس المعتدلين تحت رئاسة الاسقف مليتوس ، يتمسكون بقانون الايمان النيقوى .

ب — جماعة الاريوسيين برئاسة أودكسيوس ، الذين سندهم الامبراطور فالنز ، وهم ينكرون لاهوت السيد المسيح .

جـ — جماعة الاستاسيون Eustathians ، تحت قيادة الكاهن بولينوس Paulinus ، وهم ليسوا أريوسيين . لكن لهم اتجاهات أريوسية ، وقد استطاعوا أن يقيموا شركة مع روما (داماسيوس Damasus) ومع الاسكندرية (أثناسيوس) .

للاسف اتهمت روما الاسقف مليتيوس بالهرطقة ، وايضا الاسكندرية ، واستبعد القديس عن كرسيه أكثر من مرة وأعيد اليه ، لكن لما رسم الذهبى الفم اسقفا على القسطنطينية كان فلافيان هو خليفة مليتيوس ، فقام بالعمل على اعادة الشركة بينه وبين روما والاسكندرية . كما استطاع الكسندر خليفة

فلافيان أن يعيد الاستاسيين الى الكنيسة الارثوذكسية عام ٤١٥ ، فعادت الوحدة الى كنيسة انطاكية .

هكذا كانت صورة انطاكية عند رسامة يوحنا كاهنا ، آلام من الخارج (يهود ووثنيون) وضيق من الداخل (انقسامات وانحلال) ، لكن القديس قد تدرب على عدم اليأس ، اذ يقول عن نفسه أنه لا يكف عن أن يعظ مرة ومرتين وعشرة ومئة من اجل خلاص نفس واحدة مشبها نفسه بحامل الفأس الذى لا ييأس من ضرب الشجرة مرة ومرات حتى يقطعها !

ظل القديس قرابة اثنى عشر عاما ، فكانت له قدرة فائقة على جذب الوثنيين والهراطقة للايمان ، كما جذب كثيرين من المسيحيين الى الحياة المسيحية الحقة .

توافدت عليه الجموع ، وكانوا يظهرون استحسانهم بتصفيق حاد غير منقطع الامر الذى أزعج نفسه جدا . فقد ذكر انه أثناء وعظه اشتد حماس المصفقين وفى ضعفه البشرى تأثر بذلك لكنه اذ عاد الى بيته أدرك عدم استفادة المصفقين ، بل أفسد تصفيقهم البركات التى نالوها ، فوضع فى قلبه أن يوقف هذه العادة (٨) . لقد عاد يقول لهم : « أن تصفيقكم يؤلمنى ، فأتوجه الى بيتى بقلب حزين كئيب ، تقودنى أفكارى الى البكاء والنحيب . أقول لنفسى : ربما بفخرك يا نفسى تتسببين فى ضياع بعض النفوس ، وتكونين قد اضعت أوقاتك عبثا » .

افتتح القديس عظاته فى الاسبوع الاول من الصوم الكبير بشرح سفر التكوين ، واذ اجتذب بعظاته بعض الهراطقة بدأ يظهر التساؤل عن طبيعة الله ، اذ كان البعض يؤمن بأن الانسان قادر على فهم جوهر الله بعقله ، فاضطر بعد القاء ثمان عظات على سفر التكوين أن يلقى تسع مقالات عن **« استحالة ادراك طبيعة الله »** على مدار سنة كاملة ، خلالها القى **ثلاث عظات ضد اليهود** ، وميامر عن عيدى الميلاد والغطاس .

عظات التماثيل :

لعل بدء انطلاق شهرة ذهبى الفم مجموعة من العظات القاها فى انطاكية عام ٣٨٧م ، سميت « عظات التماثيل » لها قصة فى حياة كنيسة انطاكية .

ففى عام ٣٨٧ شرعت الحكومة المركزية أن تتهيأ للاحتفال بمرور عشر

(8) Cf . N & PNF , s 2, voi 12, p 22 u .

سنوات علي حكم الامبراطور ثيؤدوسيوس الكبير وخمس سنوات على اشتراك ابنه الشاب أركاديوس معه فى السلطة . ولما كانت مثل هذه الاحتفالات تحتاج الى بعض المال صدر أمر امبراطورى بفرض ضريبة جديدة اضافية ، الامر الذى استاءت منه كل المملكة ، لكن لم يستطع أحد أن يعترض . أما فى أنطاكية فقد حدث أثناء قراءة القرار فى الميدان أن عبر بعض الحاضرين عن شعورهم بالاستياء ، لكن الوالى أبى أن يصدر أمره للجنود بالهجوم على شعب أعزل. وقد انتهز بعض دعاة الفتنة هذه الفرصة فأخذوا يصرخون مطالبين الاسقف فلافيان بالتدخل لوقف القرار وغالبا كان هؤلاء من أتباع بولينوس أى من جماعة الاستاسيين ، يريدون اثارة خلاف بين الامبراطور والحكام مع الاسقف!

وسط جموع شعبية تضم من كل صنف سرعان ما سرت هذه الصرخات لتثمر بينهم هياجا فثورة وفى لمح البصر ، دون أى تفكير وبغير أى ضابط انطلق البعض يحطم تماثيل الامبراطور والامبراطورة وابنهما . ورموها فى الاوحال والقاذورات .

كل هذا تم فى لحظات مملوءة ثورة حماسية تبعها هدوء حيث أفاقوا من سكرتهم واحسوا ببشاعة جريمتهم ، وباتوا خائفين يتوقعون مصيرهم ومصير مدينتهم من عقاب شديد . فقد ارتبكت المدينة بأسرها ، كبيرها مع صغيرها ، ولم يعرف أحد ماذا يكون العمل .

وجد الاب الاسقف فلافيان نفسه ملتزما أن يتدخل لدى الامبراطور ، يهدىء من غضبه تجاه المدينة ، أما عظماء الوثنيين ووجهائهم فقد خافوا على انفسهم ولم يجسروا أن يفعلوا شيئا ، الامر الذى أساء الى نفوس الوثنيين.

أسرع الاب البطريرك الى القسطنطينية ، لكن الخبر كان أسبق منه ، بلغ الى الامبراطور فأرسل قائدين من عنده هما الليبكوس Allebichus وقيصاريوس ، اللذين وصلا أنطاكية واعلنا سقوط امتيازات المدينة ونقل العاصمة الى اللاذقية ، كما أغلقا الاندية والمسارح ، والقيا القبض على بعض وجهاء المدينة الذين حامت الشبهات حولهم ، فصودرت ممتلكاتهم وطردت نساؤهم من بيوتهن . كما أعلن القائدان اصدار الامر بحرق المدينة وقتل شعبها لولا تدخل بعض النساك والرهبان ، من بينهم الناسك مقدونيوس . فقد نزلوا من الجبال والاديرة والتقوا بالقائدين وطلبوا منهما الانتظار حتى يمكن تقديم شفاعة لدى الامبراطور .

فى ذلك الوقت بينما كان الاب البطريرك (الاسقف) فى طريقه الى القسطنطينية رغم كبر سنه وارهاقه بالصوم اذ كان الوقت الاربعين المقدسة

وكان الرهبان والنساك يتضرعون لدى القائدين بانطـاكية ، كان النـاس مذعورين ، يسمعون من يوم الى يوم اشـاعات متعارضة ، تارة يتوقعون العفو، واخرى يهددهم الموت .. فهرعوا الى الكنيسة ليقتنصهم الكاهن يوحنا بعظاته ، فينثر من درر قلبه وفمه أحاديث فياضـة تنعش قلوبهم المنكسرة وتشدد عزائمهم الواهية ، تدفعهم الى التوبة والرجوع الى الله ، ليس خوفا من موت الجسد أو خسارة الممتلكات الارضية ، انما شوقا الى نور الابدية خلال مراحم الله غير المتناهية .

لقد القى الاب فى بداية خدمته الوعظية هذه السلسـلة من العظـات الخالدة (٢١ عظة) التى وجهت انظار أنطاكية بل وخارج أنطاكية اليه ... فقد استطاع ان يبعث من الظروف العصيبة فرصة للكرازة والتبشير ،وعوض الخوف الذى ملأ قلوب الانطاكيين اهتـدى كثير من الوثنيين الى المسيحية ، وتذوق كثير من المسيحيين محبة الله وسلامه بالتوبة الصـادقة ، فتحولت الكارثة الى بركة لكثيرين (٩) .

فى ذلك الوقت كان الاب البطريرك أو أسقف أنطاكية قد بلغ القسطنطينية فاسرع الى البلاط رغم شدة تعبه ، والتقى مع الامبراطور ليقول له :

« انى لست رسولا لشعب أنطاكية بل أيضا سـفير الله . جئت اليك باسمه انبئك : ان غفرت للناس سيئاتهم وهفواتهم يغفر لك ابوك السماوى سيئاتك وزلاتك ...

أذكر ذلك اليوم الرهيب حين نلتزم جميعا بتقديم حساب عن اعمالنا ..

يمثل كل السفراء بين يديك ببهاء الذهب وكثرة الهدايا ووفرة المال ، أما أنا فلا أقدم لك غير شريعة يسوع المسيح المقدسة ، والمثـال الذى أعطانا اياه على الصليب لكى نستحق غفران خطايانا ... » .

امتلأ قلب الامبراطور من مخافة الله عند سماعه هذا الخطاب فقال : « ان كان ربنا وسيدنا يسوع المسيح قد صار لاجلنا عبدا واسلم ذاته للصليب وان كان قد سأل اباه المغفرة لصـالبيه ، فكيف أتجـاسر مترددا فى المغفرة لاعدائى ؟! » .

بهذا عاد الاب البطريرك الانطـاكى يحمل بشـائر العفـو ، فخرجت الجماهير تستقبله بفرح وتهليل . واحتفل مع شعبه بعيد الفصـح المجيد ،

(9) N & PNF , s . 2, vol 9 , p 11 .

فبدأ الاب يوحنا يردد آيات الشكر والتسبيح ، لان شعب انطاكية كان ميتا فعاش ، وكان ضالا فوجد (١٠) ، مسجلا لنا ذلك فى عظته الحادية والعشرين حيث لا ينسى أن يبرز الاسقف فلافيان كبطل مسيحى احتمل المشاق والاتعاب من أجل راحة أولاده ... لكن الحقيقة أن الاحداث نسيت وبقى أمر واحد شد أنظار الشعب بل والعالم المسيحى فى ذلك الوقت ، هو شخصية الكاهن يوحنا التى أعجب بها المسيحيون والوثنيون خلال عظاته التى سميت « عظات التماثيل » !

---

(10) Soz , 8 : 23 . Theodoret 5 : 20 .

الفصل الرابع

أسقفيته

٣٩٨ — ٤٠٣ م

فى سبتمبر ٣٩٧م رقد نكتاريوس Nectarius أسقف القسطنطينية أو بطريركها . فاجتمع الشعب مع الاكليروس يتداولون امر اختيار خلف له ، وتطلعت الانظار الى البلاط الملكى حيث كان الشاب أركاديوس قد تولى الحكم على الشرق خلفا لابيه ثيؤدوسيوس. وكان اركاديوس هذا ضعيف الشخصية تسلط عليه وزيره روفينيوس ثم قوى عليه اتروبيوس الخصى Eutropius ، الذى صار له وزيرا بل الحاكم الفعلى للملكة الرومانية الشرقية .

سمع أتروبياس الكاهن يوحنا يعظ فى أنطاكية فأعجب به ، وفى غير ترو نطق باسمه خلفا لنكتاريوس دون ان يقيم حسابا لشخصية يوحنا ، فهو انسان لا يعرف المجاملات على حساب الحق ، يعمل بغير محاباة للوجوه ، عنيف (ان صح هذا التعبير) لا يخاف انسانا !

هكذا شاءت عناية الله ان يرشح أتروبيوس يوحنا بطريركا للقسطنطينية وبالتالى أعلن الامبراطور الاسم ، فطار الشعب فرحا وتهلل الكهنة به ... ولكن كيف يمكن لشعب أنطاكية ان يتركه ؟ فقد عرف أتروبيوس ما يكون عليه شعب انطاكية ان عرفوا بخروجه من وسطهم، فأرسل الى فيكتور أستيروس قائد جيوش الشرق يخبره بأمر الامبراطور ، طالبا منه أن يرسل الاب الى القسطنطينية من وراء الشعب . وفعلا استدعى الوالى الاب يوحنا ، وسأله أن يرافقه فى زيارة بعض المقابر للشهداء خارج المدينة وما أن عبر الاب خارج الاسوار حتى حمل قسرا الى القسطنطينية (١) ...

ارتجت مدينة القسطنطينية وتهللت بحضوره ، الا أن البابا الاسكندرى ثاوفيلس حاول ترشيح صديق له ، كاهن تقى من الاسكندرية يدعى ايسيذورس (اسيدور) . وقد شهد المؤرخون بتقواه وورعه (٢) . لكن لماذا حاول ثاوفيلس ذلك ؟

---

(1) Soz 13 : 2. Palladuis 5 : 19.   (2) Soz 8 : 2.

راجع ص ٦٧ من هذا الكتاب (مشكلة الاخوة الطوال) .

يعلل بعض المؤرخين ذلك الى عدم راحة كنيسة الاسكندرية لقرار مجمع القسطنطينية أن يكون كرسى القسطنطينية الجديد الثانى بعد روما وقبل الاسكندرية. لان القسطنطينية قد صارت روما الثانية، حيث أصبحت عاصمة الدولة الرومانية الشرقية ... لقد رفض أساقفة الاسكندرية هذا القرار ، اذ حول الكنيسة الى مركز كرامات تتدخل فيها السياسة . فان الاسكندرية وهى مستعمرة رومانية تخضع لمدينة روما مدنيا ، لكنها بعمالقتها الدارسين اللاهوتيين وجبابرتها الروحيين خاصة الرهبان والنساك ، احتلت مركز الصدارة فى العالم المسيحى ، فجاء هذا القرار مثيرا لا للاسكندرية وحدها لكنه خلق مشاكل كثيرة مع أساقفة وبطاركة الشرق ... على أى الاحوال ربما خشى البابا ثاوفيلس من شخصية الاب يوحنا أنه يطالب بتنفيذ القرار، فرشح صديقه الذى امتاز بطيبة القلب والبساطة ولا يهتم بمثل هذه الامور هذا بجانب أنه اسكندرى وصديق للبابا الاسكندرى . لكن أتروبيوس ـ الحاكم الفعلى ـ ضغط على البابا أن يوافق على رسامة الاب يوحنا ، والا قدم للامبراطور الشكاوى المقدمة ضده . فمنعا للمشاكل قبل الرسامة واشترك فى سيامته فى ٢٦ فبراير عام ٣٩٨ .

اذ تمت السيامة لم يحمل البابا ثاوفيلس للقديس يوحنا الا كل حب وتقدير ، اذ لم تكن بينهما أحقاد كما صور بعض المؤرخين المتحاملين عليه بسبب سوء تصرفه مع القديس يوحنا فى مجمع السنديانة كما سنرى . لقد حاولوا تصويره بالرجل المملوء خبثا ، الذى وضع فى قلبه أن ينتقم لنفسه ويطرده . لكننا نقول مع هنرى شادويك (٣) H. Chadwick انه لم يكن ثمة خلاف بين الاسقفين ، بل كانت علاقة ثاوفيلس بيوحنا حسنة ، وقد ساعده فى مشكلة أوستاس Eustace بأنطاكية ، حيث أراد القديس يوحنا أن يعيد الشركة بين أنطاكية وروما ، وبينها وبين الاسكندرية ، وأن يلم شمل انطاكية بعد انقسامات طال زمانها ... ولم يدب الخلاف بينهما الا بسبب مشكلة « الاخوة الطوال » كما سنرى .

رعايته لشعبه :

اذ وضعت عليه يد الاسقفية بدأ الراعى الجديد يعلن حبه لشعبه، ففى عظته الاولى يوم رسامته تحدث مع شعبه بروح صديقه بولس الرسول ، يشجعهم ويكشف لهم عن غيرتهم ومحبتهم لمعلميهم ، كما حدثهم عن حبه هو لهم قائلا : « اتحدث اليكم اليوم : انى أحبكم كأنى عشت معكم منذ البداية. هذا ليس بسبب حنوى نحوكم ، لكن أنتم تستحقون كل حب ... فى انطاكية يوجد شعب كثير ، أما فى القسطنطينية فيوجد أناس مؤمنون يظهرون ثباتا

(3) H. Chadwick : The Early Church, p 187.

عظيما واخلاصا » . أخيرا أعلنلهم ان الكرازة « هى أعظم التقدمات وأسماها وافضلها » .

كان الهدف واضحا نصب عينيه ، انطلق منذ البداية يتحدث بروح الانجيل ، ساعيا الى خلاص الناس ، باعثا فيهم روح الكرازة والخدمة .

بمعنى آخر ، الاسقف الجديد لم تبهره عظمة عاصمة الشرق فى ذلك الحين ، ولا مظاهر الحفاوة التى لاقاها ، ولا سمو مركزه ، ولا قربه من البلاط . . . انما شغله أمر واحد : الكرازة !

كان الثمر سريعا فبدأت النفوس تشتاق الى كلمة الله ، وزحفت الجموع تتزاحم أمام منبره ، وكما يقول سوزومين (٤) : « دبر يوحنا كنيسة القسطنطينية بحكمة مثالية ، فجذب كثيرين من الوثنيين والهراطقة للاتحاد به . كانت جماهير الشعب تلجأ اليه كل يوم ، البعض بقصد التعلم بالاستماع لمقالاته ، والآخرون جاءوا يجربونه . على أى الاحوال ، أبهج يوحنا كل الفئات وكسبهم ، وقادهم الى احتضان مشاعره الورعة . واذ كان الشعب يزحمه فلا يقدرون على الاستماع لكلماته كما ينبغى كانوا يندفعون هنا وهناك يضغطون على بعضهم البعض ، معرضين أنفسهم للخطر . كل منهم يأخذ طريقه بالقوة ليقترب منه ويسمع ما يقوله يوحنا بأكثر دقة . أما يوحنا فكان يأخذ مكانه وسطهم على المنبر ، واذ يجلس يعلم الجموع » .

ختم المؤرخ سوزومين حديثه هذا بقصة عجيبة ، ربما انتشرت فى القسطنطينية فى تلك الآونة، وكان لها أثرها فى خدمة الاسقف يوحنا ، ملخصها أن رجلا من التابعين لهرطقة مقدونيوس كان يسمع عظات يوحنا فانجذب اليه ورجع الى الايمان الارثوذكسى ، أما زوجته فبقيت فى أنحراف أيمانها . هدد الرجل زوجته بالانفصال عنها وهجرها ان بقيت فى هرطقتها ، فوعدته بقبول الايمان المستقيم . واذ دخلت الكنيسة وجاء وقت التناول من الاسرار المقدسة تظاهرت جاريتها بالصلاة فى خشوع ، فأحنت رأسها وناولت سيدتها قطعة من الخبز كانت قد أحضرتها معها . . . وما أن وضعتها المرأة فى فمها وحاولت مضغها حتى تحولت بين أسنانها الى قطعة من الحجر . للحال ارتعبت السيدة جدا ، وخشيت غضب الله ، فذهبت مسرعة الى الاب البطريرك يوحنا تعترف امامه بكل شىء ، وقدمت له قطعة الحجر وآثار أسنانها عليه . . . وكانت تبكى بمرارة تسأل الغفران .

يعلق سوزومين على الرواية بقوله : « من يظن فى هذه القصة عدم صدقها يستطيع ان يختبر الحجر المذكور ، فانه لا يزال محفوظا فى خزينة كنيسة القسطنطينية » .

---

(4) Soz 8 : 5 .

رعايتـــه للفقـــراء :

لم يكن القديس يوحنا مجرد كارز بالانجيل من على المنبر ، لكنه يشهد لحق الانجيل فى سلوكه وتصرفاته . فقد تسلم القصر الاســقفى الذى أقامه سلفه الاسقف نكتاريوس ، وقد تبقى به بعض قطـــع من المرمر لم تكن قـــد استخدمت بعد ، فباعها وقام بتوزيع ثمنها على الفقراء . كما الغى النفقات الباهظة فى الولائم والاستقبالات الكبرى ... عاش فى دار الاسقفية ناسكا متعبدا ، قليل النوم ، كثير الصلاة ، لا يحضر الولائم ، ولا يتألق فى ملبسه ، غير محب للبذخ ، كل ما يتوفر لديه من أموال يقوم بتوزيعها على الفقراء أو الانفاق بها على المستشفى الخ ...

نستطيع أن نلمس مدى عشقه للعطاء وحبه للفقراء من تقديســـه هذا العمل ، حيث يتصور نفسه وهو يمد يده للعطـــاء أنه يكسب ذبيحة حب على مذبح مقدس ، يتقبلها الله رائحة رضى ... يرى فى الفقراء مذبح الله المقدس لا بل يرى فيهم السيد المسيح نفسه يمد يديه ليتقبل عطية الحب من الانسان ... اذ يقول (٥) :

« انها تقيم من البشر كهنة !

نعم انه كهنوت يجلب مكافأة عظيمة !

الرجل الرحوم (كاهن) لا يرتدى ثوبا الى الرجلين ، ولا يحمل أجراسا ولا يلبس تاجا ، لكنه يتقمط بثوب الحنو المملوء ترفقا ، الذى هو أقدس من الثوب المقدس !

انه ممسوح بزيت لا يتكون من عناصر مادية بل هو من نتاج الروح ! .. يحمل اكليل المراحم ، اذ قيل (٦) « يتوجك بالمراحم والرأفات » .

عوض الصدرية الحاملة اسم الله يصير هو نفسه مثل الله .

كيف يكون هذا ؟ انه يقول : لكى تكونوا مثل أبيكم الذى فى السموات»

أتريد أن ترى المذبح ؟ انه ليس من عمل بصلئيل (٧) ولا غيره من الناس هو من عمل الله نفسه ، ليس مصنوعا من حجارة بل من مادة أكثر لمعانا من السماء ، انها نفوس متقلة ! ... أعضاء المسيح نفسه . أعضاء المســـيح تكون مذبحا لك !! ... على جسد المسيح تقيم الذبيحة ! ...

---

(5) In 2 Cor . hom . 20 (P.G 61 : 540).

(٦) مز ١٠٣ : ٤ .

(٧) خر ٣١ : ٢ صانع خيمة الاجتماع .

ما هى رائحة البخور الطيبة التى تصعد على هذا المذبح ؟ انه الحمد والشكر ! تصعد (صدقتك) كما الى السماء ، لا بل تجتاز ما وراء السماء عينها ، الى سماء السموات ، حتى تبلغ عرش الملك ! اذ يقول (٨) : « صلواتك وصدقاتك قد صعدتا أمام الله » . . .

وانت بالحقيقة صامت اعمالك تتكلم ! »

هذه احدى عشرات الالوف من القطع التى سجلها القديس يوحنا فى عظاته وكتاباته . . . فقد دعى بـ " Almsgiver " . . .

اهتمامه بالعذارى والارامل

كان فى مدينة القسطنطينية بيت خاص بالعذارى والارامل من بنات الاشراف ، وكان قد اعتراهن الكثير من الفتور الروحى ، فأعطاهن الاب البطريرك اهتماما خاصا حتى سلكن فى حياة روحية سامية ، كما منعهن من التردد على البيوت والملاعب والحمامات العامة .

حرم الآب البطريرك على الآباء الكهنة قبول العذارى فى بيوتهم حفظا لسمعتهم ، ومنعا من اثارة اى شك لدى الشعب .

اوجب على العذارى والارامل العمل ليحفظهن من الفتور والضعف الروحى بسبب الفراغ او الملل ، فكن يقمن بنسج ثياب الفقراء ، والاهتمام بزينة الكنائس ، والخدمة فى المستشفيات ... كما نصح الارامل والحدثات الغير القادرات على السلوك باحتشام أن يتزوجن ثانية ، فالترمل فى ذاته ليس خيرا ولا شرا ، ان لم يتحول الى طاقات حب لله وخدمته . . .

اذ نتحدث عن خدمة العذارى والارامل لا نقدر ان نتجاهل الحديث فى شىء من التفصيل عن الارملة الشماسة اولمبياذا أو اولمبياس Olympias التى نالت شهرة فائقة فى ذلك الحين ، ارتبط اسمها باسم القديس يوحنا ، لايقدر احد ان يكتب عنه ويتجاهلها .

لقد اعجب القديس الاسقف بالشماسة الارملة من أجل حبها لله وسخائها فى العطاء مع نسكها واتضاعها ، فأعطاها اهتماما خاصا ، واستغل طاقاتها فى الخدمة ، حتى ادركت القسطنطينية كلها ذلك ، لذلك عندما نفى الاسقف انصبت عليها اضطهادات كثيرة ، لكنها أيضا تقبلت رسائل تعزية من أبيها المتألم ، تعتبر مصدرا هاما لتاريخ حياته فى أيامه الاخيرة . . .

+ + +

---

(٨) اع ١٠ : ٤ .

الشماسة أولمبياس

برزت سيرة القديسة أولمبياس كشماسة فى تاريخ الكنيسة بفضل توجيهات ابيها الروحى الاسقف يوحنا ، الذى التقى بها بعد رسامته أسقفا، فراى فيها مثالا طيبا لمحبة الفقراء والصلاة مع النسك ... دعاها القديس غريغوريوس النزينزى « مجد الارامل فى الكنيسة الشرقية » .

تنتمى أولمبياس الى عائلة وينية غنية ، فقد استطاع جدها أبلافيوس Ablavius ان يصير مقربا للملك ثيؤدوسيوس ، لا بسبب غناه أو شرف عائلته انما بجهاده الشخصى (١) ، فصار واليا على القسطنطينية ، أما والدها سيليكوس Seleucus فلا نعرف عنه شيئا سوى انه كان أحد الولاة.

ولدت أولمبياس حوالى عام ٣٦٨ وتيتمت وهى بعد صبية صغيرة ، فتكفل برعايتها عمها بروكوبيوس Procopius ، انسان مسيحى تقى ، صديق القديس غريغوريوس النزينزى (٢) .

نشأت أولمبياس فى جو من الترف والتدلل ، لذا مدحها القديس يوحنا فى احدى رسائله لها (٣) قائلا لها انه لم يكن سهلا أن يخرج من هو مثلها تمارس منذ شبابها المبكر حياة التجرد والاماتة مع ما تملكه من غنى وجاه وارتباط عائلتها بالبلاط .

اما عن تعليمها ، فقد كانت بحق سعيدة أن توضع بين يدى ثيؤدوسيا Theodosia اخت القديس امفلوكوس Amphilocus أسقف Iconium ، سيدة تقية مثقفة شهد لها القديس اغريغوريوس النزينزى فى رسالة كتبها الى أولمبياس يقول فيها (٤) : « لتكن مثلا حيا لك فى كل قول وفى كل فعل » .

---

(1) Sources Chrétiennes, 13 bis, 1968, p 13.
(2) N & PNF . s . 2, vol 9, P 287 .
(3) Epistle 8 : 5 .
(4) Idem : Carmen ad Olympiadem, v. 97 — 98 PG 37 : 1549.

ولا يستبعد ان يكون القديس غريغوريوس نفسه قد ساهم فى تربيتها الدينية اثناء أسقفيته على القسطنطينية . فهو يعلن سروره بدعوتها له « أباها » . . ويكتب اليها قائلا « ابنتى » ، بل يدعوها « أولمبياسة His own Olympias »

لقد تشربت أولمبياس بالكتاب المقدس ، اذ جاء فى حياتها (٥) « كانت خاضعة لتعاليم الكتب الالهية فى كل شىء » ونستطيع أن ندرك مدى تعرفها على الكتاب المقدس من رسائل الاسقف لها ، فقد جاءت تحمل الكثير من النصوص الكتابية يفهم منها أنها على دراية بالكتاب . كما أهداها القديس غريغوريوس أسقف نيصص كتابه فى تفسير نشيد الاناشيد بكونها قادرة على تقدير قيمته .

ذكر أيضا المؤرخ بلاديوس تأثرها بالام ميلانية الكبرى Milania the Elder التى يكتب عنها ممتدحا اياها بصورة فائقة فى كتابه التاريخ اللوزياكى (٦) The Lausaic History . لقد كانت محبة للبتولية والرهبنة فى نسك عجيب مع قدرة فائقة على الاطلاع ، اذ يقول عنها (٧) : « حولت الليل نهارا ، تفتش كتابات المفسرين القدامى ، قرأت ثلاثة ملايين سطرا لاوريجين ، ومليونين ونصف لاغريغوريوس واستفانوس وبيريوس وباسيليوس وغيرهم — من العظماء لم تكن تقرأ هذه مرة فقط ولا فى عجالة ، انما تدرس كل عمل فى دقة سبع أو ثمان مرات . وهكذا استطاعت بفضل هذه الكتب ، أن تتحول فى رجاء صالح الى طائر روحى منطلق نحو المسيح » (*) .

---

(٥) مخطوط يونانى لا يعرف واضعه ، ربما يكون بالاديوس .

(6) Chap, 46 , 54 . (7) Chap . 55 .

(*) عرض القديس بالاديوس فى كتابه « التاريخ اللوزياكى » لسيرة القديسة ميلانية الكبرى والتى يمكن تلخيصها فى الآتى :

كانت ميلانية احدى شريفات روما ، أسبانية المولد تزوجت بفاليريوس مكسيموس الذى يحتمل أنه كان واليا على روما عام ٣٦٢م . وفى سن الثانية والعشرين ترملت حيث كان معها ابنها الوحيد Publicola ، الذى لسبب أو لآخر تركته مع أهله فى روما ، وصار فيما بعد عضوا فى مجلس الشيوخ وتزوج بألبانيا ، فتاة مسيحية ابنة كاهن وثنى اسمه البينيوس . أنجبت ابنة دعتها على اسم جدتها « ميلانية الصغيرة » ، التى التهب قلبها بحب البتولية وتكريس حياتها للعبادة ، لكن والديها الزماها بالزواج فى الرابعة عشرة من عمرها لشاب فى السابعة عشرة . . . أنجبت طفلين فى كل مرة كان يموت الطفل ، غير أنه اثناء ولادتها للثانى تألمت جدا بل قاربت الموت الامر الذى جعل زوجها يقبل تكريس حياته معها ان عاشت ، وفعلا أنقذت حياتها أما الطفل فمات ، فعاشت مع زوجها فى البتولية . وقد استراح قلب والدتها

=

على أى الاحوال كسبت أولمبياس عنها روح القراءة والحكمة ، حتى قيل ان النساء الشريفات اللواتى كن يحطن بالامبراطورة تميزن بالخفة والاهتمام الزائد بالملبس مع السلوك الشرير أما أولمبياس فكنت تظهر بينهن الانسانة التقية الحكيمة .

هذه صورة أولمبياس وهى بعد فى السادسة عشرة من عمرها ، تحمل سمات طيبة مع غناها كما اشتهرت بجمالها ايضـــا ، فتقـدم لها نيبريدوس Nebridius والى القسطنطينية ليتزوجها (عام ٣٨٤) ، وكان بين المدعوين القديس غريغوريوس النزينزى ، الذى كتب اليهم يأسف لعدم حضوره مراسيم

وقلب زوجها للحياة النسكية ... وبعد وفاة زوجها انطلقت من روما لتنشىء فى جبل الزيتون جماعة من المتبتلات .

أما جدتها ، ميلانية الكبرى، فلا تعرف سر ترك ابنها الوحيد بروما .. لكنها حملت الكثير من الاموال الخاصة بها وابحرت الى الاسكندرية ، وهناك استبدلت زيها وذهبت الى جبل نتريا تقابل الآباء مثل بامبو واورسيسبوس وصرابيون الكبير وبفنوتيوس الاسقيطى واسيدور المعترف وديسقورس (أحد الاخوة الطوال) ، وبقيت تجول فى البرية قرابة نصف عام تطلب اللقاء مع القديسين . واذ نفى الوالى بعض الآباء مع اثنى عشر اســقفا وكاهنا الى فلسطين سافرت وراءهم وصارت تخدمهم من أموالها الخاصة ، واذ لم يسمح لهم بدخول خادمها Hylas اليهم لكى يخدمهم تزيت فى شكل عبد وصارت تحضر لهم احتياجاتهم كل مساء . واذ علم الوالى ان ســيدة تفعل هكذا ، دون أن يعرف شيئا عنها أراد تشويه سمعتها فألقى القبض عليها وأودعها فى السجن . للحال أرسلت اليه تخبره عن أصلها ونسبها ، فخجل واعتذر لها واكرمها .

واذ عاد الآباء الى بلدهم لنفسها ديرا فى أورشــليم ، عاشت فيه ٣٧ عاما أما لخمسين عذراء .

أما أعمالها الصالحة ــ فكما يقول بلاديوس (فصل ٥٤) ــ شهد لها الشرق والغرب ، الشمال والجنوب ، مارست خدمة الغرباء كل أيام حياتها وقدمت بسخاء للكنائس والاديرة كما اهتمت بالمساجين .

اذ سمعت بأخبار حفيدتها أبحرت اليها ، وهى فى الستين من عمرها تقضى عشرين يوما لتبلغ روما ... تشجع حفيدتها على التكريس الكامل لله، كما التقت بزوجة ابنها وكثيرات من الشريفــات وأزواجهن ، فكانت بركة فى روما ، تأثر بها كثيرون ، تاب كثيرون ، وانطلق البعض الى حياة الوحدة ..

جاء فى حديثها معهم : « يا أولادى الصغار ، لقد كتب منذ أربعمائة عام انها الساعة الاخيرة ، فكيف تشغفون بأباطيل الحياة ؟! احذروا لئلا تلحقكم أيام « الضد للمسيح » فلا تنعمون بثروتكم ولا ممتلكاتكم الموروثة عن أسلافكم»

الزواج بسبب شدة مرضه ، قائلا لها (٨) « بالرغم من مرضى فانى اشاركم الاحتفال ، اذ اربط يدى الشابة والشاب معا فى يد الله » ،كما أرسل للعروس قصيدة شعرية تحمل نصائح حكمية تدور حول أفكار ثلاث رئيسية تخص المراة المسيحية . ملبسها ، سلوكها مع زوجها ، عملها المنزلى .

فمن جهة الملبس اعترض بشدة على استخدام التجميل الصناعى والمبالغة الزائدة فى الملبس والتزين بالحلى الكثير الملفت للنظر دون أن يرفع من قيمة النفس ... لقد قال لها « ليكن الاتضاع هو همك ، فانه يجذب أنظار الناس اليك ، حتى ان كانوا مغمضى العين ! » .

اما عن سلوكها مع زوجها ، فقد كشف عن الدور العظيم الذى تستطيع أن تقوم به المراة فى حياة زوجها ، فهى تقدر أن تسكب عليه التعزية والسلام. فان كان كالاسد تستطيع بلطفها أن تروضه ، تقدر بوجهها الباش المملوء هدوءا أن تخلصه من الهموم . انها ملتزمة أن تشاركه أفراحه وأحزانه ...

اما عن عملها المنزلى ، فقد وضع لها برنامجا للحياة المنزلية البسيطة ، البعيدة عن الانشغال بالملاهى والمسارح والاندية وكثرة الزيارات والولائم ، لتتفرغ للقراءة (٩) ...

يقول بالاديوس (١٠) انها لم تبق مع زوجها الا أيام ، وقد قيل انها ماتت عذراء ، اذ لم تكن زوجة لانسان بل لـ « كلمة الحق » وحده . لكن البعض يقدر فترة بقائها مع زوجها بعامين (١١) ... على أى الاحوال لقد أحست اولمبياس أن الله قد سمح لها بالترمل لكى لا ترتبك بعد فى اهتمامات العالم ، بل تكرس حياتها ومالها لخدمة الله . لذلك عندما أراد لها الامبراطور ثيؤدوسيوس أن تتزوج من أحد أقرباءه البيديس Alpidius الاسبانى رفضت بشدة ، قائلة : « لو كان الله يريدنى أن أعيش زوجة لما أخذ منى تبريديوس!» واذ ضغط عليها استمرت فى الرفض ، فأمر أن توضع ممتلكاتها تحت الوصاية حتى تبلغ الثلاثين من عمرها . اما والى المدينة فأراد أن يشدد الضغط عليها لعلها ترضخ لطلب الامبراطور ، فمنعها من رؤية الاساقفة أو الاشتراك فى العبادة الكنسية ، أما هى فكما جاء فى سيرتها (١٢) « مثل غزال قفزت متخطية فخ الزواج الثانى » .

---

(8) Epis 193 PG 37 : 316 .

(9) Carmen ad Olympiadem v. 27 — 28 , 38 , 43 PG 37 : 1544 f1.

(10) Laus : His, ch . 56 . (11) N & PNF, p 287 .

(12) Vita I1I .

لقد كتبت الى الامبراطور ثيؤدوسيوس تشكره أنه رفع عنها نير تدبير اموالها ، وانه بالحرى يكمل سرورها بالاكثر لو أمر بتوزيع اموالها على الفقراء (١٣) . كان لهذا الخطاب اثره على الامبراطور خاصة وانها انطلقت فى الشرق تقضى اربعة أعوام لتعود بعدها تمارس الحياة النسكية فى غيرة متقدة . دهش الامبراطور فأعاد اليها ممتلكاتها (سنة ٣٩١) ورد لها حرية التصرف . اما هى فتقدمت للقديس نكتاريوس أسقف القسطنطينية تطلب تقديم كل حياتها لخدمة الله ، فرسمها شماسة وهى بعد صغيرة السن . فقامت بانشاء بيت للعذارى يقع ما بين كنيسة السلام وكنيسة آجيا صوفيا ، تجمع فيه العذارى والارامل اللواتى يردن خدمة الله .

تلألأت حياة الشماسة أولمبياس ، اذ فتحت قلبها لمحبة الفقراء بصورة ادهشت الكثيرين ، فقيل فى مديحها : « تسمع الامبراطورة افدوكسيا آيات الاكرام والتبجيل من كل بقاع العالم ، أما أولمبياس فتسمع تنهدات العالم كله ودعواته ! » .

صارت محبوبة من الشعب ومكرمة ايضا من الاب البطريرك ، فقد أخبرنا بالاديوس (١٤) أن الطوباوى نكتاريوس كان يكرمها جدا ويستشيرها فى بعض شئون الكنيسة رغم صغر سنها . وقد لخص لنا حياتها بقوله (١٥) : « وزعت كل مقتنياتها على المحتاجين . صارعت من اجل الحق، هذبت نسوة كثيرات ، تناقشت مع كهنة فى وقار ، كرمت أساقفة ، واستحقت أن تكون « معترفة » فى سبيل الحق ، فان الذين يعيشون فى القسطنطينية يحسبونها ضمن « المعترفات والمعترفين » ، اذ ماتت ورحلت الى الرب فى كفاحها من اجل الله » .

شركة عطاء ، وشركة الم !

ما أن تسلم القديس يوحنا رعاية شعبه حتى فتح قلبه كله بالحب نحو الفقراء ، فالتقى خلال « محبة الفقراء » بأولمبياس بكونها « أما حنونا للفقراء» ولعل هذا هو سر الارتباط القوى الذى توطد بينهما ، وزادته الايام قوة بانفتاح قلبها بالحب نحو المساكين والمتألمين . ان كان القديس يوحنا قد دعى (١٦) « بالكارز العظيم للصدقة » ، الذى صمم الا يكف عن ممارسة الصدقة والحث عليها كلما أعطيت له فرصة ، فقد وجد فى أولمبياس قلبا لا يعرف للعطاء حدا، حتى اضطر أن ينصحها بتقديم العطاء بحكمة فى اعتدال . فانها اذ وضعت فى

(13) Butler's Lives of the Saints, Dc . 17 .
(14) Dial . 17 . (15) Laus . His . 56 .
(16) N & PNF . p 27 .

قلبها أن كل ما تملكه هو للرب ، يليق بها الا تقوم بتوزيعه فى غير حكمة . يقول لها (١٧) : « على أى الاحوال ، انك تقدمين أموالك للقادرين ، وهذا غير مفيد لهم ، كأنما تلقين بها فى البحر . أما تعلمين أنك بارادتك قد كرست كل ما تملكين للفقراء من أجل الله ؟! يليق بك اذن أن تهتمى بثروتك بكونها ملك سيدك . اعلمى انك تعطين حسابا عن توزيعها ! » .

كان الاسقف الجديد أبا ومرشدا لها ، اخذ يشجعها على توزيع ممتلكاتها على الفقراء واقامة مؤسسات خيرية بالقسطنطينية، كما أعطته أن ينفق بسعة فى ارسال بعثات كرازية الى الفينيقيين بتلال لبنان وسوريا والى بلاد القوط والروس .

لقد فاحت رائحة حياتها المقدسة فاستراح لها كثير من القديسين . قال عنها الاسقف بالاديوس « انها امراة عجيبة ... تشبه اناء ثمينا مملوء بالروح القدس ! » .

حقا كانت اولمبياس سندا قويا للقديس يوحنا فى كثير من خدمته ، خاصة بين العذارى والارامل والنساء والفتيات ، وبصورة أقوى فى خدمة الفقراء ... من خلال هذه الخدمة توثقت روابط المحبة والصداقة بينهما كأسقف مع شماسته ، أو كشماسة مع ابيها الاسقف ، لم يفصلهما شىء ، حتى جاءت لحظات النفى ليفترقا بالقوة . التقى بها القديس مع زميلاتها قبيل خروجه للنفى ، واذ اسلم حياته لسلسلة من الآلام ، ذاقت هى أيضا من أجله الكثير من الضيقات ، فتلاقيا معا من جديد خلال « شركتهما فى الالم » ، فصارت بينهما رسائل محبة متبادلة ، مملوءة « تعزيات ايمانية حية » .

سر الصداقة

تعرف عليها القديس يوحنا فى الرب ، التقى بها كأسقف بشماسته تخدم اخوة الرب الاصاغر ، لذا كان يهتم أن يكتب اليها بلقبها الكنسى فى مقدمة رسائله ، اذ يقول لها :

« سيدتى الشماسة اولمبياس ، جزيلة الاحترام ، المحبوبة جدا من الرب . من يوحنا الاسقف ، سلام فى الرب ... » .

وقد جاءت رسائله اليها من منفاه تكشف لنا سر هذه الصداقة القوية التى قامت بينهما خلال الخدمة فى الرب ، انها تقوم على أسس ثلاث (١٨) : محبته لها ، واعجابه بها ، وثقته فيها .

---

(17) Soz 8 : 11 .

(18) Sources Chret, vol 13 bis, Introd .

١ — محبته لهـا :

امتاز القديس يوحنا ، مع شـدته وحزمه الذى كان أحيانا يصـل الى العنف ، بمحبته العميقة لمن يلتقى بهم وبرقة مشاعره ، واتساع قلبه .

نستطيع ان نتلمس هذه الاحاسيس فى اغلب رسائله التى بعث بها الى اساقفة وكهنة ورهبان وشمامسة وعلمانيين ، فقـد جاءت — وهو يطحن فى مرارة المر — مملوءة حبا ولطفا . على سبيل المثال نقتطف مما كتبـه لبعض الكهنة بانطاكية (١٩) :

« فى المال ، من يدفع يفتقر ومن يأخذ يغتنى . أما فى الطمع بالمحبة فالامر غير ذلك . فان من يدفع (حبا) لا يفقده كما فى المال بل يعود الى معطيه ! دفع الحب يجعل العاطى أكثر غنى من ذى قبل !

اذ تعرفون هذه الامور ، ايها السادة المكرمون والورعون ، لا تكفـوا عن أن تقدموا لى هذا (الحب) على الدوام ...

ومع انكم لستم فى حاجة الى نصحيتى هذه ، انما اذكركم بها من أجـل تعطشى الشديد الى حبكم ... » .

هذه المشاعر ظهرت بصورة أعمق خلال علاقته المتبادلة مع شماسته أولمبياس ، يظهر ذلك من تلهفهما على الاطمئنان على بعضهما البعض ، كـل منهما يود ان يعرف اخبار الآخر الروحية والنفسية والصحية بكل دقة .

يكتب ليها قئالا :

ولا يمكن أن يضايقنى الا شىء واحد ، هو أن اكون غير متأكد تماما انك فى حالة طيبة (٢٠) » .

« اذ لم أستلم من سموك تألمت كثيرا (٢١) » .

« ابعثى الى اخبار صحتك دائما ، فانك تعرفين بالحقيقـة أن تعزيتى تكون كبيرة جدا فى وحدتى عندما اعرف عنك انك دائما فى أحسن حال » .

« ان أردت ان اكتب اليك رسائل مطولة اخبرينى ، لكننى أتوسل اليك الا تخدعينى بالقول انك قـد القيت عنك كل قنـوط ، وانك تتمتعين بفترة من الراحة ، فان الرسائل هى علاج مناسب يهبنى فرحا من جهتك .

سترين دوما رسائل مستمرة من جهتى !

---

(٢٩) كاستوس وفالبريوس وديوفانتوس وقرياقوس .
N & PNF , s . 2, vol 9 , p 304 .
(20) Ep 11 : 1 . (21) Ep 10 : 1 .

عندما تكتبين الى ثانية لا تقولى « أنى اجد راحة كثيرة فى رسائلك » ، فأنا أعلم هذا من نفسى ، لكن أخبرينى انك تأخذين ما اتوقه لك : الا ترتبكى بالحزن ، ولا تقضى أوقاتك فى البكاء ، بل فى هدوء وفرح (٢٢) » .

لم تقف هذه المحبة عند المشاعر المتبادلة ، لكنها فى جوهرها هى «تلاق معا فى شخص السيد المسيح » ، كل يهتم بالآخر فى المسيح يسوع ومن اجل الكنيسة !

كان القلبان مرتبطين معا فى انطلاقهما نحـــو الابدية ، لكنها كانســانة تخشى على « أبديتها » فوق كل اعتبار يبدو أنها أرسلت تسأله لئلا يكون حزنها على فراقه ، واهتمامها بحالته الصحية والظروف المحيطـــة به ، فيه ضعف روحى .

ربما سر هذا التســاؤل الاقاويل الكثيرة التى اثارها بعض الاعداء ضدها بسبب التصاقها به ، فأرسل اليها فى شىء من الاطالة يقول (٢٣) :

سيرونك شريكة فى الميراث السعيد ، مكللة ، ومترنمة مـــع الملائكة ، تملكين مع المسيح ! أما هم فيصرخون كثيرا ويولولون نادمين على كلام الطيش الذى أطلقوه ضدك . سيتضرعون اليك ويلجأون الى تقواك ومحبتك ، لكن هذا كله يكون بلا جدوى ...

انا أعرف انك تتألمين ، لا بسبب هذا فحسب ، بل لانك انفصلت عـــن العدم الذى هو « أنا » ، وانك تنتحبين بغير توقف ، قائلة للجميع : « لم نعد نسمع هذا الصوت ، ولا ننعم بتعاليمه ألتى اعتدنا عليها . لقد أصابنا الجوع . ما هدد به الله العبرانيين قديما نحتمله نحن الآن وهو الجوع لا الى الخبز ، والعطش لا الى الماء ... بل الى التعاليم الالهية .

بماذا اجيب ؟ فى امكانك ان تعيشى مع كتبنا اثناء غيابنا . وسأبذل كل الجهد ان وجدت فرصة ان ارسل لك رسائل كثيرة مطولة . اما اذا رغبت فى سماع صوتنا ، فربما يحين الوقت لتحقيق ذلك وترينا أيضا بمعونة الله ...

ان كان الانتظار يؤلمك ، فاعلمى أن هذا لا يكون بدون فائدة ، بل يهبك مكافأة عظيمة ان احتملتيه بنفس قوية ، ان كنت لا تتفوهين بكلمة قاسية بل تمجدين الله فى ذلك الامر .

---

(22) Ep 1 : 5. (23) Ep 2 : 10.

قامت الاخت المباركة عايدة حنا بسطا بترجمة النص الفرنسى .

حقا ان النضال فى احتمال فرقة انسان عزيز علينا ليس بالامر الهين ، بل يتطلب نفسا مملوءة شهامة ، وفهما مملوء حكمة !

من يقول هذا ؟ ان كان الانسان يعرف كيف يحب حبا عميقا ، ان وجد الانسان الذى يعرف قوة الحب ، مثل هذا يفهم ما أريد أن أقوله .

ولكى لا نتأخر فى البحث عن اناس محبين بالحقيقة ، اذ هم حقا نادرون فاننى أسرع الى بولس الطوباوى ، الذى يخبرنا ماهية هذا النضال ، وما هو سمو النفس التى تتطلبه ؟

بولس هذا العجيب ، الذى بذل لحمه ، وانكر جسده ، الذى جال فى كل الارض يحمل نفسه وحدها (كأنها بلا جسد) ، وقد ألقى عنه كل هــوى ، وامتثل بالقوات الروحية (العلوية) بايمانه ، وقطن فى الارض كما فى السماء وارتفع مع الشاروبيم ، واشترك معهم فى التسـبيح السـماوى ، واحتمل الالام ... تألم وكأنه يتألم فى جسد غير جسده ، سجن ، وقيد بالسلاسل ، وقبض عليه ، وجلد بالسياط ، وهدد بالموت ، ورجم ، والقى فى البحر ، وذاق كل انواع العذابات ، **بولس هذا عندما ابتعد عن نفس عزيزة عليه اضطرب وتكدر** ، حتى هرب من المدينة التى لم يجد فيها من كان يتوقع أن يراه هناك .. لقد عرفت ترواس هذا الامر ، فقد تركها لذات السبب ، اذ لم تقدر أن تقدم له صديقه . « ولكن لما جئت الى ترواس لاجل انجيل المسيح و نفتح لى باب فى الرب ، لم تكن لى راحة فى روحى لانى لم أجد تيطس اخى ، لـكن ودعتهم فخرجت الى مكدونية (٢٤) » .

ما هذا يا بولس ؟ أنت الذى قيدت ... ودخلت السجن ، وحملت آثار السياط فكأن ظهرك لا يزال ينزف دما ... انت الذى كنت تعمد وتقدم الذبيحة ، انت الذى لم تحتقر انسانا واحدا يحب أن يخلص ، عندما بلغت ترواس ورأيت الارض صالحة للزرع ، ومستعدة للبذر ، والصيد كثير وسهل ، القيت من بين يديك هذا المكسب الهام الذى من اجله أتيت !

تقول « لاجل انجيل المسيح » بمعنى انه لا يقف أحد فى طريقك من اجل نجيل المسيح ، تقول « انفتح لى باب فى الرب » ، ومع هذا تهرب سريعا ؟

نعم ، بالتأكيد لقد سقطت تحت سطوة الحزن ، فان غياب تيطس قـد آلمنى كثيرا . غلبنى الحزن وسيطر على حتى وجدت نفسى مضطرا لهذا .

لقد شعر بذلك بسبب حزنه . لسنا نقول هـذا توهما من انفسنا انما

---

(٢٤) ٢ كو ٢ : ١٢ .

هو يعلمنا ذلك ، اذ كشف سر خروجه بقوله « لم تكن لى راحة فى روحى لانى لم أجد تيطس اخى ، لكن ودعتهم فخرجت » .

هل نظرت صعوبة التجربة حينما نضطر أن نحتمل بهدوء الانفصال عمن نحبهم ؟ ...

هذا هو نضالك الحالى ! ولكن كلما اشتدت الحرب زادت المكافأة ، وتلألأت الاكاليل ! ليكن هذا هو تعزيتك فى انتظارك ! ...

الذين يحبون بعضهم بعضا لا يكفيهم الارتباط بالنفس لتعزيتهم بل هم محتاجون الى وجودهم معا بالجسد . وان لم يوهبوا ذلك ينقصهم الكثير من سعادتهم ...

ان رجعنا الى بولس الطوباوى لوجدنا ذلك (اللقاء الجسدى) أسمى غذاء يسند الانسان أثناء المحن ، اذ يقول فى رسالته الى أهل تسالونيكى (٢٥) « وأما نحن ايها الاخوة اذ **قد فقدناكم زمان ساعة بالوجه** لا بالقلب اجتهدنا اكثر باشتهاء كثير ان نرى وجوهكم . لذلك أردنا أن نأتى اليكم انا بولس مرة ومرتين ، وانما عاقنا الشيطان ... لذلك اذ لم نحتمل أيضا استحسنا أن نترك فى أثينا وحدنا فأرسلنا تيموثاوس أخانا وخادم الله ... » .

يا لقوة كل كلمة ! فهى تظهر شعلة حب كانت تشرق فى نفسه بقوة . فانه لم يقل « انفصلنا » أو « انتزعنا » أو « تفرقنا » أو « تركنا » ، بل يقول « **قد فقدناكم** » . لقد وجد الكلمة الصحيحة ليشير الى حزن نفسه (أنه فى حالة يتم) . فمع كونه يحمل أبوة للجميع لكنه يستخدم لغة الانسان اليتيم الصغير الذى فقد من وهبه الحياة مبكرا ، مشيرا بذلك الى فرط حزنه .

ليس اصعب على الاولاد من اليتم المبكر ، اذ لا يقدرون أن يصنعوا شيئا بمفردهم ، ولا يجدون من يحميهم من المهاجمين لهم فان جيشا من الناس يهاجمونهم وينصبون لهم الفخاخ ، فيصيرون كحملان وسط ذئاب ، تمزقهم من كل جهة ، وتقطعهم اربا . ليس من يقدر أن يصف بالكلام مقدار هذه الكارثة . لذلك تردد بولس باحثا عن تعبير يعلن به عن الترك وشدة الالم ، فاستخدم هذه الكلمة مظهرا ما تألم به بانفصاله عمن يحبهم . وقد سند العبارة بقوله « اذ قد فقدناكم زمان ساعة بالوجه لا بالقلب » . فان كنا لا نحتمل الالم الناجم عن ذلك ، لكن لنا تعزية كافية اننا مرتبطون بالنفس ، نحملكم فى قلوبنا . لقد سبق أن رأيناكم عن قريب (زمان ساعة) . لكن شيئا من هذا لا يقدر أن ينقذنا من الالم .

---

(٢٥) ١ تس ٢:١٧ ، ١٨ ، ٣:١ ، ٢ .

لكن ، ماذا تريد ؟ ماذا تشتهى بشدة ؟ رؤيتهم ! « اجتهدنا أكثر باشتهاء كثير أن نرى وجوهكم » .

ماذا تقول ، أنت الانسان الكبير والعظيم ؟ أنت الذى صلب العالم لك وأنت للعالم (٢٦) ، أنت الذى تركت كل ما هو جسدى ، أنت الذى كمن بلا جسد . بلغت هذه الدرجة من العبودية فى الحب حتى اندفعت بهذا الجسد الترابى ـ المصنوع من الطين ـ الذى تراه !

يجيب : نعم ، انى لا أخجل من أن اعترف بذلك ، بل افتخر ، اذ احمل فى داخلى محبة عظيمة ، هى أم كل الفضائل .

هذا ما أبحث عنه ، فهو لا يبحث عن اللقاء الجسدى فحسب بل ويشتهى بالاكثر أن يرى وجوههم .

« اجتهدنا أكثر ... أن نرى وجوهكم » ! نعم يقول هكذا اذ فيه تتجمع أعضاء الحس . فالنفس وحدها اذا ما ارتبطت بنفس أخرى لا تقدر أن تنطق بشىء ولا تسمع شيئا . أما اذا تمتعت بالوجود الجسدى ، فانى اتكلم بشىء وأسمع من احبهم . لهذا أشتهى رؤية وجوههم . فباللسان ينقل الصوت الذى يعبر عن المشاعر الداخلية . والاذنان تستقبلان الكلمات ، وبالعينين تترجم حركات النفس . بفضل هذا كله استطيع أن استمتع بالنفس المحبوبة بطريقة أعظم باللقاء الجسدى ...

ولكى يؤكد محبته أكثر من الآخرين عندما قال « اجتهدنا أكثر باشتهاء كثير أن نرى وجوهكم » انفصل عن الآخرين وتقدم بمفرده قائلا « أنا بولس مرة ومرتين ... » مشيرا بهذا أنه أسرع من غيره ...) .

+ + +

٢ ـ اعجابه بها :

استطاعت اولمبياس أن تشد انظار الكثيرين بجمال حياتها الروحية ، وكان أول هؤلاء الاسقف يوحنا ، الذى عرفها عن قرب كشماسة صريحة تتلمذت على يديه وكانت تعينه فى كثير من أعماله الرعوية .

لقد أعجب بها اشد الاعجاب كما شهدت بذلك رسائله لها ، خاصة رسالته الثامنة ... فقد كتب اليها يمدحها ، يتفجر كل سطر منها بالاعجاب الفائق بها ، حتى ليكاد يضعها فوق كل مستوى بشرى ، ويرتفع بها الى ملاك متشبه بالبشر .

---

(٢٦) غل ٦ : ١٤ .

اما سر مديحـه لها فهو ظروفها القاسية : فقـد ذاقت الاضطهادات المتلاحقة بسببه والاهانات والشتائم ، كما حملت جسدا امتلأ بالامراض ، أما ما احزن نفسها واسقطها فى انين مستمر مفرط كاد أن يهلكها فهو احساسها بالظلم الجائر المتزايد ضد أبيها القديس المنفى والمستبعد عن شعبه ، كمـا انكشفت لها ضعفات أساقفة ورهبان وكهنة ورجال بلاط وعلمانيين فأحست بهلاك كثيرين ...

أحس القديس يوحنا بالالتزام الروحى والادبى أن يكتب لها يحذرها من « الحزن المفرط » على الكنيسة وعليه وعلى هلاك الآخرين ، مميزا بين الحزن المفرط أو القنوط وبين « المخافة المقدسة المملوءة رجاء » كما اضطر أن يمدح فضائلها لكى يغير نظرتها ويوجهها نحو المكافاءات السماوية ...

سجل لنا القديس يوحنا اعجابه بها فى بلاغته المعهودة ، فجاءت حياتها الروحية مبالغا فيها (٢٧) ...

« هذا الحزن ، علاوة على أنه باطل ومفرط فهو أيضا ضار ومهلك . أما المخافة التى حدثتك عنها فهى هامة ونافعة وبناءة ، هى ينبوع فوائد كثيرة .

انى لم اكتف ان تيار الكلام قد جرفنى ، فقدمت اك نصائح لا تتناسب معك ، فان مثل هذا الحديث نافع لى ولغيرى ممن جرفهم تيار الخطية ... أما انت فقد تزينت بأعمال الفضيلة العظيمة . لقد لمست قبة السـموات ، لذا فهذا الكلام ليس لك . انى سأغير الحديث لانطق بنغمة جديدة . فان الخوف لا يمكن أن يصل اليك الا بالقدر الذى يصل به الملائكة .

انى اغير طريقة حديثى ، وانت ايضـا فلتغيرى الموضـوع . تذكرى مكافاءات أعمال فضائلك العظيمة ، والاكاليل المتلألئة ، وصفوف العذارى ، والقصور المقدسة ، وجمال العروش فى السموات ، والحيـاة مع الملائكة ، وصحبة العريس ، وموكب النور العظيم ... الامور التى تفوق اللغة والتفكير

لست اخطىء التفكير ان احصيتك فى **مصاف العذارى الحكيمات** مع انك ارملة ... ليس من يقدر أن يمنعك عن المثول فى مصـاف العـذارى ، لا بل فقتيهن كثيرا » . فقد أظهرت فى مجالات اخرى حكمة عظيمة ، لذلك عنـدما عرف بولس البتولية اطلق لقب « عذراء » لا على من لم تعرف الزواج وابتعدت عن العلاقة برجل ، بل على تلك التى يتركز حبها فى أعمال الرب . وقد أشار السيد المسيح نفسه الى افضلية العطاء فوق البتولية ، وها انت تحملين لواء

(27) EP 8 : 3 — 10 .

العطاء وتلبسين تاجه . لقد اخرج السيد نصف العذارى لانهن لا يقدمن عطاء ... انه يقبل الذين غلبهم العطاء بمجد عظيم ، ويدعوهم « مباركى ابى » ... انه لا يتردد عن أن يقول لهم أمام الملائكة وقدام الخليقة كلها انهم أطعموه وآووه .

انت ايضا ستسمعين هذا القول المحيى ، ستسعدين بهذه المكافاة التى توهب لك بوفرة ...

يلزمك ان تبتهجى ، تثبى فرحا ، ترقصى طربا ، لا ان تمزقى نفسك لان هذا قد أسلم نفسه لعمل جنونى وذاك اندفع من العلو الى الحضيض ، لئلا بهذا تفتحى روحك الطاهرة ليدخل فيها الشيطان الذى لم تكفى عن محاصرته حتى اليوم .

كيف اصف صبرك فى اوجهه المختلفة ، واشكاله المتباينة ، وصوره المتعددة ؟

اى مقال يمكن ان يكفى للحديث عن هذا كله ؟ فانه يطول بنا الحديث عن آلامك منذ نعومة أظافرك حتى الآن : آلام من الاقارب وآلام من الغرباء ، آلام من الاعداء ، آلام من الذين ترتبطين بهم منذ ميلادك، وآلام من الذين لم ترتبطى بهم ، آلام من العظماء ، وآلام من الفقراء ، آلام من الحكام ، وآلام من المسئولين ، وآلام من رجال الاكليروس ...

ان الحديث عن كل تجربة من هذه التجارب بالتفصيل يكفى لتسجيل تاريخ كامل .

ان اردنا ، فلننظر الى هذه الفضيلة « الصبر » من جانب آخر ، وهو احتمال آلام فرضتيها على نفسك وليست من عمل الآخرين ... لقد حاصرت جسدك الرقيق المشاعر ، الذى تربى فى يسر من كل جانب ، بآلام مختلفة الاشكال ، حتى لم يعد اكثر من جثة هامدة ...

اى لغة يمكن ان يعبر بها من يود أن يسجل حزمك وسيطرتك على نفسك امام المائدة والنوم ؟! ... لقد بلغت بالسيطرة على ذاتك حد الاماتة. فلميعد الترفه يحاربك ولا انت تتعبين فى السيطرة عليه بل لقد حطمتيه تماما ... لقد دربتى معدتك على الاكتفاء فى المأكل والمشرب بكمية تكاد تكون كافية لمجرد عدم موتك ... فانى لا ادعو هذا نسكا ولا سيطرة على النفس بل هو شيء أعظم .

هذا أيضا ما نراه فى سهرك المقدس ، فقد اخضعت الرغبة فى النوم باخضاعك الرغبة فى الطعام ، لان كثرة الطعام هى غذاء لكثرة النوم .

كذلك هدمتى الرغبة فى النوم بطريق آخر ، اذ تدربتى منذ البداية ان

تكونى قاسية على الطبيعة ، تمضين ليالى كثيرة بلا نوم وبالتمرين الطويل صارت هذه العادة (السهر) طبيعية . فكما ان النوم هو طبيعى بالنسبة للآخرين ، هكذا السهر بالنسبة لك . . .

انى أود الا انحرف عن الموضوع الذى وضعت على عاتقى أن ابلغ اليه وأنا وسط بحر بلا حدود . فانه لو لم أهدف الى انتزاع الحزن من داخل نفسك من جذوره ، لسعدت بالاطالة فى الحديث عن فضائلك ، اركب هذا البحر الذى لا يعرف حدودا ، حيث تتفتح لى طرق كثيرة لكل فضيلة ، كل طريق يدخل بنا من جديد فى بحر آخر : صبرك ، اتضاعك ، صدقتك بأشكالها الكثيرة التى انبسطت الى أقاصى الارض ، الرحمة التى أشعلتيها كألف اتون ، الفهم المتناهى المملوء نعمة فائقة للطبيعة . . .

اذ أختار بعض التفاصيل الخاصة **بمظهرك وملابسك** ، فانك تظهرين بساطة بغير تأنق . هذه الفضيلة التى تبدو كأنها اقل من غيرها ، لكن من يدقق فى الامر يجدها فضيلة عظيمة ، تكشف عن نفس مملوءة حكمة قد وطأت تحت قدميها الامور الزمنية جميعها وتنطلق طائرة نحو السماء عينها ! . . .

يعوزنى ألف لسان لانادى باسمك من أجل بساطة مظهرك . . . اذ تعيشين هكذا بيسر وسهولة . . .

انى أعجب بهذه البساطة ، لا تحملين ما يلفت النظر ، لا فى ثيابك ولا فى حذائك ولا فى مشيتك . . . هنا تظهر كل الوان الفضيلة التى عبرت الى الخارج ، تعلن عن الحكمة الكامنة فى داخلك . . .

من أجل هذا ندعوك مطوبة — نعجب لابتعادك عن كل هذه الامور (الزينة الخارجية) . صرت مثلا للنسك بغير تزين . . .

كما سبق أن قلت أخاف أن ادخل بحر فضائلك غير المتناهى . لقد وضعت فى نفسى لا أن أمدح نفسك المقدسة أنما مجرد اقدم لك دواء التعزية. لنرجع الى ما سبق أن قلناه قبلا . ماذا قلت ؟ امتنعى عن تساؤلاتك . ما هى خطية هذا ، وما الذى اقترفه ذاك ؟ . . . انما أذكرى دوما فضائلك المستمرة : صبرك واعتدالك وصلواتك وسهراتك المقدسة وسيطرتك على ذاتك وعطفك وحسن ضيافتك وتجاربك المتنوعة . أذكرى أنك منذ بدء شبابك حتى اليوم لم تكفى عن تغذية السيد المسيح عندما يكون جائعا ، وارواته عندما يكون ظمآنا وكسوته عندما يكون عريانا ، واستقباله عندما يكون غريبا ، والسهر عليه عندما يكون مريضا ، والذهاب اليه عندما يكون مسجونا .

تأملى عطفك الذى هو كالمحيط ، أنفتحت مصاريعه الى أقاصى المسكونة ، وانتشر بقوة عظيمة ، فانك لم تكتفى بفتح بيتك لكل آت ، بل فى كل بقعة فى الارض والبحر تمتع كثيرون بكرمك . . .

اذ تجمعين مثل هذه الافكار افرحى وتهللى فى رجاء نوال هذه الاكاليل والمكافآت » .

٢ ــ ثقتــه فيهــا :

كشفت رسائله عن مدى ثقته بشماسته أولمبياس أكثر من أفضل أصدقائه، فهو يتحدث معها فى أدق أموره الشخصية ، كما يوكل اليها بمهام متنوعة لانها قادرة أن تتحمل المسئولية .

لقد كتب اليها (٢٨) « اهتمى برسائلى بكل الطرق ، وان كان الكاهن هيلاديوس ليس فى مكانه ، اعملى على ارسالها الى أصدقائى بيد انسان حكيم وواع » . فانه ليس سهلا فى مثل هذه الظروف أن يوجد الانســـان الشجاع والحكيم ، والذى يعرض نفسه للكثير من المخاطر باستلام وتسليم رســـائل انسان منفى .

ولا يقف الامر عند هذا الحد ، بل نجده يوكل اليها أمرا دقيقا ، أن تهتم بالنفوس التى تحطمت أو انحرفت بسبب الضيق والاعداء ، فيقول لها فى ذات الرسالة (٢٩) « لا تكفى عن الاهتمام بالاسقف ماروثاس Maruthas ، كأنمـــا تهتمين بنفسك . انقذيه من الهاوية . . . ليكن هذا هو شغلك الشاغل » .

كما يعهد اليها فى ذات الرسالة أمرا يراه فى منتهى الخطورة ، وهو أن الاسقف الذى سبق أن رسمه على بلاد القوط قد تنيح وأن محاولات رســـامة أسقف جديد كانت تسير بطريقة خاطئة ، فكتب اليها يحـــدثها فى هـــذا الامر ببلاغته كصديق يحدث صديقه فى أمر جاد وخطير حيث يستطيع الصديق أن يعمل الكثير ، فيكتب لها عن تفاصيل كثيرة تخص شروط الاسقف الذى يسام للقوط ، وخطورة سيامة أسقف غير مؤهل لهذا العمل . . . طالبا منهـــا أن تبذل كل جهدها أن ترجىء الرسامة بطريقة خفية لا يشعر بها أحد .

لقد أظهر ثقته فيها بما سجله لهـــا من تفاصيل عن تصرفات أســـقف القيصرية فارتريوس Pharetrius ورهبانه معه ، وقسوتهم عليه ، دون أن يخشى عليها من العثرة .

كتب اليها أيضا عن تصرفات بعض كهنة الاسقف ، الذين أعلنوا ولاءهم للقديس يوحنا، الامر الذى يعرض حياتهم للخطر . . . لذا يكتب اليها قائلا (٣٠) « لا يعلم أحد غيرك هذا » ، « احتفظى بهذا لك » .

أخيرا فانه يطلب منها أن تتكشف نيات خصومه وحيلهم لاحباط خططهم حتى يعود الى كرسيه ، ولما فشلت طرقها فى أمر عودته كتب اليها يشـــجعها أنها بذلت ما فى وسعها ، وأن الله يريد له ذلك لمضاعفة جزائه (٣١) .

+ + +

---

(28) Ep . 14 : 5 .
(29) Ibid.
(30) Ep . 14 : 1 .
(31) Ep . 4 : 1 .

طريق الآلام

ان كان القديس يوحنا الذهبى الفم قد استطاع ان يجذب جماهير المؤمنين والهراطقة والوثنيين الى الكنيسة ببلاغته ونقاوة حياته الداخلية ونسكه ، فانه بدخوله « طريق الآلام » كتب لهذه الكرازة ان تحيا . نستطيع فى غير مبالغة ان نقول أن ما كرز به القديس باحتماله الآلام ، خاصة وهو مستبعد فى منفاه ، أعظم بما لا يقاس عن كل اعماله المنبرية والكتابية .

لقد أدرك القديس يوحنا ذلك ، فكتب الى شماسته أولمبياس يصف لها مرارة الاضطهاد والضيق الذى يعيشه فى منفاه ، قائلا لها (١) « انى أطير فرحا ! انى اثب مبتهجا من اجل انى اخزن كنزا عظيما » .

سر نجاح القديس يوحنا دخوله طريق الآلام ، مختفيا فى صليب سيده ، يجتاز من الم الى الم ، ويرتفع من ضيق الى ضيق ، لا ليعبر فى احداث عارضة فى حياته ، بل ليعيش جوهر الحياة المسيحية الحية والعاملة ، حتى جاءت سنواته الاخيرة كتلة نيران الم ملتهبة ، تكشف جمال حياته الداخلية، وتضفى عليها بهاء خاصا ... حتى يشرق على العالم ببهاء الكرازة العملية الصادقة ، حتى وان كان مستبعدا عن شعبه وغنم رعيته .

لقد حاول البعض أن يتهم شخصيته كأحد العوامل التى دفعت به فى هذه الآلام ، أو على الاقل اسرعت بالآلام اليه ، أو شددت من حدتها ... فقد رأى البعض فيه كارزا ناجحا تعرف على الطبيعة البشرية ولمس ضعفاتها وترفق بها ، فكان حديثه مع شعبه ممتزجا بين الحب والواقع ... لكنه غير قادر على التعرف على الافراد كأفراد ، فلم يكن — فى رأى البعض موفقا فى اعطائه كل ثقته للشماس صرابيون التقى الورع ، واعتماده عليه فى أمور كثيرة تخص علاقته بالاكليروس . كما انتقده البعض لعجزه عن كسب صداقة

(1) Ep. 14 : 1.

الامبراطور والامبراطورة ورجل الحكم والاكليروس ، فقد كان لاذعا فى نقده لهم أو توجيههم ، وكان متعجلا فى اصلاحهم !

انتقده البعض فى استخدامه المنبر لتعنيف الامبراطورة على وجه الخصوص وغيرها من المسئولين المدنيين او الكنسيين ، فكان يمكن أن يلتقى بهم خارج دائرة المنبر ، ولا ينزل بكل مشكلة الى القاعدة الشعبية ، التى تثير الشعب وتملأ المنتقدين حقدا . وان كان قد علل البعض سر استخدامه المنبر فى مثل هذه المواقف بأنها مواقف تلمس حياة العامة ، وتؤثر على سلوكهم .

على اى الحالات لست أود الدخول فىدراسة نقدية لهذه التصرفات قبلما نتعرض للاحداث ذاتها . . . اما ما أود أن ألفت النظر اليه فهو :

١ — الكنيسة فى تعلقها بالقديسين لا تؤمن بعصمتهم من الخطأ . . . هم مقدسون فى الرب ، يسلكون بالروح ، لكنهم ليسوا بغير ضعفات . . . انهم فى حالة توبة مستمرة !

٢ — الله فى محبته يسمح باظهار بعض ضعفات كبار القديسين ، ربما ليكون هذا بمثابة شوكة تنخسهم على الدوام فلا يتعالون ، لكن فى نفس الوقت يحول الله هذا الضعف لبنيانهم ولخير الكنيسة ومجد أسمه القدوس .

لهذا نستطيع ان نقول انه اذا كان فى بعض تصرفات القديس يوحنا ماقد اسرع به الى مرارة الالم . ان صح هذا القول — فان فترة آلامه دخلت به الى « شركة أعمق مع الله » مقدما لنا خبرة حياة فى المسيح يسوع ، لم تستطع بلاغة لسانه او موهبة قلمه التعبير عنها .

لقد شعر القديس يوحنا بثمار الالم فى الخدمة فكتب الى شماسته اولمبياس يطمئنها أنه وان كانت الآلام قد اشتدت جدا ، والظلام صار حالكا ، وأمور الكنيسة صارت مؤسفة . . . لكن التجارب قد أثمرت كثيرا . . . ، يقول (٢) :

« ان كانت التجارب المتعاقبة قد أرجأت بناء الكنيسة ، لكن الذين كانوا يوما ما متعثرين صاروا يسلكون الآن باستقامة ، والذين كانوا ضالين قد رجعوا ، والاماكن التى كانت محطمة بنيت بأكثر ثبات عن ذى قبل ! » .

« انى أبتهج ، أثب فرحا ، ارفرف من البهجة ! لم اعد اشعر بالوحدة ولا بكل المتاعب المحيطة بى . لقد صرت متهللا ومبتهجا ، صار لى فخر ليس

(2) Ep . 1 : 5 , Ep . 6 .

يقليل من جهة عظمة نفسك ونصراتك المتتالية ، **لا لحسابك وحدك انما لحساب تلك المدينة العجيبة المزدحمة** (القسطنطينية) .

صرت (بالآلام) تشبهين قلعة ، ميناء ، حصنا للدفاع ! صار حديثك بلغة « المثال العملى » اللغة العظيمة !

بآلامك قدمتى لكلا الجنسين طريق السير بخطوات ثابتة نحو النضال لينزلوا حلبات المصارعة بكل شجاعة ، محتملين بفرح ما يلحقهم من اتعاب اثناء نضالهم ....

لذلك فانك يا سيدتى اللطيفة تستحقين اعجابا فائقا ...

انى أفرح ، اثب مبتهجا ! ولا اكف عن أن اكرر هذا القول ، حاملا معى مادة فرحى فى كل موضع ، فان كان انفصالى عنك قد أحزنك ، لكنك تقدمين هذه التعزية العظيمة التى هى بفضل مآثرك الناجحة ، حتى أننى انا أيضا الذى نفيت الى مسافة بعيدة هكذا اقتنى فرحا ليس بقليل من هذا الامر — اقصد بذلك شجاعتك ! » .

هذا هو عمل الالم فى حياة اولاد الله ، لذا نود العبور على الآلام التى عاشها القديس يوحنا عبورا سريعا ، حتى ندخل معه الى منهجه فى الالم من جهة طبيعته وبركاته .

+ + +

١ — القديس يوحنا ورجال الاكليروس

يقول المؤرخ سوزومين (٣) عن القديس يوحنا : « ما ان اعتلى المنصب الاسقفى حتى كرس اهتمامه الاول لاصلاح حياة الكهنة . فقد اخذ يستنكر طرقهم ومآكلهم وكل منهج سلوكهم ، مصلحا هذا كله ... » .

ان كان الاسقف الجديد قد استطاع بغيرة قلبه أن يجذب الكثير من شعبه لكن هذا الامر كان صعبا أن يحدث فى رجال الاكليروس ، بل على العكس أدت شدة اهتمامه بهم ورغبته فى الاسراع باصلاح حياتهم الى فتور علاقة الكثيرين به ، بل بلغ الامر احيانا الى الاحتداد بينهم خفية وأحيانا علانية . فقد جاء القديس يوحنا ليجد القصر الامبراطورى يناصب القصر الاسقفى ، وقد انفتحت السياسة على الكنيسة ، واختلط الاساقفة برجال الحكم ، فتحولوا عن عملهم الروحى الرعوى الى حياة الترف والبذخ ، مترددين على البلاط ، يتنافسون على التقرب والتودد لاصحاب السلطة ... هذه الصورة لم يحتملها الاسقف الجديد ، فبدأ فى اصلاح الموقف يوبخ وينتهر ، بل واحيانا يطرد من الكنيسة ، الامر الذى سبب له الكثير من المتاعب .

(3) Sozomen 8 : 2 (Soc . 6 : 4 , Theod . 5 : 28 , Pallad : 5).

عاب البعض عليه فضحه اخطائهم بطريقة علنية ، كما سمح أن يلتف حوله البعض مثل شماسة صرابيون الذى كان عفيفا ناسكا وغيورا على خلاص الناس ، لكنه أساء الى أسقفه فى بعض تصرفاته .

يقول المؤرخ القسطنطينى سقراط (٤) : « كان يوحنا فى مسلكه مع كهنته معتدا بنفسه لكثر من اللازم ، وذلك بقصد اصلاح سلوك من هم تحت سلطانه ، فأثار بذلك غضب رجال الكنيسة فأبغضوه ، وتباعد كثيرون عنه، لانه كان حاد الطبع ، كما تحول البعض الى الد أعدائه .

كان صرابيون ، وهو شماس من حاشيته ، علة تزايد تباعدهم عنه . فقد حدث مرة أن صرخ بأعلى صوته ، مخاطبا الاسقف فى حضرة كل الكهنة المجتمعين معا ، قائلا : لن تقدر يا سيدى أن تضبط هؤلاء الرجال ان لم تحكمهم بالعصا . وقد أثار هذا القول شعورا بالعداء نحو الاسقف ، وفعلا لم يمض وقت طويل حتى استبعد الاسقف كثيرين منهم من الكنيسة ، البعض لسبب والآخر لسبب آخر » .

مشكلة عدم اكله مع الآخرين

كانت دار الاسقفية — قبل رسامته — اشبه بدار ضيافة ، يستقبل فيها الاساقفة والكهنة مع عظماء الشعب ووجهائه بولائم باهظة التكاليف ، لكن يوحنا المحب للفقراء منع مثل هذه الولائم لتنفق تكلفتها على اخوة المسيح أما هو فكان يأكل مرة واحدة فى اليوم بمفرده . وقد أثار ذلك زوبعة عنيفة بين رجال الاكليروس ، وشغل هذا الامر اهتمام المؤرخين القدامى ، وحاول كل منهم أن يجد تبريرا للموقف . فرأى البعض فى تعب معدته الشديد علة لهذا التصرف ، اذ كان محتاجا الى انواع زهيدة من الطعام لا يليق تقديمها للآخرين ورأى البعض فى نسكه يلجئه الى هذا التصرف ، وآخرون عللوه بانهماكه فى الشئون الرعوية وعبادته الخاصة (٥) ...

على أى الحالات فقد اتعب نسك القديس يوحنا نفسية الكثيرين من الاكليروس ، ففى الوقت الذى فيه جذب نسكه شعب القسطنطينية احس الاكليروس انه بهذا يفضحهم ويكشف ترفههم ...

ولعل سر تعب البعض منهم أن توقف الولائم بالاسقفية قد حرمهم من اللقاءات المتكررة مع عظماء الدولة ورجال البلاط وأصحاب السلطة ، كما أغلق عليهم باب التردد المستمر على البلاط ...

---

(4) Soc 6 : 4 .
(5) Soc . 7 : 4 , Pall . dial . 5 .

لهذا كله هاج بعض رجال الاكليروس واتهموه فى عدم اكله مع الآخرين بالكبرياء والاعتداد بالذات ، كما اعلنوا انه ما يليق بالاسقفية أن توقف الولائم، ففى هذه واجبات الضيافة والكرم !

+ + +

٢ ـ القديس يوحنا وسقوط اتروبيوس (٦) Eutropius

ولد اتروبيوس كعبد فى حكم الميزوبوتاميا (دولة العراق القديم) واجتاز سن الطفولة والصبوة كعبد يقوم ببعض الاعمال الدنيئة الموكلة اليه بواسطة سادته الذين كانوا يتاجرون به ، فيبيعه سيد لآخر واخيرا اشتراه أرنيثيوس Arnithus الذى كان يقوم بعمل عسكرى هام ، هذا قدمه هدية لابنته عند زواجها . لكن السيدة تضايقت من تصرفاته بعدما صار شيخا ، فلم تحاول بيعه بل اطلقت سراحه . ذهب العبد الى القسطنطينية حيث صار فى عوز شديد ، فرثى له احد موظفى البلاط مهيئا له عملا بسيطا بين حجاب الامبراطور . . . ومن هنا بدأ نجمه يتألق ومركزه يرتفع اذ استطاع أن يجذب انظار الامبراطور ثيؤدوسيوس باجتهاده فى عمله ولباقة حديثه وسرعة خاطره ، فوثق به واوكل اليه القيام باعمال خطيرة وحساسة . بعد موت الامبراطور ثيؤدوسيوس صار اتروبيوس رئيس الحجاب والمشير الخاص لاركاديوس امبراطور الشرق ، والمساعد الدائم له . لكن هذه المهمة كانت اصلا فى يد روفينوس Rufinus الذى كان بحق هو المدبر الفعلى لشئون المملكة فى بداية حكم اركاديوس ، وقد كانت له دسائسه وطمعه الخبيث مما أثار سخط الشعب عليه فاغتالته جماعة فى حضور الامبراطور . اما أتروبيوس فكان يتودد لروفينيوس بخبث ، واستطاع بدهائه ان يبطل تدابيره فى تزويج ابنته بأركاديوس ، مستبدلا بها أفدوكسيا التى حفظت له هذا الجميل زمنا . فلما اغتيل روفينوس صارت السلطة الحقيقية فى يد أتروبيوس الخصى تسنده أفدوكسيا المسيطرة على زوجها بجمالها ودهائها .

هكذا استطاع الخصى العجوز أن يصير الحاكم الفعلى للامبراطورية الرومانية الشرقية ، فتصلف على الشعب والكنيسة وامتلأ تيها وتجبرا ، واذ أراد أن يحفظ لنفسه مركزه احاط الامبراطور بجماعة من المتملقين ، وحاول استبعاد العينات الممتازة . . . ولكى يقطع خط الرجعة استطاع بسلطانه أن يلغى حق اللجوء الكنسى رغم احتجاجات البطريرك يوحنا ، بهذا يقدر أن يغتال من يغتاله ، ويقتله كما يشاء وينفى ويستبعد بلا عائق .

---

(6) Cf N & PNF, s . 2, v . 9, p. 245/7 .
Socrates 6 : 6 , Soz 8 : 4 , Theod . 5 : 32 .

للمؤلف : الكنيسة تحبك (مقالتان عن اتروبيوس) طبعة ١٩٦٨ ص ٣ ــ ٨ .
د . أسد رستم : كنيسة مدينة الله انطاكية العظمى فصل ١٩ .

كان أتروبيوس هو علة سيامة يوحنا بطريركا على القسطنطينية ، وقد بدا يمد له يد المعونة مظهرا له مساندته فى اعماله الرعوية ، خاصة فى ارسال بعثات كرازية ... وكان يظن انه بهذا يقدر أن يقتنص البطريرك يوحنا فى جعبته ، فلا يرفع عينيه فيه ... لكن القديس يوحنا كان لا يعرف المداهنة ولا يمارس الرياء ، فكان يتحدث بجراة نادرة وعنف شديد ضد شرور الاغنياء فى ذلك الحين ... وقد احس اتروبيوس والشعب ايضا ان اول من ينطبق عليهم هذه الاقوال هو أتروبيوس ، خاصة وأن الواشين قد وجدوا فى عظات ذهبى الفم مادة للاثارة ... فصارت العلاقات بينهما غاية فى السوء.

على أى الحالات ، فى عام ٣٩٩م سقط أتروبيوس بمكيدة عسكرية دبرها غايناس Gainas ليحتل مركزه ، فى الوقت الذى كانت فيه العلاقات بين اتروبيوس والامبراطورة قد ساءت أيضا الى أبعد الحدود فى زمن قصير ، فأمر الامبراطور بنفيه واعدامه .

لم يكن سقوط اتروبيوس نهاية لصراع بين يوحنا والوزير أى الحاكم الفعلى ، بل بداية دخول ضيقات وآلام جديدة . فقد هرع أتروبيوس الى الكنيسة وجرى نحو مذبحها وتعلق به مستندا الى حق اللجوء الكنسى الذى الغاه هو ! وفى لمح البصر حاصر الجند الكاتدرائية دون التجاسر على دخولها طالبين تسليمه . وظلوا على هذا الحال طوال الليل يترقبون خروجه أو تسليمه ! أما الشعب فقد سمع بالخبر وتسلل الكثيرون مسرعين نحو الكاتدرائية حتى اذا ما لاح الصباح صارت الكاتدرائية كتلة متزاحمة من الجموع ، الكل متعطش الى النقمة من هذا المتصلف ، يريدون أن يشبعوا أعينهم بسقوطه ... فالامبراطورة والامبراطور لا يطيقانه ، والجند فى شماتة ينتظرونه ، والشعب يطلب اعدامه ، والكنيسة كان مضطهدها ! ...

تركزت أنظار المدينة بأسرها والبلاط الامبراطورى على وجه الخصوص تجاه الكاتدرائية ، ماذا يفعل به البطريرك يوحنا ...

دخل الاب البطريرك الكاتدرائية ، وبالكاد عرف أن يبلغ منبره بينما وقف أتروبيوس الوزير المتصلف والمقاوم للكنيسة ملتصقا بالمذبح لم ينم الليل كله منتظرا ماذا يكون مصيره !

بماذا ينطق الاب البطريرك ؟

لقد وجد الاب فرصة نادرة ربما لا تتكرر بهذه القوة وفى تلك الصورة ، لا لينتقم من خصمه أو يتشفى فى مقاوم الكنيسة بل أن ينطلق بأنظار شعبه ليروا « حقيقة الامور الزمنية » فتحدث معهم فى مقاله الاول عن اتروبيوس ، معلنا « باطل الاباطيل الكل باطل وقبض الريح » ، بدأ يسأل أتروبيوس أين

عظمته وامواله وسلطته واصدقاؤه ومما لقوه ... ليؤكد انه « قد صار الكل اشبه بخيالات الليل، واحلام تبددت ببزوغ النهار ... كانت كنسيج العنكبوت الذى تهرأ (٧) .

وبعد ان دخل بشعبه الى حقيقة زوال العالم وما فيه ، بدأ يوضح لهم مع اتروبيوس « حب الكنيسة » ، فهى ليست مملوءة خداعا ولا غاشة ولا منتقمة ، انما طبيعتها الحب حتى ان جرحت أو انتهرت او وبخت ! وهكذا دخل بشعبه الى « وصية الحب للاعداء » ، محدثا أتروبيوس قائلا له (٨) :

« أما كنت اقول لك انى أحبك اكثر من هؤلاء الذين يتملقونك ؟ ...

انى لن اتركك فى كارثتك ،

لن أتركك الآن ،

وأنت ساقط أحملك واتحنن عليك .

الكنيسة التى عاملتها كعدو تفتح لك احضانها وتستقبلك ... » .

سرعان ما رفع أنظار شعبه الى المذبح ليروا اتروبيوس وهو ممسك بقرون المذبح ، يلتجىء الى مراحم الله وحنان الكنيسة ، انه «زينة المذبح (٩) عوض النقمة والتشفى ابهج قلب شعبه اذ يرون اتروبيوس مضايق الكنيسة قد صار معلما يشهد بحب الكنيسة لمضايقيها ، وهكذا أصبح « زينة المذبح » خلال حبهم له ، ورفقهم به رغم مقاومته السابقة !

خلق ذهبى الفم من الاثارة والقلق صورة عذبة مفرحة ، وجعل منها فرصة للتوبة وزهد العالم الحاضر ، مع ممارسة وصية الحب حتى للمقاومين .

ان كان اتروبيوس لم يثق فى الكنيسة ، فخرج منها والقى القبض عليه حيث اعدم فى خلقدونية ، فان القديس يوحنا استطاع أيضا أن يعود ليحدث شعبه بعظة أخرى عن اتروبيوس ، مقارنا بين عمل العالم مع محبيه أو أصدقائه ، وعمل الله مع محبيه .. لقد عبر القديس بفصاحة نادرة وأسلوب بسيط رائع عن « العرس الروحى السماوى الابدى (١٠) » ...

لقد نجح الاب البطريرك ان يحول اعدام اتروبيوس الى فرصة للكرازة بخلود المؤمنين والدخول بهم الى فرح ابدى لا ينتهى .

---

(٧) للمؤلف الكنيسة تحبك ص ١٤ . (٨) المرجع السابق ص ١٦

(٩) المرجع السابق ص ٢١ ، ٢٢ .

(١٠) المرجع السابق ص ٤٤ — ٧٩ .

هذا العمل اثار نفس الامبراطورة افدوكسيا ضده . . . فقد وقف بجوار اتروبيوس الذى لم تكن تطيقه فى ذلك الحين . كما حسدته ، اذ شد انظار المدينة كلها والبلاط الامبراطورى ، ولم يقدر احد ان يتدخل فى امر اتروبيوس لولا خروجه من الكنيسة « لقد رأت فى يوحنا منافسا يقدر أن يقاوم حتى البلاط الامبراطورى ، فاشتهت لو تخلصت منه !

+ + +

٣ ـ القديس يوحنا وغايناس Gainas

ادخل الامبراطور ثيؤدوسيوس عددا كبيرا من القوط الى الجيش ، وكان من بينهم غايناس ، الذى ارتقى فى الرتب ، وكان مهتما بشئون ابناء جنسه ، الذين لم يكن عددهم قليلا فى العاصمة ، فصار غايناس احد زعماء السياسة ، لا ينافسه احد غير اتروبيوس ، فدبر مكيدة عسكرية يغتصب بها مركزه ، سجلها لنا المؤرخ سوزومين بشىء من التفصيل (١١) . فقد أرسل الى أهل بلده ــ القوط ــ أن يزحفوا على المقاطعات الرومانية ، وأشار الى احد أقربائه تيربنجيلس Tirbingilus القائد لعدد ضخم من الجنود فى فيريجية بآسيا الصغرى ان يقوم بعصيان مسلح . اما هو فتظاهر أمام الامبراطور بأن ينطلق ليخمد نار الثورة والعصان فى فيريجية ، واذ جمع شمل عدد كبير من البرابرة انقلب مهاجما الاراضى الرومانية . ادرك الامبراطور الخطر الذى يلحق بالدولة . فان غايناس يحمل سلطات قوية ، ويجمع شملا داخل الدولة ، ويعرف كل أسرار الدولة وضعفاتها ، فأرسل اليه يطلب التفاهم معه ومراضاته . طلب غايناس تسليم اثنين من متسيرى الامبراطور هما ساتيرنينوس Saturninus واوريليان Aurlian الذين حسبهما معاديان له واذ سلما له عفا عنهما ، بعد ذلك اقيم مجلس صلح بينه وبين الامبراطور بجوار خلقدونية ، فى موضع الصلاة الذى وضع فيه قبر الشهيدة أوفيميه. فى هذا المجلس اقسم الاثنان أن يعيشا بروح الصداقة ، عندئذ ألقى غايناس سلاحه امام الامبراطور ، واستعد ان يذهب معه الى القسطنطينية بعدما اصدر الامبراطور أمرا بتعيينه قائدا عاما للمشاة وسلاح الفرسان ، فنال بذلك اكثر بكثير مما كان يتوقعه له احد . . .

طلب غايناس قتل اتروبيوس ليتخلص منه ، فهرب الى الكاتدرائية ، لكنه ما ان خرج منها حتى ألقى القبض عليه واعدم بخلقدونية . . .

كان غايناس مثل اكثر القوط فى ذلك الحين اريوسيا ، فشجع الاريوسيين ، الذين اخذوا يجتمعون ليلا أجواقا ينشدون الترانيم الاريوسية . أما القديس يوحنا فلم يقف مكتوف الايدى ، لكنه استطاع ببلاغته وروحانيته ان ينظم ــ على الفور تسابيح وترانيم ارثوذكسية تعلن

(11) Soz 8 : 4 .

لاهوت السيد المسيح فى اسلوب روحى عذب ، بها يحيون الليالى . لكن هذا الامر أدى الى اشتباكات بين الفريقين كانت تصل أحيانا الى سفك الدماء (١٢)

اهتم ايضا القديس يوحنا بالقوط الارثوذكسى ، فرسم لهم كاهنا منهم . يصلى معهم بلغتهم .

اذ وجد غايناس أن البطريرك لم يشتبك مع الاريوسيين فى مجادلات ومناقشات ، انما فى ايجابية وصنع التسابيح الايمانية الروحية يسند بها شعبه و زدادت رعايته للقوطيين ، ظن انه يستطيع — مع احترامه العميق للبطريرك — أن يستغل نفوذه فيطلب احدى الكنائس الارثوذكسية يصلى فيها غايناس وجماعة الاريوسيين . وفعلا فاتح الامبراطور فى الامر ، واذ كان يخشاه وافقه على طلبه وارسل الى البطريرك يخبره بالامر ، مذكرا اياه بسطوة غايناس ، كما الح له عن المؤامرة التى سبق أن دبرها لاغتصاب الحكم ، سائلا اياه أن يطفىء لهيب هذا البربرى بتنازله عن احدى كنائسه له هو وجماعته (١٣) . لكن البطريرك يوحنا لم يكن يعرف كيف يخاف انسانا او يداهنه على حساب الحق ، بل بايمان يسلك فى غير مهادنة للشر ، لذلك التقى بالامبراطور يقول له : « لا تعطه يا سيدى وعدا ، فانه لا يعطى القدس للكلاب (١٤) . انى لن اسمح قط أن يطرد العابدون والمسبحون للكلمة الالهى ليحتل مكانهم المجدفون عليه . لا تخف يا سيدى من هذا البربرى . استدعينا — انا وهو — لنمتثل بين يديك ، ولتسمع ما يقال فى صمت ، فانى أشكم لسانه ، واصده عن طلبه الخاطىء !

ابتهج الامبراطور بالاجابة ، وفى اليوم التالى دعاهما فى حضرته . فبدأ غايناس يطلب تحقيق ما وعد به ، لكن العظيم يوحنا اجاب انه لا يحق للامبراطور الذى يؤمن حقا بايمان مستقيم أن يتجاسر فيصنع أمرا يخالف ايمانه .

قال غايناس ان من حقه ايضا أن يكون له موضع صلاة .

اجابه العظيم يوحنا : لماذا ؟ فان كل الكنائس هى مفتوحة امامك ، ليس من يمنعك عن الصلاة اينما تميل .

قال غايناس : لكننى اتبع طائفة أخرى ، وانا اسأل أن تكون لى كنيسة ، فانه يحق لى مثل هذا الطلب مقابل ما احتملته فى الحرب من أجل الرومان .

---

(١٢) الدكتور اسد رستم ، كنيسة مدينة الله انطاكية العظمى ، فصل ١٩ .

(13) Theodoret 5 : 32

(١٤) مت ٧ : ٦ .

أجاب الاسقف : لقد أخذت مكافاءات عظيمة مقابل اتعابك . فانك الآن قائد ، ترتدى ثوب الولاية ! كان يليق بك ان تذكر ما كنت عليه وما صرت اليه الآن . تأمل فقرك الماضى ، وغناك الحالى . اى نوع من الثيـــاب كنت ترتدى قبلا ، وما الثوب الذى ترتديه الآن ؟ . . .

اقول ، انكر قلة جهـــادك بجـــانب عظم المكافاءات التى وهبت لك . لا تكن جاحدا جميل هؤلاء الذين وهبوك كرامة !

بهذا ابكم معلم المسكونة غايناس ، الذى خرج غاضبا ، واضـــعا فى قلبه ان ينتقم لنفسه من الامبراطور والبطريرك ، واذ كان غايناس يعرف كل اسرار البلاط ارسل جنودا يحرقونه ليلا ، لكنهم وجدوا حراسا على البلاط لم يتوقعونهم ، فرجعوا مرتعبين يخبرونه بالامر . دهش غايـنـــاس وذهب بنفسه يتحقق الامر ، فوجد ملائكة تحرس القصر . . . فارتعب وخاف .

ولم يمض وقت طويل حتى خشى الروم سطوته ، فعهـــدوا الى قوطى آخر يدعى فلافيتا Flavita أن يقاتله . . . فاضطر غايناس الى الهروب ، وانتهى امره بقتله فى تراس Thrace عام ٤٠١ م (١٥) .

+ + +

٤ ــ القديس يوحنا وافدوكسيا

تعلق الامبراطور اركاديوس وزوجته أفدوكسيا بالبطريرك الجديد يوحنا الى أبعد الحدود . وقد بلغ التجاوب اشده عندما لعبت الامبراطورة دورا فى احتفالات الشهداء . فعند نقل رفات بعض الشهداء حضرت بنفسها فى ثيابها الرسمية ، يحوطها عدد كبير من رجال البلاط واشتركت فى الاحتفال . ويبدو أنها بقيت حتى وقت متأخر من الليل ، اذ وقف الاسقف عندما بدأ الفجر يلوح يعظ معبرا عن اعجابه بالامبراطورة وتقواها .

ويرى البعض أن هذه الصداقة قد دامت فى قوتهـــا الى وقت ســـقوط أتروبيوس (١٦) عام ٣٩٩ حيث ظهرت شخصية ذهبى الفم فى وساطته لدى الامبراطور عن أتروبيوس ، فى الوقت الـــذى كانت فيه مرة النفس تجـــاه أتروبيوس تود الخلاص منه . كما تلألأت بالاكثر شخصيته فى وقفته الجريئة أمام غايناس القوطى !

---

(15) Soc . 6 : 6 , Soz . 8 : 4 .

(16) Wand : Doctors and Councils , p 64 .

هذا ولم يخل الجو من بعض النسوة الشريفات المهذارات اللواتى كن يحطن الامبراطورة وقد احسسن بهجوم ذهبى الفم عليهن فقمن بدور خطير فى الوشاية به لديها ...

واذ قتل غايناس القوطى الذى سبق فأطاح براس اتروبيوس خلا الجو تماما لافدوكسيا لتلعب دورها المنفرد على مسرح الامبراطوزية الرومانية الشرقية . لقد تكشفت حقيقتها بوضوح وظهر خبثها وطمعها فى تدبير أمور الرعية ، فأذاقتهم من المظالم اضعاف ما فعله بهم اتروبيوس . واذ ضج الشعب لم يجد له ملجأ غير الاب البطريرك ، يستغيثون به منها ليتدخل فى امورهم ، الامر الذى دفع به الى الاحتكاك بها والدخول معها فى سلسلة من الآلام .

سجل لنا التاريخ بعض تصرفات القديس معها ، فقد قيل ان بولاسيوس والى الاسكندرية كان قد ظلم ارملة واختلس منها خمسمائة دينار ، واذ اعتزل منصبه وقطن القسطنطينية جاءت الارملة تشكوه لدى البطريرك بعدما لجأت الى القضاء كما لجأت الى الامبراطورة التى الزمته بدفع ستة وثلاثين دينارا فقط . ترقب البطريرك دخول بولاسيوس الكاتدرائية واحتجزه حتى يدفع مال الارملة فأرسلت الامبراطورة تطلب اطلاق سراحه فرفض . ولما احتدم غضبها وأرسلت جندا يخرجونه بالقوة وجدوا ملاكا مرعبا ... الامر الذى أرعب الامبراطورة ، فدفعت المال للارملة ليطلق سراح بولاسيوس .

لسنا نسأل الى اى مدى كان يحق للبطريرك ان يفعل ذلك ؟ لكن الله قاضى الارامل تطلع الى القلب الابوى للبطريرك فألزمها بالدفع للارملة ... وان كانت بلا شك قد حملت فى قلبها ضيقا تجاه البطريرك .

أما ما أشعل قلبها بنار الضغينة تجاهه فهو انه أرسل اليها يرجوها ان ترد حقلا اغتصبته من أرملة ظلما ، فلم تجبه بشىء . عاد فأرسل اليها رسلا فازدادت تصلفا . وفى يوم عيد الصليب كانت الامبراطورة قادمة الى الكنيسة يسبقها الامبراطور مع حاشيته ، فأمر البطريرك بغلق الباب فى وجهها . واذ بلغت باب الكنيسة بموكبها العظيم احتدت جدا واخذت تقذف البطريرك بأقسى الشتائم ثم أمرت الحرس بكسر الباب بالقوة . وما أن رفع أحد الجنود يده بسلاحه حتى يبست فى الحال ... فارتعب الحاضرون وامتلأت أفدوكسيا خوفا ، وعادت الى القصر ترعد وتزبد وتهدد ! وأذ انتهى الاب من الصلاة خرج ليمسح يد الجندى بماء مقدس بعدما أعترف بخطئه ، فعادت يده سليمة أمام الشعب ! أما أفدوكسيا فانتظرت زوجها توغر صدره أن ينتقم لها من البطريرك ويعمل ما فى وسعه لاستبعاده من العاصمة ... وبقيت

افدوكسيا تغلى فى قلبها ، حتى وجدت فى مشـكلة « الاخوة الطوال » فرصة لتحقيق مآربها . . .

لكن سبق مشكلة « الاخوة الطوال » موقفها الملوء تذللا عام ٤٠١ فى نزع الخصومة بين الاب البطريرك والاسقف سفريان المقيم بالبلاط والمعجبة به ليدفع بها الى التمرر من جهة البطريرك .

على اى الحالات كانت الاحداث فى الفترة الاخيرة قبل نفى القديس، تعمل معا من كل جانب لتدفع الى التوتر الشـديد بين الامبراطورة والبطريرك . وتدخل به الى عمق الآلام ، ليكمل بقية غربته يتنقى فى أتون التجارب ويتزكى، شاهدا للرب بآلامه وكارزا بحياته !

+ + +

٥ ــ القديس يوحنا وسفريان اسقف جبالة

ان كانت ضيقة القديس يوحنا الذهبى الفم قد وصمت تاريخ البابا ثاوفيلس الاسكندرى ، فان الاب سفريان أسقف جبالة بسوريا Severian of Gabala ربما قام بدور أخطر وابلغ أثرا ، خاصة أنه كان مقيما بالبلاط وعلى علاقة وثيقة بالامبراطورة .

يذكر لنا المؤرخان سقراط وسوزومين (١٧) ان سبب مجىء هذا الاب الى القسطنطينية هو حب المال، فقد رأى ان الاب انتيخوس اسقف Ptolemais بفينيقية قد زار القسطنطينية وكان يعظ بها ثم عاد الى كرسيه يحمل مالا كثيرا (١٨) ، لكن الاحتمال الاكبر ان هذا مجرد اتهام وصم به هذا الاب نتيجة أخطائه المتكررة فى حق الكنيسة بتدبيره المكائد لاستبعاد القديس يوحنا ذهبى الفم من كرسيه ، لكن ما يمكن قوله أن « الذات البشرية » هى سر بقائه فى القسطنطينية تاركا كرسيه من أجل الكرامة البشرية ويحتفظ بصداقته مع الامبراطورة والامبراطور . . .

قال عنه جيناديوس (١٩) « كان سيفريان (سيفريانوس Severianus) أسقف كنيسة جبالة متعلما فى الكتب المقدسة ، واعظا عجيبا ، لهذا كثيرا

(17) Soc 6 : 11 , Soz. 8 : 10 .

(١٨) غالبا ما كانت التقدمات توزع بالمناصفة بين الكاهن الخادم والكنيسة . (N & PNF, S . 2, v 2, p 146.)

(19) De viris illust : ch 21 .

ما كان يدعوه الاسقف يوحنا والامبراطور أركاديوس للوعظ بالقسطنطينية . لقد قرأت له « تفسير الرسالة الى أهل غلاطية » ، كما قرأت له « عن العماد وعيد الغطاس » عملا صغيرا جذابا للغاية . وقد مات فى عهد ثيؤدوسيوس ابنه بالمعمودية » .

يقول عنه (٢٠) Quasten انه يمثل أهمية خاصة كمفسر اتبع طريقة مدرسة انطاكية دون أن يحيد عنها . كان مدافعا عن الايمان النيقوى ضد الهراطقة واليهود ، لكن تنقصه الاصالة ، مملوء كراهية . كان ساذجا فى فهمه للعالم ، غير علمى ، لا يتردد فى تفسير حتى القصائد الشعرية الخاصة بالعهد القديم فى أكثر تعبيراتها المجازية تفسيرا حرفيا ، مستخدما اياها كمصدر للعلم الطبيعى .

ارتبط بصداقة قوية مع القديس يوحنا ذهبى الفم ، حتى انه فى يناير سنة ٤٠١ م اذ اضطر القديس يوحنا للسفر الى أفسس ليوفق بين الطرفين المتعارضين فى شأن ترشيح رئيس أساقفة أفسس كما عقد بها مجمعا حرم فيه ست أساقفة رسموا بالسيمونية (٢١) ، ترك أمر الوعظ فى القسطنطينية لصديقه سفريان المقيم بالبلاط .

فى أثناء غياب الاب البطريرك يوحنا ساءت العلاقات بين سفريان والشماس صرابيون الذى أوكل له البطريرك تدبير ادارة الابروشية . بلغ الاحتداد أشده ، اذ رأى صرابيون فى الاسقف انه يحاول التفوق على أسقفه يوحنا ليأخذ شعبيته فى الوعظ ، وربما حسد الاسقف سفريان صرابيون الشماس لانه قد أوكل اليه تدبير كل شئون الابروشية ...

فلما عاد الاب البطريرك الى القسطنطينية ، اشتكى له الاسقف سفريان صرابيون انه كان يتعمد الاساءة اليه واهانته ، فقد رآه ولم يقف له . وفى نفس الوقت روى صرابيون لاسقفه ما قصده سفريان فى وعظه أثناء غيابه . فتألم القديس يوحنا من الاسقف سفريان ، لكنه اضطر لارضائه أن يعقد مجمعا ينظر فى شكواه ، فيه عزل المجمع صرابيون اسبوعا عن الشموسية . أما سفريان فأصر على عزله المطلق ، الامر الذى أغضب الاب البطريرك جدا وخرج من المجمع ، وبقى الامر معلقا وظل لا يلتقى مع سفريان فى أى جلسة خاصة ، بل وطلب اليه بشدة أن يرجع الى ابروشيته ، قائلا له (٢٢) : «لايليق بك أن تبقى ابروشيتك التى اؤتمنت عليها هكذا بغير رعاية ، محرومة من

(20) Patrology . vol 3 , p 484 .
(21) N & PNF , S . 2 , v . 9 , p 12 .
(22) Ibid , vol 2 , p 146 .

اسقفها مدة طويلة . اسرع اهتم بكنائسك ، ولا تهمل الوزنات التى وهبت لك » .

للحال بدأ الاسقف سفريان يعد نفسه للرحيل ، واذ سمعت الامبراطورة أفدوكسيا استدعته من سفره ، واسرعت الى البطريرك يوحنا فى كنيسة الرسل ، وحملت ابنها ، ولى العهد ثيؤدوسيوس الصغير ، ووضعته على ركبتيه، واستحلفته به أن يصطلح مع سفريان. فرضخ يوحنا لطلبها واصطلح معه ظاهريا (٢٣) اتقاء شر اعظم ، لكن بلا شك لم يكن سهلا على امرأة ، هى فى عينها سيدة النساء فى الشرق ، لا بل والمهيمنة على شئون المملكة لضعف شخصية زوجها ، أن تقف مثل هذا الموقف فى الكنيسة قدام الشعب.

ربما كان يمكن أن تعبر هذه الاحداث بسهولة ويسر ، ولا تدفع به الى طريق الالم ، وكان يمكن للملكة أن تنسى هذا الموقف ان آجلا أو عاجلا لكن سر تضخيم هذه المواقف كان نزولها الى القاعدة الشعبية ، اذ يبدو أن الاسقف سفريان قد افصح بطريق أو بآخر بما يسىء الى الاب البطريرك فى غيابه ، لذلك اضطر ذهبى الفم بعد عودته أن يتحدث مع شعبه عن ارتباطهم به : قائلا :

« ان كان يليق بالجسد أن يبقى متحدا مع الرأس هكذا تكون الكنيسة متحدة مع اسقفها ، والشعب مع حاكمه .

وكما أن الاغصان ثابتة فى الاصل ، والانهار فى ينابيعها ، هكذا يرتبط الاولاد بالاب والتلاميذ بالمعلم ... » .

انطلق يشكرهم بطريق غير مباشر عن ارتباطهم به وعدم التفاتهم لاية اقاويل أو مكائد ... ولعل الشعب قد أدرك ما يقصد القديس يوحنا .

ربما شعر الشعب أو قد بلغه ما حدث فى المجمع المنعقد لمحاكمة الشماس صرابيون كطلب سفريان ، وربما خرجت الاخبار مبالغا فيها ، الامر الذى أثار نفوس الكثيرين ، حتى أدرك القديس يوحنا أنه ربما يفلت الامر من بين يديه فيثور الشعب ضد سفريان ، ويجد نفسه فى مأزق يسيىء اليه ، لهذا أسرع بالحديث مع شعبه عن السلام والوحدة ويهدىء نفوسهم تجاه الاسقف سفريان ، فاستراحت النفوس ، وظهرت علامات القبول على ملامحهم ... فأكمل خطابه قائلا (٢٤) :

« اشكركم لموافقتكم لى على ما اقوله ...

(23) Soc 6 : 16, Soz 8 : 81, pall . 11 .
(24) De Recipiendo Severiano . PG 52 : 423 — 426

اذ اذكر اسم سفريان لا اجد من يعارض ، أنتم اذن تقدمون لله تقدمة سلام حقيقى !

بحبكم قبلتموه ! بأذرعكم المفتوحة استقبلوه ، ولا تذكروا أحزان أمس.

لنصل جميعا كى يحفظ الله كنيسته فى سلام راسخ غير منقطع ! » .

وفى اليوم التالى استطاع أن يقف سفريان بين الشعب على ... المنبر يتحدث معهم لكى يستريح قلبهم تجاهه . حدثهم ببلاغته المعهودة عن السلام قـــائلا (٢٥) :

« اليوم ، الكنيسة فى سلام والهراطقة فى حزن ... !
حملان الرب فى أمان ، والذئاب فى هياج .. !
الكنيسة تشرق ببهاء السلام ، الذى هو شهوتنا ! ...

هو ذا اليوم نرى السلام حالا ، السيد المسيح يحتضننا على صدره المملوء حبا . انه يشهد للوحدة التى تضمنا بين ذراعيها ، فتجعل فى الجسدين روحا واحـــدا ...

بالامس ، نادى أبونا ـــ المعتبر الاول ـــ بالسلام ، فى عبارات انجيلية، واليوم هو دورى أنا !

بالامس مد يده وقابلنى بكلام سلام ، واليوم افتـــح أنا قلبى ، افتـــح ذراعى ! أقدم نفسى للرب ، ذبيحة سلام ...
لقد نزع الله الخصام وثبت الوئام ...

انى أحدثكم عن حيل ابليس الذى لا تجهلون طرقه . فقـــد رأى صلب ايمانكم قد حمل ثمار الاعمال الصالحة فاحترق غيظا ، وأراد أن يبدد الاتفاق ويهدم المحبة ، وينزع السلام ! »

بهذا استراح قلب الشعب ، وبقى الاسقف فى القسطنطينية يحمـــل فى أعماقه حسدا وغيرة تجاه البطريرك ، الى أن حلت ســـاعة التجربة فكشف سفريان عن عداوته الخفية حيث قام بدور رئيسى فى مجمـــع السنديان عام ٤٠٣ لمحاكمة الاب البطريرك ، بل ووقف أمام الشعب يبرر قرار المجمـــع بحرمان بطريركهم (٢٦) . وهو المسئول الاول عن صدور القرار الامبراطورى بنقل البطريرك من منفاه بكوكوزه Cucusus الى بيتس Pitys حيث تنيـــح فى الطريق بسبب قسوة معاملة الجند له .

+ + +

---

(25) Sermo Severisni de pace , PG 52 : 425 — 428 .
(26) Soc 6 : 11 .

٦ ــ القديس يوحنا ومشكلة الاخوة الطوال

دخلت « مشكلة الاخوة الطوال مع البابا ثاوفيلس الاسكندرى » حياة القديس يوحنا ذهبى الفم ، فدفعت به دفعا الى عـــداوة البابا ثاوفيلس ، استغلتها الامبراطورة افدوكسيا لتحقيق مآربها ، ووجد فيها الاسقف سفريان وغيره من الاساقفة المضادين للبطريرك فرصتهم للتنكيل به ... فدخل الذهبى الفم الى الاستشهاد ، وتشوه تاريخ البابا ثاوفيلس !

لذلك وجدت نفسى ملزما الا اعرض المشكلة عرضا سريعا ، خاصة وان اغلب المصادر التى اعتمد عليها التاريخ الكنسى فى هذه المشكلة جاءت عن مؤرخين اعداء للبابا ثاوفيلس ، صبوا كل غضبهم عليه من اجل ظلمه للبطريرك القديس يوحنا .

لست بهذا أود تخفيف أخطاء البابا ثاوفيلس ، لكننى اقول مع Quasten استاذ التاريخ الكنسى القديم وعلم الآثار المسيحية بجامعة امريكا الكاثوليكية بواشنطن (٢٧) : « على اى الاحـــوال ، يلزمنا بكل عـــدل أن نذكر أن أغلب معلوماتنا قد جاءت الينا من أعداء ثاوفيلس خاصة بالاديوس وأرنوبيوس (٢٨) وثيؤدوريت (٢٩) والبابا ليون الكبير (٣٠) ... أما (الابوفثجمـــاتا باتروم Apophthegmata Patrum ، فتؤكد سمعته الطيبة التى تمتع بها فى الدوائر الرهبانية . فقد كان على علاقة ممتازة بالابوين المشـــهورين : هـــورسيس Horsiesi وآمون الذى كان يكرمه على الدوام بكونه اباه الروحى » .

فالمؤرخ بالاديوس عاصر المشكلة وســـجلها لنا فى كتابه « حـــوار عن القديس يوحنا » والذى يعتبر من اهم المصادر الاصـــيلة ... لكنه كان بلا شك متحيزا ، فهو الصديق الحميم للبطريرك المفترى عليه والمســـتبعد فى اقاصى أرمينيا محروما من شعبه (٣١) ، كما كان طرفا فى القضية اذ اتهم فى مجمع السنديان سنة ٤٠٣ بالاوريجانية وحكم عليه بالنفى ... وها هو يخط عمله هذا فى منفاه !

وحين سجل لنا كتابه المشهور « التاريخ اللوسياكى Laus . His » حوالى عام ٤٢٠م كان العالم ساخطا على البابا ثاوفيلس بعد نياحة البطريرك فى منفاه !

---

(27) Patrology , vol III , P 101 , (28) Conflictus 2 : 18 .
29) EP . 170 . (30) EP 53 , 63 : 74 .

(٣١) كتب بالاديوس حواره هذا ما بين اعوام ٤٠٦ ، ٤٠٧ ، ٤٠٨ ، بينما تنيح القديس يوحنا عام ٤٠٧ .

ولا ننسى أيضا شغف بالاديوس نفسه بكتابات العلامة أوريجين ، يحب من يحبها ، ويزدرى بمن يزدريها . فيكتب بحب حقيقى اعجابه بالاخوة الطوال (حيث كان أحـــدهم آمون يحفظ قرابة ستة ملايين قولا لاوريجين وغيره من الآباء) ، وابيهم الروحى بامبو Pambo والقديسة ميلانية (التى درست بدقة وترو ملايين السطور لاوريجين) ومار أوغريس ... وعلى العكس اذا ماذكر القديس جيروم يتحدث عنه فى استخفاف وازدراء ، كأن يقول عنه (٣٢) :

« جيروم ما ... وقف فى طريق (بولا Paula) ...

بجسده أعاق نموها واقنعها للعمل لحسابه واغراضه » .

« كاهن ، جيروم قد ســكن فى هذا الموضـــع ... وقـــد عاش معه Posidonus عدة أيام طيبة ، هذا همس فى أذنى قائـــلا : أن بـــولا Paula المعتنى بها والتى تنزع خسته فى طريقها للموت » .

لهذا لم يتورع المؤرخ بالاديوس عن وصف البـــابا ثاوفيلس ـــ عـــدو كتابات أوريجين والمقاوم للقديس ذهبى الفم ـــ فى أدنى صـــورة ، اذ يقول عنه (٣٣) :

« كان حاد الطبع ، عنيفا ، جسورا ، ميالا الى الخصام بشدة . ما أن يحدد هدفه حتى يضرب برأسه (كالثور) مندفعا . ليس من يقدر أن يوقفه يأخذ قراراته فى عجالة ، دون ترو ، أو وزن للامور ، وبطريقة قاطعـــة . يضرب أعداءه بشدة ليفرض ارادته » .

مرة أخرى يصف نظراته الغاضبة نحو رهبانه الثائرين عليه فيقول (٣٤) :
« كان ينظر اليهم بعينين محمرتين كالدم ، كالحيـــة يتلفت من الجنب ، ومن أسفل كالثور ! » .

أينما تحدث عنه ينعته بأبشع الصور فيقول عنه أنه كلب مسعور (٣٥)
« فرعون ، مصابا بداء القسوة ، يحطم نفســـه ببناء قصـــور شـــاهقة فى الخيال (٣٦) » .

اتهمه بحب المال ، يحصل عليه بكل وسيلة ووسيلة ، يأخذ من أموال الفقراء ، ويتقرب من الشريفـــات ليحصـــل منهن على ما يرغبـــه بطـــرق دنيئة (٣٧) » ...

(32) Laus . His 41 : 2 , 36 : 6 .
(33) Dialogue PG 47 : 30 .
(34) Ibid 47 : 23 .
(35) Ibid 47 : 22 .
(36) Ibid 47 : 22 , 46 — 47 .
(37) Ibid 46 — 47 , 57 .

الحق يقال أن البابا ثاوفيلس قد خسر سمعته بعداوته للقديس يوحنـــا ذهبى الفم وظلمه اياه ... فجاء تاريخه يحمل مبالاغات كثيرة فى ذمه ، بينما تجاهل كثيرون ـــ خاصة بالاديوس ـــ اعمـــاله العظيمة فى مقـــاومة الوثنية واهتمامه برعاية شعبه واهتمامه الزائد ببناء الكنائس وترفقه وطـــول أناته مع الاوريجانيين (قبل مجمع السنديان) ، وموقفه المشرف فى اعادة الشركة بين انطاكية ومصر ، وانطاكية وروما ، وخطاباته المهدئة للقـــديس جيروم فى موقفه ضد الاوريجانيين (قبل تفاقم مشكلة الاخوة الطوال) ، كما تجـــاهل المؤرخون الكشف عن الظروف المحيطة به فى تصرفاته ... فالامر يحتاج الى دراسات جديدة غير متحيزة للتعرف على شخصيته كما يليق وفى غير تحيز ، ودون الانفعال الحاد بخطئه الجسيم ضد القديس يوحنا ذهبى الفم وبعض رهبـــان نتريا .

لسنا ندرس الآن شخصية البابا ثاوفيلس ، انما نكتفى بدراسة مشكلة الاخوة الطوال معه ، وموقفه من القديس يوحنا ذهبى الفم .

+ + +

الكتابات الاوريجانية فى القرن الرابع

احتلت الكتابات الاوريجانية مركزا هاما فى فكر آباء القرن الرابع وكتاباتهم . فقد وجد البابا أثناسيوس الرسولى فيها براهين تسنده فى قانون الايمان النيقوى ، كما شغف بها كبار آباء الكبادوك مثل القديسين باسيليوس الكبير وغريغوريوس النزينزى . اما فى الغرب فقد استوحى القديسان هيلارى أسقف بواتييه وامبروسيوس أسقف ميلان منهما أفكارهما وتأملاتهما . أما القديس جيروم والاب يوحنا الانطاكى فقد أخذا عنها منهج أوريجين التفسيرى .

لقد انشغل آباء الكنيسة فى نهاية القرن الرابع بكتابات أوريجين ، يأخذون أفكاره ويستبعدون أخطاءه ، مشيرين اليها دون أن يقلل ذلك من اهتمامهم بها (١) .

وفى حوالى عام ٣٧٣م بدأ القديس ابيفانيوس (٣١٥ — ٤٠٣) أسقف سلاميس بقبرص عمله العظيم « خزانة العلاج لشفاء كل الهرطقات » .

لقد كانت الهرطقات تهز نفسه بشدة ، يشعر فى نفسه بالالتزام أن يرد على كل هرطقة حديثة وقديمة . واذ هو ناسك صارم احس كأن العلامة أوريجين قد أفسد نقاوة الايمان الحقيقى البسيط بسم الثقافة الوثنية . لقد اعتبر كتاباته هرطوقية دان فيها أولا وقبل كل شىء ميله لتفسيره العبارات الحرفية الواضحة برمزية روحية ، خاصة روحنة تعليم القيامة .

لم يقصد القديس ابيفانيوس ادانة أوريجين الراقد ، بل « مجموعة رهبان مصر » الذين شغفوا بالفكر الاوريجانى (٢) . لكن لم يهتم أحد بذلك ، حتى جاء عام ٣٩٤ فيه قامت مناضلة بين يوحنا أسقف أورشليم ومعه روفينوس كاهن أكويلية ، وكان الاثنان معجبين بالعلامة أوريجين ، وبين جيروم الذى

(1) R . Moulard : Saint Jean Chrysostome , p 317 .
(2) H . Chadwick : The Early Church , ch . 13 .

اعتبر أوريجين هرطوقيا يؤيده فى ذلك ابيفانيوس أسقف سلاميس ...

لا أريد الدخول فى تاريخ الخلافات بين الاوريجانيين وأضدادهم ، انما ما أريده تأكيده أن العالم الكنسى كان مشدودا تجاه هذه المشكلة ... أما مركز عنفها فكانت « برية مصر » ، بسببها تصارع الرهبان ، بل سقطوا فى تصرفات عنيفة غير لائقة ... ثار البعض ضد البابا ، وحاول البعض قتله ، واندفع البابا فى تصرفاته مع رهبان طوباويين ، واخطأ فى حق بطريرك القسطنطينية ... وكانت النتائج مرة للغاية !

الاوريجانية والرهبانية

أثارت الكتابات الاوريجانية ثورة فكرية فى الحياة الرهبانية ، وجدت لها عشاقا بين الرهبان كما أثارت عداوة مرة فى قلوب آخرين . فالرهبنة فى بدء قيامها تأسست على الممارسة العملية للحياة الفاضلة ، أى دخول الى « حلبة الصراع فى البرية ضد قوات الظلمة من أجل تنفيذ الوصية الانجيلية » . هذا ما أعلنه القديس أثناسيوس الرسولى فى كتابه عن القديس أنبا أنطونيوس ، الذى لا نشتم فيه أى اتجاه تأملى عقلى ... لكن « الاوريجانية » تسللت الى بعض الرهبان والنساك ليجد البعض لذتهم بل غايتهم فى الانطلاق فى تأملات الهية عميقة (٣) ...

نستطيع أن نقول أن « الكتابات الاوريجانية » هى سر التحول الرهبانى من نسكيات مجاهدة لاجل الفضيلة الى نسكيات مجاهدة من أجل التأمل أو التاأوريا ...

ففى حوالى عام ٣٧٠م تكونت جماعة أوريجانية فى منطقة نتريا ، تحت قيادة « الاخوة الطوال (٤) » : الاب أمونيوس واخوته الثلاث . هؤلاء الاخوة اتسموا بالروحانية والنسك ، قاموا بنضال ضد الاريوسية بعد نياحة البابا أثناسيوس الرسولى ، وكانوا على علاقة طيبة بالبابا تيموثاوس الاسكندرى ، وحتى عام ٤٠٠م مع البابا ثاوفيلس الـ ٢٣ . فقد أحبهم وأكرمهم كرامة زائدة ، فرسم ديسقورس أسقفا على هرموبوليس ، وأراد أن يرسم آخر منهم فاعتذر بعدم استحقاقه لهذه الكرامة السامية ، فرسم منهم كاهنين يساعدانه فى الخدمة

(3) Lossky : Thé Vision of God , ch 6 .

(٤) دعوا كذلك من أجل طول قامتهم Soc 6 : 7 . أما أسماؤهم فهى : ديسقورس أسقف هرموبوليس ، ويوسابيوس ، وأفثيموس ، وآمونيوس (آمون) الذى دعى باروتيس أى صاحب الاذن الواحدة . وذلك أنه طلب للاسقفية فبتر اذنه اليسرى للهروب منها ، واذ قبل البابا تيموثاوس رسامته من أجل عظم فضيلته هدده بقطع لسانه ، فاضطروا الى تركه .
Laus . His 11 , Soc . 4 : 23 , Soz 6 : 30 .

تعلق البابا بهم وأراد أن يستبقيهم معه فى الاسكندرية ، اما هم فأحسوا بضرورة العودة الى البرية، يمارسون نسكهم وعبادتهم الرهبانية كما يليق...

وعنـدما جاء مار أوغريس (افجـاريوس St. Evgarius) الى مصر استرشد بالاب أمونيوس ، وجاءت كتاباته تفصح عن فكر الجماعة .

تحفز كثير من الرهبان ضد كتابات العلامة أوريجين من حيث أنها تدخل بالفلسفة الى الرهبنة فتفقدها بساطتها ، تشغل فكر الناسك بتأملات قد تدفعه الى الانشغال بها عن جهاده النسكى ... لكن ماهو خطير بحق أن رد الفعل ضد الفكر الاوريجانى كان قويا فى منطقة الاسقيط ، حيث رفض بعض البسطاء التفسير الرمزى رفضا قاطعا ، حتى فسروا العهد القديم تفسـيرا حرفيا ، فتصوروا لله وجها وعينان وأيدى وأعضاء جسدية كما جاء فى بعض عبارات العهد القديم لتوضيح أفكار معينة بلغة يفهمها البشر ... كقول الكتاب (٥) :

« اسجدوا عند موطىء قدميه » ،

« عيناى على أمناء الارض . . المتكلم بالكذب لا يثبت أمام عينى » ،

« شريعة فمك خير لى من ألوف ذهب وفضة » ،

« **يداك** صنعتانى وانشأتانى » ،

« أضىء **بوجهك** على عبدك وعلمنى فرائضك » ...

هكذا سقطوا فى بدعة «تصور شكل الله الانسانى Anthropomorphism» ، وقد جروا وراءهم كثيرين... وحدث نزاع بين الاوريجانيين والانثروبومورفيت حول السؤال : هل لله أعضاء جسدية ؟

وفى عام ٣٩٩ جاءت الرسالة الفصحية التى يحدد فيها البابا موعد عيد القيامة تلمح بطريق غير مباشر انه لا يليق بنا أن نفكر فى الله بطريقة جسمانية مادية ، اذ هو غريب عن الشكل البشرى . وقـد روى لنا القـديس يوحنا كاسيان فى كتابه « المناظرات (٦) » أثر هذه الرسالة على جماعات الرهبان ، فقد رفضت المجامع قراءتها (٧) ، ماعدا القس بفنوتيوس الذى كان أبا لمنطقة شيهيت العليا ، فقد تلاها فى مجمعه .

للاسف تزعم الناسك البسيط صرابيون حركة مقاومة هذه الرسـالة الفصحية ، وقد انضم اليه حشود من الرهبان بسبب بساطته ونسكه .

---

(٥) مز ٩٩ : ٥ ، ١٠١ : ٦ ، ٧ ، مز ١١٩ : ٧٢ .
(٦) مناظرة ١٠ ، فصول ١ ــ ٦ .   (٧) فصل ٢ .

ومما يحزن قلب الانسان ، ان جماعات الرهبان التى خرجت الى البرية تتفرغ للصلاة والجهاد من اجل محبة الله والناس ، قد أخذتهم الغيرة والحماس فتركوا الاسقيط وخرجوا حشدا غفيرا الى الاسكندرية ، حيث احاطوا بالبطريركية يصيحون ويتوعدون مهددين بقتل الكافر ثاوفيلس ! هذا ما سجله لنا المؤرخون القدامى (٨) . . .

ربما لا أكون مبالغا ان قلت أن كثيرين منهم — فى بساطة — خرجوا وراء قلة يثقون فيهم ثقة عمياء ، خرجوا وهم لا يعلمون ماذا جاء فى الرسالة الفصحية ، أو ربما شرحها لهم القادة بطريقة مثيرة . . . لكن هذا لا يبرر موقفهم الثورى الذى لا يحمل ترويا ولا روحانية !

أما البابا ثاوفيلس الذى عشق الجلوس مع الآباء الرهبان (٩) كلما ضاقت نفسه نزل البرية ينعم ببركة الوجود بين رهبان قديسين بل وكثيرا ما كان يستشيرهم وينتفع بهم ، فقد أدرك خطورة الموقف . فان كثيرين منهم بسطاء وعباد وروحيين ، لكنهم يسهل قيادتهم بل يبذلون كل حياتهم من أجل طاعة مرشديهم الروحيين ، مملوئين غيرة وحبا لله . . . رأى أن الوقت ليس وقتا للجدال والنقاش بل أراد كسب صداقتهم حتى يعالج الامر بهدوء وسكينة .

بحكمة التقى بهم قائلا بلطف « اذ أراكم انظر وجه الله » . لم يتحدث فى خبث لكن بحكمة ، فانه يرى الله فى داخلهم كأولاد لله . أما هم فحسبوه يؤمن بوجود « وجه لله » جسمانى ، فسروا قوله تفسيرا حرفيا كعادتهم . وفعلا خفت حدة غضبهم ، واجابوه : « ان كنت تقول حقا بوجود ملامح لله مثلنا فاحرم كتب » أوريجين ، فقد استخرج البعض منها أدلة تخالف قولنا . وان لم تفعل ذلك فتوقع منا معاملتك ككافر عدو لله » .

أجابهم ثاوفيلس « انى مهتم بهذا الامر ، ومستعد أن أجيب طلباتكم لا تغضبوا على . فانى لست موافقا على أعمال أوريجين ، وألوم من يقتنيها»

عاد الرهبان الى أديرتهم ، وكاد الموقف أن ينتهى عند هذا الحد كقول المؤرخ سقراط لولا ثورة الاربعة الاخوة الطوال . فقد رأوا فى تصرف البابا جبنا واستهتارا بالعقيدة ومجاملة على حساب الحق . . .

---

(8) Soc 6 : 7 , Soz . 8 : 11 .

(٩) يشهد بذلك كتاب بستان الرهبان . . . فربما كان أكثر الآباء البطاركة حبا للتردد على الاديرة للاستجمام الروحى ونوال بركة النساك وطلب صلواتهم والاسترشاد بهم .

اما ما اشعل نيران المعركة بين الباب والاخوة الطوال ، الخلاف الذى حدث بينه وبين القس اسيذورس (اسيدور) .

بين اسيذورس والبابا ثاوفيلس (١٠)

بعد أن قام بتوزيع ثروته الكبيرة على الفقراء ، انطلق اسيذورس الى البرية يتنسك فى منطقة نتريا ، وقد حباه الله وجها بشوشا وطبيعة سمحة ولسانا عذبا ، يحبه كل من يلتقى به .

أحبه البابا اثناسيوس الرسولى فرسمه كاهنا ، وأخذه معه فى سفره الى روما ، وقد قضى اغلب حياته كمسئول عن المستشفى بالاسكندرية . كان عجيبا فى نسكه ، يقتنع بالقليل من الماء والخبز .

هو أول من التقى بهم بالاديوس فى زيارته الاسكندرية ، أول ناسك مصرى يتعرف عليه ، فأحبه جدا وكتب يمتدحه كثيرا .

كان وجهه مضيئا ، حتى كل من يراه يتعجب ! أحبه البابا ثاوفيلس جدا ، وكانت بينهما صداقة قوية ، حتى رشحه للبطريركية على القسطنطينية عوض القديس يوحنا الذهبى الفم . لكن هذه الصداقة انقلبت الى عداوة سافرة ، اذ عاد الى منطقة نتريا يلتصق بالاخوة الطوال ، وكانوا يمثلون عنصرا أوريجانيا مضادا للبابا ثاوفيلس ، الذى — فى نظرهم — قد مالا الانثروبوموفليت الاسقيطيين .. وهو فى نظره اعتبر هذا التجمع تحديا له ومن هنا بدأت العداوة العلنية بين الاوريجانيين والبابا ثاوفيلس .

اما سر خروجه الى البرية فقد تضاربت فيه الاقوال غير ان المؤرخ سوزومين يرجح القصة التالية (١١) : قيل أن أرملة قدمت للقس اسيذورس ذهبا ليشترى به ملابس للفقراء واشترطت الا يخبر البابا ثاوفيلس بالامر حتى لا يبنى به كنائس . لكن الخبر لم يختف عن البابا فتألم جداً واستدعاه يستجوبه . أجابه القس فى صراحة « الاهتمام بأجساد المتألمين الذين هم بحق هياكل الله افضل من بناء حوائط ، وأن المبلغ قد دفع لهذا الغرض » . ومن

---

(١٠) ايريس حبيب المصرى : قصة الكنيسة القبطية ج ١ ، بند ٤٦١ .
Palladuis : Dialogue 6 , Laus . His . ch 1 .
Soc . 6 : 9 , Soz . 8 : 2 , Theod 4 : 21 .
Budge : paradise ef the holy Fathers 1 : 89 — 91 .
Moulard : St . Jean Chrysostome , ch 16 .
Butler's Lives of the Saints , vol 1 , Jan . 15 .
(11) Soz . 8 : 12 ,

هنا كانت بداية الاحتكاكات التى انتهت بقطع الكاهن ، فهرب الى البرية يعيش حياة الوحدة والتأمل واستقبله الرهبان استقبالا حافلا أثار غضب البابا .

هذه العداوة بين البابا والاوريجانيين — ان صح التعبير — وجدت نعمة فى اعين الانثروبومورفليت ، الذين دخلوا مع الاوريجانيين فى مناضلة انتهت بانقسام البرية الى جبهتين استخدمت فيها الالفاظ الجارحة ، بل استخدموا اعمال العنف (١٢) .

روى لنا المؤرخ سوزومين ان الاب آمون أخذ معه بعض الرهبان والتقوا بالبابا يتوسلون اليه ان يعيد اسيذورس الى الشركة ، فوعدهم بذلك . واذ انتظروا لم يفعل شيئا فأعادوا الكرة ولم يفعل شيئا . أخيرا أدركوا أنه يماطلهم فذهبوا اليه وضغطوا عليه لعله يحقق ما وعدهم به وللاسف عوض ان يعيد الاب اسيذورس الى الشركة القى القبض على احدهم واودعه الحبس اما هم فذهبوا الى الحبس وتظاهروا بالرغبة فى مقابلة أخيهم يقدمون له احتياجاته . واذ دخلوا الحبس اعتصموا هناك ورفضوا الخروج منه . أرسل اليهم البابا يدعوهم للتفاهم معه فأبوا ، قائلين أنه أساء اليهم علنا بحبس أخيهم الراهب ، فلا يخرجون سرا ، ان اراد فليأت البابا بنفسه ويخرجهم من الحبس . لكنهم أخيرا رضخوا وخرجوا فاعتذر لهم عما حدث ..

هذا الحادث أثار نفس البابا ونفوسهم ، فتأزم الامر ، وجاءت الرسالة الفصحية لعام ٤٠٠م تهاجم الاوريجانية ، الامر الذى أثار هذه الجماعة ، خاصة انه يدعوها « هرطقة » أو بدعة ، بينما فى نظرهم (أوريجين) هو معلم المسكونة ...

من هنا بدأت التحديات العلنية ، وقد تحولت الاسكندرية ومنطقة نتريا الى صراعات وأحداث مشينة لم يسجل المؤرخون تفاصيلها ... ولذا فسنذكر أهم أحداث تلك الفترة :

١ — عقد مجمع بالاسكندرية حرم فيه آمون وأخواه الراهبان وربما بعض الاخوة المحيطين بهم .

٢ — اعتصم الآباء فى كنيسة الدير بنتريا ، ومنعوا دخول أحد من الاساقفة وأوقفت العبادة الجماعية .

٣ — زار البابا ثاوفيلس المنطقة ، واستغل البعض ذلك فحاولوا الهجوم على الاخوة الطوال ... مما اضطرهم الى الهروب والاختفاء فى مقبرة ، واذ لم يجدوهم أحرقوا قلاليهم وامتعتهم (١٣) .

---

(12) Moulard , Saint Jean Chrysostome , ch 16 .

(13) Moulard , ch 16 .

٤ ـــ استخدم البابا سلطانه الكنسى فى الحرمان ، كما استخدم الشدة ملجأ الى وسيلة النفى . . .

وهـــكذا فقدت الكنيسة جمالها الروحى ، وتحولت البرية المقدسة الى صراعات وتحزبات . . .

الاخوة الطوال فى فلسطين

هرب الاربعة الاخوة الطوال وفى صحبتهم الاب اســـيذورس ومعهم جماعة من الرهبان يقدرهم سوزومين بثمانين راهبا (١٤) وجاءوا الىأورشليم لعلهم يجدون لهم ملجأ فى قلب الاسقف يوحنا الاورشليمى المعروف باعجـــابه بأوريجانوس .

ترددت الاشاعات فى الاسكندرية أن الآباء الرهبان هربوا متوجهين الى القسطنطينية يعرضون قضيتهم ضد البابا ثاوفيلس .

اسرع البابا فارسل خطابا مجمعيا بعث به الى ١٧ اسقفا لفلسطين (١٥) و١٥ أسقفا لقبرص (١٦) ، جاء فيه (١٧) :

« الى السادة المحبوبين جدا ، الاخوة والاساقفة الشركاء . . .

ثاوفيلس يبعث تحيات فى الرب .

لقد زرنا اديرة نتريا بأنفسنا ووجدنا هرطقة « الاوريجانية » قد سببت دمارا عظيما بينهم . لقد صاحبها تعصب غريب : بتر أناس أعضاءهم (١٨) وقطع البعض السنتهم لكى يظهروا احتقارهم للجسد . لقد وجدت بعضهم انطلق من مصر الى سوريا والى مدن أخرى ، حيث تكلموا ضدنا وضد الحق.

---

(14) Soz . 8 : 13 .

(15) Eulogius, John, Zebianus, Auxentius, Dionysius, Gennadius, Zeno, Theodosius, Dicterius ,Prophyry, Saturninus, Alan, Paul, Ammonius, Hilanus, Eusebius, the other Paul and to all the Catholic bishops gathered together at the dedication festival of Aelid .

(16) Epiphanius, Marcianus, Agrapetus, Boethius, Helpidius, Entasius, Norbanus, Meccedonius, Aristo, Zeno, Asiaticus, Heraclidus, the other Zeno, Cyriacus and Aphroditus.

(١٧) قام القديس جيروم بترجمته الى اللاتينية (رسالة رقم ٩٢) .

(١٨) الاب آمون بتر أذنه اليسرى .

لقد قرأت كتابات أوريجين أمام مجمع من الاساقفة ، فاجمع الكل بحرمانه . ان أهم أخطائه التى وجد اغلبها فى كتاب ... هى :

١ — اذا قورن الابن بنا يكون « الحق » أما بالنسبة للآب فهو بطلان .

٢ — سينتهى ملكوت الله يوما ما .

٣ — يلزمنا الصلاة للآب وحده دون الابن .

٤ — ستكون اجسادنا بعد القيامة قابلة للفساد والموت .

٥ — ليس أحد كاملا فى السموات ، فان الملائكة أنفسهم مخطئون ، وبعضهم يغتذى على الذبائح اليهودية .

٦ — تشعر الكواكب بحركاتها ، وتعرف الشياطين من دورانها المستقبل

٧ — السحر ، ان كان حقيقيا ، فهو ليس شرا .

٨ — تألم المسيح مرة من أجل الناس ، وسيتألم مرة أخرى من أجل الشياطين .

هذا ويحاول الأوريجانيون أن يقهرونى للخضوع لهم ، فقد وشوا بى لدى الوثنيين فى أمر خراب معبد السيرابيوم (١٩) ، كما سعوا فى اخراج شخصين — متهمين بجرائم خطيرة — من القضاء الكنسى . أحدهما هو الامرأة التى قيدها اسيذورس خطأ فى قوائم الارامل والآخر هو اسيذورس نفسه ، قائد الحركة الهرطوقية ، الذى بثروته يمدهم بفيض لتنفيذ مشروعاتهم العنيفة

لقد حاولوا قتلى ،

لقد اغتصبوا كنيسة الدير بنتريا ، ولفترة ما منعوا الاساقفة الدخول فيها وممارسة العبادة فيها .

انهم الآن مثل بعلزبول ، يجوبون الارض هنا وهناك .

انى لم أضرهم فى شىء ، بل أنا حافظت عليهم .

انى لا اريد الصداقة (مع ايسيذورس) التى تفسد ايماننا ونظامنا .

أرجوكم أن تصدوهم أينما حلوا ، وتمنعوهم عن أن يقلقوا الاخوة الذين تحت رعايتكم .

---

(١٩) راجع موضوع حرق معبد السيرابيوم فى كتاب :
ايريس حبيب المصرى : قصة الكنيسة القبطية جـ ١ .

اثر رسالة ثاوفيلس فى فلسطين

اجتمع أساقفة فلسطين وبعثوا رسالة الى البابا ثاوفيلس وقام جيروم بترجمتها للاتينية (٢٠) جاء فيها :

« لقد نفذنا كل ما ترغبه ، لكن فلسطين فى غالبيتها لا تحمل وصمة الهرطقة ».

اننا نرغب لا فى قمع الاوريجانيين وحدهم ، بل وأيضا اليهود والسامريين والوثنيين .

لا وجود للاوريجانية بيننا ، فاننا لم نسمع هنا قط عن التعاليم التى تصفها لنا .

اننا نحرم المتمسكين بمثل هذه التعاليم ، كما نحرم تعاليم ابوليناريوس ، ولا نقبل قط احدا ممن تحرمهم انت .

كما بعث الاب ديوناسيوس أسقف اللد برسالة الى البابا ، يمدحه فيها على انتصاراته الواضحة على الاوريجانية ، ويحثه على الاستمرار فى الجهاد ضد الهرطقة . وقد قام جيروم ايضا بترجمتها الى اللاتينية (٢١) .

أما القديس جيروم فقد أعجب بموقف البابا ثاوفيلس الحازم ضد الاوريجانية ، فانه منذ حوالى ست أعوام كان الصراع قد بلغ أشده ضد روفينوس ويوحنا أسقف أورشليم ، حتى اضطر الاخير ان يلتجىء الى البابا ثاوفيلس ، الذى بدوره أرسل القس اسيذورس (المحب لكتابات أوريجين) فسجل تقريره للبابا فى غير صالح جيروم (وأبيفانيوس) .

اخذ جيروم يكتب الى ثاوفيلس عدة رسائل يعاتبه فيها على تهاونه مع الاوريجانيين ويحذره من خطورة التراخى معهم ، لكن البابا لم يجب عليه ، واخيرا اجابه عام ٣٩٧ برسالة يهدىء فيها قلب جيروم ، فكتب اليه جيروم يقول له (٢٢) :

« جيروم الى البابا الكلى الطوبى ثاوفيلس .

تذكر قداستكم انه فى الوقت الذى فيه صمت عن الكتابة لى ، انا لم اكف عن القيام بواجبى بالكتابة اليكم ...

ان كانت لجاجة المرأة قد غيرت عزيمة القاضى الظالم ، كم بالاكثر التجائى المستمر اليكم يلين قلبا أبويا مثلكم ؟ ...

(20) Jerome : EP . 93 .
(21) Ibid . Ep : 94 .
(22) Jerome, Ep . 63 .

ابرار كثيرون لا يسرون من طول اناتك بخصوص هذه الهرطقة المفزعة، اذ تحسب نفسك قادرا بلينك أن تصلح هؤلاء الذين يهاجمون أعضاء المسيح الحية . انهم يؤمنون أنه فى انتظارك توبة هذه القلة من الناس ، تسند جسارة أناس مهجورين وتعطى جماعتهم قوة .

وداعا فى المسيح » .

هذه الرسالة التى كتبت حوالى عام ٣٩٧ قبل قيام مشكلة الاخوة الطوال بحوالى ثلاث سنوات تكشف لنا عن موقف البابا ثاوفيلس الخفى . يقول Moulard أنه كان شغوفا بكتب أوريجانوس ، هذا أمر لا يشك فيه ، لكنه كبقية الآباء يعرف أخطاءه ولا يقبلها (٢٣) . . . كان يدرك بعض الاخطاء التى تسللت بين عشاق كتابات أوريجانوس، لكنه يؤمن أن كتاباته تحمل روحا وفكرا ، يمكن للقارىء أن يتجاهل ما ورد بها من بعض أخطاء عارضة . . . كان يؤمن بطول الاناة فى معالجة الخطأ . لقد عاد بعد عامين يكتب لجيروم (سنة ٣٩٩) مطالبا اياه بالتصالح مع الاب يوحنا أسقف أورشليم (الاوريجانى) ، فأجابه برسالة طويلة يظهر فيها شوقه للسلام وموضحا مضايقات الاوريجانيين له (٢٤) .

على أى الحالات ، اذ سمع بأخبار « منطقة نتريا » ومضايقات البابا للاوريجانيين اربيل اليه يهنئه على نجاحه فى جهاده ضد الاوريجانية ، محدثا اياه عن الاعمال الصالحة التى قام بها رسولاه بريسكوس Priscus وايبيلوس Eubulus . لقد طلب الصفح عن يوحنا أسقف أورشليم الذى قبل جماعة الاوريجانيين المحرومين دون أن يعرف قضيتهم وعن غير قصد (٢٥) .

« جيروم ، الى البابا الطوباوى ثاوفيلس .

تسلمت عن قريب رسائل من طوباويتك . . .

وانى اكتب اليك سطورا قليلة لاهنئك على نجاحك .

العالم كله يمجدك فى انتصاراتك .

جموع من كل الامم تتطلع متهللة الى الصليب الذى رفعته فى الاسكندرية عاليا ، والى النصب التذكارية المشرقة فوق الهرطقة .

لتحل البركات على شجاعتك !

لتحل البركات على غيرتك !

لقد كشفت أن صمتك الطويل لم يكن انحرافا بل حكمة . فاننى أحدث

---

(23) Moulard, ch 16 . (24) Jerome, p. 82 . (25) EP 86 .

غبطتكم فى صراحة تامة ، ان صبرك الطويل قد عذبنى ، ولم اكن اعرف خطة القائد ، فقد كنت اتوق الى هلاك هؤلاء المهجورين . لكننى كما أرى الآن ، لقد رفعت يدك عن الضرب لكى تضرب بأكثر عنف .

اما من جهة الترحيب الذى قـدمه لهم البعض ، فليس لك أن تغضب على اسقف المدينة ، اذ لم تعط اى تعليمات عن هذا الامر فى خطابك ، فانه كان يحسب متهورا أن يأخذ قرارا فى قضية لا يعرف عنها شيئا .

انى أظن أنه لا يود أن يضايقك فى شيء ، ولا يجرؤ على ذلك » .

فرح البابا ثاوفيلس برسالة القديس جيروم ، فعـاد يبشره بأخبـار الكنيسـة ، التى أرسلها مع الاسقف اغاثو والشـماس أثناسيوس ، يعلن له طرد الاوريجانيين من أديرة نتريا، ويشجعه علىاظهار غيرته على الايمان(٢٦)

« هلم من جانبك اشترك فى هذه المكافاة بمقالاتك الكتابية (الانجيلية)» مسرعا الى رد المخدوعين .

شوقنا هو ان نحفظ فى أيامنا هذه — ما استطعنا — ايمان الكنيسـة الجامعة ، واحكامها بل ونحفظ الشعب الذى تحت رعايتنا ، ونبدد كل تعليم غريب ! » .

لقد افتخر انه حصد الاوريجانيين بمنجـل النبى (٢٧) ، فأرسـل اليه جيروم يقول :

« جيروم ، الى الكلى الطوبى البابا ثاوفيلس .

لقد افرحتنى رسالتك فرحا مزدوجا ، فمن جهة فرحت بحامليها المكرمين والمعتبرين الاسقف اغاثو والشماس اثناسيوس ، ومن جهة أخرى انها تظهر غيرتك على الايمان ضد أشر هرطقة .

صوت قداستكم يدوى فى العالم ، وفرح كل كنائس المسيح قـد أبكم ايعازات الشيطان المسمومة .

لم تعد الحية القديمة تنفث ، بل قطعت اربا ، واختبـأت فى خبـاياها المظلمة ، غير قادرة على احتمال اشراقات الشمس !

---

(26) Jerome : Ep . 87 .

(٢٧) يوئيل ٣ : ١٣ .

لقد قمت ببعث رسائل الى الغرب فعلا قبل أن أخط لك هذه الرسالة ، وأشرت فيها لابناء لغتى (اللاتينية) بعض مراوغات الهراطقة .

لقد حسبتها عناية من الله أن تكتب الى البابا أنسطاسيوس (٢٨) فى نفس الوقت الذى كتبت فيه الى ، فانه مع عدم معرفتى بذلك ، تصير رسالتك هذه شهادة لى .

الآن اذ طلبت منى أن أفعل ذلك (اكتب مقالات ضدهم) فانى سأكون اكثر غيرة من الآخرين حتى أرد النفوس البسيطة ، القريبة والبعيدة . ان احتاج الامر فانى لا اتردد حتى ان صبوا غضبهم على ، فانه ينبغى أن أسر الله لا الناس (٢٩) ، وان كان بالحقيقة لهم الكثير يدافعون به عن هرطقتهم اكثر مما لى ولغيرى فى الهجوم عليهم .

أيضا ارجوك ان ترسل لى قوانين المجمع الخاص بهذا الموضوع ان كانت لديك ، حتى أستند بسلطان اسقف عظيم مثلك ، فاتحا فمى للمسيح بأكثر قوة وثقة !

منذ يومين وصل الكاهن Vincent من روما ، وهو فى اتضاع يسلم عليك . لقد أخبرنى مرة فأخرى ان روما بل غالبا ايطاليا كلها قد أنقذتها رسائلك بعد المسيح .

لهذا فلتجاهد أيها البابا المحبوب جدا ، الكلى الطوبى ، واذا ما أتيحت لك فرصة اكتب الى أساقفة الغرب بغير تردد لكى تقطع بمنجل حاد كل زوان الشر » .

هذه صورة للمكاتبات التى كانت بين البابا وجيروم . تكشف لنا عن ظروف دفعت البابا بالاكثر نحو هجوم الاوريجانيين ، فقد ظهر البابا كبطل يدافع ضد هرطقة يدعوها جيروم أشر هرطقة ، الحية القديمة ، زوان الشر! وقد بقيت هذه الصداقة بينهما ترويها كراهيتهما للاوريجانية، فحتى بعد صلح البابا مع الاوريجانيين سنة ٤٠٣ بالقسطنطينية بقيت رسائله الفصحية تندد بالاوريجانية ويقوم جيروم بترجمتها باللاتينية ونشرها فى الغرب (٣٠) !

---

(٢٨) أسقف روما ٣٩٨ — ٤٠٢ . (٢٩) أع ٥ : ٢٩ .

(٣٠) راجع رسائل جيروم : رسالة ٩٨ (الرسالة الفصحية لعام ٤٠٢ تعالج الاوريجانية والابولينارية) ، رسالة ١٠٠ (الرسالة الفصحية لعام ٤٠٤ تذم أخطاء اوريجين) ، رسالة ١٠٩ (يعتذر لتأخيره فى ترجمة الرسالة الفصحية لعام ٤٠٥ ، يرسل الترجمة التى قام بها رغم شدة مرضه ووجود اضطرابات من هجوم الاشوريين) .

اثر رسالة ثاوفيلس فى قبرص

ارسل البابا ثاوفيلس الى القديس ابيفانيوس رسالة خاصة يحثه فيها على عقد مجمع بقبرص لادانة الاوريجانية ويرسل قراراته مع نسخة من رسالة ثاوفيلس المجمعية الى القسطنطينية ، حيث كان الاوريجانيون قدانطلقوا من أورشليم الى القسطنطينية يعرضون قضيتهم علىالقديس يوحنا ذهبى الفم

وقد قام القديس جيروم بترجمة هذه الرسالة الى اللاتينية ، جاء فيها (٣١) :

« ثاوفيلس ، الى السيد المحبوب جدا ، الاخ ، والاسقف الشريك ابيفانيوس .

قال الرب لنبيه (٣٢) « انظر . قد وكلتك هذا اليوم على الشعوب وعلى الممالك لتقلع وتهدم . . . وتبنى وتغرس » .

فى كل عصر يمنح الله كنيسته ذات النعمة ، لكى يحفظ جسده (٣٣) كاملا ، لا يقوى عليه سم الافكار الهرطوقية فى اى موضع .

والآن ها نحن ايضا نجد الكلمات تتحقق ، لان كنيسة المسيح التى « لا دنس فيها ولا غضن أو شىء من مثل ذلك (٣٤) » ، تقطع بسيف الانجيل الحيات الاوريجانية الزاحفة من جحورها ، وتنقذ جوقات رهبان نتريا المثمرين من وبائهم المميت .

لقد بعث اليك صورة مختصرة لتصرفاتى معهم فى الرسالة العامة(٣٥) التى وجهتها للجميع بغير تمييز .

ولما كنتم غبطتكم دائمى النضال فى صراعات مثل التى أمامى فان واجبكم يحتم عليكم اليوم ان تسندوا الأيدى العاملة فى هذا الحقل ، فتجمعون اساقفة جزيرتكم (٣٦) . جميعهم لهذا الهدف . كما يليق بكم ان تبعثوا رسالة مجمعية لى ولأسقف القسطنطينية وللأساقفة الآخرين الذين ترون أن ترسل لهم ، لكيما يدان اوريجين نفسه والهراطقة الشائنة التى اوجدها ، وذلك بنضال جامعى .

لقد رفا الى علمنا ان جماعة من المفترين ضد الايمان الحق ، يدعون

---

(31) Jerome : EP. 90.

(٣٢) ار ١ : ١٠ . (٣٣) اف ١ : ٢٣ . (٣٤) اف ٥ : ٢٧

(٣٥) راجع جيروم : رسالة رقم ٩٢ . (٣٦) قبرص .

امونيوس ويوسابيوس وأنثيموس (٣٧) مملوئين حماسا زائدا لحساب الهرطقة قد أبحروا الى القسطنطينية لكى يلقوا بشباك خداعاتهم الى جماعة من المهتدين حديثا ما استطاعوا ، وأن يتداولوا من جديد مع أصحاب قدامى فى شرهم .

احرصوا على وضع الامور بين يدى الاساقفة فى Isar وبمفيلية والابروشيات المجاورة .

علاوة على هذا ، تستطيع ان تضم رسالتى (الى قرار مجمعكم) ، ان رايت ذلك ، فتجمع الكل معا بروح واحد ، وبقوة ربنا يسوع المسيح تسلم هؤلاء للشيطان لهلاك الشر الذى ملك عليهم (٣٨) .

ولكى تتأكد من سرعة وصول مراسلاتك الى القسطنطينية ابعث رسولا مجتهدا ، أحد الكهنة ، يقدر ان يروى الاحداث .

أطلب اليك فوق الكل أن تقدم للرب صلوات حارة ، حتى نستطيع أن ننتصر فى هذا النضال ، فان قلوب الناس بالاسكندرية وفى كل بقاع مصر تفرح فرحا ليس بقليل ، من أجل استبعاد قلة من الناس عن الكنيسة ، حتى يبقى جسدها طاهرا .

سلام للاخوة الذين معك .

الشعب الذى معنا يحييك فى الرب .

جمع القديس ابيفانيوس مجمعا فى جزيرة قبرص ، حيث اجتمع عدد كبير من الاساقفة ، هاجم فيه القديس اعمال أوريجين (٣٩) . ارسل نسخة من قرارات المجمع الى الاساقفة خاصة القديس يوحنا اسقف القسطنطينية ، كما أرسل نسخة منها مع رسالة خاصة الى القديس جيروم يطلب منه ترجمة القرارات الى اللاتينية ، ويبشره بنجاح المجمع ، ويعتبر نفسه سعيدا أن يقوم بهذا العمل المجيد فى شيخوخته . لقد امتدح ثاوفيلس « الذى نكس لواء الاوريجانية من مذبح الاسكندرية » ، وانه ليجد « فى شهادة هذا الاسقف العظيم تأييدا لما لم يكف عن اعلانه (٤٠) » .

فى بساطته الزائدة وغيرته سافر الى القسطنطينية — وقد ناهز الخامسة والثمانين من عمره — ليفند الآراء الاوريجانية ويقاوم « رهبان نتريا » الذين حملوا فى رأيه الهرطقة الاوريجانية ، ويقاومون البابا ثاوفيلس .

(٣٧) الاخوة الطوال ما عدا الاسقف .
(٣٨) ١ كو ٥ : ٤ ، ٥ .
(39) Soc . 6 : 10 .
(40) Jerome : EP . 91 .

الاخوة الطوال فى القسطنطينية

اذ كان البابا ثاوفيلس يلاحق الآباء الرهبان اينما حلوا ، لم يجدوا لهم موضع راحة ، فتركوا فلسطين وخرجوا يجولون من بلد الى آخر ، ويلتجئون من أسقف الى أسقف ، وأخيرا اضطروا للسفر الى القسطنطينية يلتقون بالبطريرك يوحنا الذهبى الفم فى أوائل عام ٤٠٢م .

مهما قال سقراط (٤١) فان البطريرك لم يكن يجهل المشادة التى قامت بين الاخوة الطوال وثاوفيلس (٤٢) .

اتجه الآباء الى دار الاسقفية حيث التقوا بالاب البطريرك الذى كان محبا لرهبان مصر ، يتغنى بالبرية فى مصر كما بفردوس النعيم ، ويتطلع الى رهبانها اكثر بهاءا من كواكب السماء (٤٣) ! لقد أحب المصريين فقال عنهم أنهم يغذون اجساد القسطنطينية بالقمح كما يغذون قلوبهم بالايمان .

فتح قلبه للرهبان الذين كشفوا له عن جراحاتهم ، يشكون له تصرفات البابا ثاوفيلس ، طالبين الا يخيب رجاءهم فيه بل يضمد جراحاتهم ، والا اضطروا الى الالتجاء للامبراطور ، الامر الذى لا يليق بالكنيسة . توسلوا اليه أن يعمل على مصالحتهم مع البابا ويتدخل فى ارجاعهم الى مصر (٤٤) . واذ كان البطريرك واثقا انه قادر على تهدئة غضب البابا عليهم أراح قلبهم وفتح لهم داره ... والتف الكل حولهم يسمعون لهم ويتعزون بكلماتهم وكانت الشماسات والارامل والعذارى التقيات يقمن بخدمتهم ، الامر الذى جلب عليهم تعييرات البابا ثاوفيلس (٤٥) .

أرسل القديس يوحنا الى بابا الاسكندرية يخبره بالامر ، طالبا الصفح عنهم ، مدافعا عنهم وعن العلامة أوريجين ، كما أرسل يخبره أن الرهبان قدموا شكوى ضده بالرغم من محاولته معهم على تهدئة خواطرهم ، وأنه فى موقف حرج لا يعرف كيف يتصرف (٤٦) .

ومن المؤلم أثارت رسالته غضب ثاوفيلس بدلا من رضاه ، خاصة وأنه عرف أن البطريرك قد سمح لهم بالشركة فى العبادة العامة ، مع أن القديس يوحنا لم يسمح لهم بالشركة فى الاسرار المقدسة حتى يأتى رد البابا — فأرسل اليه رسالة مملوءة جفاء وتعنيفا . اتهمه بتحريض الرهبان للتمرد عليه ، كما أعطاه درسا لا يستحقه ، بقوله : انت تعلم بلا شك قوانين نيقية التى تحرم

(41) PG 67 : 688 .
(42) Moulard . p 324 .
(43) In Mat .
(44) Palladius . PG 47 : 24 , 25 .
(45) Ibid 25 , 26 .
(46) Ibid 25 .

على الاساقفة أن ينظروا الدعاوى الخارجة عن حدود أبروشياتهم . ان كنت تجهل ذلك ، فاعلمه الآن وامتنع عن استلام شكوى مكتوبة ضدى . ان كان يجب أن احاكم ، تكون محاكمتى أمام المصريين ، لا أن احـــاكم امامك ، أنت الذى يفصلنا عنك طريق يستغرق خمسة وسبعين يوما (٤٧) .

لقد تأثر البطريرك جدا ، لعله أشار لذلك فى تفســـيره للرسالة الثانية الى أهل تسالونيكى ، عندما تحدث عن يوسف كعبد فى بيت فوطيفار المصرى، اذ قال (٤٨) : « كان يقدم حساباته لمصرى . وأنتم تعرفون أن هذا الجنس مندفع ، يثأر لنفسه . اذا ما نال سلطة لا يمكن وقف غضبه » .

تعرف الرهبان على البلاط الملكى — غالبا عن طريق القديس يوحنا الذى أحس بفشله فى تهدئة ثاوفيلس — وقد أعجب الكل بالآباء الرهبان خاصة الاب آمون ، الذى قدم شكواه الى الامبراطورة . لقد قالت له « باركنى . صل من أجل الامبراطور ومن أجلى ومن أجل أولادى ، ومن أجل الامبراطورية . انى اجاهد بعقد مجمع لمحاكمة ثاوفيلس (٤٩) » ... والقى القبض على مبعوثى ثاوفيلس حيث القوا فى السجن .

صدر الامر الامبراطورى بدعوة البابا ثاوفيلس للحضور الى القسطنطينية ليحاكم أمام مجمع كنسى يراسه القديس يوحنا، الامر الذى أثار نفس ثاوفيلس معتبرا القديس يوحنا محرضا للرهبان ضده أمام الامبراطور ...

أرسل ثاوفيلس الى القديس ابيفانيوس يعجله بالسفر الى القسطنطينية يهيىء له الجـــو قبل وصـــوله ، وفعـــلا قام القديس رغم شـــيخوخته الى القسطنطينية .

القديس ابيفانيوس فى القسطنطينية

استغل ثاوفيلس هذا القديس الذى تشـــهد كل الكنائس الرســـولية بقداسته . برغم شيخوخته لا يطيق أن يسمع عن هرطقة أو بدعة ، قديمة أو حديثة . وقد رأينا كيف انضم الى القديس جيروم يحاربان القديس يوحنـــا الاورشليمى وروفينوس من أجل كتابات أوريجين .

لقد أعتبر ابيفانيوس « أوريجين هرطوقيـــا » وحسب « الاوريجانية » هرطقة ... الامر الذى نرجو أن نتحدث عنه فى كتاب آخر بأكثر توســـع . لعله قد استغلت بعض عبارات أو أخطاء عارضة ، خاصـــة ما ورد فى كتابه « المبادىء » !

(47) Ibid25 . (48) PG 62 : 472 .
(49) Pallad PG 47 : 26 , Soz . H.E.

على أى الاحوال ، لا نستطيع أن ننكر فى أبيفانيوس حسن نيته وغيرته خاصة وقد ناهز الخامسة والثمانين من عمره ، فحسبه شرفا عظيما أن يتحمل المشـــاق ليخمد ــ فى نظره ــ البـــدعة الاوريجانية ويقف جنبا الى جنب مع ثاوفيلس الذى يمثل فى عينيه بطلا يحارب من أجل استقامة الايمان .

لقد جاء فى بدء عام ٤٠٣ متحاملا على القـــديس يوحنا الـــذهبى الفم ، لا لخلافات شخصية ولا لمطامع ، لكنه فى نظره « انسانا يحمى بدعة ! » .

جاء القديس ليجد الموازين قد تغيرت فى القسطنطينية ، فقـــد انقلبت الامبراطورة على القديس ولم تعد تطيقه ... اذ بدأ الخصام بينهما فى صيف ٤٠٣ .

يذكر لنا المؤرخ سقراط (٥٠) بعض أعمال استفزازية قام بها القديس أبيفانيوس ، فقد نزل بجوار كنيسة القديس يوحنا المعمدان (٥١) ، فأرســـل اليه القديس يوحنا كهنته لينزل دار الاسقفية أجابه أنه لن يقيم لديه ولا يصلى معه حتى يطرد ديسقورس وأخوته عن المدينة ، ويوقع بيده على ادانة كتب أوريجين ، فأرسل اليه يوحنا أنه لا يقدر أن يتصرف هكذا فى غير ترو قبل عقد مجمع عام ... لذلك نزل الاب ابيفانيوس فى فندق .

جمع الاب الاســـاقفة الذين كانوا فى العاصـــمة ، وكان معروفا بتقواه وهيبته ، وقرأ عليهم قرارات المجمع التى تدين أعمـــال أوريجين وطلب منهم التوقيع ، فوقع البعض ، وآخرون وقعوا خجلا منه ، لكن كثيرين رفضـــوا التوقيع منهم الاب ثيؤتيموس Theotimus of Scythia الذى قال (٥٢) :

« لا أقدر أن أسب انســـانا أنهى حيـــاته الورعة منذ وقت طـــويل يا أبيفانيوس ، ولا اتجاسر أن ارتكب كفرا كهذا ، أن أدين ما لم يدنه أسلافنا خاصة وأنا أعلم أنه ليس فى كتب أوريجين تعاليم شريرة » .

وتلا الاسقف ثيؤتيموس فقرات من كتب العلامة أوريجين ليكشف أنها تتفق مع تعليم الكنيسة وعقيدتها .

قيل ايضا أنه تعمد رسامة شماس فى كنيسة تتبع الاسقف يوحنا دون أن يستأذنه .

أخيرا حرضه أعداء يوحنا أن يذهب الى كنيسة الرسل حيث أعلن أمام الشعب حرمه لكتابات أوريجين وحرمه لديسقورس وأخوته كما اتهم القديس يوحنا بتشجيعه لهم .

---

(50) Soc 6 : 1214 .

(٥١) على بعد ٧ أميال من القسطنطينية (سقراط ٦ : ١٧) .

(52) Soc 6 : 12 .

سمع البطريرك بذلك ، فأرسل فى اليوم التالى اليه رسولا عند دخوله الكنيسة يقول له : « لقد صنعت أمورا كثيرة تخالف القوانين يا أبيفانيوس . أولا قمت برسامة فى كنائس خاضعة لى . بعد هذا — بغير استئذانى — أعطيت لنفسك سلطانا للخدمة فيها . أضف الى هذا انى دعوتك فرفضت الحضور ، وها أنت تعطى نفسك هذه الحرية . احذر لئلا تحدث ضدك ضجة بين الشعب ويصيبك منهم ضرر » .

اذ سمع الاسقف أبيفانيوس هذا التحذير ترك القسطنطينية ليعود الى جزيرته . وقد روى سقراط قصة محزنة — هو نفسه لا يعلم مدى صحتها — لكنها ان دلت على شيء فانما تدل على ضعفنا البشرى ، الذى قد يسقط فيه أى انسان ! قال سقراط أن الاسقف أبيفانيوس تضايقت نفسه فيه من تحذير الاسقف يوحنا ، وفى مرارة قلب قال له : انك لن تموت وأنت على كرسى أسقفيتك . فأجابه الاسقف يوحنا فى ضيقة نفسه أيضا « وأنت لا تظن أنك ترى وطنك » .

يعلق سقراط بأنه مع عدم تحققه من صدق الرواية ، فان النبوتين قد تحققتا ، اذ نفى يوحنا بعد عزله من الاسقفية ، كما لم يصل الاسقف أبيفانيوس وطنه بل مات فى الطريق وهو على المركب .

ما أن انطلق الاسقف أبيفانيوس من القسطنطينية حتى سمع الاب البطريرك أن أفدوكسيا لعبت دورا خفيا فى ثورة الاسقف ابيفانيوس ضده فوقف على المنبر يتحدث عن الرذائل التى تسببها النساء .

لقد أدرك العامة أن الحديث موجه كله ضد الامبراطورة ، فخرجوا يتحدثون عنها ، وقام بعض الوشاة بتبليغ الامر ، وهى بدورها شكت لزوجها بأن كل ما يمسها انما يمسه هو أيضا (٥٣) ، فانقلب ميزان القضية ... لقد وجدت فى حضور ثاوفيلس لمحاكمته الفرصة ليكون المتهم حاكما والقاضى متهما ... انها فرصة لا تجد مثلها فقد كان ثاوفيلس فى الطريق — حين سمع بهذا النبأ — وكان قلبه ملتهبا مرارة تجاه البطريرك يوحنا ...

يخبرنا المؤرخ بالاديوس أن ثاوفيلس كان فى الطريق حين بلغه نبأ طلبة لاقالة يوحنا كأمر لفدوكسيا (٥٤) وزوجها .

+ + +

---

(53). Soc : 6 : 15. Soz. 8 . 16. Theod. 5 : 34. Pallaadius 3 : 8 — 10.
(54) Palladius PG 47 : 26.

مجمع السنديان

SYNODAD QUERCUM

أخطأ البطريرك الاسكندرى فى قبوله دعوى الامبراطور لعقد مجمع عاجل لمحاكمة البطريرك القسطنطينى ، فما كان يليق به أن ينتقم لنفسه بهذه الصورة المحزنة . لقد تسرع فى ذلك ، فجمع حوله الطاقات المضادة للبطريرك يوحنا ، التى لا تعمل لاجل الحق بل تحمل كل ضغينة وكراهية لهذا القديس .

ففى طريقه الى القسطنطينية عرج على سيرينوس Cyrinus اسقف خلقدونية ، الد عدو للذهبى الفم ، اذ يعتبره كافرا ومتكبرا ومستبدا ... ثم دخل البسفور حيث استقبل فى القسطنطينية وسط تهليل العمال المصريين الذين وفدوا اليها مع القمح (١) .

بالرغم من ترحيب البطريرك يوحنا به لكنه رفض الالتقاء به ، أو التفاهم معه ، حاسبا اياه كأنه قد اقتيل فعلا .

يقول المؤرخ بالاديوس (٢) « جاء ثاوفيلس محملا بأطاييب مصر والهند ايضا ، محاولا أن يغطى بالعطر رائحة جسده النتنة ! » .

حاول ثاوفيلس عقد المجمع بالقسطنطينية ، لكن الامبراطور اعتذر من عقده بالعاصمة لسبب الشغب الذى بدأ يسرى وسط الشعب ، فعاد الاسقف يجر وراءه جماعة من الاساقفة المضادين ليوحنا الى قرية السنديان أو البلوط (٣) The Oak ، حيث دعى المجمع باسمها .

لقد تجمعت الطاقات المضادة مثل سيرينوس والاسقف سفريان الذى قام بدور لا يستهان به فى المجمع ، والاساقفة الذين عزلهم القديس فى زيارته لافسس بسبب رسامتهم بالسيمونية .

---

(1) Palladius PG 47 : 26. Soc PG. 67 : 79. Soz 67 : 1557 — 1560.
(2) Palladius PG 47 : 26. (3) Soz 8 : 14 .

بدا المجمع اعماله فى أوائل سبتمبر ٤٠٣م ، حيث عقدت جلساته الثلاثة عشر يقودها ثاوفيلس .

استدعى يوحنا أربع مرات للمحاكمة ولم يحضر (٤) ، محتجا بما جاء فى رسالة ثاوفيلس نفسه انه حسب قوانين نيقية لا يجوز لاسقف أن يتدخل فى امور خارج ابروشيته ... لكن لم يكن هذا هو لسبب الحقيقى ، فقد احس يوحنا بالمؤامرة التى يحركها الامبراطور لاستبعاده ، فاختبأ وراء القوانين (٥) لا نستطيع أن نتنبأ ماذا كان يمكن أن يحدث لو لم الامبراطورة لم تتضايق من القديس يوحنا ، وتمت محاكمة ثاوفيلس فى مجمع يستصدره القديس يوحنا!

جلســـات المجمع

فى بداية الجلسة الاولى قرأ الشماس يوحنـــا ، الذى أقاله البطريرك لاتهامه فى جريمة قتل أو شروع فى قتل ـــ الاتهام ، وكان يتلخص فى ٢٩ اتهاما ينعته سقراط بالبله :

١ ـــ طرد الشماس يوحنا طردا تعسفيا ، لانه ضرب عبده الصغير .
٢ ـــ ضرب راهبا يدعى يوحنا ، وقيد بالحديد بدعوى انه به شيطان.
٣ ـــ باع كثيرا من ممتلكات الكنيسة الثمينة .
٤ ـــ باع الرخام الذى خصصه البطريرك السابق نكتاريوس لكنيســة القديسة انسطاسية .
٥ ـــ سب رجال الاكليروس ووصفهم بالخســة والفســاد وانهم غير مهذبين ، لا يستحقون الا ثلاثة شواقل .
٦ ـــ اعتبر القديس أبيفانيوس مجنونا وشيطانا .
٧ ـــ دبر مؤامرات ضد الاسقف سفريان .
٨ ـــ كتب كتابا يهين الاكليروس .
٩ ـــ اتهم ثلاثة شمامسة أمام الاكليروس بسرقة معطفه .
١٠ ـــ سام انطونيوس أسقفا مع تأكده أنه سارق .
١١ ـــ فى شغب عسكرى سلم الكونت يوحنا بنفسه .
١٢ ـــ لم يصل قط عند دخوله الكنيسة أو خروجه منها .
١٣ ـــ سام قسوسا وشمامسة خارج المذبح .
١٤ ـــ سام اربعة اساقفة دفعة واحدة .
١٥ ـــ استقبل نسوة وانفرد معهن بعد أن استبعد الجميع .

---

(4) Moulard , ch 17 .

(٥) بجوار خلقيدونية بثينية .

١٦ ــ كلف Théodule أن يبيع ميراث Thècle .

١٧ ــ لم يعرف أحد أين يذهب عند دخوله الكنيسة .

١٨ ــ سام صرابيون رغم أنه متهم .

١٩ ــ سجن بعض أشخاص ، وعند موتهم بالسجن لم يأمر باعطاء أجسادهم لاقربائهم .

٢٠ ــ سب القديس العظيم اكاكيوس Acacius ولم يسمح له أن يتكلم .

٢١ ــ سلم الكاهن بورفيرى الى اتروبيوس لينفيه .

٢٢ ــ سلم الكاهن بيرونيوس Beronius بعد أن سبه كثيرا .

٢٣ ــ كان يسخن الماء لنفسه وعند خروجه من الحمام يقوم صرابيون بغلقه كي لا يدخله أحد .

٢٤ ــ كان يأكل بمفرده ويعيش حياة ترف .

٢٥ ــ كان يتهم ويشهد ويقضى بمفرده ، كما حدث فى أمر رئيس الشمامسة مارتيريوس Proérèse أسقف Lyae

٢٦ ــ وجه ضربة قاسية الى Memnon ، فسال الدم من فمه ، وبعد ذلك خدم القداس الالهى .

٢٧ ــ كان يرتدى ملابس الخدمة ويخلعها وهو على كرسى الاسقف .

٢٨ ــ كان يرشى بالمال الاساقفة الذين يرسمهم حتى يخضع الاكليروس له

٢٩ ــ قام بسيامات كثيرة بغير شهود .

اتهم أيضا الراهب اسحق البطريرك يوحنا أنه تحدث بالفاظ نابية ضد الامبراطورة ... وكان هذا الاتهام عقوبته الاعدام .

كما تقدم بعض الاساقفة المعزولين يشتكون ظلمه .

كما وجهت اتهامات اخرى لا تخرج فى جوهرها عن السابقة ، ووجهت اتهامات ضد المؤرخ بالاديوس وغيره بكونهم أوريجانيين .. غير أن مشكلة « الاوريجانية » لم تثر فى المجمع اللهم الا بالتلميح .

مجمع السنديان والاخوة الطوال

لم تثر مشكلة الاوريجانيين فى المجمع ، فقد خدمت الاحداث ــ ان صح هذا التعبير ــ البطريرك ثاوفيلس اذ تنيح الاسقف ديسقورس قبل انعقاد المجمع ، ودفن فى كنيسة الشهيد موشتيس (٥) ، كما تنيح الاب أمون

(5) Soc PG 67 : 716. Soz. 67:1560. Palladius PG 47:58. 59.

(امونيوس) قائد الحركة ، بعد اصطحابه للجماعة ووصوله الى السنديان، فبكاه ثاوفيلس ومدحه قائلا انه لا يجد راهبا نظيره فى زمانه (٦) ، وقد دفن فى مقبرة تسمى روفينيانا Rufinianae حيث تمت معجزات شـــفاء كثيرة من مقبرته ، وكان يحج اليه كثيرون ...

بعد نياحة الاب أمونيوس انسحب الاب هيراكس الى البرية الداخلية يقضى حياته فى العبادة ، اذ خشى أن يكون كمن وضع يده على المحراث فى رهبنته ونظر الى الوراء (٧) .

وفى نفس العام (٤٠٣) تنيح الاب ايسيذورس ...

هكذا وجد رهبان نتريا أنفسهم فى موقف لا يحسدون عليه ، اذ يوحنا ـ ملجأهم ـ يحاكم ، وثاوفيلس صارت له كلمته فى البـــلاط ، وقادتهم قـــد تنيحوا ... فتألموا معتقدين أن يوحنا قد تخلى عنهم ، واشتاق أغلبهم ، ان لم يكن جميعهم ، أن يعودوا الى برية مصر لا ينشغلون بشىء الا بالحياة الديرية على اثر خطوات هيراكس (٨) .

ارسل اليهم البابا ثاوفليس يقول انه يفتح ذراعيه لهموقد نسى الماضى ولن يفكر فى اذيتهم ، وضغط عليهم الاساقفة المصريون أن يعتذروا حيث تظاهروا انهم يشفعون لهم لديه ... فجاء الآباء الرهبان الى المجمع .وقـــد خجلوا من هيئة المجمع ولم يفكروا فى اثارة اى ضجة بل فتحوا قلبهم واعتذروا للبـــابا الذى قبل شركتهم وقال ان المشكلة قد انتهت (٩) .

لم يطلب منهم ان يعترفوا بالايمان الارثوذكسى ولا ان يتخلوا عن قراءة كتب أوريجانوس .. فقـــد ظهر حقا أن المشـــكلة لم تكن « حول كتابات اوريجين » ، لكنها دوافع شخصية !

انتهت مشكلة « الاخوة الطوال » وعاد الرهبان مع البابا ثاوفيلس ... لكن بعد أن لطخ البابا تاريخه بهـــذا المجمع الذى دعاه بالاديوس « مجمـــع المتوحشين (١٠) » ... اذ صار ثاوفيلس اداة لتحقيق رغبات الامبراطورة الشريرة ، تجمع حولها طاقات معادية لروح الحق .

---

(6) Palldius PG 47 : 59 & Soz . 67:1560. Palladius PG 47:59.

(٧) لو ٩ : ٦٢ .

(8) Moulard, ch 18. (9) Ibid.

(10) Palladius PG 47 : 36 .

قرارات المجمع

ذكر المؤرخ بالاديوس النص الذى وجهه المجمع الى اكليروس القسطنطينية والبلاط الامبراطورى (١١) : « اذ أتهم يوحنا بجرائم كثيرة ، وقد رفض الحضور ، فان القوانين تأمر بحرمانه ، هذا ما فعلناه . لكنه أيضا أساء الى جلالة الامبراطور ، لذا نطلب عزله عن كرسيه ، ولو تم الامر قسرا . أما بخصوص اساءته للامبراطور فان عقوبته عنها ليس من شأننا ».

أجاب الامبراطور بالموافقة على عزله واستبعاده ، دون أن يشير الى الاهانة التى وجهت ضده ، فكان أركاديوس أقل قسوة من الاساقفة .

عرف البطريرك قرار المجمع ، وفى هدوء قال ان الذى لم يغتصب الاسقفية يستطيع أن يعيش حرا ، لا يخاف الاستبعاد . لقد تحدث كثيرا عن الاضطهاد والضيق . . . وقد جاء وقت الكرازة بالعمل .

ففى كتابه عن الكهنوت (١٢) أشار الى قول السيد (١٣) « طوبى لكم اذا اضطهدوكم . . . معلقا عليها ان ذلك يتحقق عندما يطرد الاساقفة شريكهم فى الاسقفية حسدا ، أو ارضاء للناس ، أو حقد لسبب أو لآخر ، وكأنه كان يتنبأ عن نفسه الذى تحقق فى شخصه هذا كله .

كان عليه كقبطان ماهر أن يطوى شراعه لان ساعة هبوب الريح قد جاءت ، كما سبق فقال لشعبه (١٤) . . . ليخرج فى هدوء حتى لا يتسبب فى حدوث ثورة شعبية فى العاصمة !

وداعا !!

لقد عرف القديس يوحنا حب شعبه له ، فقد حدثهم مرة قائلا (١٥) «ان رأيتمونى فى خطر الا تعطونى — ان أمكن — اجسادكم مبذولة ! » ، لكنه لم يشأ ان يموت واحد بسببه او يتألم فانه مع اعترافه بعدم قانونية المجمع ، مطالبا بعمل مجمع مسكونى يعيد النظر فى القضية وجد نفسه ملتزما أن يخرج الى المنفى . فقد التف الشعب حوله ، وحاصر دار الاسقفية محاولا أن يمنع البوليس الامبراطورى من القبض عليه ، فخرج اليهم الذهبى الفم يتحدث معهم كلمة وداع مملوءة ايمانا ، تهدىء نفوسهم . لقد قال (١٦) :

---

(11) Ibid. 47:30.

12) De Sacerd. PG 48:648.

(١٣) مت ٥ : ١١ ، ١٢ .

(14) In Act. PG 60:232.

(15) Ibid PG 6:73.

(16) Cum de expuls. joan. PG 52:434—436.

قامت بالترجمة عن الترجمة الفرنسية الاخت عايدة حنا بسطا .

« المسيح معى ، ممن اخاف ! ان أمواج البحر ، الرؤساء فى غضبهم ، هذا كله لا يزيد عن خيوط عنكبوت ! » ثم أوصى شعبه بالثبات فى الايمان ، مطالبا اياهم أن يعودوا اليه فى اليوم التالى ليصلى معهم .

وقف وسط شعبه يحدثهم بشجاعة نادرة بحديث عذب رائع ، يقول (١٧):

هوذا الامواج تشتد والعاصفة تزداد عنفا ، لكنى لا اخاف الغرق فانى اقف على صخرة !

أن هاج البحر لا يستطيع ان يطويها ! لترتفع الامواج فانها لا تقدر أن تبتلع سفينة يسوع !

قل لى : ماذا اخاف ؟

اأخاف الموت ؟ « لى الحياة هى المسيح والموت هو ربح (١٨) » .

الخاف النفى ؟ « للرب الارض وملؤها (١٩) » .

أمصادرة الاموال؟ «لم ندخل هذا العالم بشىء ولن نخرج منه بشىء(٢٠)»

ان ما يبدو فى هذا العالم قاسيا لا يستحق منى سوى الازدراء ، انى أهزأ بممتلكاته ، لا أخاف الفقر ولا اشتهى الغنى ! لا اخاف الموت ولا أرغب الحياة الا لكى انمو فى القامة الروحية ! ...

لقد ادرك القديس يوحنا انها ليست حربا بينه وبين الامبراطورة ، ولا بينه وبين ثاوفيلس او سفريان او أكاسيوس او غيرهم ... لكنها حرب بين الله والشيطان ... الله يحفظ كنيسته وقوة الظلمة تعمل على تحطيمها ... لهذا يقول لهم تلك العبارات الروحية الرائعة :

« حقا ، ليس أقوى من الكنيسة ، من يحاربها يحطم قوته ، اذ لا يمكن محاربة السماء ! » .

« هل اتى بى انسان الى هنا ، حتى يقدر انسان أن يحطمنى ؟ ! » .

« انك (محدثا الشيطان) لا تستطيع الانتصار على عذراء واحدة ، فكيف تفكر فى الغلبة على هذا الشعب الكبير ؟! » ...

أخيرا أسلم الراعى نفسه فى يدى الجند من وراء شعبه وخرج مودعا مذبحه وشعبه ...

---

(17) Antequam iret in exsil PG 52:427—429.

(١٨) فى ١ : ٢١ .

(١٩) مز ٢٣ : ١ .

(٢٠) ١ تى ٦ : ٧ .

انطلق الاسقف سفريان الى الكنيسة ، حاسبا انها فرصة مناسبة لانتقاد يوحنا ، قائلا (٢١) :

« ان كان يوحنا قد ادين بدون سبب ، فانه يكفى تعاليه جريمة تبرر استبعاده !

يمكن للناس أن يغفروا كل الخطايا ، لكن « الله يقاوم المستكبرين (٢٢) » كما تعلمنا الكتب المقدسة .

لقد الهب سفريان غضب الشعب وازاد ثورته . فقد اخذ الهياج كل مأخذ حتى خشى الامبراطور من حدوث مذابح فى القسطنطينية فامر بعودته ، خاصة وان زلزلة حدثت فى تلك الليلة ارعبت الامبراطورة ، اعتبرتها — كقول بالاديوس (٢٣) . علامة غضب الله يحل عليها بسبب ظلمها للراعى الامين .

اسرعت الامبراطورة الى زوجها تطلب سرعة عودة الراعى ، وفى نفس الوقت كتبت بيدها رسالة تعتذر له عما حدث ، أرسلتها مع احد خصيانها يدعى Briso ترجوه العودة .

عبر القديس البسفور ، لكنه رفض دخول القسطنطينية الى كرسيه مالم تثبت براءته بحكم مجمعى يبطل حكم مجمع السنديان ، لكن الشعب خرج اليه متهللا يحملون المشاعل ويترنمون بالمزامير (٢٤) ، فالتزم أمام محبتهم ، ولاجل سلام المدينة وهدوئها أن يدخل « كنيسة الرسل » يشكر الله ويبارك اسمه القدوس (٢٥) .

مبارك هو الله فى كل شىء !

وقف الراعى بين رعيته الملوئين فرحا ، يشكر الله ويسبحه !

ذكر المؤرخ سزوومين (٢٦) ان البطريرك القى خطابا على شعبه ، فيه شبه اعتداء الاسقف ثاوفيلس بفرعون مصر الذى اغتصب سارة امراة ابراهيم ، كما مدح الامبراطور والرؤساء الذين أرسلوا اليه أن يرجع الى كنيسته فصفق له الحاضرون حتى اضطر من شدة التصفيق أن يختم حديثه .

توجد عظة للقديس يوحنا (٢٧) تحمل هذا التشبيه الذى تحدث عنه المؤرخ سوزومين ، وفيها يمتدح الامبراطورة مدحا فائقا ... لكنها لا تحمل احداث تلك الفترة ...

---

(21) Soc. 6:16.
(٢٢) ١ بط ٥ : ٥ ، يع ٤ : ٦ .
(23) Palladius PG 47—30.
(24) Soz. 8:18.
(25) Palladius PG 47:30.
(26) Soz. 8:18.
(27) Post reditum ad exsilis PG 52:443—448.

لقد أورد منى Migne (٢٨) العظة التى لقاها القديس يوحنا ، فيها يقدم لله ذبيحة شكر ، معلنا محبة الله وعنايته فى كل الاحداث ، فى الاستبعاد كما فى الرجوع ، فى الفرح . كما فى الضيق . . . اذ يقول :

« ماذا اقول ؟ وبماذا انطق ؟

مبارك هو الله ! هذا ما قلته عند رحيلى ، وهذا ما اردده الآن ايضا . .

اتذكرون انى تحدثت عن ايوب القائل : ليكن اسم الرب مباركا . الى الابد !

انى اكرر نفس العبارة : مبارك هو الله ! لقد دارت الاحداث ، فليتبارك الله ! فان الشتاء والصيف يتلاحقان من اجل اثمار الارض ، اى يعملان بهدف واحد . هكذا فليتبارك الله الذى تركنى ارحل ، وليتبارك ايضا لانه ارجعنى ! ليتبارك الله الذى سمع بالعاصفة ، وليتبارك الرب الذى نزعها وهدأها ! . . . »

مبارك هو الرب ! فقد شعر يوحنا بيد الله الخفية التى حولت الضيقة الى بركة لكثيرين ، فانه اذ يتالم الراعي تزداد الرعية حبا له ، حتى الذين كانوا لا يستريحون له أحبوه وجاءوا يسمعون له .

قبلا ، كانت الكنيسة وحدها مملوءة شعبا ، اما الآن فقد تحولت الاجور (٢٩) الى كنيسة انى اتطلع من اول الموضع حتى نهايته كانى أرى رأسا واحدة (من كثرة الازدحام) !

هو ذا الكل فى صمت يتعبدون !

البعض يترنم والآخر يبارك الله !

هو ذا اليوم تقام العاب السيرك ، لكن ليس من يذهب اليها ، فقد ركضتم جميعا الى الكنيسة كالسيل . صارت الجموع كفيضان ، واصواتكم ترتفع كالانهار ، تنساب نحو السماء ، وهى تلهج بحبكم للآب . . .

انظروا حقيقة ما اقوله لكم : ان احتمال الالم بشكر نافع ! هو ذا قد جمعكم الالم بجوار الرسل (٣٠) . لقد عدت انا الذى طردت لكى اكون بجوار من طردوا قبلى !

---

(28) Post. reditum ad exilis PG 52:439—442.

(٢٩) مكان عام ربما صالة ملحقة بالكنيسة .

(٣٠) فى كنيسة الرسل .

لقد واجهتنى مصاعب ، وهم ايضا احتملوا اضطهادات ! ... هنا تظهر حكمة القديس يوحنا ، فلا يتحدث عن نفسه كانسان قبل الآلام بشكر فكافأه الله بعودته الى شعبه بجوار رفات الرسل ... لكنه يبرز فضيلة شعبه ... لقد تعلقوا به جميعا ، ليس بينهم خائن ولا انسان غاش ، بل الكل قد تجمل بالحب ... انه يقول :

« كان جميعهم حملانا ، بيس بينهم ذئب واحد !

كلهم سنابل ، ليس بينهم اشواك !

كلهم كرمة ، ليس بينهم ثعلب !

لقد هلكت الحيوانات المفترسة وهربت الذئاب ...

أنتم رعية ، يا لعظمة الحملان ! ففى غياب الراعى طردت الذئاب ! ..

يا لجمال العروس ! ، أو بالحرى يا لعفة العروس (٣١) !

فى غياب العريس طرد الزناة (٣٢) !

يا لجمال العروس وعفتها !

لقد كشفت عن جمالها ونقاوتها : كيف طردت الزناة ؟

بحبك لعريسك ، كيف طردت الزناة ؟ لم تحملى سلاحا ، لا سيفا ، ولا عصا ، لكن بعظم عفتك قد كشفت عن جمالك فلم يحتملوا ضياءه !

اين هم الآن ؟ انهم فى خزى !

أين نحن ؟ فى فرح ! لقد اتحد معنا البلاط الامبراطورى وأصحاب السلطان أيضا .

ولكن ماذا نقول : ليكن الله معكم ومع أولادكم ، وليجمع الله فى شباكه عطفكم !

لنختم هذه العظة ، ولنشكر الله الرحوم على كل حال ، الذى له المجد الى الابد آمين » .

البابا ثاوفيلس يغادر القسطنطينية

لم يكن ممكنا للبابا ثاوفيلس أن يبقى فى القسطنطينية ، فغادرها الى الاسكندرية ، حاملا معه جريمتــه فى حق البطريرك يوحنا ذهبى الفم التى لم يغفرها له المؤرخون . مع انه قد أعلن فى أواخر حياته ندمه على ما فرط منه بخصوص ذهبى الفم ، بل كان هذا الامر هو الذى يشغل فكره فى لحظات انتقاله ، وقد وجد نص قبطى منقول عن البابا كيرلس الكبير (ابن أخته وخليفته) يتضمن ما قاله البابا ثاوفيلس فى لحظات انتقاله الى الفردوس ،

---

(٣١) رفضت العروس عريسا آخر غير يوحنا ذهبى الفم .

(٣٢) يدخلون كنيسة أخيهم يوحنا .

الامر الذى دفع البابا كيرلس ان يعقد مجمعا يلغى به الحرم الســـابق ويعــد ذهبى الفم قديسا تطلب الكنيسة صلواته اثناء الذبيحة المقدسة (٣٣) .

اما عن موقفه ـــ بالنسبة لكتابات أوريجين فقد عاد الآباء الرهبان الى أديرتهم يتعبدون لله لا يشغلون انفسهم بمناقشات او مجادلات ، اما هو فقــد جاءت الرسالة الفصحية لعام ٤٠٤ تحمل ايضا هجوما ضد « الاوريجانية » وان كان المؤرخ سقراط يقول (٣٤) انه وجد يقرأ فى كتب أوريجين فســئل : لماذا تقرأ فى اوريجين ؟ اجاب « كتب أوريجين تشــبه مروجا تتزين بزهور من كل نوع . ان وجدت فيها زهرة جميلة قطفتها وأما ما تبدو لى مملوءة اشـــواكا فانى اعبر عليها كى لا انضر بها ! » .



(٣٣) ايريس حبيب المصرى : قصة الكنيسة القبطية ج ١ ص ٤٦٦ .
مجلة نهضة الكنائس : نوفمبر ١٩٥٥ ص ٢٨٠ .
(34) Soc 6 : 17 .

الفصل الخامس

نفـــيـــم

٤٠٣ — ٤٠٧ م

ان كان البطريرك القديس قد قضى حياته الاولى كجمرة نار ملتهبة بالحب نحو خلاص الآخرين كارزا بفمه الذهبي، فقد التزم أن يقضى السنوات الاخيرة من عمره شاهدا بآلامه وأتعابه وكارزا بقلبه الذهبى أفضل بكثير مما فعله كل أيامه السابقة ! لقد دخل بؤرة الالم ليحمل بشجاعة صليب سـيده ، شاهدا للمصلوب لا بالبـلاغة ينطق بهـا على منبر الكنيسـة الرخامى ، وانما بالالم والتعب يدخل بها الى قلوب الكثيرين !

ففى خريف سنة ٤٠٣ أقام أركاديوس لزوجته أفدوكسـيا تمثـالا من الفضة (١) ، نصب على عمود من البرفير ، قائم على قاعـدة مرتفعة نقشت بأجمل النقوش (٢) .اقيم هذا التمثال فيأكبر ساحات المدينة بجوار كنيسة أمنا صوفيا بمحاذاة مجلس الشيوخ ، وفى حفل تنصيب التمثال اجتمـع الشعب فى الساحة التى تحولت الى مسارح وملاه وحفلات راقصة ماجنة .. ولم يطق ذهبى الفم هذا العمل بجوار الكنيسة فأخذ ينهى عن هذه الاعمال ويحرمها ..

أثار ذلك مشـاعر الامبراطورة ، فأدمت جراحاتها السابقة ، واشتد بها الضيق حتى فكرت فى عقد مجمع آخر فيه تستبعد ذهبى الفم من أمام وجهها . واذ سمع البطريرك لم يبال بالامر ، بل على العـكس وقف يوم عيد يوحنـا المعمدان يبدأ عظته بهذه الكلمات اللاذعة (٣) :

« هوذا هيروديا تثور من جديد ،

انها تعود فترقص ،

انها تطلب راس يوحنا من جديد فى طبق ! » .

---

(1) Soc 6:18. Soz. 8:20, Pallad. 9—12.

(٢) وجدت هذه القاعدة عام ١٨٤٨ ووضعت فى متحف القديسة ايرينه S. Irene باسطانبول .

(3) Soc 6:18, Soz 8:20.

فى هذه المرة اخفقت افدوكسيا فى اقتناع البطريرك ثاوفيلس ان يحضر ليجدد حكمه على يوحنا ، لكنها صممت الا أن تعقد مجمعا بالقسطنطينية ، فأوعزت الى الامبراطور ان يدعو الاساقفة . فجاءوا يتوافدون الى العاصمة ، كان من بين الذين قبلوا الدعوة :

سيفريان أسقف جبالة المقيم بالبلاط والمملوء حسداً وكراهية تجاه البطريرك يوحنا .

ليونتوس Leontius أسقف أنقرة ،

اكاكوس Acacus أسقف بيرية (حلب) ،

أنتيخوس أسقف عكة ،

أمونيوس أسقف لاذيقية بسيدية ،

بريسو Briso أسقف فيلبى .

فى أواخر عام ٤٠٣م التأم المجمع من حوالى مئة أسقف ، ولم يجد الاساقفة ما يشتكون به على البطريرك ، فأعلنوا أنه ما كان له أن يتسلم شئون رعاية كنيسة القسطنطينية دون أن يبرئه مجمع آخر ، وأن قرارات مجمع السنديانة قائمة ، يجب تنفيذها . . . لكن لم يكن ممكنا نفئ الاب البطريرك ، اذ كان الامبراطور يعلم ما يجره عليه مثل هذا التصرف . . .

تحولت القسطنطينية الى كتلة من الجحيم ، الامبراطورة مع الاساقفة فى حالة غليان ، يودون الخلاص من يوحنا لكنهم عاجزون . والشعب يشعر بالتيارات التى تجتازها الكنيسة ولا يعرف ماذا يفعلون . والبطريرك محصور بين حبه لشعبه وخوفه عليهم . . .

وسط هذا الجو المتأزم جاء عيد الميلاد ، وعلى خلاف العادة لم يحضر الامبراطور الاحتفالات الكنسية بالكاتدرائية ، ولا اشترك فى التناول من الاسرار المقدسة . . . معتبرا يوحنا معزولا عن كرسيه !

اقترب أيضا عيد الفصح لعام ٤٠٤ ، والبطريرك شبه معتقل فى دار الاسقفية ؛ لا يسمح بممارسة خدمته فى الكنيسة (٤) . . . فاضطر أركاديوس أن يأمره بالخروج من الكنيسة ، أما هو فأجابه قائلا (٥) : لقد تسلمت الكنيسة من يسوع المسيح ، ولا أستطيع التقصير فى خدمتها ، فان أردت لى أن أترك هذه الحظيرة المقدسة أطردنى بالقوة . . . وجاء سبت النور ، وكانت الكنيسة تستعد لتعميد طالبى العماد والسهر طوال ليلة العيد ، فطرد ذهبى

(٥) للمؤلف : كيرلس الاورشليمى .

(4) Soc. 8:21 .

الفم من الكنيسة ، وحظر عليه الخروج من قلايتـه (٦) ، كما طرد رجـال الاكليروس الذين يميلون اليه من الكنائس .

التجأ الكهنة مع الشعب الى الحمام الكبير الذى شيده قسطنطين الكبير وحولوه الى كنيسة يقضون فيه خدمة العيد ... لكن سرعان ما دخل الجند وهجموا على الشعب ، وتحول الحمـام الى عويل وبـكاء وضرب الكهنـة والشمامسة ، وطردوا بثياب الخدمة ، وتلطخت المعمودية بالدماء (٧) .

خرج المؤمنون خارج أسوار المدينة يقيمون الذبيحة فى ميدان قسطنطين، ومنذ ذلك الحين صار الشعب يعقد اجتماعات — متى كان الوقت مناسبا — تارة فى موضع ، واخرى فى موضع آخر ... وصار أضداد البطريرك يسمونهم باليوحناويين (٨) Johnites

تأزمت احوال المدينة ، فقـد روى المؤرخ سوزومين — أن عبـدا كان يجرى نحو دار الاسقفية ، واذا ما قابله احد ليسأله عن سر جريه ، يطعنه بخنجره ... فالتف الشعب حوله ، وامسكوه ، واسلموه للقصر الامبراطورى يتهمونه بمحاولة اغتيال البطريرك ، طالبين ادانته . وفعلا هدأ الوالى روعهم والقى به فى السجن ، معلنا لهم أن العدالة تأخذ مجراها ...

هز هذا الحادث الشعب ، وخاف كثيرون على حياة بطريركهم المعتقل داخل دار الاسقفية ، وتناوب بعض المتحمسين حراسة الدار ليل نهار (٩) .

فى ذلك الوقت كتب الاب البطريرك رسالة وجهها الى انوسنت Innocent أسقف روما ، وفنريوس Venerius أسقف ميلان ، وكروماتيوس Chromatius أسقف أكويلية ، يخبرهم بالامر ، طالبا ضرورة تدخلهم لتهدئة الاضطرابات فى القسطنطينية ... وقد جاءت الرسائل الثلاث بنص واحد ، تحمل هدوءاً مع وضوح فى عرض قضيته .

لم يدم الامر طويلا فقـد دخل اكاسيوس واعـوانه الى الامبراطور أركاديوس وكان ذلك فى الخميس بعد العنصرة مباشرة ، يتعجلون تنفيذ قرار النفى من أجل سلام الكنيسة والشعب ، معلنين مسئوليتهم الخاصة فى هذا الامر .

---

(6) Bardy G. : Saint Jean de Const. 4 : 141.

الدكتور اسد رستم ، مجلد ١ ص ٢٧٩ .

(7) Soc 6 : 18. Pallad. 33. 34. (8) Sox . 8 : 21 .

(9) Soc. 6 : 18. Soz. 8 : 22. Theod. 5 : 34 .

اقتنع الامبراطور برايهم وارســـل احد كبار رجاله الى الاب البطريرك برسالة ترك الكنيسة من اجل السلام العام (١٠) ، فخضع للظلم الجائر ، اذ يخرج متألما من اجل رعيته المتألمة .

خرج من دار الاسقفية الى الكاتدرائية يقبل المـذبح قبلاته الاخيرة ، ويلتقى بشعبه الثائر الذى ملأ الكنيسة يريد أن يرى اسقفه للمرة الاخيرة .

قبل البطريرك الاساقفة الذين معه قبلاته الاخيرة وهو يقول لهم « انى اترككم الآن ، انتظروا رجوعى اليكم » . ثم دخل المعمودية حيث اسـتدعى الشماســـة اولمبياس وزميلاتها حيث قال لهن : « تعالوا يا بناتى واسمعوا لى . فقد تحدد مصيرى ... لقد انتهى طريقى ، فقد لا ارى وجوهكن مرة اخرى . رجائى اليكن ان لا تترك واحدة منكن خدمتها فى الكنيسة . فانه أيا كان الاسقف الذى يرسم بعدى اخضعن له كما ليوحنا تماما ، مادام لا يعتلى الكرسى بالدسائس ويختار بتزكية جماعية ، فانه ينبغى ان يكون للكنيســة اسقف بهذا تجدن رحمة . اذكرونى فى صلواتكن » .

بكت الشماسات ووقعن على قدميه ... أما هو فاضـــطر ان يتركهن ويخرج من المعمودية خارج الكنيسة دون أن يراه الشــعب ، وانطلق الى الميناء لكى تبحر به السفينة الى بيثينية ، مدركا انه لا يعود بعد يرى شعبه ، ولا يتحدث مع هؤلاء الذين احبهم ، الذين هم احشاؤه ، ولدهم فى المســيح يسوع ربنا !

احتراق الكاتدرائية

خشى اعداؤه أن يركض الشعب اليه ويلحق به ويلزمه بالعودة قسرا ، فصدرت الاوامر باغلاق أبواب الكنيسة على من بداخلها ... لكن سرعان ما انتشر الخبر فى كل القسطنطينية ، وجاء من الشعب من كان فى الاماكن العامة يجرى يمنة ويسارا ، لا يدرى ماذا يفعل . اسرع البعض نحو الشاطىء لعلهم يقدرون ان يلحقوا بابيهم قبل ابحاره ، وآخرون صاروا يطيرون فى شــوارع المدينة ... وحدث رعب وسخط ضد الامبراطور . أما الذين كانوا داخــل الكاتدرائية فقد شعروا بالخديعة ، فاتجهوا نحو الباب المغلق وضغطوا عليه بعنف فانكسر ، واندفعوا تجاه الساحة ليجدوا جماعات من الاعداء يقذفونهم بالحجارة ويدفعونهم دفعا للعودة تجاه الكنيسة ... وفى لحظات ارتفع لهيب النيران فى الكنيسة من كل جهة ، ثم لحق بســقفها . فى وقت قصـــير دفعته

(10) Palladius . dial. 10 .

الرياح تجاه مبنى مجلس الشيوخ ليأتى عليه تماما ... وقد بقيت النيران مشتعلة طول الليل ، منذ العشية حتى الصباح ...

الهب الحريق جو االقسطنطينية ، فقد اتهم أتباع يوحنا أضدادهم أنهم دبروا خطة الحريق لكى يقتلوهم داخل الكاتدرائية ، وقال البعض أن النار قد خرجت من تحت المذبح تعلن غضب الله على ما حدث فى الكنيسة تجاه الاسقف المظلوم يوحنا ، وقام اضداد يوحنا يتهمون اتباعه انهم صنعوا هذا الحريق تنكيلا بالسلطات ... فصار الحريق فرصة للتنكيل بهم ...

لم تمض فترة قصيرة حتى رسم أرساكيوس Arsacius ، اخو البطريرك السابق ليوحنا « نيكتاريوس » ، ليكون أسقفا على القسطنطينية . وكان شيخا ابن ثمانين عاما ، طيب القلب ، يحمل سمعة حسنة افسدها بالتصرفات التى قام رجال الاكليروس فى عهده تحت اسمه . من ذلك أنه اذ رفض اتباع يوحنا الاشتراك معه فى الصلاة ، ويبدو أنهم — فى ثورتهم الداخلية — بداوا يقاومونه ، فأبلغ السلطات ، فهاجم الجند اجتماعاتهم ، وتعدوا الاوامر الصادرة اليهم — كما هى العادة فى مثل هذه الظروف — اذ سلبوا ونهبوا حلى النساء وضربوا الكثيرين ...

لقد ذاق اتباع يوحنا الامرين ، وكما روى سوزومين أن بعضهم امتنع عن الظهور فى الاماكن العامة والاسواق ، بينما اضطر البعض الى الهروب من المدينة .

ذكر سوزومين امثلة من الذين أصابهم الضيق بسبب الاسقف يوحنا ، نذكر منهم :

١ — **القديسة نيكارتيه** Nicarete ، وهى سيدة من بثينية ، تنتمى الى احدى العائلات الشريفة ، امتازت باتضاعها وصمتها وحسن سلوكها وتصرفها، رفضت قبول اقامتها كشماسة او كبتول تخدم الكنيسة وذلك لاحساسها بعدم الاستحقاق ، مع انها عاشت حياتها فى بتولية دائمة ، بسيرة فاضلة ، تفضل خدمة الله فى كل شىء أكثر من أهتمام أرضى ...

٢ — **القارىء (اغنسطس) اتروبيوس** : استدعته السلطات وشددت عليه ان يعترف بأسماء الاشخاص الذين اشعلوا النيران فى الكنيسة ، أما هو فلم يذكر اسما رغم شدة العذابات التى وقع تحتها فقد جلدوه بعنف زائد ، كما مشطوا جنبيه ووجهه بأمشاط حديدية ، ووضعت مشاعل بجوار اجزاء حساسة من جسمه وإذ رفض الاعتراف بشىء القى فى جب، حيث انتقلت نفسه هناك بعد قليل .

يقول سوزومين انه يليق به ان يروى قصة الحلم الذى راه سيسينوس Sisinius اسقف اتباع نوفتيان ، فقد راى فى نومه رجلا جميلا يجلس بجوار

مذبح الكنيسة التى دشنها اتباع نوفتيان باسم القديس اسطفانوس اول الشهداء ، وكان الرجل يشكو ندرة وجود أناس اتقياء ، وانه اخذ يبحث عن انسان تقى فى كل المدينة فوجده ، واذ به اتروبيوس . قام سيسينوس من النوم يبحث عن القارئ اتروبيوس من سجن الى سجن حتى وجده أخيرا ، وتحدث معه يخبره بالحلم الذى رآه ، طالبا بدموع أن يصلى من أجله .

٣ ــ القديسة الشماسة اولمبياس Olympias ، سبق لنا الحديث عنها ، كانت المدينة كلها تعلم الكثير عنها فقد أوكل اليها بيت العذارى والأرامل . اتهمت ضمن المحرضات والمحرضين على اشعال النار فى الكنيسة . هاجمها الوالى وحاول مضايقتها ، لكنها بجراتها وتصرفاتها الباسلة أمامه ادهشت الكثيرين . لقد أعلنت له أنه يجب محاكمته هو ... وبعد صراع مر معه اضطرت الى ترك القسطنطينية الى Cozicus ، ولم يعرف ان كان خروجها حدث بمحض اختيارها أم قسرا .

فى وسط هذه الأتعاب كان قلبها يحترق من أجل خدمة الكنيسة بالقسطنطينية ، من أجل العاصفة التى اجتاحت كل جوانب عملها ، كما كانت تتالم لأبيها المستبعد عن كرسيه وعمله الكرازى ... لكن البطريرك يوحنا لم يتركها فى آلامها بل ارسل لها عدة رسائل من منفاه مملوءة تعزيات . تحدث فيها عن فائدة الآلام والتجارب كما بشرها ببعض اخباره المفرحة ، مشجعا اياها على العمل والجهاد .

٤ ــ الكاهن تيجيروس Tigirius : كان فى أصله عبدا ، لكنه عتق بسبب تقواه وخدماته المملوءة اخلاصا فرسم قسا .. وكان يتسم بالوداعة ومحبة الفقراء والغرباء . بسبب الأحداث الأخيرة جلد على ظهره ، وقيدت يداه ورجلاه ، وشد جسده فى عذراء (١١) rack .

الى المضطهدين :

كتب القديس يوحنا الى الأساقفة والكهنة والشمامسة المضطهدين بسببه يقول لهم (١٢) :

« انكم تحسبون شهداء . لقد حسب شهيدا ذاك الذى قاوم الزواج غير الشرعى ، هذا الذى عاش فى البرية ووضع فى السجن وقطعت راسه(١٣) ... وانتم ايضا تدافعون عن قوانين الآباء التى وطأتها الأقدام ، وعن الكهنوت الذى أهين ودنس . لقد تألمتم كثيرا من اجل الحق لكى تضعوا نهاية للنميمة الفاضحة .

اذكروا المكافأة التى ستنالونها » .

---

(١١) آلة تعذيب تمط الجسم .

(12 Ad. episc. presb. et diac. PG 52 : 541 .

(١٣) القديس يوحنا المعمدان .

فى نيقية

خرج القديس الى الميناء الى نيقية ، حيث بقى فى السجن حوالى اربعين يوما أو اكثر يذوق فيها المرارة ، اما هو فلم يشتك من ذلك ، بل ظلت نفسه تتقد غيرة نحو خلاص الناس فى سوريا وفينيقية . لم يستطع السجن ولا المستقبل المجهول أن يلهياه عن رسالته ، فقد التقى فى نيقية براهب تقى زاهد ... ولم يكن حديثه معه الا فى الخدمة والكرازة ، واذ وجد فيه استعدادا للخدمة فىفينيقية ارسله الى كاهنه وصديقه قسطنديوس الذى يعمل هناك متكبدا مضايقات الكثيرين من الوثنيين والاخوة الكذبة (١) .

تستطيع أن تلمس روح القديس مما جاء فى رسالته الى الكاهن قسطنديوس (٢) :

« انى اكتب اليك الآن لكى احثك على اتمام ما نصحتك به ، فان رأيت بحر هذا الاضطهاد قد هاج ، وتعالت امواجه الى السحاب ، فلا تهمل شيئا واحدا مما انت ملتزم به .

اهدم نفاق الوثنيين .

شيد كنائس ، واهتم بخلاص النفوس .

ان رئيس المركب لا يترك الدفة بسبب صدام الأمواج ، ولا يهمل الطبيب المريض من اجل خطر مرضه . اذن لا نضطرب من الشرور الآتية ، فان الله لا يحاسبنا على ما يمسنا من شر ، بل يجازينا عليه أن احتملناه بصبر . اما اذا تغاضينا عن خدمته واهملنا ما يتعلق بعبادته وخدمة كنيسته ، فانه لا يمكننا أن نعتذر لديه باضطرابات الزمن أو شدة الاضطهاد ، لان بولس الرسول الموثق بالقيود ، ويونان فى بطن الحوت ، والثلاثة فتية فى اتون بابل كانوا يقومون بما يجب عليهم . اقتد اذن بهم ، مهتما بامر الكنائس واكتب لى كم كنيسة قد بنيت هذا العام ؟ ومن هم الذين مضوا الى بلاد فينيقية ليخدموا هذا الكرم الجديد ؟ وماذا يرجون هناك من خير ؟ » .

---

(1) Theodoret 5 : 29 .

(٢) قطف الأزهار من مروج الأحبار .

هذه صورة من رسائله التى بلغت حوالى ٢٤٢ رسالة — طوال فترة نفيه — كلها تحمل مشـــاعر كرازة وتشجيع وتثبيت فى الايمان بروح مسيحى حق ، تكشف عن قلب مملوء ايمانا وسلاما داخليا فى رجاء عجيب .

تستطيع ان تدرك مشـــاعره الداخلية فى اغلب فترة نفيه مما كتبه الى الاسقف قرياقوس Cyriacus (٣) .

« عندما استبعدت من المدينة لم اقلق ، بل قلت لنفسى :

ان كانت الامبراطـــورة ترغب ان تنفينى ، فلتفعل ذلك ، فانه « للرب الارض » !

وان كانت تود ان تنشرنى ، فانى ارى اشعياء مثلا !

وان ارادت اغراقى فى المحيط ، افكر فى يونان !

وان القيت فى النار ، اجد الثلاث فتية قد تحملوا ذلك فى الاتون !

ان وضعت امام وحوش ضارية ، اذكر دانيال فى جب الاسود !

ان ارادت رجمى ، فان اسطفانوس اول الشهداء امامى !

ان طلبت راسى ، لتفعل ، فان المعمدان يشرق امامى !

عريانا خرجت من بطن امى وعريانا اترك العالم .

بولس يذكرنى : ان كنت بعد ارضى الناس لست عبدا للمسيح » .

اودع البطريرك فى السجن بنيقية حتى يصدر الامر الامبراطورى بتحديد مكان النفى . . . وفى السجن كتب رسالته الاولى الى اولمبياس شماسته المتالمة لكى يعزيها ويسندها ، قائلا (٤) :

« كلما قست التجارب ازدادت وسائل التعزية . . .

ان كنا نبحر فى بحر كهذا — وسط دوامات وصخور ، فى ليلة غير قمرية ظلامها دامس — لكننا افضل حالا من الذين هم فى داخل الميناء يتأرجحون !

تأملى هـــذا يا سيدتى المحبوبة جدا من قبل الله . ارفعى افكارك عن الاضطرابات ، وتكرمى علينا بارسال أخبارك .

فمن جهتنا ، نحن بصحة جيدة مملوءون نشاطا . بالحقيقة جسدنا قوى ، نستنشـــق هواءا نقيا ، والجنود الامبراطوريون (٥) المرافقون لى فى النفى يحبوننى للغاية ويتفننون فى خدمتى ، ولا يتركوننى معتازا الى شىء كانما هم حرسى ! . . .

---

(3) N & PNF , series 2 , vol 9 , p 14 .

(4) Ep 11 ad Olympias PG 52 : 609 (كتبها فى يونيو ٤٠٤) .

(٥) التعبير اليونانى يشير الى جنـــد تابعين للبلاط الامبراطورى . . .

شيء واحد يؤلمني : انى غير مطمئن من جهتك ...

أن اردتى ان تكتبى لنا فالجئى الى — ابننا المحبوب جدا وسيدى، برغاموس — فهو مضمون وملتصق بنا جدا ، وهو يحترمك جداً من اجل عفتك وتقواك ».

اخيرا جاءت رسالة من الامبراطور أركاديوس الى المتعهد بالبطريرك، تأمره بالقيام به الى كوكوزه فى اقصى بلاد أرمينية ، كمقر نهائى لنفيه ، كما جاءت الاوامر مشددة ان يكون التعامل معه قاسيا ، وان يواصلوا السفر نهارا وليلا، اجهادا وتعجيلا ...

عبثا حاول البطريرك ان يغير مكان نفيه اذ كتب فى احدى رسائله (٦) ! « لم أستطع ان احصل على هذا الرجاء البسيط ، الذى لا يرفض للمجرمين. ولكن ليكن اسم الله مباركا ! » .

وفى ليلة رحيله من نيقية ، فى الثالث من شهر يوليو كتب الى شماسته اولمبياس رسالة يطمئنها بنفس العبارات التى سجلها فى رسالته الأولى ، يطمئنها على صحته الجسدية واهتمام المرافقين له به ... مطالبا اياها أن تكتب له فى صراحة لا عن صحتها الجسدية فحسب بل ان تؤكد له أن سحابة الحزن قد زالت عن فكرها ... « ان كنت تخبريننا حقا بهذا فى رسائلك ، فاننى اكتب لك كثيرا ما دامت هذه الرسائل تأتى بنتيجة عظيمة ... اثبتى لى فى وضوح انك تستفيدين برسائلى المتكررة فتجديننى فى خدمتك اكتب بكثرة(٧) » .

اخيرا عاتبها معلنا شدة حزنه لوصول كثيرين اليه من القسطنطينية دون ان يحملوا اليه رسالة منها .

+ + +

---

(6) Epistle 120. PG 52 : 674 — 675.
(7) Epistle 10 PG 52 : 608 —609.

إلى قيصرية

نستطيع أن نتتبع رحلة البطريرك يوحنا خلال رسائله ، خاصة تلك التى بعث بها الى شماسته أولمبياس . فقد وصف لها كل شىء بتدقيق .

انطلق الأسقف الأسير من نيقية فى الرابع من شهر يوليو سنة ٤٠٤ يصحبه ركب من الجنود يقسون عليه ما استطاعوا . وقبيل وصولهم الى قيصرية كبدوكية كتب الى شماسته يصف لها رحلته قائلا (١) :

« انى اتصور ماذا تكون مشاعرك نحوى عندما أرى أفواجا من الرجال والنساء يتدفقون علينا فى الطريق ، وفى الفنادق ، وفى البلاد ، يروننا ويبكون!

ان كان الذين يروننى مرة يحطمهم الالم فيبكون علينا دون أن يتمالكوا انفسهم ، بالرغم من رجائى وتوسلاتى اليهم ، اذ كانت دموعهم تنهمر باستمرار ، كم بالأكثر تكون عاصفة حزنك ؟! لكن اعلمى انه كلما اعدادت العاصفة كثرت المكافآت ، ولكن بشرط أن تتحملى هذا بشكر وشجاعة ...

لا تتركى نفسك للحزن ، بل اقبلى العاصفة بتعقل ... » .

وبعد وصوله قيصرية كتب اليها يقول (٢) :

« كان الذين يقابلوننا فى الطريق — الآتون الينا من الشرق أو من أرمينيا أو من اية بقعة فى الأرض — تنساب دموعهم كالنهر كلما رأوننا ، كانوا ينوحون وهم يرافقوننا فى الطريق فى انين !

اقول هذا لكى تعرفى أن لى أحباء كثيرين ، يشاركوننا عذابنا ، وهذه تعزية كبيرة لنا . فلو أن الأمر على خلاف ذلك لكان الوضع ثقيلا يصعب احتماله، وهذا ما يشتكى منه النبى قائلا(٣). « انتظرت انسانا يشاركنى آلامى فلم يكن ، ومعزين فلم أجد » .

---

(1) Epistle 9 ad Olympias PG 52 : 608 آخر يوليو ٤٠٤

(2) Epistle 8 ad Olympais PG 25 : 607 — 608 .

(٣) مز ٦٩ : ٢٠ .

بها لها من تعزية عظيمة ان يجد الانسان العالم كله يشاركه أحزانه ! ....

اننا نجد ايضا فى ذكرى الآلام مصدرا للفرح المستمر .

اذ تفكرين فى هذا انزعى عنك غيم الحزن واكتبى لى باستمرار عن صحتك .

تأملى هذا ان الأمور المفرحة والمحزنة فى الحياة الحاضرة تعبر جميعها . فان كان الباب ضيقا والطريق كربا ، فانه مهما يكن الأمر فهو طريق ! اذكرى هذه العبارة التى كررتها لك كثيرا : ان كان الباب واسعا والطريق رحبا فانه هو ايضا مجرد طريق (٤) .

عندما تتركين الارض وتنحلين عن الجسد ، ابسطى جناح الحكمة ، حتى لا يهلكك سواد الدخان . انها امور أرضية ، لا تنسحبى الى الأرض !

ان رأيتى ظلما كثيرا صنعوه بنا ، وقد سيطروا على العاصمة ، وتمتعوا بكرامات، وساروا فىمواكب الحرس ، رددىهذه العبارة «واسع هو الباب ورحب هو الطريق الذى يؤدى الى الهلاك » .

بالحرى ابكى عليهم . ونوحى من اجلهم !

انهم يصنعون آثام فى العالم ، وعوض تفكيرهم فى خطاياهم يتمتعون باحترامات الناس . سيذهبون ومعهم احترامات الناس بكونها جزاءا قد نالوه ! » .

ثورة فى قيصرية كبادوكية :

فى أواخر عام ٤٠٤ أى بعد حوالى أربعة شهور من استقراره فى منفاه « كوكوزه » صور لنا القديس فى رسالته الى اولمبياس(٥) الثورة العارمة التى الهبها فارتريوس Pharetrius أسقف قيصرية ضده فعند دخوله الكبادوك فى يوليو ٤٠٤ قيل له أن الأسقف فارتريوس ينتظرك ، يذهب ويجىء من مكان الى آخر ومن دير الى دير خشية الا تتاح له فرصة اللقاء معك ... تعجب القديس لذلك ، لكن لم يكن يتوقع ما حدث !

ففى الطريق الى كوكوزه عبر على قيصرية ، لكنه سمع أن الأشوزيين Isaurians قاموا بهجوم على قرية كبيرة بقيصرية واشعلوا النار فيها . خرج التريبيون(٦) ومعه الجنود ... ولكن المفاجاة المرة أن الهجوم لم يكن

---

(٤) مت ٧ : ١٣ .

(5) Epistle 14.

(٦) التريبيون Tribune هو المدافع عن حقوق الشعب ومصالحه عند الرومان . قامت بالترجمةعن الفرنسية الاخت عايدة حنا ، وقد روجعت مع نصوص اخرى .

من الاشوريين بل من جماعة من الرهبان ، اندفعوا نحو ألبيت الذى يقيم فيه يوحنا يهددون باحراقه ان لم يخرج سريعا .

لقد ارسل الأسقف فارتريوس مجموعة من الرهبان الأشقياء يعلن لهم ان يوحنا هو هرطوقى خطير يجب الا يبقى لحظة واحدة فى قيصرية !

كان يوحنا مريضا ، ومنهك القوى ، لكن الجنود اضطروا أن يعجلوه بالخروج من قيصرية قائلين له انهم يخشون على انفسهم من الرهبان أكثر مما يخشون من هجوم الاشوريين !!!

خرج يوحنا وقلبه يدمع اسى! لقد نفض غبار رجليه على أعتاب قيصرية، لينطلق رغم مرضه مع ركبه مسافرا ستة وخمسين يوما حتى يبلغ كوكوزة .

لقد سجل لنا بقلمه أحداث قيصرية فقال:(٧) :

« أن كنت تنوحين بسبب ما حدث لى فى قيصرية فان موقفك هذا لايليق بك . فان هذه الاحداث بالحقيقة قد ضفرت لى اكاليل نصرة براقة ، حتى أن الجميع يعلنون اسمى ويمدحوننى علنا ، مندهشين ومرتاعين بسبب ما تحملته من سوء معاملة .

على اى الحالات لا تخبرى أحدا بهذا ، ولو ان هذه الامور قد صارت موضوع حديث الكثيرين .

ان سيدى بينيوس Pœanius قد اخبرنى بأن كهنة فارتريوس Pharetrius نفسه قد وصلوا الى الموضع وأعلنوا انهم متحدون معى فى الشركة ، وليست لهم شركة ولا اتصال ولا علاقة بأضدادى . لا تخبرى احدا بشىء من هذا حتى لا نسبب لهم تعبا .

حقا كل ما جرى لى كان مؤلما للغاية ، فانى ان كنت لا اعود احتمل شيئا من الآلام بعد ذلك ، فان ما قد تحملته يكفينى لنوال مكافآت بلا حصر ! لقد اصابنى خطر بالغ جدا .

ارجوك ان تحتفظى هذه الامور فى سرية ، فانى اقدم لك صورة مختصرة للاحداث لا لكى احزنك بل بالحرى لكى اسعدك فانه فى هذه الامور بالحقيقة يكمن ربحى ! هنا توجد ثروتى ! هنا اجد وسائل الخلاص من خطاياى !

فى رحلتى اكتنفتنى مثل هذه التجارب من أناس لم اكن قط أتوقع منهم هذا .

---

(7) Ibid

اذ كنت على ابواب منطقة كبادوكية ، بعدما هربت من ذلك الرجل الذى فى غلاطية (٨) ، الذى كاد ان يهـددنى بالموت ، التقى بى اناس كثيرون فى الطريق يقولون لى : أن السيد فارتريوس ينتظرك ، يذهب ويجىء فى كـل موضع خشية الا تتاح له فرصة السعادة بلقائك ، وقد بذل كل جهـد ممكن لرؤياك . انه يحتضنك ويظهر لك اهتماما وودا . لقد هيأ كل أديرة الرجال والنساء لهذا الغرض .

اذ سمعت هذا الكلام ، ساورنى الشك فى نفسى ، أن يكون الامر على خلاف ذلك ، اذ لم اكن أتوقع هذا الاستقبال . لكننى لم اصـارح أحدا ممن بشرونى بهذه الرسالة بما يجول فى خاطرى .

الآن ، قد بلغت قيصرية فى احدى الأمسيات متأخراً ، وانا فى حالة سيئة للغاية اذ كنت منهكا ، محموما فى حرارة مرتفعة جدا ، خائرا ، متألما جدا . عثرت على فندق فى مدخل المدينة ، وبعد عذاب شديد وجـدت طبيبا يطفىء حرارة هذا الاتون ، اذ كانت الحرارة بلغت أقصى درجاتها وانا فى يومى الثالث من المرض . علاوة على هذا كنت متعبا من مجهود الرحلة : مشاق واجهاد مع عدم وجود معاونين لى ، صعوبة فى الحصول على الضروريات ، بلا طبيب ، ارهاق مع حر وعدم نوم . وهكذا دخلت المدينة أقرب الى جثة انسان ميت !

عندئذ جاءنى حقا كل هيئة الاكليروس والشعب والرهبان والراهبـات والاطباء ، واولونى اهتماما عظيما . فالكل كان يخدمنى لكل نوع ويقـدم لى العون لكن ضغط الحمى الشديدة هدتنى فكنت فى غاية الخطر . اخيرا هـدأ الداء قليلا ثم زال .

اما فارتريوس Pharetrius فلم يظهر فى أى موضع ، انما كان ينتظر رحيلى ، دون أن أدرى ما يقصده بذلك .

اذ رأيت مرضى يزول تدريجيا بدأت أفكر فى الاعـداد لرحلتى حتى أبلغ كوكوزة واستريح قليلا من أهوال الطريق . وبينما انا أتهيأ لذلك اذ بنبأ يأتينا فجأة أن الاشوريين Isaurians يرابطون فى جماعات بلا حصر لغزو منطقـة قيصرية ، وقد أحرقوا قرية كبيرة ويرتكبون أعمالا عنيفة واذ سـمع الحاكم بذلك أخذ جنوده وخرج اليهم . لقد خشى لئلا يقوم العدو بهجوم على المدينة أيضا ، اذ كان الجميع فى اضطراب وضيق شـديد مدركين أن أرض وطنهم ذاتها فى خطر ، حتى تعهد الشيوخ أنفسهم بحماية الاسوار .

---

(٨) ربما قصد ليونتيوس Leontius رئيس اساقفة انقرا بغلاطية ، عدو ذهبى الفم اللدود .

اذ كانت الامور هكذا ، رأينا فجاة عند الفجر رعاعا من الرهبان — يليق بى أن اطلق عليهم هذا اللقب لكى اعبر عن مدى غضبهم — فقد اندفعوا نحو المنزل الذى نقيم فيه ، وهـددوا بحرقه واستخدام العنف الزائد معنا ان لم نتركه . ولم يخفف من حدة غضبهم الخوف علينا من الاشـوريين Isaurians ولا شدة مرضى ، ولم يكن هناك شىء آخر يجعلهم يتعلقون ، فقد كانوا مصرين فى غضب شديد حتى خاف الجند منهم . كانوا يهددون بالضرب بل يفتخرون انهم نجحوا فى ضرب كثير من الجند ضربا مخزيا .

اذ سمع الجند ذلك لجأوا الى وتضرعوا متوسلين : « لو اضـطررنا نسقط فى يدى الاشوريين Isaurians ، انقذنا من هذه الوحوش المفترسة » .

عندما سمع الحاكم بهـذا الخبر اسرع الى المنزل مريدا ان يقـدم لى عونا ، لكن الرهبان لم يعطوا توسلاته اهتماما ، حتى خارت قوته حقا .

لقد ادرك خطورة الموقف فلم يجرؤ ان يشير على بالخروج فاتعرض لخطر محقق (من الاشوريين) ، ولا أن أبقى فى الداخل بسبب ثورة هؤلاء الرجال ، فبعث الى (الاسقف) فارتريوس Pharetrius يرجوه امهـالى اياما قليلة بسبب مرضى والخطر المحيط بى ، لكن لم يكن لهذا العمل نتيجـة ، بل على العكس فى اليوم التالى وصل الرهبان فى اكثر ثورة ، فلم يجرؤ احد من الكهنة ان يقف بجوارى ويسـندنى ، لكنهم كانوا فى خجـل وخزى بسبب تعليمات فارتريوس ، فكانوا يبتعدون ويختفون . حتى اذا ما دعوتهم لا يجيبوننى .

ما الداعى للاسترسال فى الحديث ؟ فانه وانا وسط هـذه المخاوف العظيمة ، والموت يكاد يلاحقنى — اذ لم اكن قد شـفيت من الآلام تماما ، القيت بنفسى على « الحمالة » فى الظهـيرة ، وحملونى الى الخـارج . كان الشعب يصرخ ويزار ، يصيب اللعنات على المتسبب لمثل هذه الافعال ، وكان كل واحد منهم يبكى وينتحب !

اذ صرت خارج المدينة تسرب الى بعض الكهنة تدريجيا وكانوا يرافقوننى وهم يبكون طوال الطريق .

اذ سمعنا البعض يقول : اين تقتادوه ليموت موتا محققا ؟ اجابنى احد المحبين لى جدا « ارجوك أن ترحل ولتسقط فى أيدى الاشوريين ، ولكن ابتعد عنا فأينما سقطت تكون فى امان ما دمت بعيدا عن أيدينا ! » .

اذ سمعت السيدة الصـالحة سيليسيا Seleucia ، زوجة سـيدى روفينوس الكريمة ، والصق صديقة الى ، ورات بعينيا هذه الأمور ، رجتنى

وتوسلت الى ان الجا الى منزلها الذى فى ضاحية تبعد حوالى خمسة أميال عن المدينة ، وارسلت الى رجالا برافنتوننى ، فرحلت الى هناك .

هناك أيضا لم تتوقف المؤامرة المدبرة ضدى، فانه ما أن عرف فارتريوس بما فعلته المراة حتى هددها ــ كما قالت . بتهديدات كثيرة . أما هى فقد خرجت تستقبلنى فى بيتها القروى وأنا لا أعلم شيئا اذ أخفت عنى ذلك ، انما اخبرت وكيلها المسئول بالبيت عن الامر وأمرته أن يهيىء لى كل وسائل الراحة الممكنة ، وانه ان جاء بعض الرهبان يهاجموننا ، يشتموننا ويسيئون التصرف معنا يلجأ الى العمال ، يجمعهم من المزارع المجاورة ويصـــدهم . علاوة على هذا طلبت الى ان الجأ فى بيتها الحصين الذى لا يمكن قهره ، فاهرب من أيدى الاسقف ورهبانه .

على اى الحالات ما كنت أميل الى هــذا ، انما بقيت فى المنزل لا أدرك شيئا مما يدبر لاجلى . فانه حتى هذه الامور (خروجنا من المدينة) لم يــكن كافيا لتهدئة غضبهم على .

كان فارتريوس يزعج السيدة بتهديداته المستمرة ــ كمــا قالت هى ــ فكان يلزمها باصرار أن تطردنا من ضاحيتها ، حتى أنه فى نصف الليل ــ وأنا لا أعلم شيئا من ذلك ــ لم تحتمل السيدة مضايقات الاسقف ، وقــد اعلمت المحيطين بى ــ دون أن تخبرنى ــ بأن البرابرة على الابواب ، فقــد كانت تخجل أن تعترف انها التزمت بهذا الفعل .

فى نصف الليل جاءنى القس هيثيوس Evethios ، وايقظنى من نومى وهو يصرخ بصوت عال قائلا : « ارجوك ، استيقظ فان البرابرة على الابواب انهم قريبون منا جدا ! » .

تخيلى ماذا يكون حالي وأنا أسمع هذا الكلام !

اذ سألته : وما العمــل ؟ فاننا اذ لا نستطيع أن نختبىء فى المدينة لئلا تكون نهايتنا افظع مما يفعله بنا الاشوريون ، الزمنى بالخروج .

كان الوقت منتصف الليل ، ليلا مظلما غير مقمر ، كئيبا وهــذا ما زاد موقفنا خطورة ! لم يكن من يرافقنا ولا من يساعدنا بل الكل هجرونا ! مع ذلك تحت ضغط الخوف ، وتوقع الموت العاجل انتصبت واضأت المشاعل ؛ محتملا ما أنا عليه . لكن الكاهن امرنى باطفائها لئلا يهتدى البرابرة الينا على ضوئها ويهاجموننا كما قال ، فاطفأتها .

وسقطت الدابة (٩) على ركبتيها اذ كان الطريق ضـيقا ووعرا ومليئا بالاحجار ، فسقطت « الحمالة » التى كنت فى داخلها وبالكاد نجوت من الهلاك لقد خرجت من « الحمالة » وسرت على قدمي يشدنى الكاهن افيثوس Evethios بسرعة ، اذ نزل هو ايضا عن دابته . كنت اسير بتثاقل ، كما كان يقودنى او يسحب يدى ، فقد كان السير مستحيلا فى طريق غاية فى الصعوبة ، وسط جبال وعرة ، فى منتصف الليل .

تخيلى ماذا تكون آلامى وسط هذه المصائب ؟! الحمى تعذبنى ، ومـع جهلى بالخطط المدبرة ضدى كنت اخشى البرابرة وارتعش متوقعا السـقوط بين ايديهم !

الا تعتقدى ان هذه الآلام وحدها ــ حتى وان لم اسـقط تحت اى آلام اخرى ــ تستطيع ان تمحو الكثير من خطاياى وتهيىء لى فرصة لنوال مديح من الله ؟

ان سبب هذا كله ــ على الاقل كما اظن ــ انه عندما بلغت قيصرية احاط بى أصحاب المراكز والمثقفون الذين كانوا قبـلا شـيوخا أو حكاما او تريبيونيين Tribunes (١٠) ، بل بالحقيقة زارنى كل الشعب يوميا ، واعطونى اهتماما زائدا ، وعاملونى كحدقة أعينهم . هـذا فى رايى ما اثار فارتريوس بشدة ، فان حسده الذى اخرجنى من القسطنطينية (١١) لم يتوقف بل تتبع خطواتى الى هنا .

هذا على الاقل مجرد افتراض من جهتى ، لا استطيع ان أعلنه بطريقة ايجابية بل هو مجرد توقع منى .

ماذا أقول أيضا عن الاحداث الاخرى التى وقعت فى الطريق ، والمخاوف والمخاطر ؟! عندما اذكر هذه الامور يوما فيـوما ، اذ على الدوام اتأملهـا ، **اطير سعادة ، اثب بالفرح كمن وجد كنزا عظيما قد خزن له** . هذا هو حالى، وهذه هى مشاعرى تجاه هذه الامور .

لذلك أسأل سموك ان تفرحى بهذه الامور ، ان تسعدى ، وتثبى فرحا، وتمجدى الله الذى حسبنى اهلا أن أحتمل مثل هذه الاشياء .

اتوسل اليك ان تحفظى هذه الامور لنفسك ولا تخبرى احدا بها ولو ان أغلب الجند سيملأون المدينـة بهذه القصة اذ هم أنفسهم تعرضـوا لخطر عظيم ... » .



---

(٩) البغل .

(١٠) التريبيون هو المدافع عن حقوق الشعب ومصالحه عند الرومان .

(١١) لم يحضر المجمع لكنه بعث الى الاساقفة برسـالة يشجعهم على نفيه قائلا لهم ان يعتبروه كأنه حاضر بينهم .

٦ـ في كوكوزة

Cucusus

فى أواسط سبتمبر سنة ٤٠٤م وصل الركب الى كوكوزة حيث استقبل العظيم يوحنا بكل وقار وتكريم ، اذ كان أسقفها أدلفيوس على جانب من القداسة والتقوى . فاستراحت نفس البطريرك المنفى هناك حيث وجد الهدوء والراحة ، كما وجد فى شعبها الفقير غنى الروح .

حدثنا الاب البطريرك فى رسائله عن المدينة وموقعها ومناخها وظروفها، ووصف لنا مشاعره واحاسيسه فى دقة بالغة ، وكتب لنا عن امراضه واتعابه كما سجل لنا كرازته واعماله الرعوية .

فمدينة كوكوزة على حد تعبيره « يخيل لى انى قد بلغت أقصى حدود المسكونة » تقع بين سلسلتين من الجبال، خالية من الاماكن العامة والاسواق التى تنبت الحياة الاجتماعية وتربطها بالعالم الخارجى (١) .

دخل الاب منفاه الاخير منهك القوى ، اذ يقول (٢) : « كنت فى غاية التعب بعد رحلة شاقة استمرت سبعين يوما لاتتصورى معى سموك مقدار ما قسيناه ! لقد امتلائنا خوفا من الاشوريين ، واصابتنى حمى شديدة ، واخيرا بلغنا كوكوزة اكثر أماكن العالم انعزالا » .

مع عزلة المدينة وأتعابه الجسدية شعر القديس بجو من الراحة النفسية، فقد دخل المدينة حيث يستطيع أن يتحصن الى حد ما من الاشوريين الذين كان يتعرض لهجومهم فى الطريق القفر ، كما استراحت نفسه من عداوة الاسقف اتريبيوس ورهبانه ، هذا وقد استقر فى موضع يقدر أن يجد شيئا من الاستجمام لجسده الهزيل .

---

(1) Sources Chrétiennes, vol 79, p 8.
(2) Epistle 224 : PG 52 : 739.

انه يقول (٣) :

« لقد بلغنا كوكوزة فى احسن حال ،

وجدنا مدينة بغير متاعب ولا مضايقات ، وعشنا فى راحة تامة ، ليس من يشتمنا ولا من يسيء الينا ».

« تمثل كوكوزة العزلة بعينها ، لكن هذه العزلة اهون عندى من الاعداء والمتاعب . لذلك اقول انى بلغت هذه العزلة كمن يصل الى الميناء ! » .

لقد اعتبر نفسه فى راحة خلال اسابيعه الاولى مع انه لم يكن حرا يذهب حيث يشاء (٤) .

لقد وجد فى حاكم ارمينيا حبا واهتماما كما يظهر من رسالته الى الاسقف ترياقوص (٥) ، اذ يقول له « ان سيدى سوباتير Sopater حاكم ارمينيا ، التى انا سجين فيها ، يعاملنى كأب بل يخدمنى اكثر من أب . واذ ابحث عن طريقة بها اعبر عن شكرى له اجد الفرصة سانحة فى محبتك لى وذلك أن له ابنا يعيش منذ فترة طويلة فى مدينتك لاتمام تعليمه . فأرجوك أن تسرع برؤيته وتظهر له خدمتك ، بهذا تدفع عنى ديونى لابيه ، وتكون نافعا لى . اعطه ان يلتصق بالحكام وبعائلتك وبكل الذين يقدرون أن يجعلوه مرحا فى غربته ، فيكون كمن فى وطنه . بهذا يصير هذا الشاب سعيدا ، وتسعدنى أنا أيضا وتسعد نفسك ، بهذا تلزم الحاكم — فى شخص ابنه — المملوء حنانا وسموا أن يكون ميناء يلجأ اليه كل المحتاجين » .

العـزلة تعلن حبـه !

لقد شعر القديس يوحنا باليتم فى كوكوزة — ان صح لنا هذا التعبير — فقد حرم من رعيته التى تمثل احشاءه الداخلية وكل حياته بل امتصت كل مشاعره واحاسيسه ... كان جسده وقلبه ولسانه وقلمه ... كل طاقته وتصرفاته تتفجر حبا !! على العكس مما أتهم به من اعدائه انه كان متكبرا محبا للعزلة عن الناس !

فى كوكوزة كان يشتاق لو زاره اخوته واحباؤه ، لكن البلد بعيد والطريق مملوء اخطارا والجو ردىء للغاية ... لهذا كان كثيرا ما يعلن لهم شوقه أن يراهم ويسمعهم لكنه كان يعود يشدد عليهم الا يخاطروا بالحضور اليه . ولم تكن لديه الا وسيلة الرسائل يبعث بها وينتظر ردها ، ولو أن البريد كان بطيئا وكثيرا ما كان السعاة يرجعون بها بسبب الخوف من اللصوص .

---

(3) Ep. 84 , 236 . PG 52 : 652 , 740 .
(4) Ep. 74, PG 52 : 648 .
(5) Ep. 64 PG 52 : 644 .

تستطيع أن تلمس مشاعر الحب المرهفة للبطريرك المتألم فى كلماته التى وجهها الى الدوق ثيؤدوسيوس (٦) : « انك لم تكف عن تقبيل رسائلى ، أما أنا فقد قبلت كاتب الرسالة . حوطت بيدى حول عنقه وقبلت رأســه الغالية على . أية تعزية لى ، فانه لم تصلنى رسالتك بل (كأننى) رأيتك بجوراى، تحيا معى ! » .

لقد رأينا فى أكثر اسهاب كتاباته لشماسته أولمبياس المتفجرة برائحــة الحب الروحى الحقيقى !

كان يهتم بكل صغيرة وكبيرة فى حياة الناس . . . انه يحبهم ! فيكتب الى الطبيب Hymnetus يوصيه بالاسقف سيليكوس Seleucus قائلا (٧) : « لقد عرفت طبيعة مرض سيدى الموقر ، فحاول أن تهدىء آلامه مستخدما فنك فى ابرائه من ضعفه ، هذا الفن الذى طالما أنقذ من الغرق كثيرين تعرضوا لعنف هذه الامواج » .

لم تقف رسائله عند حدود العلاقات الشخصية ، لكنه كان مهتما بامور الخدمة ، يتعرف على أخبارها بواسطة الزوار (٨) ويكتب مشــجعا ومعزيا وناصحا وموبخا أيضا فيكتب الى فالانتين ان يســند دومتيان المسئول عن خدمة العذارى والارامل الفقيرات قائلا له (٩) : « ألجأ اليك كمن يلجــأ الى الميناء لكى تنقذهن من غرق الجوع . أتوسل اليك بشدة أن تســنده . انت تعرف أن لى هبات عندك ، لقد تركتها لك كى تقدمها للفقراء » .

كما يكتب الى الكاهن ثاوفيلس يشجعه على الاهتمام بحيــاة المؤمنين الروحية ومعاونتهم فى الجهاد ، وأن يبعث اليه يخبره بأحــوالهم حتى يطمئن عليهم (١٠) .

كما كتب رسائل شديدة الى الكاهن ثاوفيلس وساكيس مساعده يوبخهما قائلا (١١) : « من يستطيع أن يبرئكما بينما قد حرم البعض ونفوا وطردوا ، ولا تقدمان للشعب الذى حطمته العاصفة معونة وتعليما !! » .

وأرسل الى العلمانى ملخس يعزيه فى وفاة ابنته قائلا له (١٢) : « تهلل فانك قدمت روحها لسيد المسكونة ، كما يقدم المزارع الصالح ثمرا ناضجا » .

---

(6) Ep. 58 PG 52 : 641.
(7) Ep. 38 PG 52 : 631.
(8) Ep. 63 PG 52 : 613.
(9) Ep. 217 PG 52 : 730 .
(10) Ep. 119 PG 52 : 673 - 674.
(11) Ep. 203 PG 52 : 723.
(12) Ep. 71 PG 52 : 647.

وكتب الى الحاكم Paeanius المحب للروحيات يقول له (١٣) :

« لقد وهبتنى جناحين ، وسببت لى فرحا عظيما ، لانك وأنت تعلن لى عن الامور المحزنة ذاتها بكلمة تفرض نفسها على كل الاحداث « مجدا للرب فى كل شىء ! » .

هذه الكلمة تسبب لابليس جرحا مميتا ، وتهب قائلها هدوءا وسعادة وسط الضيقات » .

اهتم ايضا القديس يوحنا — وسط ضيقاته — بالآلام التى تعرضت لها ارساليات الكنيسة فى فينيقية فأرسل الى الكاهن روفينوس فى صيف عام ٤٠٦م يقول له (١٤) :

« لقد علمت أن النيران قد اشتعلت من جديد فى فينيقية ، وأن ثورة الوثنيين قد ازدادت ، وكثير من الرهبان قد ماتوا لذلك الزمك أن تسرع ما استطعت لتقف فى جبهة القتال ، انى اعلم ان مجرد وجودك وحده يجعل الاعداء يهربون ، وأن صلواتك وعذوبتك وصبرك وشجاعتك التى هى من صميم حيانك ، هذا كله يهدم ثورتهم ويسند أصدقاءك ويسبب أعمالا صالحة كثيرة .

أريد أن أعلم أنك قد وضعت قدميك على حدود فينيقية حتى يكف عنى اضطرابى .

ان كان ممكنا ، فلتبعث الى بخطاب فى كل فرصة حتى أتتبع مدى ما وصلتم اليه . وان كنتم قد اقتربتم من الهدف فانه فى حالة وجود معوقات اجاهد ان أتغلب عليها . فانى ابعث بعشرة آلاف أسألهم ان يعاونوك ... حتى لو كانوا فى القسطنطينية . ان كنت تعتقد بضرورة ارسال اخوة ، أطلب منى هذا .

اما عن رفات القديسين الشهداء فاطمئن ، فقد اسرعت وارسلت الى سيدى الكاهن الكلى التقوى Geronce وسيدى اتريوس الكلى الورع أسقف أرابيسوس اللذين لديهما رفات حقيقية وسيسلمونها لك بعد قليل فى فينيقية .

لا تهمل شيئا اذن ، فانك ترى غيرتى التى أظهرها لك . اسرع لكى تقدر أن تنتهى من بناء الكنائس التى ينقصها السقف ، قبل حلول فترة الشتاء»

هكذا أعلن اهتمامه بالخدمة وتشجيع الآلاف لمساندة المضطهدين بفينيقية مشجعا الكاهن روفينوس على بناء الكنائس والاستعداد للاحتفال برفات الشهداء .

---

(13) Ep. 193 PG 52 : 719 - 720.

(14) Ep. 126 PG 52 : 685 - 687.

بعث ايضا رسالة رائعة للمرسلين المضطهدين يقول (١٥) :

« الى الكهنة الرهبان بفينيقية ، الذين يعلمون الوثنيين .

لا يترك القباطنة السفينة وهى تغرق ، ولا الاطباء المرضى وهم فى خطر . لماذا اقول لكم ذلك حتى لا تنسحبوا من فينيقية بسبب الاضطرابات التى قامت فيها ؟! فانه كلما ازدادت الاضطرابات وكثرت المشاكل وارتفعت الامواج بقسوة التزمتم بالاستمرار ومضاعفة مجهوداتكم مع ثباتكم وسهركم وغيرتكم ، لكى لا يهدم احد بناءكم الجميل ويفسد زرعكم .

اذكروا التعب الذى تحتملونه والالم الذى تتعرضون له والصلاح الذى تكملونه ، وغلبتكم على الكثير من العدات الوثنية التى نلتموها بنعمة الله ، وتحسن الموقف فى فينيقية ، فان هذا كله يزيد من مكافآتكم واكاليلكم .

فى القريب العاجل يحل الله كل المشاكل ويكافئكم على صبركم .

اثبتوا اذن وتمموا عملكم .

لا ينقصكم شيء ، فقد أعطيت الاوامر أن يقدموا لكم الملابس اللازمة والاحذية والمئونات وكل ما يحتاجه اخوتكم .

ان كنت وانا وسط برية كوكوزة ارى نفسى غارقا فى هذه التجربة المرة، أهتم بارسالياتكم الى هذه الدرجة ، فكم بالحرى يكون اهتمامكم انتم وقد اخذتم كل ما تحتاجون اليه بوفرة فانه يليق بكم أن تبذلوا كل ما فى وسعكم . استحلفكم الا تجعلوا أحدا يبث فيكم الخوف . فان الاسباب كثيرة التى تجعلنا نترجى موقفا أفضل ، كما ستعرفكم رسائل سيدى الكاهن الكلى التقوى قنسطس ...

أرسلت اليكم يوحنا ليسند روحكم .

لقد قمت بواجبى وشجعتكم بكلماتى ونصائحى ، وسهرت لكى لاينقصكم شيء ... فانه لم يعد شيء ما يوبخنى ان كنتم تتركون أنفسكم للكذابين والمنافقين عوض الانصات الى » .

فى اختصار كتب القديس الكثير ، وكانت كتاباته تحمل فيضا من الحب مع التزام بالمسئولية تجاه الكنيسة وخدامها واولادها ، حكام واساقفة وكهنة وشمامسة وشماسات ورهبان وعلمانيين ... لاجل الدخول بكل احد الى حياة « الشركة العملية العميقة مع المسيح يسوع » .

---

(15) Ep. 123 PG52 : 676 - 678.

أخيرا فان رسالته الى البيدوس (١٦) تكشف لنا المجهود الشاق الذى تحمله القديس فى كتابة كل رسالة ، اذ يعتذر له عن عدم رده على رسائله لوجوده فى مكان اشبه بسجن بل أكثر منه قسوة، مع ندرة الاشخاص الموثوق فيهم لحمل رسائله ، هذا بجانب مرضه الذى يهدده ، فقد كان ملقيا على الفراش طوال الشتاء ... انه يقول له « هذا هو سر سكوت قلمى لا قلبى ... فانى وان كنت فى برية بعيدة أكثر من هذه التى أنا اعيش فيها ، فان ذكراكم تظل محفورة فى ذهنى » .

ولكى نتلمس ذلك نتعرض — ولو قليلا — لما احتمله القديس من آلام فى كوكوزة كما توحيه الينا رسائله .

آلامه فى كوكوزة

فى السنة الاولى تالم القديس كثيرا بسبب قسوة الجو التى لم يعتد عليها فى وطنه ، فشتاء كوكوزة قارس البرودة وصيفها شديد الحرارة ، وكلاهما ضاران بصحته المرهفة ، اذ يقول (١٧) « ان شدة الحر فى أثرها على لا تقل حدة عن شدة البرد » .

ففى ربيع سنة ٤٠٥ سجل لنا فى رسالته الى أولمبياس شماسته ظروفه القاسية التى يعيش فيها ، قائلا (١٨) :

« اذ انقذت من ابواب الموت نفسه اكتب هذه الرسالة الى السيدة الحصيفة ، وانا سعيد جدا للقاء مع خادمك ... فان الشتاء كان اشد من القسوة ، فجلب على عاصفة من المتاعب الداخلية تقلقك كثيرا .

ففى الشهرين الماضيين لم اكن افضل من ميت ، بل بالحرى اردأ ! ان كل ما كان لى من حياة هو بالقدر الذى فيه أشعر بالاهوال المحيطة بى . كان النهار والفجر والقمر كل هذه هى ليلة واحدة بالنسبة لى ، اذ اقضى كل وقتى ملازما الفراش تماما . وبالرغم من كل الوسائل التى استخدمتها بغير حدود لم أستطع أن أزيل آثار البرد المميتة . فاذ احتفظت بالنار مشتعلة احتملت الكثير جدا من الدخان الكئيب وبقيت محبوسا فى حجرة واحدة ، ملتحفا بأكبر قدر من الاغطية ، لا أجسر أن أضع قدمى خارجا ... لقد تحملت آلاما مرة : قئ مستمر يلازمه صداع دائم ، فقدان للمزاج ، أرق بغير انقطاع !

هكذا اجتزت بحر آلامى المظلم المتسع بتعب ، لكننى لا أريد أن اذكر لك مآسى كى لا أحزنك ، فانى قد شفيت الآن من هذا كله . لقد اقترب الربيع وحدث تغير طفيف فى الجو ، لذلك انتهت أتعابى تلقائيا ... » .

(16) Ep 188 PG 52 : 695 . (17) Ep 146 PG 52 : 698 .
(18) Ep 6 : 1 .

هذا عن متاعب البرد القاسى ، لكن تزداد بالاكثر آلامه بسبب هجوم الاشوريين ، اذ يقول (١٩) :

« كنت أنتقل من مكان الى آخر فى قمة فصـل الشتاء . فقـد كنا تارة نسكن فى المدن وأخرى فى المخابىء أو الغابات خوفا من الاشوريين .

كنا قبلا فى آمان فتركنا الاماكن المقفرة واتجهنا الى أرابيسوس Arabissos لانها اكثر حصانة من غيرها ، الا ان الحياة فيها ثقيلة ، أقسى من حياة السجن فان الاشوريين دائما يهددوننا ... والطاعون متفش بين الناس ، نخشـاه لان المكان ضيق والازدحام شديد .

لقد مرضت فى الصيف بسبب هروبى فى الشتاء ، لكنه قد زال الكثير وبقى القليل » .

مرة أخرى اذ تشتد عواصف الاشوريين حتى يلتجئوا للاماكن المحصنة يقول :

« ما اكثر الآلام فى أرمينيا ؟!

لقد هبت العاصفة فحطمت كل شىء !

أينما توجهت لا ترى عينك الا ينابيع الدماء ، واشلاء الجثث ، والمنازل مهدمة ، والمدن محطمة ! » .

واذ جاء الشتاء التالى كان الجو أفضل أو ربما يكون القديس يوحنـا قد تعود على الجو الجديد والظروف القاسية التى يعيشـها ، اذ يقول فى خريف عام ٤٠٧ (٢٠) :

« لم يغلبنى سوء احوال الجو ، ولا قفر الاقليم ، ولا ندرة المئونة ، ولا عدم وجود مرافقين ، ولا عدم مهارة الأطباء ، ولا الحرمان من الحمام ، ولا الحبس فى حجرة واحدة كما فى سـجن ، ولا عـدم امكانية الحركة التى اعتدت عليها على الدوام بسبب الحاجة ، ولا استخدام النار وخروج الدخان ولا الخوف من اللصوص ولا حالة الحصار المستمر ، ولا شىء من مثل ذلك ، بل على العكس انى فى صحة افضل مما كنت عليه فى أى موضع ... » .

« اننى فى صحة جيدة وطمأنينة كاملة ، حتى اندهش الارمن كيف يمكن لانسان ضعيف مثلى يشبه نسـيج العنكبوت أن يحتمـل البرد القارس ، ويعيش بسهولة ، مع ان الذين اعتادوا على العيش هنا يحتملون قسـوة الشتاء بصعوبة » .

---

(19) Ep 68, 69 PG 52. 646. (20) Ep 4 : 4.

اخيرا نختم حديثنا عن هذه الفترة بأنها فترة آلام عاشها القديس لكى يكتب لنا فى رسائله ومقالاته « خبرة حية » لحياة الالم ، وتلامس حقيقى مع « عناية الله » وسط الضيق . . . فسجل لنا :

١ — كثيرا من الرسائل التى تحمل طابع مقالات عن الالم وعناية الله بنا وسط الآلام .
٢ — مقالة عن « لا يستطيع احد ان يؤذى انسانا ان لم يؤذ الانسان نفسه » .
٣ — مقالة عن « عناية الله » .

فى هذه المقالات نلمس تحولا جديدا فى حياة القديس ، اذ صار يكتب باسهاب عن « حبيبه أيوب » . . . حتى ان بعض كتاباته اذ يذكر اسمه ينسى الموضوع ويكتب عن ايوب فى استطالة ، ليعود فيعتذر انه لا يستطيع ان يخلع نفسه عن « حبيبه أيوب » !

ان كان لم ينسى صداقته القديمة مع القديس بولس . . . اذ شرب منه روح الكرازة والحب ، فانه دخل فى صداقة قوية مع رجل الآلام ايوب خلال ممارسته للالم !

موقف أسقف روما

أرسل القديس يوحنا — قبل نفيه الثانى — الى ثلاثة أساقفة : اسقف روما ، واسقف ميلان ، واسقف أكويلية ، رسائل ثلاث تحمل نصا واحدا ، دون أن يخص أسقف روما شيئا دون الاسقفين . وكان رد أسقف روما يحمل تشجيعا على احتمال الالم مع محاولة السعى لعقد مجمع مسكونى عام لبحث القضية .

لم يكن ممكنا لاسقف روما أن يتخذ قرارا مفردا ، ولا حتى بالاتفاق مع اساقفة الغرب وحدهم ، ولا حتى بعقد مجمع مسكونى بأمر امبراطور الغرب هوناريوس وحده ، انما كل ما كان يقدر أن يفعله انه عقد مجمعا محليا برئاسته — بلا شك — لا للبت فى قضية بطريرك القسطنطينية ، فان هذا ليس من اختصاصه ، انما للتشاور وتدارس ما يمكن عمله ، وفعلا رأوا أن يطلبوا من امبراطور الغرب أن يرسل الى اخيه امبراطور الشرق لكى يسمح بعقد مجمع مسكونى يضم اساقفة من الشرق والغرب لدراسة هذه المشكلة . واذ استصوب الامبراطور ذلك ارسل وفدا من أساقفة وكاهنين وشماس يحملون رسالة من هناريوس يترجى اركاديوس الموافقة على ذلك الطلب . لكن ما أن دخلوا حدود الامبراطورية الشرقية حتى اعتبر اركاديوس هذا

تدخلا فى أمور الشرق فألقى القبض عليهم وأســـاء معاملتهم وردهم الى الغرب ... وهنا وقف كل عمل يمكن للكنيسة الغربية ان تقوم به !

هذا هو موقف الكنيسة الغربية ، وقبل أن نتحدث عن موقف كنيسة انطاكية نود ان نسجل بكل فخر واعتزاز أن تلميذه « القديس نيل السينائى » بعث برسالتين الى الامبراطور أركاديوس يعاتبه بشدة على الظلم الحادث فى مملكته ...

جاء فى الرسالة الاولى (٢١) :

« كيف تقدر أن تترجى خــلاص القسطنطينية من الزلازل المســتمرة والصواعق ، مادامت الجرائم ترتكب بلا عدد فى قسوة تفوق القانون ؟! لقد تجرأتم ونفيتم عمود الكنيسة ، ضياء الحق ، بوق المسيح ، الطوباوى يوحنا الاسقف !!

كيف تستطيع أن تطلب منى الصلاة عن المدينة المحطمة بسبب غضب الله ، فتعيش كل يوم تحت تهديد نيران السماء ، بينما تلتهمنى حمى اليأس، وافكارى مضــطربة وتفكيرى محطم بســبب احداث بيزنطة التى تخالف كل القوانين ؟! » ،

وفى رسالته الثانية يتعرض للامبراطور مباشرة ، قائلا (٢٢) :

« لقد نعيت يوحنا ، أكثر أنوار العالم اشراقا ، أسقف بيزنطة ، نعيته ظلما بضعفك الشديد متأثرا باصرار الاساقفة الذين لم يكن لهم التفكير الحق، فحرمت الكنيسة الجامعة من تعاليمه التى بلا لوم ! لتعاقبك السماء !! » .

نعود الى كنيسة أنطاكية ، فقد كان موقفها مؤلما ، لقــد بلغ الاسقف فلافيان من العمر ما يقرب من المائة عام ، فكان الاساقفة المضادون ليوحنا يدبرون المكائد مثل أساقفة جبالة وحلب وعكة وطرسوس . وفى عام ٤٠٤م رقد فلافيان فهرع الاساقفة الى رسامة بورفيروس ضد ارادة الشعب . ولما قاومه الشعب صدر قرار امبراطورى يوجب الاعتراف بارساكيوس أســقفا للقسطنطينية وثاوفيلس للاسكندرية وبورفيروس لانطاكية مع استبعاد غير الخاضعين لهم .

وفى عام ٤٠٥م توفى أرساكيوس فترجى الارثوذكس عودة راعيهم يوحنا من النفى الى القسطنطينية ، لكن سفريان ومن حوله خشوا من ضغط الشعب على أركاديوس خاصة وأن أوفدوكسيا قد ماتت ، فأسرعوا باقامة اتيكوس

(21) Epistle II 265 PG 79 : 336.
(22) Epistle III 279 PG 79 : 521,

Atticus السبسطى اسـقفا على القسطنطينية ، فابى بعض الاسـاقفة الاشتراك معه وتنحى عنه الشعب ... فلكي يقطع المتآمرون خط الرجعـة عليهم سعوا لدى الامبراطور ليصدر أمرا بنقله من كوكوزة الى بيتوس على الساحل الشرقى من البحر الاسود ، وقد أمر الجند بالاسراع فى التنفيذ ... وقد وعدوا الجند بمكافأة ان اتخذوا التدابير اللازمة لموته فى الطريق ، حتى يتخلص الامبراطور من قيام اى ثورة تطالب بعودته .

انطلق الركب فى اواسط يونيو ٤٠٧م ، وكانوا يسيرون به فى شدةالحر حتى اعترته حمى شديدة ، ومع ذلك لم يسمحوا له بالراحة . وإذ رأوا قوته قد خارت تماما نزلوا الى كنيسة صغيرةفىكومانة Comana، دفن فيها الشهيد الاسقف باسيليكس فقضى البطريرك المتألم ليلته فيها ، حيث ظهر له الشهيد يقول له : تشدد وتقو يا اخى يوحنا ، فاننا غدا نكون سويا ! وكان قد سبق فظهر لكاهن الكنيسة قبيل مجىء البطريرك يقول له : اعـد كل شىء لاخى يوحنـا .

واذ لاح الصباح طلب يوحنا من الجند امهاله حتى الظهيرة فلم يقبلوا والزموه بالسفر فورا . ولم يطل بهم السير اذ رأوه قد اشرف على الانتقال فعادوا به الى الكنيسة سريعا . واذ دخلها القديس يوحنا لبس ثوبا أبيض وتناول الاسرار المقدسة ونطق عبارته المفضلة دائما :

« ليكن الله مباركا فى كل شىء ! آمين » .

قال هذا واغلق الذهبى الفم فمه واسـلم روحه فى يـدى الله فى ١٤ سبتمبر سنة ٤٠٧م

عودة جسـده

بعد حوالى واحد وثلاثين عاما من نيـاحته ، فى ٢٧ يناير من السـنة السادسة عشرة من تولى ثيؤدوسيوس الصـغير الحكم (٤٣٨م) أرسـل الامبراطور جماعة لنقل جسده من كومانا الى القسطنطينية .

ولما بلغوا خلقيدونية خرجت أفواج الشـعب تستقبل راعيهـا الذى استشهد بدون سفك دم ، باذلا حياته عنهم ، واحتفلوا به احتفـالا مهيبا ، وحملوه الى كنيسة الرسل ، حيث خر الامبراطور أمامه فى انسحاق شـديد والدموع تنفجر من عينيه ، طالبا الغفران عن نفسه وعن والديه أركاديوس وأفدوكسيا ! .

+ + +

الباب الثانى

القديس يوحنا الذهبى الفم

ST. JONN CHRYSOSTOM

شخصيته ـــ منهجـــه ـــ لاهوتياته وافكاره

+ شخصيته .
+ منهجـــــــــــه .
  ١ ـــ منهجه الانجيلى .
  ٢ ـــ منهجه الكرازى .
  ٣ ـــ منهجه الكنسى .
  ٤ ـــ منهجه السلوكى الايمانى .
  ٥ ـــ منهجه الاجتماعى .
+ لاهوتياته وافكاره .

تقديم

يليق بنا بعد هذا العرض السريع لسيرة القديس يوحنا الذهبى الفم أن نقف قليلا لنتعرف على شخصيته ، عندئذ ندرس بشيء من التفصيل منهجه فى دراسة الكتاب المقدس ، وفى الكرازة به ، ونتفهم نظرته التعبدية والاجتماعية ونتلمس لاهوتياته وافكاره من واقع عظاته وكتاباته .

وان كان يصعب على جدا دراسة هذه الامور كوحدات مستقلة ، لانها فى مجموعها تمثل « **حياة واحدة غير مجزاة** » ، تتضافر معا ، وتتداخل فيما بينها ، كل منها ليس الا جانب من جوانب الامور الاخرى ومحصلة لها . شخصيته مثلا هى محصلة دراساته وخبراته الانجيلية والكرازية والتعبدية والاجتماعية مسلمة بين يدى روح الله القدوس الذى يعمل فيه . ودراساته الانجيلية هى خبرة مفاهيم وحياة لا تنفصل عن شخصيته او عبادته أو كرازته او لاهوتياته وافكاره ، وهكذا . . .

لكننى ، من اجل الدراسة التزمت أن افصل بين هذه الامور فى وحدات وان كنت أرجو — فى المسيح يسوع ربنا — الا افقدها ترابطها معا ووحدانيتها، حتى لا افسد حيويتها واسيىء الى الشخصية التى اكتب عنها .

+ + +

الفصل الأول

شخصية

اذ نتحدث عن شخصية هذا الاب ، انما نذكر قديسا يتلألأ اسمه فى سماء الكنيسة ، شرقا وغربا . شهدت له الكنيسة بقداسة حياته فضمته الى « مجمع قديسيها (١) » ، وأدركت فاعلية كلماته فترجمت الكثير من عظاته وكتاباته عبر كل العصور ، ينسخها الرهبان لنفعهم الروحى ، ويتلوها الكهنة أثناء العبادة الليتورجية لتثقيف شعبهم (٢) ...

ما هى سمات هذه الشخصية الفريدة ؟

١ — لم يكن القديس يوحنا **رجل سياسة** مثل القديس أمبروسيوس الذى دخل فى صراعات مع السلطات المدنية، انتهت باصطياده قلب الامبراطور ثيؤدوسيوس التائب ، فانفتح له البلاط الامبراطورى بكل امكانياته لخدمة الكنيسة وتوطدت العلاقات بينهما فصارا رفيقين مخلصين ... وقد مات الامبراطور مستندا على القديس امبروسيوس أعظم صديق له ، مرددا اسمه على شفتيه . لكننا نود الا نتجاهل قدرة القديس أمبروسيوس — خلال هذه الصراعات أو تلك الصداقة العارمة — الا ينحرف قط عن عمله الروحى الكنسى ، وقدرته الا يميل بالكنيسة نحو روح السلطة الزمنية فتطلب سلطانا ليس لها !

لم يقم القديس يوحنا الذهبى الفم بدور كهذا . حقا لقد رحب به الامبراطور أركاديوس بشدة ومعه أفدوكسيا زوجته وفتحا له البلاط على مصراعيه ، لكن ظروف القسطنطينية فى ذلك الحين أوحت اليه أن يضع حدا بين البلاط ودار الاسقفية ... وجاءت عظاته العنيفة ضد الاغنياء وهجومه — بطريقة أو بأخرى — على تصرفات الامبراطورة وحاشيتها وبعض المسئولين الخ ... الى غلق باب البلاط فى وجهه بل والى طرده من دار أسقفيته !

٢ — لم يكن أيضا **فيلسوفا مسيحيا** على مثال العلامة أوريجين والقديس اكليمندس الاسكندرى وغريغوريوس أسقف نيصص ، الذين رأوا الالتزام بالفلسفة المسيحية كطريق لتحطيم الفلسفة الوثنية . أما القديس يوحنا فقد خشى الفلسفة المثلة فى ذلك الوقت فى الافلاطونية الحديثة ، متطلعا اليها كآخر معاقل الوثنية المحتضرة .

---

(١) كما فى القداس الباسيلى لكنيسة الاسكندرية .

(٢) كادت هذه العادة تتلاشى تماما بعد ما شعر الكهنة بضرورة الوعظ لشعبهم كممارسة لابوتهم ... دون الالتزام بعظات مكتوبة الا القليل النادر.

لقد آمن ان الفلسفة الحقة هى « التقوى » أو الحياة الايمانية العملية، وهى وحدها التى تقدر أن تشبع احتياجات القلب وتجذب غير المؤمنين الى الايمان .

احتقر القديس يوحنا الفلاسفة فدعاهم « أطفالا نهمين فى حب المجد الباطل (١) » وازدرى بأثينا مركز الفلسفات اليونانية ، اذ لقبها « مدينة الثرثرة (٢) » .

٣ — لا يعتبر القديس يوحنا « **لاهوتيا** » ، بالمعنى الذى فيه لم يقدم مفاهيم لاهوتية جديدة ولا شغل نفسه بالبحث فى اللاهوتيات ، فقد كان واعظا قديرا أكثر منه لاهوتيا ، موجها للنفوس أكثر منه صاحب نظريات ، متمسكا بالتعليم الأرثوذكسى المستلم بكل أمانة لا بالبحث والمناقشة والحوار ، انما بتقديمه طعاما بسيطا سهلا خلال عظاته ومقالاته ، يشبع به قطيعه دون تعب.

٤ — عرف عنه أيضا أنه **ليس مناضلا للهراطقة** مثل القديسين أثناسيوس الرسولى وكيرلس الكبير وديسقوروس ، لكنه كان راعيا ساهرا على رعيته لا بالجدال مع الهراطقة انما بتقديم كل حبه لشعبه مع حكمة وسهر دائم ... ولا يستخدم الجدل الا عند الضرورة القصوى .

لقد حدثنا عن فلسفتة هذه بقوله(٣) « ما دام الرعاة ليسوا فى مواجهة وحش كاسر ، فانهم يسترخون تحت شجرة سنديان أو أرز ، يعزفون الناى، تاركين قطيعهم يرعى فى حرية . أما اذا دبرت الذئاب هجوما فانه للحال يقوم الرعاة بحيوية ويلقون عنهم المزمار أو الناى متسلحين بالمقلاع . هكذا أنا أفعل ! » .

٥ — كان القديس **ناسكا** ، تكشف لنا ملامحه الجسمانية عن شخصية رجل ناسك (٤) : « فقد كان من جهة مظهره انسانا **نحيلا** ، **قليل الجسم** ، له وجه مريح للنفس لكنه جاد ، له جبهة مجعدة ورأس صلعاء وعينان غائرتان حادتان وثاقبتان . أما ميوله فبسيطة للغاية ، دائم النسك ، مرهف الحس ، يحمل مشاعر رقيقة فى كل أمر ، يعبر عنها بطريقة قاطعة .

كان لطيفا ، طيب القلب ، ودودا ، مرحا مع خواصه ، متحفظا جدا فى علاقته بالآخرين ... (٥) .

---

(1) In Act PG 60 : 48. (2) Ibid . 268 .
(3) Adv . Jud PG 48 : 871 .
(4) F . Gayré : Patrologie et Histoire de la Theologie . 1945, t 1 p 459 . (5) J . Tixeront : Patrologie, p 264 - 265

كان ناسكا جادا فى تقشفه دون ان يدخل به النسك الى الهروب من التزامات الرعاية او المبالغة فى الانشغال بالتأملات الالهية ... بل بالحرى يدفعه نسكه للبذل والجهاد كل يوم بحب من أجل خلاص الناس ، دون أن يحرم نفسه من جلساته اليومية الهادئة مع كلمة الله وفى وسط تدبيره لخدمة اولاده المتسعة لم ينحرف قط عن الروح الرهبانى ...

٦ — كان قديسنا **رجلا انجيليا** يتطلع الى الكتاب المقدس بعهديه بكونه « تنزلا من قبل السماء » (٦) ، تتلقفه نفسه الداخلية ، وتجهزه ليلا ونهارا ، لا لتبلغ الى تأملات لاهوتية شاهقة ، ولااستعدادا لالقاء عظات منمقة ، او تسجيل مقالات مكتوبة .. لكن غايته الاولى الدخول العملى فى « الحياة الانجيلية التقوية » ليعيشها هو ، وليعيشها شعبه معه ...

احب الكتاب المقدس ليمارس وصيته استعدادا عمليا للحياة الأبدية ، دون ان يعزل هذه الخبرة عن أخوته الذين احبهم كنفسه !

كان الكتاب المقدس بالنسبة له « مرعى » تتغذى فيه نفسه ونفوس اخوته ، الامر الذى يفرح قلبه ، قائلا (٧) : **عند تفسيرى الكتب الالهية اثب متهللا كمن هو فى مرعى ! »** .

٧ — نستطيع ان نلقبه ايضا **بالرجل الكنسى** Churchman . فقد اكد روحه الكنسية لا بممارسة العبادات الكنسية ولا برهبنته ، ولا بنواله نعمة الشموسية والقسيسية فالأسقفية ، ولابحديثه المستمر مع شعبه عن الكنيسة واسرارها الالهية وعبادتها الجماعية ، انما بالاكثر وهو واعظ الجماهير الناجح لم يلهه اعجاب الجموع به ولا التفاف الكثيرين حوله عن **الدخول بهم الى « الحياة الكنسية العملية » أو « الحياة السرائرية التقوية »** .

كان هذا الكنسى العظيم لايكف عن التدرب مع شعبه على « حياة الشركة مع القديسين فى المسيح يسوع » باقامة احتفالات اسبوعية واحيانا مرتين وثلاث مرات فى الاسبوع ، يمجد الله فى شهدائه وقديسيه فى أعيادهم ، حيث يحضر بنفسه ويشترك معهم فى الصلاة والتسبيح ، متحدثا معهم عن حياة الشهادة والشهداء وفعالية صلواتهم عنا . احيانا ينسى نفسه وسط هذا الجو السماوى فيقضى من الليل اغلبه ، واحيانا يستمر الحفل الروحى حتى قرب الفجر أو الصباح المبكر .

---

(6) In Is . PG 56 : 13 : Iu Gen . PG 53 : 28, 41 , 176 .
(7) Adv . Jud . FG 48 : 871 .

٨ — اتسمت شخصيته **بالواقعية العملية** فى تعبده وكرازته . فقد عشق الابديات وتذوق السمويات ، كقوله (٨) « لنمش على الارض كمواطنين سمائيين » . ولكنه كانسان واقعى لايشغل ذهنه بالتعرف على اسرار السماء او طلب رؤية الله وهو بعد على الأرض ،انما يعطى كل اهتمامه كيف يتهيأ عمليا مع اخوته لملاقاة الرب وجها لوجه فى الحياة الأخرى .

الدخول فى السمويات — فى رأيه — ليس انطلاقا فى التأملات بل حياة جهاد ، حياة عمل وأمانة يومية . فرسالة المؤمن على الارض ممارسة الفلسفة الحقيقية ، اى التقوى العملية ، يجاهد بروح ايمانى عملى لكى يتهيأ للمكافأة العلوية . . .

بمعنى آخر ، يؤمن قديسنا بالمسيحية كحياة سمائية ممارسة على الارض ، خلال الواقع الذى يعيشه المؤمن . . . كقوله (٩) :

« لنمش على الارض كمواطنين سمائيين ،

كمصارعين تتجه افكارهم نحو المباراة ،

غير مبالين بالآلام . . . واطئين بأقدامهم على الفحم المشتعل كمن يسيرون فى حديقة مملوءة زهورا ! » .

٩ — اما سر عظمة القديس فهو **ايمانه بالكرازة** . .

يقول عنه بالاديوس (١٠) « كان كاهنا مشهورا بسيرته وقدرته الخطابية ، استخدمه المخلص كأسا ثمينا يسكب فيه نعم الخلاص لاحباء اللوغوس » .

أروع ما فى الذهبى الفم ايمانه بقيمة النفس البشرية مقدما ايمانه ورجاءه ومحبته ونسكياته ودراساته وعباداته . . . بل كل نسمة من نسمات حياته لاجل « خلاص النفس البشرية » .

بمعنى أدق بسط القديس كل نسكياته ودراساته وعباداته ومواهبه وطاقاته الجسمانية واحاسيسه وعواطفه لخدمة الآخرين ، مشتهيا لو استطاع أن يحمل بالنعمة الالهية العالم كله معه الى احضان الله مخلص البشرية !

(8) In . Gen . PG 53 : 259 .
(9) Ibid .
(10) Dialog . PG 48 : 42 .

أما سر نجاح هذه الخدمة فهو نظرته لها على انها ليست مجرد وظيفة يمارسها الأسقف أو الكاهن ، بل هى « عمل أسقفى » ينبع عن روحه الابوى المحتضن فى قلبه العالم كله ، يبعث بروح الكرازة والحب وخدمة الآخرين فى كل أحد : الكاهن والشماس والعلمانى ... الكرازة — فى نظره — هى عمل الكنيسة كلها متحدة مع أسقفها فى المسيح يسوع بالروح القدس !

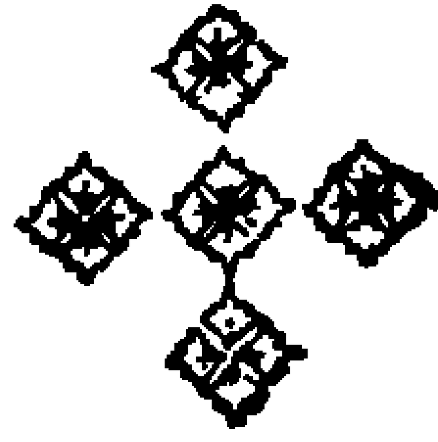
« حب خلاص النفس ونموها الروحى ، ليس عملا رسميا يلتزم به أناس معينون يمارسونه بجوار عبادتهم الشخصية ، لكنه اشعاع طبيعى تبعث من كل قلب عرف خلاص المسيح المجانى ... حتى وان كان طفلا . هو ثمرة طبيعية للقاء النفس مع الله شمس البر ، ينعكس نورها على من حولها ، ويتسع قلبها بالحب للبشرية كلها .

لقد عاش ذهبى الفم لهدف واحد هو خلاص الناس ، كقوله (١١) :

« ان أعظم فرحى هو أن أراكم نامين فى الحياة الروحية » ،

« شغلى الشاغل هو أن تصيروا جميعا كاملين » ،

« لا اعيش الا من اجلكم ومن اجل خلاصكم » .



(11) In Gen. PG 53 : 293. 252, Ad Pop. Ant. PG 49 : 103.

الفصل الثاني

منهجه

(١)

منهجه الإنجيلي

• مفهومه للكتاب المقدس .
• منهجه الدراسى .
• ملامح عظاته التفسيرية .

« لقد سمعتم الصوت الرسولى :
انه بوق سماوى ! هو قيثارة الروح !
نعم ، ان قراءة الكتب المقدسة هى روضة ،
بلى ، هى فردوس ايضا لايقدم زهورا عطرة فحسب ، بل وثمارا تقدر ان تقوت النفس ! . . .
نحن نشبه اناسا يصهرون ذهبا مستخرجا من المناجم الرسولية لا بالقائه فى فرن ، بل بايداعه فى أذهان نفوسكم ، لا باشعال نار أرضية بل بالتهاب الروح ! . . .
فلنجمع منه اجزاءا صغيرة بجد واجتهاد . . . فان اللآلىء لاتقيم حسب حجمها بل بجمال طبيعتها (١) » .

+ + +

هذه عينة من احاديث القديس يوحنا عن الكتاب المقدس ، تكشف لنا كيف سحب الكتاب كل قلبه واحاسيسه وعواطفه وافكاره وبلاغته فاحس بالعجز عن التعبير عنه . تارة يرى فى الكتاب المقدس بوقا سماويا مميزا عن بقية اصوات الفلسفات الكثيرة ، ينذر النفس ويعدها لحرب روحية لاتهدأ مع عدو لاينام ! واخرى يحتضنه داخل نفسه بكونه « قيثارة الروح » التى تسحر النفس بعذوبة الحانها وتهز كيان القلب بالفرح السماوى وسط هموم هذه الحياة !

يرى الكتاب روضته التى تنعش العالم برائحتها العطرة ، لابل فردوسا تتسلل اليه النفس لتأكل وتشبع !

تارة يراه منجما ثمينا تتوغل داخله النفس بالجهاد والتعب لتقتنى لها ذهبا سماويا مصفى بنار الروح ، واخرى يمسك به ويخفيه داخله كلؤلؤة كثيرة الثمن !

هذه خبرات قديسنا كما قدمها لشعبه وعاشها فى حياته . . . لذلك نتساءل : ١ — ماهو مفهومه للكتاب المقدس ؟
٢ — ما هو منهجه فى دراسة الكتاب ؟ ٣ — كيف قدم الكتاب لشعبه ؟

---

(1) Conc. Statues hom 1 : 1 . 2 .

الكتـــاب المقـــدس ... حياة معاشة

ما اكثر الذين كتبوا عن الكتاب المقدس كانجيل معـــاش ودخول عملى الى مقدسات الله ، فى تلاق مباشر مع الله خلال كلمته . أما القديس يوحنا ، فسر قوته لايكمن فى مجرد بلاغته أو فصاحته فى الكشف عن مفهوم الكتاب المقدس او تفسير نصوصه ، لكنه قدم لنا حياته مثلا حيا لفهم الكتـــاب ... كانت حياته انجيلا مفتوحا !

فمنذ صباه اعطى ظهره لفصاحته وشهرته ، واضعا فى قلبه مع صديقه باسيليوس أن يكرس حياته بكاملها « الحياة المقدسة الانجيلية » . بعيـــدا عن الاعين . وجاءت حياته الديرية تضمه الى جماعة هى اقرب الى « مدرسة تفسيرية » منها الى « جماعة ديرية » ... مع هذا لم يفكر قط أن يجعل من كتابه المقدس مادة للمعرفة البحتة أو التعليم او الكتابة أو الجدال ... بل أحتضن « فكر الجمـــاعة التفسيرى » لكى يدخل به الى « حيـــاة الوحدة » يمارس « الفضيلة الانجيلية » .

أخيرا خرج للخدمة ، وإعتلى المنبر وبدأ يفسر ، فأحس الشعب بعذوبة الكتاب لا من خلال منبره وبلاغته وفصاحته بل بالاكثر فى نسكياته وحبـــه ورعايته وأبوته الصادقة . لقد فسر الكتاب بقلبه وتصرفاته الخفية والظاهرة قبلما يفسره بلسانه وشفتيه !

لقد عرف الشعب فى الكتاب مادة حياة وشركة ، لا مادة معرفة نظرية او بحث وحب استطلاع .

هذا المنهج العملى الذى لمســـه الشعب فى أبيهم ، أعلنه هو لهم فى اكثر من موضع ، فقد شبه الكتاب المقدس بالانهار التى لانعـــرف أعماقها ، لكن يكفينا أن نميل ونشرب منها ونرتوى ، ونبحـــر فيها ، عوض أن نفسد اوقاتنا فى قياس أعماقها ونحن نموت ظمأ (١) !

مرة أخرى يحث شعبه قائلا (٢) :

« من يعرف الكتب المقدسة كما ينبغى لايتعثر فى شىء ...
علامة المعرفة الحقة ألا تكون محبا للاستطلاع فى كل شىء ،
ولا ترغب فى (مجرد) التعرف على كل شىء ! » .

---

(1) In Tim , hom 8 . (2) Ibid .

الكتــاب المقــدس ... لقاء عملى !

اذ بدأ القديس يوحنا يفسر لشعب انطاكية انجيل معلمنا متى البشير فى السنة الاولى من قسوسيته أخذ يكشف لهم ما هو الكتاب المقدس ؟ انه لقاء مع الله واهب الحياة !

تعرف آدم على « الكتــاب المقــدس » ، ليس ككتاب مســجل بحبر على ورق ، لكن « كشركة مع الكلمة الالهى » وتلاق مباشر معه .

حتى بعد السقوط ، اذا لم يكن الاباء قد انحــرفوا الى شدة الضعف الذى بلغه جماعة اليهود ، كانت تكفيهم الكلمة الشفاهية .

« فبالنسبة لنوح وابراهيم ونسله وايوب وموسى ايضا ، تحدث الله مع هؤلاء لا بالكتابة بل حديثا (شفاهيا) ، تحدث معهم بنفسه اذ وجدت عقولهم نقية .ولكن اذ صار الشعب اليهودى كله ساقطا فى هوة الضعف وجدت الكلمة المكتوبة والالواح وتقدمت النصائح بهذه الكيفية (٣) » .

فالكلمة الالهية جاءت مكتــوبة من أجل الضعف البشرى ، لهذا يليق بالمؤمن ان يترجم « الكتابة » الى عمل ... هذا ما انتهى اليه القــديس ، قائلا : (٤)

« يليق بنا حقا لا ان نطلب معونة الكلمة المكتوبة فحسب ، بل ان نظهر حياتنا نقية هكذا ، **فتكون لنا نعمة الروح عوض الكتب بالنسبة لنفوسنا . فكما كتبت بالحبر فى الكتب تسجل بالروح فى قلوبنا** » .

قـــوة الكلمـــة

جاءت عظته التالية تعلن قوة الكلمة فى حياة الناس وفاعليتها فى النفس قائلا (٥) : « كلمة واحدة من الكتب الالهية هى اكثر فاعلية من النار ! انهـــا تلين قساوة النفس ، وتهيئها لكل عمل صالح » .

يهمس ابليس قائلا : « لا قيمة لسماع الوصايا الالهية » . وهو يفعل هذا خشية أن نسمع الوصايا ونطلب ممارستها .

اقــواله فى قــوة الكلمــة

« معــرفة الكتب المقدســة تقوى الروح ، وتنقى الضمير ، وتنــزع الشهوات الطاغيــة ، وتعمق الفضيلة ، وتتســـامى بالعقل ، وتعطى قدرة

---

(3) In Mat., hom 1 : 1. (4) Ibid.
(5) Ibid, hom 2 : 9.

لمواجهة المفاجآت غير المنتظرة ، وتحمى من ضربات الشيطان ، وتنقلنا الى السماء عينها ، وتحرر الانسان من الجسد ، وتهبه أجنحة للطيران (٦) .

« عظيم هو نفع الكتب الالهية !

عونها يحمل الينا كل كفاية :

هذا ما أعلنه بولس قائلا (٧) « لان كل ما سبق فكتب كتب لاجل تعليمنا، نحن الذين انتهت الينا أواخر الدهور » ..

الاقوال الالهية هى كنز ، هى مصدر غنى بالادوية ، بهما يستطيع الانسان — أن أراد — أن يطفىء الكبرياء ، وينعم بالهدوء فى نومه ، ويطأ محبة المال تحت قدميه ، ويستهين بالالم ، وينعم بالثقة ، ويقتنى الصبر (٨) ».

« لايمكن لمن أنعم عليه بفاعلية كلام الله أن يبقى هكذا فى هذا الانحطاط الحاضر ، بل بالحرى يطلب له جناحين ينطلق بهما حالا الى الارض العلوية ، مكتشفا نور الصالحات غير المحدودة (٩) » .

« ان كان الشيطان يعجز عن الاقتراب من بيتنا مادام قد وضع فيه الكتاب المقدس ، فكم بالاولى لا يقدر روح شرير أو قوة خاطئة على الدخول فى نفس تحمل مشاعر انجيلية ، أو حتى الاقتراب منها !

اذن فلنقدس نفسك وجسدك ،

ليكن لك هذا فى قلبك وعلى لسانك (١٠) »

« اهتموا بدراسة الكتب المقدسة ، فانكم ان فعلتم هذا ، ينزع الكتاب عنكم قنوطكم ويولد فيكم السرور .

يستأصل الرذيلة ويعمق الفضيلة ،

يخلصكم وسط ضوضاء الحياة من الامواج الثائرة ضدكم فالبحر يهيج، اما أنتم فتبحرون كما فى جو هادىء مطمئن ، اذ تكون دراسة الكتاب المقدس أشبه بقبطان يقود حياتكم ، ومرساة لاتقدر تجارب الحياة أن تكسرها (١١) ».

« أوراق الشجر التى تحتمى القطعان تحتها وقت الظهيرة من أجل الظل وطلب النعاس ليست فى قيمة الكتب المقدسة وهى تهب النفوس الحزينة عذوبة وسط الالم (١٢) » .

---

(6) De Stud . paes . PG 63 : 485 .
(٧) رو ١٥ : ٤ ، ١ كو ١٠ : ١١
(8) In Joan ., hom 37 : 1 .
(9) Ibid hom 1 : 6 .
(10) Ibid ., hom 32 : 3 .
(11) De Eutrovius , hom 2 : 1
(12) De pœn PG 49 : 299 .

« ان حل بك الحزن تعمق فى الكتب المقدسة كما فى خزانة الادوية ، فستجد راحة من أتعابك ، سواء كانت بسبب خسارة أو موت أحد الاقرباء او حرمانك منه . . .

اقتن الكتب واودعها فى ذاكرتك .

عدم معرفة الكتب المقدسة هو علة كل الشرور ، اذ ندخل المعركة عزلا من السلاح ، فكيف نقدر أن نغلب ؟ ! (١٣) » .

الكتـــاب المقـــدس فى حياة الرهبان

الكتاب المقدس هو سر « الحياة الرهبانية » أيضـــا ، كحياة ايمانية كنسية انجيلية عملية فالراهب فى ديره أو مغارته يلتقى بالله مخلصـــه خلال سلوكه الانجيلى .

لقد وصف الكاهن يوحنا لشعبه الحياة الديرية ـــ اسعد أيام حياته ـــ فقال عن الرهبان (١٤) :

« انهم يغتذون بطعام كلى السمو ، فلا يجلسون امام بعضهم البعض يطهون لحوم حيوانات ، بل يعدون أقوال الله قوتا لهم .

يضعون امامهم عسلا وشهدا ، عسلا عجيبا أسمى من الذى اغتذى به يوحنا فى البرية. لان هذا العسل لايجمعه نحل البرية من الازهار ،ولايضعونه فى خلايا ، انما هو عمل نعمة الروح التى تلقيـــه فى أرواح القديسين . . . فيأكلون منه بغير انقطاع فى أمان !

يحوم هذا النحل (الرهبان) حول الكتب المقدسة ، يجمعون لهم منه سعادة عظيمة ! » .

وحـــدة العهـــدين القـــديم والجـــديد

اذ يتحدث عن فاعلية الكتاب المقدس فى حياة المؤمنين يؤكد لنا أنه يقصد بذلك الكتاب المقدس كوحدة واحدة ، فان « العهدين مترابطان معا ومتضافران كل منهما مع الآخر (١٥) » .

فى بدء خدمته الكهنوتية عندما وقف يعاتب شعبه لعدم اكترائهم بالكتاب المقدس لم يفصل بين عهـــديه ، بل على العكس كان يبدا بالمزامير قبل أن

(13) In Col.. hom 9.
(14) In Mat, hom 68 : 5.
(15) Ibid. 47 : 4.

يذكر الكتاب المقدس ككل ، اذ يقول لهم (١٦)، « أخبرونى ، ان سألت احد الحاضرين ان يتلو مزمورا واحدا أو جزءا من الكتب المقدسة عن ظهر قلبه ، هل اجد من يقدر ؟ لا أجد . . . »

« كل الكتاب المقدس يهب تعزية للذين يصغون اليه (١٧) »

« تستطيع ان تنال تعزية وفيرة لا من العهد الجديد وحده ، وانما من العهد القديم أيضا (١٨) » .

+ + +

(16) Ibid, hom 2 : 9.
(17) Statues. hom 7 : 2.
(18) De Paralyt.

منهجه الدراسي

١ — بين الرمزية والحرفية

احب القديس يوحنا العلامة أوريجين ، وبسبب دفاعه عنه فى مشكلة « الاخوة الطوال » عرض نفسه للدخول فى خصومة مع القديس ابيفانيوس كما تعرض لغضب البابا ثاوفيلس الاسكندرى ، ودخل فى سلسلة من الضيقات ادت الى نياحته . ومع هذا كله لم يتتلمذ قط على منهجه التفسيرى الرمزى ، بل على العكس تتلمذ على يدى ديودور الطرسوسى اشهر لاهوتيى مدرسة انطاكية ، منتهجا منهجه فى دراسة الكتاب المقدس وتفسيره ، المضـاد لمنهج الاسكندرية الرمزى .

جاءتنا عظاته تحمل طابع مدرسة انطاكية ، الذى يتركز فى شرح النص الانجيلى فى معناه البسيط كما توحيه اللغة ، مطبقا اياه على حياة انسامعين . لهذا سمى بالمنهج الحرفى ، لانه يأخذ بالمعنى البسيط حسب المفهوم اللغوى العادى دون الدخول فى تأملات رمزية عقلية مختفية وراء السطور . ويسمى ايضا **بالمنهج التاريخى** . لانه يأخذ الحقائق التاريخية الواردة فى الكتاب المقدس خاصة ما جاء فى العهد القديم ، كحقائق واقعية ، بعكس المنهج الرمزى الذى يتجاهل قيمتها التاريخية ، بل واحيـانا — لدى المبـالغين فى المنهج — ينكر وقوع بعضها ، متطلعا اليها مجرد رموز معنوية لاغراض روحية ...

على أى حال ، لقد حفظت لنا شهرة الذهبى الفم عظاته وكتاباته التى حملت الينا صورة حية للمنهج التفسيرى الانطاكى ، ولم يكن مصيرها كمصير اى كتابات آباء انطاكية ، التى ابيدت لكونها دفعت الى ظهور المبتدع نسطور ، خاصة كتابات ثيؤدور أسقف مؤبسويست ، معلم نسطور (١) .

لكن ما نود الاشارة اليه هو أن كثيرين يتطلعون الى الذهبى الفم على انه هو الذى اصبغ على طريقة انطاكية التفسيرية مسـحة جمالية ، وليس العكس اى ليست طريقة انطاكية هى التى اعطته شهرته .

(1) Hans von Compenhausen : The Fathers of the Greek Church, trans. Stanly Godman, N. Y., 1959, p 144.

صراع بين المنهجين

لست اود الدخول فى تفاصيل هذا الصراع وتاريخه الا بالقدر الذى يكشف عن منهج الذهبى الفم فى تفسيره .

على سبيل المثال نورد نصا لاحدى كتابات القرن التاسع نستطيع من خلاله ان تكتشف مدى بغض اتباع المدرسة التاريخية الحرفية للتفسير الرمزى (٢) :

« يسأل الناس : ما هو الفارق بين التفسير الرمزى والتفسير التاريخى؟

نجيب : فرق عظيم ، وليس فارقا بسيطا . فالاول يقود الى الكفر والتجديف والبطلان ، اما الآخر فيتفق مع الحق والايمان .

لقد ابتدع هذا الفن الشرير اوريجانوس الاسكندرى ، مثله مثل الشعراء والمهندسين الذين يقدمون لتلاميذهم نظرة خاطئة نحو ابدية الجسديات والذرات غير المنظورة ، بقصد رفعهم عن المادة والمنظورات الى الامور غير المنظورة الخفية . فيقولون لهم : كما اننا لا نقرأ الأشكال والعلامات المنظورة (الحروف) بل ما تحمله هذه من معان خفية ، هكذا يليق بالانسان أن يرتفع فوق الطبائع المخلوقة بالتصورات الفكرية لطبيعتها الابدية .

هذا ما علم به اوريجانوس . . . فقد شرح المزامير والانبياء التى تحدثت عن السبى ورجوع الشعب على انها تعليم عن سبى النفس بابتعادها عن الحق ، ثم رجوعها الى الايمان ثانية . . .

انه لا يفسر الجنة كما هى (كحقيقة تاريخية) ولا آدم وحواء ولا شيئا من الموجودات » .

وقد دافع الرمزيون عن انفسهم بحجج كثيرة (٣) ، منها استخدام الرسول بولس الرمزية فى تفسيره قصة سارة وهاجر (٤) .

دافعوا ايضا عن انفسهم بأن الرمزية هى وسيلة الرد على الهراطقة ، خاصة الرمزيين منهم . فبالرمزية يحطمون الهراطقة الرمزيين . وقد رأى بعض الدارسين واللاهوتيين المحدثين فى الرمزية اهمية خاصة ، حتى قال الكاردينال نيومان Newman (٥) ان الرمزية والتفسير السرى (الروحى) يقومان معا ويسقطان معا ، كأن الرمزية اساس الايمان المستقيم .

---

(2) Ish'odad's " Introduction to the Psalms, quoted in R.M Grant : The Bible in the Church, N.Y. 1948. p 75.

(٣) راجع للمؤلف : نفس السلسلة [١] ص ٣٩ — ٤٤ .

(٤) غلا ٤ : ٢١ — ٣١ .

(5) John H. Newman : An Essay on the Development of Christian Doctrine.

غير ان القديس يوحنا الذهبى الفم قد برهن بحق أنه يبقى أرثوذكسيا فى المعتقد دون استخدام الرمزية ... حقا لقد اظهر أنه تلميذ ديؤدور ، لا يقبل التأملات الرمزية ، خاصة فى أعمال العهد القديم ، وذلك كعمل مضاد لمدرسة الاسكندرية التى روحنت Spiritualized المادة التاريخية للعهد القديم اكثر من تطبيقها لذات المنهج فى احداث العهد الجديد . ففى عظاته على سفر التكوين والمزامير ... نجده مثلا يؤكد ذبيحة أبينا ابراهيم كحقيقة تاريخيه وفى نفس الوقت يؤكد انها رمز للصليب (٦) .

امتاز الذهبى الفم بعدم هجومه على مدرسة الاسكندرية علانية أو خفية ، بل على العكس احبها وأحب مصر ورهبانها ومعلميها خاصة المتلمذين على كتابات أوريجانوس ... احب روحانياتهم وجهادهم لكنه لم يقبل الرمزية .

ولعل سر كراهيته للرمزية ما تشربه من ابيه الروحى أن الرمزية هى علة الهرطقات ، اذ لم تستطع مدرسة انطاكية أن تميز بين رمزية الهراطقة والرمزية الارثوذكسية المهاجمة للهراطقة .

يقول القديس يوحنا (٧) « خرجت معظم الهرطقات عن التصورات المصطنعة » .

امثلة :

آمن القديس يوحنا « ان كل الامور فى الكتب المقدسة واضحة وصريحة الامور الضرورية كلها واضحة (٨) » . فلا يحتاج الامر فى دراسة الكتاب المقدس إلا الى فهم النص ببساطة كما توحيه اللغة فى معناه الظاهرى . من أمثلة ذلك :

١ — فى تفسيره المزمور المئة والخمسين يقول (٩) :

« اذ يسمع البعض نص المزمور « سبحوا الله بالطبل والمزمار » يشرحونه بطريقة روحية ، فيشير الطبل الى اماتة الجسد (١٠) ، والمزمار الى التأمل فى السماء . أما أنا فأعتقد ان النص يعنى تنازل الله لقبولنا بضعفنا البشرى أن نسبح مجده بفرح مستخدمين هاتين الآلتين » .

---

(6) In Ps , PG 55 : 209 .
(7) In Ps . PG 55 : 490 .
(8) In Gen . PG 53 : 213 — 216
(9) In thes . , hom 3 .

(١٠) لان الطبل يصنع من جلد الحيوان الميت . لذلك فالجلد الميت — فى نظر أوريجين — يشير الى اماتة الجسد (راجع تفسيره فى سفر التكوين فى خلع موسى لنعليه الاذين من جلد الحيوان الميت) .

٢ — فى تفسير « طوبى للودعاء لانهم يرثون الارض (١١) » ، يقول القديس اغسطينوس (١٢) أن « الارض » تعنى « الميراث الدائم الذى فيه تستريح الروح » . اما القديس يوحنا فيرفض كل تفسير رمزى ، ولا يقبل الا المعنى المادى الواقعى ، قائلا (١٣) : « اخبرنى اى نوع من الارض هذه ؟ يقول البعض انها أرض رمزية . ليس كذلك ! فاننا لا نجد فى الكتاب المقدس أدنى اشارة الى ارض رمزية . . . فهو لا يحثنا بالبركات المقبلة وحدها ، بل وبالبركات الحاضرة ايضا » .

٣ — فى العبارة « كن مراضيا لخصمك ، سريعا ما دمت معه فى الطريق، لئلا يسلمك الخصم الى القاضى ، ويسلمك القاضى الى الشرطة فتلقى فى السجن (١٤) » ، يقول القديس اغسطينوس (١٥) أن الخصم لن يعنى انسانا بل هى وصايا الله التى تسلمنا للقاضى ، أى الله الديان ، وذلك أن لم نخضع لها سريعا ، ونراضيها مادمنا فى أرض غربتنا . أما القديس يوحنا الذهبى الفم فيقول (١٦) « يبدو لى أنه يتحدث عن قضاة فى هذا العالم ، والطريق الى محكمة العدل ، وعن هذا السجن » .

٤ — فى العبارة «خبزنا كفافنا اعطنا اليوم» يرفض العلامة أوريجين(١٧) التفسير الحرفى ، فلا يقبل الخبز هنا بالمفهوم المادى العادى ، اما القديس يوحنا فيرفض غير التفسير المادى . . . فان الله يقدم وصايا لاناس يحملون جسدا تتطلب احتياجات جسدية (١٨) .

+ + +

٢ — بين الرمزية Allegorism والثاوريا Theoria

سبق أن تعرضنا للتفسير الرمزى لمدرسة الاسكندرية ، الذى وضع منهجه القديس اكليمندس الاسكندرى ، ثم جاء بعده أوريجين يستخدمه على نطاق أوسع ، حتى رأى معان رمزية عميقة تختفى وراء كل سطر من الكتاب المقدس لا يفهمها الا الكاملين . أما المعنى الحرفى ، ففى نظره ، يقتل النفس ويناسب الذين عاشوا قبل المسيحية او البسطاء من المسيحيين (١٩) .

---

(١١) مت ٥ : ٥ .
(١٢) للمؤلف : الموعظة على الجبل طبعة ١٩٦٨ ص ٤٥ .
(13) In Mat., hom 15 : 5.
(١٤) مت ١ : ٢٥ .
(١٥) للمؤلف الموعظة على الجبل ص ٨٦ — ٨٧ .
(16) In Mat., hom 16 : 13.
(17) Origen : On prayer 27 : 1.
(18) In Mat., hom 19 : 8.
(١٩) للمؤلف نفس السلسلة [١] ص ٣٩ — ٤٣ .

كان لهذا المنهج جاذبيته فى الكنيسة شرقا وغربا ، كما كان رد الفعل قويا خاصة انطاكية حيث تزعم لوقيانوس مؤسس مدرستها حركة التفسير التاريخى الحرفى ، مكرسا كل طاقاته لهذا العمل ...

لقد رفض اللاهوتيون الانطاكيون الرمزية Allegorism بكونها غير جديرة بالثقة ، ولا هى وسيلة مقبولة فى تفسير الكتاب المقدس ... هذا الرفض نسبى ، يختلف من لاهوتي الى آخر ، أو من دارس الى دارس . فالقديس يوحنا مع رفضه للرمزية دان مدرسة انطاكية لمبالغتها فى ذلك مطالبا بالاعتدال ...

فى الحقيقة ظهر لدى آباء انطاكية ما اسموه بالتاوريا أو الثيؤريا Theoria وهى نوع من الرمزية أو التأمل ، قام على نوع من الرمزية وهو الـ Typology يقوم على أساس نبوات صادقة وصريحة وأصيلة تعلن الرمزية ، وليس على اجتهاد شخصى ... دون تجاهل الحقيقة التاريخية . فعلى سبيل المثال « نهر الاردن » يشير الى المعمودية ، لكن حقيقة عبوره حقيقة تاريخية لها قيمتها . وهكذا «ذبح اسحق» كرمز للصليب . والصخرة التى تابعت الشعب القديم ، والحية النحاسية التى أقامها موسى ، ودخول أرض الموعد ... كلها حقائق وفى نفس الوقت رموز .

لقد حذر ديؤدور الطرسوسى (٢٠) ألا تزيل الثيؤريا الاساس التاريخى فتنقلب الى الرمزية .

هذا أيضا ما أكده سيفريان أسقف جبالة عند تفسيره المخلوقات الحية الخارجة من المياه عند الخلقة (٢١) كرمز للمسيحيين الاحياء الذين يتجددون فى مياه المعمودية ، قائلا (٢٢) « استخراج الرمزية (الثيؤريا) من التاريخ هو شيء ، أما بقاء التاريخ كحقيقة لا تمس أثناء ادراك التاوريا فهو شيء آخر » .

اذن نستطيع ان نلخص منهج انطاكية للتاوريا فى التفسير فى النقاط التالية (٢٣) :

١ — لا تجد فى كل عبارة من عبارات الكتاب المقدس معنى باطنيا غير المعنى الحرفى ، لكنها تقبل التفسير بالتاوريا فى بعض القصص المقدسة والاحداث التاريخية دون أن تجعل من القصة أو الحدث أمرا مجازيا .

---

(20) Praef in Ps. (٢١) تك ١ : ٢١ .
(22) Severian of Gabala : De Creat, 4 : 2 PG 56 : 49.
(23) J.N.D. Kelly : Early Christian Doctrines, 1960, p 75 — 78

٢ — وجود تطابق حقيقى ظـاهر — وليس اجتهاديا — بين الحقيقـة التاريخية والتاوريا الروحية ، بل أن بعض الآباء الانطاكيين يطالب بضرورة وجود نص صريح فى الكتاب المقدس يعلن هذا التطابق لكل قصة أو حدث ، كقول الرب (٢٤) « كما رفع موسى الحية فى البرية هكذا ينبغى أن يرفع ابن الانسان ، لكى لا يهلك كل من يؤمن به بل تكون له الحياة الابدية » .

٣ — يفهم الموضوعان معا — التاريخى والروحى — وان حملا طريقين مختلفين .

هذه صورة عامة مبسطة لمنهج انطاكية التفسيرى الذى انتهجه القديس يوحنا بكل امانة ، لكنه قام بتطبيقه فى أكثر مرونة . فمع تفضيله الواضح للمعنى الحرفى لكنه لا يتورع عن استخدام المعنى الرمزى — فى حدود ضيقة — ان وجد ذلك لائقـا (٢٥) .

قسم الذهبى الفم عبارات الكتاب المقدس الى ثلاثة أصناف (٢٦) :

١ — عبارات تفهم حرفيا فقط ، لا يجوز شرحها رمزيا .

٢ — عبارات تسمح بالتفسير التاورى Theoretic بجانب المعنى الحرفى أو التاريخى كما رأينا فى عبور نهر الاردن وذبح اسحق الخ . . .

٣ — عبارات رمزية مثل نشيد الاناشيد وبعض العبارات الواردة فى العهدين ، غالبا ما يقوم الكتاب نفسه بالتنويه عنها كتعبير « كرمة الرب » اشارة الى « كنيسته أو شعبه (٢٧) » و « النهر المتدفق علينا » اشارة الى ملك الاشوريين (٢٨) » .

هناك تعبيرات كثيرة فى العهد القديم — ان شرحت حرفيـا — تضللنا كالقول « يد الله ، عينا الرب ، وجه الرب . . . نزل الرب » ، هذه كلهـا رموز تشير الى قدرة الله وعنايته وتدبيره واحساناته الخ . . .

اكثر من هذا ، فى بعض المواقف تفهم بعض الشرائع الموسوية بمفهوم رمزى ففى تفسيره « مكتوب فى ناموس موسى : لا تكم ثورا دارسا . العل الله تهمه الثيران ؟ (٢٩) » ، يقـول : نعم ، الله تهمه الثيران فهو خالقهـا والمهتم بها ، لكنه ليس بالمعنى الذى به يشرع وصايا للانسان عنها هكذا . فان وصاياه بخصوص الثيران وبرص المنـازل وبرص الثياب . . . هـذه الشرائع جميعها رموز (٣٠) .

---

(٢٤) يو ٣ : ١٤ ، ١٥ .

(25) Cf. In Is, hom 1 : 22, 6 : 6.

(26) In Ps., hom 9 : 4.

(27) In Is. PG 56 : 59

(28) Ibid 93.

(٢٩) ١ كو ٩ : ٩ .

(30) In 1 Cor, hom 21.

اذ عرفنا مفاهيم القديس يوحنا للكتاب المقــدس وعبرنا الى منهجــه الدراسى فى التفسير ، بقى لنا أن نتســاءل : كيف قــدم هذا الفهم الانجيلى لشــعبه ؟

١ ــ اذ تعرف على الكتاب المقدس كمصدر حياة وينبوع قوة للدخول فى الحياة الانجيلية الفاضلة ، وفيض تعزيات وسط هموم الحياة وضيقات المؤمن وتجاربه . . . لهذا وضع فى كل خدمته أن يدخل بشعبه الى « الكتاب المقدس» ليجعل منهم **شعبا كتابيا** biblical **او انجيليا** . فقد حدثهم كثيرا عن الكتاب المقدس وفاعليته فى حياة الكنيسة وحياة كل عضو منها ، بل قدم اغلب عظاته سلسلات تفسيرية لبعض أسفار الكتاب المقدس بصورة تكاد تكون منظمة . . وفى تفسيره للكتاب استخدم نصوص الكتاب لتفسر بعضها البعض مع تعليقات بسيطة عملية من الواقع الذى يعيشون فيه .. وبهذا مزج واقعهم بالروح الانجيليــة .

أما مقالاته ورسائله فقد حوت الكثير من نصوص الكتاب المقدس مفسرة كما شملت فى داخلها شخصيات واحداثا من الكتاب هى مشاعل تنير البحث الذى يكتب فيه .

٢ ــ فى تفســيره للكتاب المقدس لا يسعى لمجرد حفظهم الــكثير من نصوصه أو تعرفهم على تفسير اكبر قدر منها ، بل بالحرى كان يشتاق الى دخولهم العملى فى « **الحياة الانجيلية** » .

ففى السنة الثانية من رسامته كاهنا على أنطــاكية وقف بين شــعبه يذكرهم أنه لم يقدر أن يشرح لهم طوال هذه الفترة مئة ســطر من الكتاب المقدس ، معللا ذلك الى تقديمه لهم بالقدر الذى يلزمهم ممارسته عمليا (١) .

مرة اخرى يقول (٢) « ان افضل طريقة للتعليم هى الا نمل من تكرار نفس النصيحة حتى نراها مطبقة عمليا » . كما يقول (٣) « اعتدت الا اقيس مقالاتى بكثرة الكلام بل بحرارة المستمعين الى » .

---

(1) Statues , hom 16 .

(2) De Dav. et Saul PG 54 : 677.

(3) Daem nom Gup . mund PG 49 : 246 .

لقد حدد لنا هدفه فى تفسير الكتاب المقـدس بكل وضـوح بقوله (٤) « لم تعط لنا الكتب المقدسة لكى تكون مكتوبة فى كتب بل منقوشة فى قلوبنا » .

ومن كثرة تكراره لبعض النصوص الكتابية والأمثلة كان البعض يكمل النص عند بداية نطقه به او يظهرون علامات معرفتهم لما يقوله ... فكان يقول لهم (٥) « مثابرتكم على العظات تجعلكم معلمين ، لـكن لا تجروا ففى وسطكم مستجدون . انتظروا العرج ! » .

٣ ــ لم يكن التفسير هدفا فى ذاته ، انما غايته الدخول بسامعيه الى حضرة الله وتهذيبهم والتحدث معهم فى مشاكلهم اليومية ، لهذا كثيرا ما كان **يهمل الاجزاء الصعبة** فى الكتاب المقدس ، ونادرا ما تعرض للاحظات تفسيرية ... فقد كان **مفسرا واعظا** كل ما يهمه استخراج المعانى الروحية وتقديمها فى صورة نافعة للتعليم والتهذيب ، من اجل التمتع بخبرة حياة القداسة التى بها يكمل رجل الله فى كل عمل صالح .

٤ ــ كان يؤمن ان « مسيحيا بغير معرفة الكتب المقدسة ــ العهدين ــ كعامل بغير ادوات » ... مهتما **بشرح العهد القديم** فى صورة جادة ، بكون دراسته افضل السبل للرقى فى الحياة المسيحية .

والتطرق الى العهد القديم ، امر له خطورته فى ذلك الحين ، فكما شرح القديس بنفسه فى كتابه الرابع من مقال الكهنوت (٦) حين تعرض للـكاهن وهو يتأهب لحرب متعددة الجوانب والجبهات . لقد قال « الذى يشهر سيفه بغير خبرة يجرح نفسه بسيفه فيصير اضحوكة بين أصدقائه كما بين أعدائه» ولكى أوضـح قولى هذا اذكر مثـال أولئك الذين يتقبلون تعـاليم مارفيون وفالنتينوس الغريبة ، فان جميع المرضى بتعاليم امثال هذين المبتدعين يسقطون الشريعة التى سـلمها الله لموسى من قائمة الكتب المقدسـة . اما اليهود فيقدسون هذه الشريعة (تقديسا حرفيا) حتى بعد ان جاء الزمن الذى ابطلت فيه ، ولا يزالون يتمسكون بكل ما جاء فيها مخالفين ارادة الله . اما كنيسة الله فتنتهج مسـلكا وسـطا لتتجنب المتطرفين ، فلا هى تخضـع تحت نير الناموس ولا هى تحتقره أو تنقص من قدره ، بل توصى به رغم انقضاء عهده بكونه نافعا ...

حرى بالذى يناضل العدوين (٧) ان يسلك الطريق الوسط ، فان انتقد اليهود لتمسكهم بالناموس القديم يسقط فى خطأ جسيم اذ يعطى فرصة للهراطقة

---

(4) In Joan , hom 32 : 3 .

(5) De Laz . PG 48 : 1032 ..

(6) De Sacer . 4 : 4 .

(٧) الغنوصيون واليهود .

الذين يرغبون فى تمزيق الناموس ، وان سعى فى حماسه الى اتهام الهراطقة ممجدا الناموس بافراط ومتحدثا عنه باعجاب بكونه مفيــدا فى الوقت الحاضر يعطى فرصة لليهود » .

٥ ــ نعود الى منهجه فى تقديم الكتاب المقدس لشعبه لنجد قديسًا قد امتاز بالبساطة فى التفسير ، فى مشاعر رقيقة قادرة على جذب السامعين . اذا ما شرح نصا وضع نفسه موضع الكاتب ، بشعر بأحاسيسه ويعظ أو يكتب من واقع تاريخه .

٦ ــ جاءت كتاباته وعظاته التفســيرية فى القسطنطينية أقل قوة من تلك التى قدمها فى أنطاكية ، ولعل ذلك يرجع الى قلة الوقت اللازم للتحضير بسبب مشغولياته الرعوية والمشاكل الكثيرة التى شغلته ....

٧ ــ ان كان الذهبى الفم قد استخدم « المنهج الحرفى » الانطاكى فى التفسير ، كما أعلن عن وضوح الكتب المقدسة ، فان هذا لا يعنى سطحيته فى فهمه للكتاب المقدس أو تفسيره اياه ... فدراســة الكتاب ــ فى رايه ــ تحتاج الى مهارة خاصة واستعداد روحى معين يلتزم بها المعلم والعلمانى حتى يقدر كل منهما أن يدخل الى « المعنى الحقيقى » للنص ، ويتعرف عليـــه ، ويعيش به .

فى هذا يقول (٨) : « ان كان احد يعمل فى منجم بغير خبرة فى هذا الفن، فانه يخلط بين الاشياء (المعدن النفيس والتراب) بغير هدف ، ولا يستخرج ذهبا ، بل يضيع عمله هباءا ، بل ويكون مهلكا . هكذا الذين لا يفهمون الكتاب المقدس ، ولا يطلبون خصوصياته وقوانينه ، بل يســيرون فى كل نقطة من محتوياته باهمال ، بطريقة واحـــدة (فى غير حكمة) ، يمزجون الذهب مــع التراب ، ولا يكتشفون الكنز المخفى داخله ...

يليق بنا ان نصل الى المعانى الحقيقية خلال التنقيب والتنقية ! »

يقول أيضا (٩) : « من يريد أن يتعلم الاعمال العسكرية يلزمه أن يعرف قوانينها ، ومن أراد الابحار أو التجارة أو أى شىء آخر يلزمه أن يتعلم أسس الفن . أما فى هذا الامر (دراسة الكتاب المقـــدس) فلا يريدون ان يفعلوا شيئا من هذا مع انه « علم » يحتاج الى اهتمام يقظ ... » .

لقد كان يحث شعبه على الدوام أن يتفهموا الكتاب لا فى رخاوة أو اهمال ولا فى سطحية وانما بالبحث والتنقيب المستمرين ... فهو كنز مخفى لا يجده غير الباحثين عنه باجتهاد .

---

(8) In Joan, hom. 40 : 1. (9) In Hebr., hom 8 : 10.

له فى ذلك قول جميل (١٠) : « الله لا يريدنا ان نصغى الى كلمات الكتب المقدسة وعباراتها باهمال بل فى انتباه شديد . لهذا السبب كثيرا ما يصدر الطوباوى داود مزاميره بالعنوان « للفهم (١١) » كما يقول (١٢) : أكشف عن عينى فأرى عجائب من شريعتك . ومن بعـــده يعلن لنا ابنه انه يلزمنـــا أن « نطلب الحكمة كالفضة ، ونتاجر بها اكثر من الذهب (١٣) » ، وينصح الرب اليهود قائلا « فتشوا الكتب ... » ولكى يحثنا على البحث دعاها « الكنز المخفى (١٤) » .

قيلت هذه الكلمات لنا لكى لا نطلب كلمات الكتب المقدسة باهمال او بطريقة عشوائية ، بل بدقة عظيمة . فان من يصـــغى اليها دون أن يطلب المعنى الحقيقى ... بل المعنى الحرفى ، يسقط فى أمور لا تليق بالله أما اذا عرف المعنى الخفى فسيتحرر من كل عدم لياقة » .

ولكن ، كيف ندخل الى المعنى الحقيقى لنصوص الكتاب المقدس ؟

ان كان قد دعا دراسة الكتاب المقدس فناله اسسه وخصائصه وقوانينه فان هذه الأمور تحمل اتجاهين متلازمين ومكملين احدهما للآخر :

(ا) الجانب الاول هو الحكمة والتمييز ، كيف أفسر النص ؟ هل بالمعنى الحرفى البحت ، أم الرمزى وحده ، أو كليهما معا ؟!

(ب) الجانب الآخر ، هو الجهـــاد الروحى ... فكلمـــة الله هى روح وحياة ، لا يتفهمها الا السالك بالروح ...

يقول القديس يوحنا (١٥) « **بالروح القدس يتمتع المؤمنون بمهارة النظر الى المعانى المخزونة فى الداخل** » .

الروح القدس الذى أوحى بالكلمة هو وحده الذى يفتح مخازنهـــا أمام النفس لكى تنهل منها ، فتشبع وتفيض دسما .

والروح مستعد أن يعطى بسخاء ... ويعطى الجميع ان تقـــدمنا اليه نطلب عمله فينا بانسحاق قلب فى اتضاع ، مع جهاد مستمر فى الصلاة (١٦) : « لا نقدر أن نكتشف معانى الكتب الالهية ونحن مهملون أو نائمون . يحتاج الامر الى **بحث دائم وصلاة حارة** حتى نقدر أن نجد لنا طريقا بسيطا فى أسرار الاقوال الالهية » .

---

(10) In Joan., hom. 15 : 1.

(١١) مز ٣١ (٣٢) .

(١٢) مز ١١٨ (١١٩) : ١٨ .

(١٣) أم ٢ : ٤ ، ٣ : ١٤ .

(١٤) مت ١٣ : ٤٤ ، أم ٢ : ٤ .

(15) In 1 Cor, hom 7 : 2.

(16) In Joan., hom 32 : 3.

« لنتنقى ... وهكذا نصغى للاقوال الالهية ،

لننصت الى ما يتلى علينا بقلب منسحق ... » .

٨ — فى تفسيره للكتاب المقدس يرى فى كل كلمة وردت فى الكتاب المقدس نفعا يلزم للمؤمن أن يبحث عنه .

« فى الكتب المقدسة ، لن نتردد تاركين مثقال ذرة او نقطة ، انما يلزمنا ان نبحث كل شىء ، فان الروح القدس قد نطق بالكل ، وليس شىء من المكتوب جاء بغير فائدة (١٧) » .

هذا الاهتمام اصبغ على تفسيره مسحة جمالية وعملية عذبة ، لكن تدقيقه فى كل كلمة يجره احيانا الى اسئلة وتفاسير غريبة . ففى خلقة ابوينا مثلا نجده لا يعبر على نعاس آدم بل يتساءل : لماذا أرسل الله سباتا على آدم فى لحظة خلقة حواء ؟ فيجيب « لكى لا يتألم فيكره فيما بعد من خرجت منه (١٨) » .

٩ — اخيرا من اهم ملامح تفسيره (ومقالاته أيضا) ارتباطه ببعض شخصيات من الكتاب المقدس ، بل تعلقه بهم خاصة معلمنا بولس الرسول وأيوب البار .

لقد عشق شخصية الرسول بولس وسجل لنا تفاسير كل رسائله ... احبه ككارز مملوء حبا تجاه البشرية كلها ... اذا ما تحدث عنه يصعب عليه العودة الى موضوعه الاصلى ...

« فى تعليمى اكثر الاستشهاد بنفس بولس المقدسة ... (١٩) » .

« ماذا يحدث لى ؟ لنهرب سريعا ، فان بولس يستولى على ، ويبعد بى خارج الموضوع !

انتم تعلمون اننى كثيرا ما اطارد فكرة معينة ، واذا بى اسقط فجاة على بولس فيحتجزنى بقوة عن كلامى ، ولا اقدر أن انفصل عنه حتى النهاية (٢٠)»

وفى اول عظة على رسالة الرسول بولس الى اهل رومية ابتدأ بعبارات الاعجاب بالرسول ، قائلا :

« انى احرص على قراءة رسائل الطوباوى بولس مرتين اسبوعيا ، وغالبا ثلاث دفعات او اربع كل اسبوع عند الاحتفال بذكرى الشهداء

(17) Ibid ; 36 : 1 . (18) In Ps PG 55 : 324 .
(19) Non ad grant PG 50 : 656 . (20) In Ego Don PG 56 : 146 ..

والقديسين . انعم بالبوق الروحى بسرور ، انهض متقدا بالرغبة فى التعرف على الصوت العزيز على .

يخيل لى انى أهواه تماما ، بل كأنه حاضر أمام بصيرتى .

أمسك به ، واتحدث معه .

لكننى احزن متألما لان كل الناس لا يعرفون هذا الرجل كما ينبغى ...

انى اعرفه هكذا ليس بسبب استعداد خاص بى أو ذكاء حاد ، انما ان كنت أعرف عنه شيئا فبسبب التصاقى الدائم مع هذا الرجل وميلى الشديد نحوه » .

وختم عظاته على نفس الرسالة (٢١) بعبارات رائعة تكشف عن مدى ولعه بشخصية الرسول ، نعود اليها فى الحديث عن كتاباته ان شاء الرب وعشنا .

ولقد قال انيانوس من Celeda فى القرن الخامس أن القديس يوحنا لم يصف الرسول العظيم بولس ، بل كان كمن يقيمه من الاموات ليجعل منه مثلا حيا للكمال المسيحى .

اما فى الفترة الاخيرة من حياة القديس يوحنا ، حيث دخل فى لجة التجارب ، فقد وجد فى ايوب البار صديقا ... تعلقت نفسه به كشريك معه فى الآلام ، متى كتب عنه نسى نفسه ...

جاءت كتاباته الاخيرة لا تخلو من حديث عنه . وفى احدى رسائله لشماسته اولمبياس اذ بدأ يتحدث عنه ترك موضوع الرسالة تماما ليعود معتذرا : « يبدو لى أن حبى للبطل قد جرفنى بعيدا عن الموضوع الماثل امامى (٢٢) .

هذه ملامح انسان يعيش فى الكتاب المقدس مع الآباء والانبياء والرسل ويصادقهم فى المسيح يسوع ، ليحيا معهم كما هم فى الرب .

+ + +

---

(21) Hom 32.

(22) Ep. ad Olympias 2 : 9.

(٢)

منهجه الكرازى

العمل الكهنوتى الرعوى الكرازى

مدرسة الخدمة

الخدمة فى حياة القديس يوحنا ليست اعمالا رسمية يلتزم بها ولا واجبات تقتضيها وظيفته الكهنوتية ، لكنها هى كل حياته . فقد جاءت سيرته تكشف لنا عن شخصية أسقف يعشق الرعاية ولا يكف عن الكرازة ، حبه لشعبه بل اقول حبه للبشرية قد امتص كل طاقاته واحاسيسه وعواطفه ، حتى أعلن فى اكثر من موضع انه لا يعيش الا لاجلهم !

اقول بكل صدق ان كتابا كهذا يعجز عن ان يستجل لك منهجه فى الخدمة او يكشف لك أعماله الكهنوتية الرعوية الكرازية ، اذ حمل وراء اعماله « روحا » لا تترجمها حروف ولا تعبر عنها كلمات ! لكن ما أرجوه فى الرب ،أن ندخل سويا بروح الخدمة الى تلك الحياة التى عاشها لا لنسجل منهجه بل لنمارس معه « حياة الخدمة » وان اختلفت ظروفنا عنه او لم نتسلم درجة كهنوتية مثله !

ولكى نتذوق هذا المنهج ونعيشه يلزمنا أن نتعرف على «مدرسة الخدمة» التى نشأ فيها لينطلق بهذه الطاقات الداخلية الفريدة .

فى غير تحفظ يمكننا أن نقول انه بدأ يتدرب على روح الخدمة فى مدرسة الانجيل، لا فى مجرد دراسته ، وأنما خلال ممارسته **((الحياة الانجيلية التقوية))** فقد سحب الانجيل قلب الشاب يوحنا نحو « الحياة النسكية الانجيلية » كأفضل مناخ يلتقى فيه عمليا مع الانجيل ، فترك مهنته ومجتمعه واصدقاءه ، وكان يود أن يترك والدته ، معتكفا فى داره يطلب الوحدة من أجل الجهاد فى تنفيذ الوصايا الانجيلية . لقد اتهمه اصدقاؤه بالانعزالية والانطوائية ولم يدروا أن « الحياة الانجيلية النسكية » هى خير مدرسة لتدريب النفس على روح الحب الباذل . لست اعنى بهذا أن الحياة النسكية الرهبانية طريق للخدمة لكنها وهى طريق التعبد والوحدة مع الله تخلق قلبا ملتهبا بحب البشرية فى

المسيح يسوع « انها تهب روح الخدمة ، لا خدمة الوعظ أو التدابير والتنظيمات والاداريات ، لكن خدمة الحب الباذل : اتساع القلب بالروح القدس لكى ان امكنه يحمل العالم كله بالحب فيه !

من خلال الانجيل ، ولاجل الانجيل ، انطلق قديسنا نحو « الحياة النسكية الانجيلية » المنفتحة لله وللناس ... لا بكونها انعزالا عن الناس بل اتحادا مع الله خلال الوصية ، وانفتاح القلب بالحب نحو البشرية كلها (١) .

مارس « النسك الانجيلى » بكونه التصاقا بالله محب جميع بنى البشر ... فبدأ يمارس خدمته ليس بالتدرب على خبرات كلامية أو تصرفات رعوية خارجية ، لكن خلال لقائه العميق مع « الراعى الاعظم » وهو منجذب بالانجيل نحو البرية .

فى غير مبالغة يمكننا أن نقول أن الذهبى الفم بدأ خدمته الحقة منذ فتح انجيله فى داره ورفع قلبه بالحب فى مخدعه مشتهيا خلاص نفسه وخلاص العالم كله كانت عيناه الخارجيتان تتطلعان الى البرية مشتاقا أن يهرب من الناس ليكون على الدوام بين يدى الله يتعبد ، وكانت بصيرته الداخلية ترتفع نحو الصليب ليرى البشرية تتقدس بالدم الكريم لتعبر نحو المجد الابدى!

لم يعانى القديس صراعا بين حب الوحدة وبين حب البشرية ، بل رأى فيهما انسجاما واتفاقا ، فهو يدخل الى البرية حاملا حبه للبشرية معه ، يدخل الى الله وهو هارب من محبة اهتمامات العالم ، حاملا العالم (البشر) فى قلبه !

لست أقول هذا من عندياتى ، انما جاءت الاحداث كلها تؤكد ذلك . فعلى سبيل المثال ، احس المؤمنون بنيران حبه لخلاص اخوته تشتعل فى قلبه بالرغم من عزلته ، فتهافتوا على سيامته أسقفا مع صديقه باسيليوس، اما هو فتحت شعوره بضعفه وعدم استحقاقه اضطر ان يهرب من الاسقفية ، لكن حبه المتقد بخدمة النفوس جعله يزج بصديقه نحو السيامة معرضا نفسه للوم الزائد ولمتاعب كثيرة .

اكثر من هذا ، هروبه من الاسقفية فضح بالاكثر أعماق قلبه ، اذ لم يحتمل ان يترك نفس الاسقف باسيليوس متألمة فكتب اليه يعتذر ، مسجلا

---

(١) راجع مفهوم « الوحدة » و « النسك » فى هذه السلسلة ص ٥٤ — ٥٥ . للمؤلف ايضا : سر الالم (سر الوحدة) ص ٨ — ١٠ .

لنا مقاله العظيم « عن الكهنوت (٢) De Sacerdotio » الذى أعلن فى نهايته بكل وضوح تفضيله لحياة الخدمة لولا عجزه وضعف امكانياته ، لا بل سجل لنا فى هذا المقال خبرات رعوية دقيقة ، مع أنه لم يكن بعد قد مارس الخدمة بمفهومها الظاهرى . لقد خط بيده دستوراً قيما للعمل الكهنوتى الرعوى الكرازى .

بعد ذلك جاءت « حياته الديرية » أيضا تؤكد هذه الحقيقة : اتساع قلبه بالحب لخلاص اخوته ، كما سنرى فى « منهجه الرهبانى » ان اراد الرب.

أخيرا فان خدمته الكهنوتية تعتبر كتابا عمليا ترجم لنا كل ما حمله قلبه من حب منذ بداية حياته الروحية ...

أما منهجه فنستطيع ان نعرضه فى الخطوط العريضة التالية :

١ ــ وحدة العمل الكهنوتى الرعوى الكرازى .

٢ ــ ايمانه بخدمة الكلمة كعمل كنسى .

٣ ــ الكرازة : دخول فى التوبة .

٤ ــ الرعاية : ابوة وتدبير .

٥ ــ الكهنوت : مسئولية وبذل .

٦ ــ حياة مسيحية .

٧ ــ الكرازة والحفاظ على الايمان .

+ + +

(٢) قامت كنيسة العذراء بالفجالة بترجمته ونشره تحت اسم « الكهنوت المسيحى » .

وحـدة العمـــل

الكهنوتى ، الرعوى ، الكرازى

نظرة سريعة على مقاله « عن الكهنوت » تكشف لنا حقيقة كنسية هامة عاشتها الكنيسة الاولى، هى وحدة العمل الكنسى ، الممثل فى شخص الاسقف.

فالاسقف كراس الكنيسة يقوم بأعمال ثلاث ، او قل عمل واحد مثلث الجوانب :

العمل الكهنوتى السرائرى

العمل الرعوى ،

العمل الكرازى .

هذه الأعمال الثلاثة : الكهنوت والرعاية والكرازة ، ليست الا عمل السيد المسيح نفسه ، فهو رئيس الكهنة الأعظم واسقف نفوسنا ، والراعى الصالح ، وكلمة الله المتجسد . وفى عمله الخلاصى على الصليب لم يفصل عملا عن الآخر ، بل ظهرت وحدة هذه الأعمال ، بكونها عملا الهيا واحدا ، فيه قدم الكاهن الأعظم حياته ذبيحة عن العالم ، وفيه اعلن الراعى الصالح اعماق رعايته الباذلة ، وفيه تحدث عن كلمة الله كارزا بالحب والعمل .

والأسقف بكونه كاهنا وراعيا وكارزا ، انما يختفى فى شخص السيد المسيح ، لكى يقدم بالروح القدس «عمل الحب الكهنوتى الرعوى الكرازى» كعمل واحد متكامل ، مستمد من عمل المسيح الخلاصى .

هذه الحقيقة كشفها مقال القديس « عن الكهنوت » بصورة او باخرى، حتى لنجده يتنقل من عمل الى عمل أو من جانب الى جانب فى أعمال الخدمة دون تحفظ، اذ لم يفصل بين المعمودية والمذبح والهيكل والمنبر والانجيل وخدمة الأرامل والفقراء . . .

فخدمة الكلمة مثلا ليست عملا مستقلا عن الكهنوت أو الرعاية ، انما تنبع عنهما وبهما وتسير معهما . يقف الكاهن يكرز وسط شعبه لا كانسان موهوب فى البلاغة ولا كدارس للكتاب المقدس وانما بالحرى كابيهم الروحى

الذى يدخل بروح الأبوة الى مرعى الكنيسة الاقدس . يقف على المنبر ليسكب حياته بالحب عن اولاده ، مشتهيا أن يجتاز بسامعيه الى المعمودية فينعم الموعوظون بالميلاد الجديد ويتذكر المؤمنون عضويتهم فى جسد المسيح ، ثم يعبر بهم الى المذبح الالهى لكى يشبعوا بالذبيحة المحيية ... هكذا يرى القديس يوحنا الكرازة بالكلمة هى من صميم الرعاية الكهنوتية .

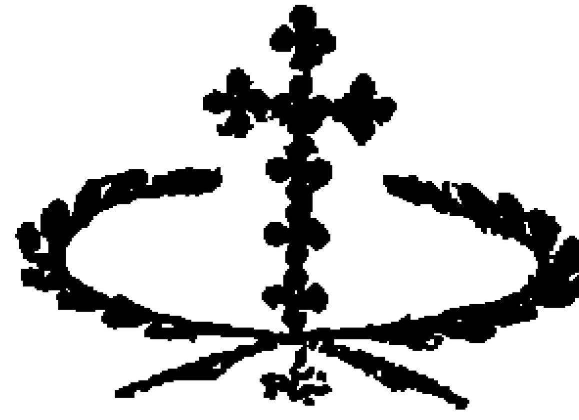
• ما اقوله عن الكرازة اكرره بخصوص الرعاية والعمل الكهنوتى ... كل يقوم على غيره من اجل غاية واحدة ، هى تمتع الانسان بمقدسات الله السماوية .

على العكس ان سر الضعف الذى تعيش فيه كنيسة الغرب هو مبالغتها فى جانب من الخدمة على حساب الآخر او اهتمامها بعمل مع تجاهل الآخر .

فاهتم البعض بالكرازة بالكلمة خارج الرعاية الكهنوتية فجاءت كلماتهم جوفاء وصار الكارزون اصحاب كلام لا يحملون روح الأبوة لأبنائهم .

وبالغ آخرون فى الرعاية ، خاصة الأعمال الاجتماعية ، فتحولت طاقات الكنيسة الى اعمال بشرية بغير تفاعل مع الجانب الايمانى الروحى !

واهتم فريق ثالث بالعمل الكهنوتى منعزلا عن الكرازة والرعاية . فجاءت الاعمال الكنسية شكليات جافة ومملة !



ايمانه بخدمة الكلمة :

الكرازة بالكلمة عمل أبوى من صميم الرعاية الكهنوتية . آمن بهـا القديس يوحنا وأدرك خطورتها ، ففى أول عظة القاها يوم رسامته كاهنا اكد ان الكرازة هى أعظم الذبائح وافخمها واسماها (١) .

وفى احدى عظاته أعلن (٢) « ان ممارسة خدمة العماد يكلف بها كهنة اقل فى المواهب ، اما خدمة الوعظ فيناط بها من هم اكفأ (٣) فان الأعداد لسر العماد اصعب من اتمام خدمته » .

ايمانه بهذا العمل جعله يداوم عليه بغير انقطـاع ، اذا ما اشـتد به المرض وتوقف عن الوعظ ، فسرعان ما يعود يستانف كرازته قبل اتمام فترة النقاهة (٤) .

وعندما اضطر للاعتذار عن الوعظ لمقابلة الامبراطور وغايناس القوطى عاد مسرعا الى منبره يعتذر لشعبه قائلا (٥) : « لقد تركتكم لحظة حتى ازيل متاعب سادة العالم خلال اتصالاتى وصلواتى . واذ نجحت فى العمل عدت الى المياه الهادئة التى تبحرون انتم فيها » .

فالكرازة بالنسبة له جانب حى من جوانب رعايته لشـعبه من أجـل خلاصهم ونموهم الروحى ، اذ يقول لهم :

« انى أعرف اننى اثقلت عليكم ، ولكن ليس هناك علاج آخر (٦) » .

---

(1) Cum prespo . PG 48 : 694 .
(2) In 1 Cor . PG 61 : 26 .

(٣) كان الوعظ عملا أسقفيا يسمح به للكهنة عند الضرورة وللأكفاء منهم

(4) Ad Pop . Ant , PG 49 : 188 .
(5) Cum Saturn PG 52 : 415 .
(6) In Propter forn . PG 51 : 210 .

« لن أكف عن القيام بواجبى مهما تكن الاسباب ، فقد وجدت هنا من اجل هذا العمل (٧) » .

فخلال المنبر التقى باولاده واحبهم وتعلق بهم ، حتى شبه نفسه بالطفل الذى لا يقدر أن يحرم من ذراعى أمه ... فقد مرض يوما ولم يقدر أن يعتلى منبره ، فجاءهم فى اليوم التالى يحدثهم فى حب ابوى صادق ، قائلا (٨) :

« لقد حرمت منكم يوما واحدا ، فبدا لى كأنه عام !

كنت غارقا فى الحزن كطفل انتزعوه عن حضن امه ، فيلتفت بعينيه من بعيد الى ذراعيها . هكذا كنت أطلب صحبتكم ! » .

اظن اننى لا استطيع بعد ان اتكلم عن مفهوم قديسنا للمنبر والكرازة .. فانه لم يحب البلاغة او الفصاحة ولا اعلان افكار روحية جديدة ، انما احب فيهما لقاءه بشعبه فى كلمة الحياة خلال الحب ! هذا ما فقده الكثيرون فى العالم حيث تحولت الكرازة الى فن جذب الناس حول الكارزين لا دخولهم معا بروح الحب فى كلمة الله الحية .

+ + +

(7) In 1 Cor. PG 61 : 354 .

(8) In faciem PG 51 : 371 .

منهج الوعظ

ان كنا قد تحدثنا عن منهجه الوعظى كحياة عاشها القديس ، لكننى اود ان أقدم فى اختصار صورة مبسـطة عن ملامح منهجه من جهة غايته واسلوبه وروحه ما استطعت ، ولا يخفى على الدارس انه لكى يختبر هذا المنهج لا يتمثل به فى تقليد اعمى ، اذ يوجد اختلاف بين ثقافة انطاكية والقسطنطينية فى القرن الرابع وفكرهما وظروفهما الاجتماعية والسياسية وتلك التى نعيشها نحن فى هذا القرن .

اما اهم ملامحه فهى :

١ — **منهج انجيلى عملى** : جاءت عظاته انجيلية عملية ، فى اسلوب سهل بسيط ، بعيد عن الاصطلاحات اللاهوتية العويصة والفلسفية المعقدة ... فهو لا يريد ان يقدم لسامعيه افكارا بل يطلب عملا فى حياتهم ، اذ يقول:

« عظيمة هى الحكمة الاخلاقية (العملية) التى جبلها المسيح بين البشر ! (١) » .

« انى اعرف ان الكل يرغبون فى الطيران من الآن نحو السموات ، لكن يليق بكم ان تظهروا هذه الرغبة بالاعمال (٢) ... » .

هكذا اعلن غاية منهجه هو الانطلاق بهم نحو السماء خلال الحكمة العملية السلوكية ، فيقول (٣) : « احيانا أهاجم حب المال واحيانا النهم ، ثم اناقش العفة ، وبعد ذلك أمتدح الصدقة وادفعك فى طريقها ، ثم انظر بالتتابع الى فضائل أخرى » .

٢ — اذ انتهج الطريق العملى فلا يقدم فى عظاته كل ما يريد قوله بل ما يقدر السامعون ان يحتملوا ويسلكوا به ، اذ يريد بنيان نفوسهم لا تقديم مبادىء نظرية . « فان المعلمين لا يقولون كل شىء كما يريدون ، بل على وجه العموم يقدمون ما يقدر ضعف المستمعين ان يحتمل ، وذلك كقول بولس (٤) : لم استطع ان اكلمكم كروحيين بل كجسديين ، كأطفال فى المسيح سقيتكم لبنا لا طعاما (٥) .

---

(1) Statues, hom. 17 : 5. (2) In Joan, hom 1 : 5.
(3) Ibid, PG 59 : 138.
(٤) ١ كو ٣ : ١ ، ٢ .
(5) In Joan., hom 30 : 2

٣ — دفعه منهجه العملى الى التكرار بصورة مبالغ فيها جدا ، يقضى سنوات يتحدث فى كل عظة عن « الصدقة » ، ويكرس سلسلة من عظاته يحثهم على « عدم القسم » الخ ...

ففى عظته الثانية عشرة « عن التماثيل » يقول : (٦)

« أود أن احدثكم من جديد عن « القسم » ، لكننى اشعر بالخجل . فبالنسبة لى لا أعتبره أمرا ثقيلا على نفسى أن اكرر ذات الشىء نهارا وليلا ، انما اخاف عليكم لئلا بصنيعى هذا اياما كثيرة ادينكم على توانيكم العظيم ...

من جهتى لا اكف عن أن اكرر هذه الامور ، لكننى — على اى حال — اخاف لئلا يقال لى فى ذلك اليوم (٧) « ايها العبد الشرير والكسلان ... كان ينبغى أن تضع مالى عند الصيارفة .

انظروا . انى اضعها عندكم ليس مرة ولا مرتين بل مرات متعددة ! انى أودعكم اياها لكى تربحوا بها ! » .

غير ان تكراره لم يدفع سامعيه الى الملل . أولا بسبب التعاطف الشديد الذى يربط بين القديس وشعبه فينقل روح المتكلم اليهم ، يقول ما يريد ليسمعوا له فى غير ملل . ثانيا ، خياله الباهر للغاية الذى اصبغ على اسلوبه بريقا خاصا يشد قلوبهم الى الجو الذى يريده .

٤ — القديس يوحنا كاسقف روحانى يتحدث مع أولاده فى ثقة وبسلطان فيقول لهم :

« انى طبيب واقدم الدواء :

انا معلم واعلم (٨) » .

« تخيلوا ان اعينكم مصابة وانا طبيب ، سألقى العلاج والمراهم والدهان والزيوت الخ ... بحجة انها لا تاتى بثمر . فانكم تأتون الى وتقرعون بابى وتوبخوننى على كسلى ... فاعود لأحدثكم عن الصدقة من جديد ، اذ أرى من واجبى ان اعيد الحياة لأيديكم المشلولة واستمر فى علاجها حتى تلين وتنبسط للعطاء (٩) . »

(6) Statues , hom 12 : 16 .

(٧) مت ٢٥ : ٢٦ ، ٢٧ .

(8) De Laz . PG 48 : 1029 .

(9) Ad Pop Ant . PG 49 : 118 — 119 .

سلطانه المملوء حبا يجعله يتحدث معهم بكل دالة وثقة ، احيانا فى عنف واخرى فى لطف ، فكمثال يختم حديثه السابق بتحذير قاس هو انهم ان لم يكفوا عن رذائلهم فلن يكف هو ايضا عن مطاردتها بالسياط !

ومع هذه القسوة لا يتحدث معهم كما من المنبر الى اناس ضعفاء ، بل ينزل معهم فى وسطهم ويكشف لهم ضعفاته كانسان محتاج معهم الى نعمة الله

فمن اقواله (١٠) : « بالحقيقة ايها الاخوة انى كاهن الله ، لان الله اراد لى ذلك . انى خاطىء معكم ، اقرع صدرى !

معكم اطلب الصفح !

معكم اترجى مراحمه !

اخبرونا ايها الرسل القديسون : هل بعد قيامة الرب من الاموات وثبوتكم بالروح القدس الذى حل عليكم انقطعت عنكم الخطية تماما ؟ ....

لننصت الى اجابتهم حتى لا ييأس الخطاة ... ان قلنا اننا بلا خطية نضل انفسنا وليس الحق فينا . ان اعترفنا بخطايانا فهو امين وعادل حتى يغفر لنا خطايانا ويطهرنا من كل اثم (١١) ... » .

مرة اخرى يقول (١٢) : « اما تعلمون ان اصحاب الرتب الكنسية الذين يخدمون المذبح المقدس ليسوا ابرارا بالكلية ، بل هم بشر ، ذوو اجساد ترابية !

حتى نحن انفسنا الجالسون على كرسى رئاسة الكهنوت ونعظكم على الدوام مرتبكون بالخطايا ، لكننا لا نيأس من محبة الله للبشر ولا نظهر قساوة . لقد جعل الله الكهنة تحت اعراض الآلام حتى يشفقوا على الغير ..»

« من قبيل حب الله للبشرية ان يكون المتكلم والسامع كلاهما تحت حكم هذه الطبيعة بالتساوى ، فان كليهما مذنب وعاص لاوامر الله . فان قلت : لماذا ؟ اجيبك : لكى اذا ماحكم المعلم الروحى يأخذ فى اعتباره ضعف الخاطئين **فيضع لهم القوانين المناسبة برفق** ، اذ يعرف ضعفهم ونقص قوتهم فلا يشدد عليهم بقوانين ثقيلة » .

---

(١٠) الحب الرعوى ص ٣٢٦ .
(١١) ١ يو ١ : ٩ ، ١٠ .
(١٢) الحب الرعوى ص ٣٧٦ — ٣٧٧ .

اكثر من هذا نجده احيانا يعلن ضعفاته علنا ، كان **يشكوهم غضبه كوحش غير قادر عليه** ، اذ يقول :

« تقولون لى ان القلب يتألم (اى يغضب) بسبب لدغات الاهانة . انى أعرف ذلك جيدا ، فانى ادهش من الذين يقدرون على ترويض هذا الوحش ».

وفى اكثر من موضع **يطالبهم بالصلاة من اجل نفسه** ، لان « الاسقف محتاج الى مثل هذه الصلوات اكثر منكم . . . فبمقدار ما تكون منزلة الانسان عظيمة هكذا يمكن ان تكون مفاسده عنيفة ايضا . فضيلة واحدة فى الاسقف كافية ان ترفعه الى السماء ، وزلة واحدة قادرة ان تلقيه فى جهنم (١٣) » .

٥ ــ صراحته فى غير محاباة :

ان كان فى اتضاعه ينزل الى شعبه يحدثهم عن ضعفاته الشخصية طالبا صلواتهم عنه ، لكن وضوح الهدف امام عينية جعله لا يعرف المجاملة على حساب الحق ، انما ينطق به بكل قوة دون اى اعتبار آخر سوى الدخول بالكل الى « الحياة الانجيلية العملية » ، فمن أقواله (١٤) :

« ليضحك من يضحك ! وليتهكم من يتهكم ! هذا لن يشغل ذهنى ، فانى لم اشغل هذا الموضع الا لاكون مرفوضا واضحوكة !

انى مستعد ان احتمل كل شيء .

من يصر على تصرفاته ولا يسمع لتحذيرى امنعه من الدخول فى الكنيسة كما بصوت بوق ، حتى ان كان أميرا أو امبراطورا .

اعفونى من عملى والا فلا تلزموننى أن أكون تحت اللعنة !

كيف أجلس على هذا الكرسى ان لم افعل ما يليق به ؟ خير لى أن انزل عنه ، لانه ليس شيء أمر من وجود أسقف لا يفيد شعبه (١٥) .

٦ ــ كثيرا ما يستخدم **التضخيم فى الكلام** من أجل التوضيح . فعلى سبيل المثال حين يمدح الرسول بولس يقول (١٦) : « آه لو اعطيت ان القى

---

(١٣) الحب الرعوى ص ٩٨ ، ٩٩ .
راجع ايضا اقواله فى « الحب الرعوى » عن الضعفات التى تهاجم الكاهن ومخاطر حياته الروحية وخطورتها كقوله « الرجل العلمانى اذا زل ينتصح بسهولة ، واما الاكليريكى فاذا صار رديئا يضحى غير قابل للنصح !! » ص ١٦٤ .

(14) In Act PG 60 : 74 .

(15) De mut Nom PG 51 : 135 — 138 .

(16) In Rom . hom 32 .

بنفسى على جسد بولس ، والتصق بقبره واتطلع الى تراب ذاك الجسد الذى اكمل نقائص (شدائد) المسيح ، وحمل السمات وبذر الانجيل فى كل موضع؟! نعم ! تراب ذلك الجسد الذى تكلم المسيح خلاله !

يا لسرورى ان انظر تراب العينين اللتين عميتا بالمجد ثم استردتا بصيرتهما مرة اخرى من اجل خلاص العالم ! هاتان العينان اللتان وهما بعد فى الجسد استحقتا معاينة المسيح ! راتا الامور الارضية وفى نفسى لم تنظراها راتا الامور التى لا ترى ...

اود لو اتطلع الى تراب قدميه اللتين جابتا المسكونة بلا كلل ... »

وفى حديثه عن لعازر المسكين يقول (١٧) : « كان مدينة مستديمة لالسن الكلاب ! » .

اما وصفه لشماسته اولمبياس فقد علا بها فوق طغمات الملائكة ، وجعل منها اقرب الى الخيال فى عفتها ونقاوتها ونسكها واحتمالها وحكمتها ...

٧ ـ اكثر من استخدام **التشبيهات والامثلة** الواردة فى الكتاب المقدس او المستقاة من واقع الحياة فى عصره معتبرا أن العظة بدون تشبيهات أو امثلة كالجسد بدون رأس .

فعندما يتحدث عن الناموس الموسوى يقول :

« انه يشبه ثديى الام اللذين يصبحان بلا نفع للطفل متى استطاع أن يجلس على مائدة أكثر دسما (١٨) » .

« هل يفيد ضوء شمعة عندما تشرق الشمس ؟! (١٩) » .

« هل هناك حاجة لتعلم النحو عندما يصير الانسان فيلسوفا ؟! (٢٠) » .

وعندما يتكلم عن اليهود يقول «انهم يختبئون فى اليهودية **كما فى الاحراش** لو سمعوا صوت بولس لسقطوا سريعا فى شباك الخلاص (٢١) » .

« لنفرد سويا شباك التعليم ونقف فى دائرة **كمثل كلاب الحراسة** ونحيط بالمتهورين ونأسرهم من كل جهة فى قوانين الكنيسة (٢٢) » .

صارت اورشليم اليهودية **« قارورة مكسورة** (٢٣) » .

(17) Quod nems PG 52 : 741 , De Laz . PG 48 : 980 .
(18) In Mat . PG 57 : 261 .
(19) In Philip PG 62 : 269 .
(20) Cum in Col . PG 61 : 762 .
(21) Adv . Jud PG 48 : 857 .
(22) Ibid .
(23) Ibid 880

واذا تكلم عن الفلاسفة يشبههم **بالاطفال** .(٢٤) قائلا « اذا رأى الاطفال لصا يدخل المنزل ليسرقه لن يعترضوه فى لصوصيته بل ربما يبتسمون له ، لكنه ان بدأ يستولى على الـابهم يغضبون ويحنقون ويتمرغون فى الارض . لعل اليونانيين لا يختلفون عنهم فى شىء . فانهم يرون الشيطان ينتزع ميراثهم وغذاء حياتهم فيضحكون ويجرون اليه كما الى صديق ، لكن ان جردناهم عن غذاءهم فانهم يبكون (ويفركون) أيديهم . وكما لا يدرك الاطفال عريهم ولا يخجلون منه ، هكذا يتمرغ اليونانيون فى فسادهم وزناهم دون النظر الى اية قوانين حتى الطبيعية » .

« تسألوننى : لماذا لم يضع السيد المسيح بصماته على افلاطون.او فيثاغورث ، فأقول : لان نفس بطرس كانت اكثر تقبلا للفلسفة (التقوى) منهما . فانهما لم يكونا فى أعماقهما الا طفلين شرهين محبين للمجد الباطل (٢٥)

أحيانا يحمل فى تشبيهاته شيئا من السخرية الهادئة ، ربما لكى لا يمل السامع من طول العظة . فيسخر من اليهود قائلا (٢٦) : « تصوروا رجلا يبلغ من العمر عشرين عاما ولا يزال يرضع من مربيته ؟! » . ويسخر من الانسان النهم قائلا (٢٧) : « لماذا تزداد بدانة يا صديقى ؟ أفى نيتك ان تذبح وتقدم على مائدتنا ؟! » .

٨ ـــ كان خصب الخيال ، اذا تحدث عن أيوب البار يقول (٢٨) : « امراته الشريرة لم تستطع ان تهز هذا البرج ، ولا ان تحطم هذا التمثال ، ولا أن تغلب هذه الصخرة ، ولا ان تقتلع هذه الشجرة او تحطم هذه السفينة»

وفى وصفه للكنيسة بعد خروجه الى المنفى يقول لشماسته (٢٩) : « لماذا انت حزينة ومكتئبة ؟ هل بسبب العاصفة الشديدة المحزنة التى تجتاح الكنيسة ، والتى عكست سواداً على كل شىء كما فى ليلة غير قمرية . تمتد حتى النهاية كل يوم ، وتتمخض لكى تنجب خرابا ودمارا متزايدا ؟! .....

هو ذا البحر يجيش من اعماق اعماقه ،

والبحارة قد صار بعضهم جثثا ميتة تطفو على الامواج ، والآخرون ابتلعتهم الامواج .

---

(24) In 1 Cor. PG 61 : 38 — 40.
(25) In Act PG 60 : 47 — 49.
(26) In Tim PG 62 : 559.
(27) In Mat PG 57 : 470.
(28) In : Vidi Dom PG 56 : 123 — 124.
(29) Ep. ad Olymp. 1. PG. 52.

دعامات السفن قد تحطمت ،

والشراعات قد تمزقت كخرق بالية ،

وصوارى السفن قد نزعت تماما ،

والمقاذيف قد فلتت من أيدى البحارة .

المرشدون الجالسون على ظهر السفينة يخبطـون بأيديهم على ركبهم عوض امساكهم بالدفة ، يندبون يأسهم مع صرخات مدوية عالية ونحيب مر ،

السماء والبحر لا يريدان ان يظهرا واضحين ، بل صار الكل ظلاما حالكاً لا تميز فيه شيئا ،

لا يرى احد قريبه ، بل يسمع ضجيج أمواج عالية ، وأهوال البحـر تجتاح البحارة من كل جانب !! ... » .

لم يكن القديس يوحنا مجرد بليغ أو كاتب يعرف كيف يعرض أفكاره فى بلاغة وفصاحة مع خيال متسع ، انما حمل مشاعر صادقة ، يتكلم ويكتب من واقع قلبه وأحاسيسه ، لهذا يعلن :

« ان تنميق الكلام لا يليق بالفلاسفة ولا حتى بالرجال انما هو لعبـة صبيان يلهون (٣٠) » .

٩ ــ **الاطالة فى بعض العظات** يصل بعضها الى ساعتين فى القائها . لكنها كانت حية ، تحمل عواطف جياشة ، تدخل بالمستمعين الى أحاسيس عذبة فلا يملونها .

كثيرا ما كان يعتذر لشعبه بسبب الاطالة ، معلنا أنه لم يفعل هـذا بغير هدف ، كأن يقول : « ربما تظنون انى ابتعدت كثيرا عن موضوعى . كلا . فانى لا أهدف الى مجرد تلاوة قصة بل قصدت ارشادكم بخصـوص الشهوات المسيطرة عليكم (٣١) » .

« اعود مرة اخـرى الى موضوعى بعـدما اعترضت حديثى بهـذه الملاحظات . لم افعل هذا جزافا انما لاجل اراحة نفوسكم التى قـد يرهقها حديثنا الطويل (٣٢) » .

---

(30) Adv . op . PG 47 : 296 .
(31) Ad Pop . Ant PG 49 · 149 .
(32) Adv Jud PG 48 : 893 .

١٠ — كان **يخرج احيانا عن الموضوع** الذى يتحدث فيه ثم يعود اليه .. مشبها نفسه بـ « الفنان الذى يريد عرض لوحته فى صورتها الحقيقية فيبعد عنها المتفرج الى مسافة معقولة حتى يبصرها بوضوح (٣٣) » ... لكنه لا ينكر انه احيانا ينجرف الى خارج الموضوع بغير قصد ، فنراه يقول (٣٤) : « حقا ، لا اعرف كيف بلغ بى الحديث الى هنا خلال تيار كلماتى . فلنعد سريعا الى موضوعنا » .

١١ — احيانا يعرض عليهم بعض المشاكل **ولا يضع لها حلا** ، لكى يعينهم على التفكير الجدى فى حل مشاكلهم ، فيجعل منهم اناسا ناضجين .

« تقولون لى : لماذا توعز الينا بمشاكل ولا تقدم لها حلا ؟ اجيب : لكى تتعودوا الا تتكلوا على الطعام المجهز تماما فى كل مرة ، بل تبحثون بأنفسكم.

هذا ما تفعله الحمامة ، فانها تقوت صغارها مادامت مستكينة فى عشها، اما اذا صار للصغار اجنحة قوية . وتأتى اللحظة التى تقدر فيها على الانطلاق للخارج فان الحمامة الام تترك الحبة على الارض حتى يتعود الصغار على الالتقاط ... هكذا ادعوكم أن تلتقطوا بأنفسكم . فانى آخذ القوت الروحى فى فمى وأودعه فيكم ، لكن اذ تجتمعون لتتقبلوه مجهزا اتركه امامكم حتى تصلوا بمجهودكم الشخصى الى مفتاح المشكلة المعروضة (٣٥) » .

١٢ — كثيرا ما يختم عظاته بملخص يجمع به شتات العظة ، مشبها نفسه بالام التى تجمع الحلوى فى ثوب ابنها .

« يلزمنا ان نلخص ما قلته فى ايجاز . فعندما تضع الامهات الفاكهة او الحلوى فى ثياب الطفل ، يرفعن ذيل ثوبه ويربطنه فى وسطه بزنار حتى لا يفلت . هكذا افعل انا ايضا حيث اختم العظات الطويلة فى كلمات أودعها فى ثنايا ذاكرتكم (٣٦) » .

+ + +

---

(33) De S ; Bal PG 50 : 529 .
(34) In Gen PG 53 : 102 .
(35) De Mut Nom PG 51 : 119 .
(36) In Vid Dom PG 56 : 119 .

الكـرازة بالتوبـة

يعتبر القديس يوحنا ليس واعظا قديرا فحسب بل بالحرى طبيبا ماهرا فى علاج النفوس . لقد عرف قيمة النفس البشرية وأدرك عظمة خلاصـها فكرس حياته كلها لخدمة المنبر بل بالحرى لخدمة أولاده وللدخول بهم — ما استطاع — الى حياة التوبة العملية .

« التوبة » هى الطريق الانجيلى الذى تجتازه النفس عابرة الى الملكوت السمائى . كيف دخل بهم هذا الطريق الملوكى السماوى ؟

١ — يطلب اعمال التوبة لا الاعجاب

احتشدت الجماهير حول منبره واعجب الكثيرون به، أما هو فكان واعيا فى كرازته ، يعرف كيف لا تخدعه الذات ، فيلهيه اعجاب الكثيرين بشخصه أو بلاغته أو فصاحة لسـانه عن حقيقة رسالته فكان اذا ما انطلق الحاضرون بالتصفيق ينتهرهم ، طالبا اعمال التوبة لا تصفيقاتهم :

« أنا لست فى حاجة الى مدح أو تصفيق أو صخب أو ضجيج : انى اطلب شيئا واحدا : ليتكم تصغون اليه فى هدوء وتعقل : **افعلوا ما أقوله !**

هذا هو مديحكم لى ، هذا هو ثناؤكم على ...

نحن لسنا هنا فى مسرح للتمثيل ، ولا ترون امامكم ممثلين تصفقون لهم . هنا مدرسة روحية ، نظهر فيها طاعتنا بأعمالنا (١) » .

« تصفقون لى بحماس شديد ، وتهللون ... لكننى أتوسل اليكم أن تكونوا رجالا ، فان كنا لا نزال أطفالا ، كيف نعلم (الوثنيين) الرجولة ؟! كيف ننزع عنهم جهالة الطفولة ؟!

لنكن رجالا ، ونبلغ حد القامة التى وضعها لنا السيد المسيح فنحصل على الخيرات العتيدة (٢) » .

« ما حاجتى الى هذا التصفيق ، علامة الفرح والاعجاب ؟!

---

(1) In Mat., hom 17 : 6.
(2) In 1 Cor., hom 4 : 11.

المديح الذى أرجوه منكم أن تظهروا اقوالى معلنة فى أعمالكم ، فأصير انساناً سعيداً ... (٣) » .

لقد اوضح بكل دقة موضوع كرازته « حياة التوبة العملية » التى لا تهب المؤمنين نضوجا روحيا،بل وتبعث غير المؤمنين أيضا على رفض جهالات طفولتهم وقبول الحياة الايمانية الناضجة الجادة ، الامر الذى يفرح قلبالكاهن الكارز ويجعل منه انسانا سعيدا .

لم تقف غيرة القديس عند هذا الحد ، بل كان يوبخ شعبه **لانهم مسؤلون عن الـكارز** باظهار علامات الاعجاب وكلمات المديح والثناء عوض التوبة الصادقة ... فقد انتقدهم بأنهم لا يطلبون كارزا جادا يدخل معهم طريق التوبة المر والجهاد الصعب لكنهم يطلبون « مغنيا أو موسيقارا (٤) » ، يمدحون فيه بلاغته وعذوبة صوته . وبهذا يفقد الكارز أبوته الحقة، اذ يرضخ لطلباب أولاده الضارة ، فيصير كأب يستجيب لدموع ابنه المريض فلا يقدم له العلاج المر الشاق ...

« هذا مايفعله من يطلب مقالا جميلا منمقا عوض أن يكون المقال نافعا! فيطلب (الكارز) اعجاب الناس عوض تهذيبهم ، يرائى ولا يبكت ، يستحسن التصفيق عن اصلاح السلوك (٥) » .

ان مثل هذه الكرازة لا تأتى بثمر حقيقى ، ثمر التوبة الحقة ، وان اثمر فذلك يكون بفضل نعمة الله وصلوات الكنيسة (٦) .

٢ — بمثابرته فى بعث روح التوبة

ان اعجب ما فى القديس يوحنا ليس هروبه من المجد الباطل طالبا ثمر التوبة فى حياة شعبه ، بل حكمته وايمانه فى تحقيق غايته ... فقد برع فى تحويل كل الاحداث التى عاشتها الكنيسة أو المجتمع كفرص حية للتوبة ، مثل أحداث التماثيل كما رأينا ... اما ايمانه فيظهر فى مثابرته فى تحقيق الهدف حتى ولو لم يجد استجابة من سامعيه ... وله فى ذلك قول رائع (٧) :

« لا أتوقف عن التحذير لمجرد تشتيت البعض بأخطائه ، فان الينابيع والانهار تستمر فى فيضها وجريانها حتى وان لم يشرب منها احد ، هكذا يليق

(3) Statues, hom 2 : 10.
(4) In Act, hom 30, PG 60 : 225
(5) Ibid 226.
(6) De Incomp. PG 48 : 802, 811
(7) De Laz, PG 48 : 963, 5.

بنا ان نعظ وان لم يكترث احد بالوعظ . فقد وضع الله علينا ، نحن المكلفين بالوعظ الا نستسلم صامتين ، الى أن يسمعوا ويسلكوا فى الطريق .

اما أنا فقد عزمت أن استمر فى عملى حتى ان وجد من يحطم ذراعى ، بالقول : ما الداعى لهذه النصائح ما داموا يريدون الاستماع ؟ !

ماذا ؟ هل اقسمت ان اصطادهم جميعا فى شباكى فى يوم واحد ؟! فان لم افز الا بعشرة او خمسة انفس أو حتى بنفس واحدة ، اما يكون لى فى هذا تعزية كافية ؟!

ولنفترض المستحيل ، واذهب الى ابعد من هذا ، انى لا أكسب نفسا واحدة فانى أعتقد ان كلامى لن يضيع هباءا ، بل يخجل الخاطئون ، وهذه خطوة أولى فى طريق التوبة ... وهى تزيد الحكماء حكمة .

ساقول لنفسى: الم اهد اليوم احدا ؟ ربما غدا ، أو بعد غد ، أو فى يوم آخر » .

لقد شبه نفسه برجل يضرب شجرة الرذائل بالفأس ، فان لم تسقط من الضربة الاولى يضرب الثانية والثالثة والعاشرة والمئة ، ولا يكف عن ضربها حتى يهتز كيانها وتسقط كأسقف ملتزم ان يعمل ويعظ وينذر ، اما التوبة الداخلية والاقتناع ففى حينه من قبل الله اذ يقول « الله لم يأمرنا بالاقناع بل بالتعليم فقط (٨) » .

أخيرا نسجل ما كتبه عن الراعى فى مثابرته (٩) : « يجب أن يتمتع الراعى بروح عالية . فلا يخور عزمه ولا ييأس من خلاص الضالين، انما على الدوام يباحث نفسه قائلا : عسى أن يعطيهم الله توبة لمعرفة الحق فيستفيقوا من فخ ابليس ... » .

٣ ــ يكثر من التشجيع لا التهديد :

أعجب القديس بمنهج سيده الذى اتسم بايجابيته فى حديثه وأمثاله ، يشجع البشر للتوبة بالكشف عن الأبدية والمكافآت العلوية ، ونادرا ما يحدثهم فى سلبية عن العقوبات . فان جاذبية الحب للتوبة أسمى من التوبة بدافع الخوف ! .

يقول (١٠) « اننا على وجه الخصوص نعجب من تعليم السيد المسيح اذ يضع فى أمثاله مكافآت الجهاد بكمال عظيم مثل أن « نعاين » ، « نرث ملكوت السموات » ، « نصير أولاد الله » ، « نصير مثل الله » ، « نرحم » ، « نتعزى » ، « ننال مكافأة عظيمة » الخ ... وان استدعى الأمر الى ضرورة الاشارة الى أمور محزنة يوضح ذلك فى نغم خفيف » .

(8) Ibid 965 / 6.
(9) De Sacer. 2 : 4.
(10) In Mat., hom 18 : 9.

بهذا الروح الانجيلى كرز القديس وسط شعبه بأفكار يظنها بعض علماء التربية انها حديثة من عندياتهم ... لقد عرف أن النفس تحتاج بالأكثر لى من يشجعها ويسندها ويحبها ، وعند الضرورة القصوى تحتاج الى التخويف والتهديد .

٤ ـ ترفقه بالضعفاء :

كان القديس يوحنا مربيا حكيما ، غيورا غيرة متقدة للدخول بشعبه الى حياة التوبة ، مدركا مقدرا سلطان الشر المحيط بهم . واذ تعثر كثيرون منهم فى الملاهى والملاعب والأندية شعر بضعفهم فترفق بهم فى عظاته الى أبعد الحدود .

(أ) فعلى سبيل المثال لا يطالب شعبه فى أنطاكية بأمور فائقة بل يتدرج معهم فى اعتدال حتى يبلغ بهم الى هدفه .

يقول(١١) : « لهذا السبب اطالبكم بأقل الأمور . نعم أنا أعلم أن « الفقر الاختيارى » ثقيل عليكم جدا ، فان السماء ليست ببعيدة عن الأرض كبعد بذل الذات عنكم » .

(ب) ما أن احس بأن بعض أولاده قد بدأوا ينفذون ما أوصى به ، أى يسلكون فى طريق التوبة العملى حتى أخذ يشجعهم معلنا لهم أن ما قدموه لهو مكافأة عظيمة تستريح بها نفسه وسط كثرة أتعاب الخدمة ومشاق الرعية ... قائلا (١٢) :

« بسبب هذا انا احتضنكم فى قلبى على الدوام .

ولهذا السبب أيضا لا أعود أشعر بأتعاب التعليم ، بل يصير الحمل سهلا ما دام المستمعون ينتفعون !

بحق ان هذه المكافأة لكافية لتجديد قوتى ،

تهبنى أجنحة وترفعنى ،

تحثنى بالأكثر أن أحتمل الأتعاب القاسية لأجلكم ! » .

مثل هذه العبارات انما تعلن اقتداءه بسيده الذى قيل عنه « فتيلة مدخنة لا يطفىء ، وقصبة مرضوضة لا يقصف » ، يعرف كيف يسند ويترفق بالضعفاء ، متقبلا كل محاولة لتوبة ـ مهما كانت المحاولة ـ بروح التشجيع والفرح !

---

(11) Ibid . 21 : 6 .

(12) Conc Statues , hom 9 : 1 .

(ج) أما ابرز ما شد أنظار معاصريه المحيطين به والغرباء عنه والكتاب المحدثين فهو « **سمة الرجاء** » التى اصطبغت بها عظاته وكتباته ، فجذبت النفوس المحطمة ودفعت بهم بكل ثقة الى « **حياة التوبة** » .

تحدثنا قبلا عن رسالتيه الى صديقه الراهب الساقط ثيودور ، اللتين تكشفان عن حنانه على الساقطين واهتمامه بهم حتى يرتفع بهم بجناحى الرجاء والثقة فوق كل تحطيم (١٣) !

عرف كيف يبعث بروح الرجاء وسط شعبه بطريقة فريدة ، فسحبهم وهم خائرون تحت مرارة الخطايا وانطلق بهم الى حيث العشار ، وقد جاء — على حد تعبيره — مثقلا بآلاف الخطايا التى اقترفها ، وبرجائه فى مراحم الله خرج مبررا ، معلقا على هذا المشهد بقوله (١٤) :

« ليست كثرة الخطايا هى التى تجلب اليأس للبشر ، انما فساد ذمتهم ...

ليس السقوط فى ذاته خطيرا ، انما بالحرى يكمن الخطر فى البقاء فى حالة السقوط !

الجرح فى ذاته لا يميت انما بالأكثر اهمال الجريح للعلاج !

لا أقول هذا لكى تهملوا ، انما لكى تكفوا عن اليأس » .

له أيضا تعبير رائع فى التشجيع على الجهد فى طريق التوبة والفضيلة بغير يأس :

« عندما تبدأون فى الاصلاح فانكم وان كنتم تعصون شريعتكم مرة ومرتين وثلاثا وعشرين مرة ، لا تيأسوا . قوموا من جديد استعيدوا نشاطكم مرة أخرى ، فانكم بالتأكيد منتصرون » .

٥ — اهتمامه بخلاص الجميع :

اذ نتحدث عن منهجه فى التوبة انما نتحدث عن أبوته أيضا ، التى لا تستريح بخلاص الكثيرين بل بخلاص كل ابن . كأب لا يستريح قلبه لو نجح جميع أولاده الا واحدا ، فهو يحمل حبا لأولاده لا كجماعة فحسب بل ويحمل لكل واحد منهم حبا شخصيا ... هذه هى أحاسيس الأب القديس يوحنا ، اذ يخاطب شعبه قائلا (١٥) :

---

(١٣) راجع الحب الرعوى ، ستعود بقوة أعظم : وهى ترجمة الرسالتين ...

(14) In 1 Cor, hom 88.

(15) De terrae motu PG 50 : 713 — 714.

« جماعتكم هى اكليلى ،

كل واحد منكم — فى عينى — يساوى المدينة كلها ! » .

لقد امتثل فى ذلك بالرسول بولس ، اذ يقول عنه (١٦) :

« اذ وضع العالم بين يديه لم يهتم بالأمم ككل فحسب بل وبالأفراد ، فيبعث برسالة لصالح انسيموس ، وأخرى من أجل الشخص الزانى من اهل كورنثوس ... ناظرا اليه كانسان له تقديره فى عينى الله ، فمن أجله لم يضن الآب عليه بالابن الوحيد !

لا تقل هذا عبد هارب او ذاك لص أو قاتل أو انسان مثقل بخطايا غير معدودة ، او متسول أو حقير ... بل تأمل انه لأجله مات المسيح ! أما يكفى هذا ليكون اساسا لنعطيه كل اهتمام ؟! » .

هذه الأبوة المملوءة غيرة جعلته لا يتوقف عن الجهاد طالبا توبة الكل ونموهم الروحى ، فبعد رسامته قسا خاطب شعبه قائلا (١٧) :

« لا يقل لى احد ان كثيرين قد نفذوا الوصية ، فاننى لا أبتغى هذا ، بل اريد الكل ان يفعلوا هكذا .

فانى لن استطيع أن التقط انفاسى حتى أرى ذلك قد تحقق ! فانه ان كان واحدا قد ارتكب الزنا بين أهل كورنثوس لكن بولس كان يتنهد كما لو أن المدينة كلها قد ضاعت » .

+ + +

(١٦) الحب الرعوى ص ٦٧٨ .

(17) Statues, hom 13 : 12.

الكرازة ابوة :

جاءنا كلمة الله يكرز ويبشر بحياته المبذولة عنا ! جاءنا يسكب حبه فينا ، لكى نحيا به ومعه ...

هذه هى الكرازة ، انها حب الهى عملى لا ينطق به !

هذا ما تسلمه الرسل من السيد المسيح ، فتقدموا للعالم لا كأصحاب فلسفات أوكرجال كلام وبلاغة ، لكن كآباء يحملون **((روح الكرازة))** ، اى روح الأبوة فى المسيح يسوع . يحتضنون العالم المجروح بالضعف ، ويترفقون بالخطاة والأثمة مقدمين لهم أبوة الله الحانية المخلصة !

تلمذ الرسل الأساقفة ليسلكوا بنفس الروح ، فكان لهم وحدهم حق الكرازة ، مع بعض الكهنة عند الضرورة ...

فالأسقف او (الكاهن) اذ « أؤتمن على العالم كله وصار أبا لجميع الناس (١) » ينجح فى كرازته لا بجذبه الجماهير لسماع كلمة الكرازة وانما **بأن يعرف أولا كيف ينحنى بروح الأبوة ليحمل شعبه على كتفه ويدخل بهم — بالروح القدس — الى أعماق الكلمة ، يتناغلون معها ويتعرفون على أسرارها ويتذوقون عذوبتها !**

هذا هو مفهوم القديس يوحنا ذهبى الفم للعمل الكهنوتى الرعوى الكرازى ، فهو فى مجموعه عمل ابوة « الكاهن الراعى والكارز » فى حياة أولاده .

لم يعتمد القديس يوحنا على فصاحة لسانه او بلاغته ولا على قوة شخصيته ، انما اولا وقبل كل شىء مارس فى كرازته ابوته الحانية على شعبه انطلق الى المنبر من خلال مذبح الحب الأبوى ... ونطق بعظاته بعدما تسلم روح الأبوة فى سر الكهنوت !

(1) De Sacerdotis 6 : 4 .

١ — يتألم لآلام أولاده :

كأب لا يحتمل الا ان يضعف لضعفاتهم ويبكى على خطاياهم كأنما قد ارتكبها هو، مقتديا فى ذلك بالأب « القديس بولس » الرسول الذى أعجب به ، اذ يقول (٢) :

« لا نعجب من الرسول بولس فى اقامته الميت ولا تطهيره الأبرص ، انما نعجب من قوله(٣) «من يضعف وانا لا أضعف ، من يعثر وأنا لا ألتهب». **لو كان فى قدرتك صنع آلاف المعجزات فانها لن تعادل هذا القول... كلماته هذه اثمن من اللآلىء ! »** .

مرة أخرى يعلن الحب الأبوى للكاهن الكارز ، قائلا (٤) :

« ان كان يلزم للانسان ان يحب أولاده الجسديين(٥) حتى يدعى أبا حسب الطبيعة ، فكم بالأكثر يليق بالانسان أن يحب أولاده حسب النعمة ، الروحيين المعمدين ، حتى لا يهلكوا فى جهنم ؟! » .

لقد كشف أبوته لشعبه فى أكثر من موضع معلنا مرارة نفسه من أجل ضعفاتهم ، نذكر منها قوله (٦) :

« انى أب مملوء حنوا . . .

اسمعوا ما يطلبه بولس « يا أولادى الصغار الذين أتمخض بهم (٧) . كل أم تصرخ وهى تتمخض فى ساعة الولادة ، هكذا افعل انا أيضا ! » .

« ليتكم تستطيعون معاينة النيران الملتهبة فى قلبى لتعرفوا انى أحترق أكثر من سيدة شابة تئن بسبب ترملها المبكر ، فانى لست اظنها تحزن على زوجها ولا يحزن أب على ابنه ، كحزنى انا على هذا الجمهور الحاضر هنا ! » .

له أيضا حديث رائع يكشف عن مدى حبه لخلاص أولاده ونموهم الروحى (٨) :

« ليس شىء احب الى اكثر منكم ،

لا ، ولا حتى النور!

---

(٢) الحب الرعوى ص ٤٧٣ — ٤٧٤ . (٣) ٢كو ١١ : ٢١ .
(٤) الحب الرعوى ص ٤٥٩ . (٥) بحسب الطبيعة .
(6) In Hebr . hom 23 : 9 .
(٧) غلا ٤ : ١٩ .
(8) In Acts , hom 3 .

انى اود ان اقدم بكل سرور عينى ربوات المرات واكثر — ان امكن — من اجل توبة (٩) نفوسكم !

عزيز على جدا خلاصكم ، أكثر من النور نفسه ! . . .

لأنه ماذا تفيدنى اشعة الشمس ان أظلم الحزن عينى بسببكم ؟! . . .

اى رجاء يكون لى ان كنتم لا تتقدمون ؟ !

وعلى العكس اى يأس يقدر أن دخل الى ما دمتم نامين ؟! فاننى اذ اسمع عنكم اخبارا مفرحة ابدو كمن قد صار له اجنحة . . . تمموا فرحى (١٠) !

هذا هو كل ثقل صلواتى ، انى مشتاق الى نموكم . . .

انى احبكم ، حتى أذوب فيكم ، وتكونون لى كل شىء ، ابى وأمى واخوتى وأولادى ! » .

وفى موقف آخر اذ يدرك ثمر ابوته المملوءة حنانا معلنا فى بنوتهم وحبهم العميق له ، طلب اليهم أن يترفقوا بأبوته ، قائلا (١١) :

« أتوسل اليكم وارجوكم : اخبرونى ان طلبت منكم مالا أما تعطونى؟! الا يقدم لى كل واحد منكم ما فى قدرته ؟!

ان رايتمونى فى خطر أما تنقذونى ، حتى ولو امكنكم لبترتم أعضاءكم من اجلى ؟!

انى فى خطر ، بل خطر عظيم ! انى كمن هو فى سجن مظلم ، كمن حكم عليه بعشرة آلاف جلدة ، او كمن حبس فى هوة عميقة ، ولم اعد بعد احتمل اكثر من هذا! ابسطوا أيديكم نحوى وانقذونى ! . . .

أخبرونى ، ماذا أجيب عندما يطالبنى الله بالحساب ، قائلا : لماذا لم تحتج عليهم ، لماذا لم توصهم ؟ لماذا لم تطرح الشريعة قدامهم ؟ لماذا لم تكبح عصيانهم ؟ . . .

لست اطلب هذا لمجدى ، انما من أجل خلاصكم ! » .

اخيرا نذكر تعليقه على قول معلمنا بولس الرسول (١٢) « اسهروا متذكرين انى ثلاث سنين ليلا ونهارا لم افتر عن أن انذر بدموع كل أحد» ، قائلا(١٣) : انه وان كان لا ينذر بدموع خشية اتهامه بحب المجد الباطل ، لكن

---

(٩) رجوع (١٠) فى ٢ : ٢ . (١١) الحب الرعوى ص ٧٦ ، ٧٧

(١٢) أع ٢٠ : ٣١ . (13) In Act , hom 44 .

دموعه الداخلية عليهم اكثر مرارة ، لأنهـا لا تعطى نوعا من التنفيس . . .
انما تجعل حزنه يتفاقم ولا ينصرف . . .

تصوروا ماذا تكون آلام انسان يجد علة للحزن دون أن ينفس عن ذلك؟

لو أمكننا لفتحنا قلوبنا وأريناكم اياها لتنظروا مدى اتساعها لحملكم فيها: نساء وأطفالا ورجالا ، لأن هذا هو قوة الحب ، يجعل النفس أكثر اتساعا من السماء ! » .

٢ — معيته مع شـعبه :

خلال الانجيل ايضا تعرف القديس على مفهوم آخر للكرازة ، ليس هو فصـاحة اللسان ولا بلاغة بيان ، انما هى بالأكثر أبوة حانيـة . يتألم الأب الكارز لآلام أولاده ويضعف لضعفاتهم مترفقا بهم ، مقتديا فى ذلك بالسـيد المسيح الذى كرز خلال الصليب من منبر سماوى نحو العالم كله بدمه معلنا ان الذى لم يعرف خطية صار خطية من أجل الخطاة ليحمل خطاياهم ويتألم عنهم .

خلال الانجيل أيضا تعرف القديس على مفهوم آخر للكرازة ، ليس هو آخر بل واحد مع المفهوم السابق ، الا وهو « معيـة الكارز مع أولاده » ، « وجود الراعى وسط الرعية » . . . هذا ما أكده الكارز الأعظم ، أن كرازته لم تتوقف عند أحداث الصليب لكنه لا يزال حالا وسط كنيسته يحمل الخطاة بالحب الى جنبه المطعون ، يجدون فيه راحتهم . لقد أعلن الراعى الصالح لرعيته « **ها انا معكم كل الأيام والى انقضاء الدهر** » .

بهذا الروح كرز معلمنا بولس الرسـول ، اذ كان **يفرح بوجـوده بين شـعبه ، ان لم يكن بالجسد فبروحه وقلبه وفكره** . . . وقد عبر القديس يوحنا عن ذلك بقوله ان العالم كله كان بالنسبة لبولس كبيت واحد يتنقل فيه ويخدمه ويهتم به ، معلنا انه حامل مخدوميه دوما فى قلبه أينما وجد !

بهذا الروح كرز أيضا القديس يوحنا نفسه لا كأن شعبه محتاج اليه الى كرازته ، بل هو متعلق بشعبه ، يحبهم ويسر بالوجود معهم .

لقد أعلن ذلك فى أكثر من موضع ، قائلا :

« يا لفرحتى أن أرى وجوهكم المحببة الى ! (١٤) .

لكنه ليس لقاءا غير هادف ، انما لقاء حب فيه يتمجد الله والكنيسـة والكارز ، لقاء فعال فى حياة الكنيسة وحياة الكارز .

---

(14) In Gen . PG 53 : 27 .

« ان اهتمامى لعظيم ان تجتمعوا كلكم ههنا كأنكم اعضائى الشخصية ! اتطلع الى نموكم كشرف خاص بى !

اشتهى أن أراكم ملتهبين من أجل مجد الله ، والكنيسة ومجدى! (١٥)».

« استطيع أن اكون معكم على الدوام ،

بلى ، انى بالحرى معكم دائما ،

فانى وان كنت لست حاضرا بالجسد ، لكننى حاضر بقوة الروح !

ليس لى « حياة » أخرى سوأكم ، سوى الاهتمام بخلاصكم !

انى أحملكم جميعا فى ذهنى ، ليس فقط أثناء وجودى هنا ، لكن وأنا فى دارى أيضا .

ان كان الجمع عظيما وقياس قلبى ضيقا ، فان الحب متسع : «أنتم لستم متضيقين فينا » (١٦) ... (١٧) » .

لقد انعكس هذا الحب الكرازى على شعبه ، فليس هو وحده يشتهى أن يراهم من أجل بنيانهم انما هم أيضا يتوقون الى وجوده وسطهم ينعمون بكرازته ورعايته ... اذ يقول (١٨) :

« أنا انسان بائس ومسكين وبلا خبرة فى التعليم ، لكننى اذ أتطلع الى هذا الجمع أنسى ضعفى وفقرى وعدم كفايتى .

حبكم طغى على !

أرى غيرتكم للاستماع فأتشجع فى غير تردد .

انكم تشبهون صغار العصافير التى ترى أمها تطير نحوها فتقترب من حافة العش وتمد أعناقها لتلتقط الحبوب منها . هكذا أنتم تستقبلون التعليم الذى أقدمه لكم ، وتلتقط أفكاركم أفكارى حتى قبلما أعبر عنها » .

٣ — حب بلا مقابل :

ميز رب المجد الراعى عن الأجير ، الأول يسكب حياته بالحب لشعبه بغير مقابل وبلا تمييز ، أما الآخر فيخدم من أجل الأجرة ، يحب بقدر مايمتدح ويحب وينغلق قلبه بقدر ما يذم أو يبغض ! لا يعطى الا لكى يأخذ .

---

(15) Ibid . 77 .

(١٦) ٢ كو ٦ : ١١ .

(17) Statues , hom 9 : 1 .

(18) In Hoc scitote PG 56 · 271 .

فالراعى او الكارز الحقيقى انما يسلك بروح سيده الذى ارتفع على الصليب ليكرز بالحب العملى للجميع ، مقدما حياته مبذولة حتى من أجل المقاومين و المعادين له لكى يهبهم حياة ومجدا !

الكارز يحب شعبه دون ان يطلب مدحهم أو يخاف ذمهم ... هذا ما ابتغاه القديس فى كرازته اذ يقول (١٩) :

« يليق بالكاهن فى سلوكه مع من هم تحت رعاية أن يكون كأب مع أبنائه الصغار، فلا يضطرب بشتائمهم أوضرباتهم او نحيبهم ، بل و ان ضحكوا عليه وسخروا منه فلا يعطى ذلك بالا .

يليق بنا الا ننتفخ بمديحهم ، ولا ينكسر خاطرنا بسبب لومهم ، ما دام قد صدر هذا عن غير حق .

لكن هذا صعب يا صديقى الصالح ، بل ربما يبدو لى كما لو كان مستحيلا . فاننى لا أعرف ما اذا كان هناك أحد قد نجح تماما فى ألا يفرح عندما يمدح » .

٤ ــ حزمه معهم :

كشف لنا القديس يوحنا عن مفهوم ابوة الكارز الراعى ، انها ليست ترفقا أو حنانا بلا هدف ، انما هى اختفاء فى « روح الفادى » الذى يسعى بحبه وترفقه لخلاص البشرية بحبهم لكن فى غير رخاوة ، ويترفق بهم فى غير تساهل ، يهبهم رجاءا فى غير استهتار ، يعلن الحق ويظهر الباطل ويسحقه.

فالأب الكارز انما يسلك بروح الرب فى حزم ينبع عن حب حقيقى لتمكين اولاده من التمتع بربنا يسوع المسيح . **فى حزمه لا يغضب عليهم بل من أجلهم، يثور ضد الخطية دون أن يخرج عن وداعته وحلمه .**

هذا هو مفهوم الأبوة الحانية التى تفتح قلب الأب بكماله لكى يرعى فيه أولاده لكنه عند الضرورة يحزم ويؤدب !

لقد طالبنا القديس بالاعتدال فى كل أعمال الرعاية (٢٠) ، معلنا أن اللين الزائد المستمر أو التساهل من اجل ارضاء الرعية يفسد خلاص الراعى ورعيته . فمن اقواله (٢١) : « الاهتمام الخاطىء فى استرضاء الغير فحسب انما هو خيانة ضد خلاص الراعى وخلاصهم » .

---

(١٩) الحب الرعوى ص ٢١٨ .

(20) Nom at grat . PG 50 : 655 .
Moulard : St . Jean Chrisostome ..

(21) In Joan . PG 59 : 115 .

فهويلوم الكارز الذى من أجل ارضاء أولاده — يتوقف عن الانتهار والتأديب محتجا بأنه يصلى عنهم ، اذ يقول (٢٢) :

«اترك صلواتك وانتهره ، فانك تصلح من امره وانت ايضا تنتفع . هكذا نحن نسند الكل لكى يخلصوا ويبلغوا ملكوت السموات بنعمة ومحبة ربنا يسوع المسيح ... » .

ويحدث أولاده الروحيين قائلا(٢٣) : « انى افضل أن اكون فى اعينكم انسانا متكبرا لا يمكن التفاهم معه عن أن اترككم تفعلون ما لا يرضى الله » .

«هذا الأمر (التأديب) نصيحة لا حكم، دواء لا قصاص ، تقويم لا تعذيب ... علاج روحى لشفاء الخطاة وحفظهم من السقوط فى خطايا جديدة (٢٤) » .

اما عن وسائل التأديب فانه يستخدم التوبيخ والانتهار حتى يبلغ الى الطرد من الكنيسة ايضا .

فمن التوبيخ يقول (٢٥) : « انى ملتزم بوعظكم ، وعلى وجه الخصوص استخدام التوبيخ معكم . فكما تذيب النار الشمع هكذا يلين الخوف من العقوبات قلوب الخطاة ، ويحرق خطاياكم بتوبتكم ، ويغنى عقولكم ، ويزيد دالتكم وجهادكم » .

اما عن الطرد فقد ظهر بوضوح فى موقفه مع الامبراطورة افدوكسيا حين أصرت على خطيتها ، فأغلق باب الكنيسة فى وجهها ، ليس انتقاما منها بل ترفقا بها لأجل توبتها وخلاصها. هذا الهدف اعلنه بكل وضوح عندما تحدث عن رغبته فى طرد بعض الاخوة ، اذ قال(٢٦) :

« كنت أتمنى أن ارى الذين تركونا ومضوا الى المشاهد واللعب الخارج عن الشريعة وقد عادوا اليوم الينا ، حتى أطردهم خارج باب الكنيسة ، لا ليلبثوا خارجا الى الأبد ، بل لكى يتقدموا ويرجعوا تائبين ... ذلك مثل الآباء ، متى اذنب أولادهم ، يطرحونهم خارج المنزل ويحرمونهم من الخبز ، لكن ليس على الدوام ، انما لكى يتقدموا ويصيروا الى حال افضل ، فيعودون بمجد وكرامة الى ميراث أبدى .

---

(22) In Acts, hom 24.

(23) In Hebr. PG 62 : 46.

(٢٤) الحب الرعوى ص ٦١٦ .

(٢٥) الحب الرعوى ص ٦١٦ .

(٢٦) الحب الرعوى ص ٦١٥ — ٦١٦ .

هكذا ايضا يفعل الرعاة باغنامهم الجرباء ، اذ يفرزونها عن بقية الأغنام السليمة كى لا تعديها بمرضها . فاذا ما شفيت الأغنام المريضة بعد التجربة والاختيار تعود الى الأغنام الصحيحة » .

لكن كيف يستخدم التاديب ؟

[أ] يليق بالراعى أن يعرف أن التاديب ليس عقوبة جامدة يلتزم بفرضها على اولاده فى صرامة وعنف ، لكنه علاج يقدمه الطبيب الروحى بالقدر الذى يحتمله ابنــه المريض ، ويدخل به الى طريق التــوبة ، فلا يفرض التأديب حسب طبيعة الخطية بدر ما هو حسب طبعية الشخص ونفسيته وظروفه وامكانياته الداخلية . « فالشــيطان يقدر ان يهلك الانســان لا عن طريق خطية الزنا (٢٧) فحسب ، بل ويهلكه ايضا بما يضــاد ذلك ، خلال الحزن المفرط فى التوبة . اذ احيانا تزداد جراحاتنا بنفس الأدوية التى نستخدمها » ، لذلك يقول الرسول (٢٨) : « لاننا لا نجهل افكاره (٢٩) » .

« استطيع أن اخبر عن كثيرين اندفعوا الى شرور افدح عندما سقطوا تحت عقوبة صارمة على خطاياهم . لذلك يليق بنا عنــد توقيع العقوبة أن نقدرها لا حسب طبيعة الخطية فحسب بل وبحسب ظروف مرتكبى الخطيــة ايضا ، لئلا وانت ترغب فى اصـــلاح ما تمزق تجعل الخرق أردأ ، وفى غيرتك على اقامة الساقط تدمره أكثر ... (٣٠) » .

[ب] يرى القديس ايضـــا أن التاديب يزداد شدة كلما نال الانســـان مواهب اكثر واعطيت له امكانيات اعظم ... فيقول مثلا : « الذين يخطئون بعد العماد يؤدبون بقسوة أكثر من الموعوظين ، بمعنى آخــر االذين عرفوا ادوية التوبة ولم يستخدموها يخضعون لتاديبات أكثرصرامة! ، فبقدر ما تتسع مراحم الله يزداد تأديب من لا ينتفع منها (٣١) » .

[جـ] أما المبدأ الثالث الذى يجب أن يراعيه الخادم فى رعايته الكارزة ، فهو اظهار الحنو والترفق جنبا الى جنب مع الحزم ، فيتقبــل المؤدب ذلك برضى من ابيه . وقد قدم لنا القديس نفسه مثالا كما فى قوله (٣٢) :

« ان كانت كلماتى مملوءة غضبا ، فهذا نابع عن حبى الشديد لكم وحزنى عليكم . انى مثل أب متى تاثر بعفونة جراحات ابنه اضطر أن يستخدم أداة حادة وهو متألم ، أولا بسبب مرض ابنه ، ثانيا لاضــطراره استخدام الأداة الحادة » .

---

(٢٧) حالة الشاب المذكور فى ٢ كو ٢ : ٧ .
(٢٨) ٢ كو ٢ : ١١ .
(٢٩) الحب الرعوى ص ٦٢٤ .
(30) De Sacer 2 : 4.
(٣١) الحب الرعوى ص ٦١٥ .
(٣٢) الحب الرعوى ص٦٢٠ .

سمات الخادم المحب

لست أظن أن خادما يقدر أن يقرأ مقاله عن « **الكهنوت** » ولا يرتعب، فقد كشف القديس عن مفهوم الخدمة الكهنوتية الرعوية الكارزة، وما يلتزم به الخادم، وما يتطلبه هذا من سمات خاصة حتى يخدم الله القدوس ويقدم الكلمة الالهية بحياته وسلوكه ويتسلم قيادة نفوس مات المسيح من أجلها، يدخل بها الى مراعى الخلاص الدسمة، مقدما لكل واحدة منها ما يناسبها، ويدبر أمورها للانطلاق بها الى الحياة السماوية خلال الصليب، خلال الصراع المر ضد قوات الظلمة الروحية !

وعندما يتحدث عن **خـــدمة الرسل الكرازية** يكشف بكل وضـــوح واسهاب عن صـــعوبة الخدمة، فالكارز ملتزم بتحويل النـــاس من عادات قديمة الى عادات روحية صعبة، ويدخل بهم الى تعاليم ووصـــايا قاسـية لا من أجل مكافآت حاضرة بل مستقبلة (١) .

فالـــكارز أب محب مملوء حـــكمة وتيقظا وقدرة على التعليم واالتدبير والرعاية فلا يرشح انسانا لهذا العمل استنادا الى حبه وتقواه، ولا لمجرد نسكه وتقشفه أو تقدم سنه، انما يلزمه مواهب أخرى كثيرة (٢) .

نستطيع فى شىء من الايجاز أن نذكر أهم سمات الخادم الكارز من واقع مقالات القديس وكتاباته .

١ ـــ أن يكون بلا لوم :

اذ تحدث القديس عن مقدار الصـــعوبات التى تواجه قائد النفوس فى خدمته ورعايته لها، قال (٣) :

« تأمل، أى نوع من الرجال ينبغى أن يكون من يواجه أعاصـــير كهذه ويتصدى بمهارة لمعوقات عظيمة للصالح العام .

يلزم أن يـــكون مبجلا فى غير زهو، مهوبا لكنه مترفق، اداريا لـــكنه

---

(١) الحب الأخوى طبعة ١٩٦٤ ص ٧٧ ـــ ٨٠ (راجع أقوال القديس) .

(2) De Sacer. 3 : 15.   (3) Ibid, 3 : 16.

اجتماعى ، متضـــعا لكنه مجامل ، متواضعا لكنه غير خانع ، صارما ورقيقا فى نفس الآن . . . حتى يقدر ان يتغلب على هذه المصاعب جميعها » .

« من يقوم بدور قيادى يلزمه أن يكون اكثر بهـــاءا من كوكب منير ، فتكون حياته بلا عيب ، يتطلع اليه الكل ويقتدون به(٤) » .

حيـــاة الكارز غير الملومة **توقف كثيرا من المحاربات** : « من كانت حياته هكذا صالحة يوقره حتى هــؤلاء (غير المؤمنين) ، اذ بالحق يغلق حتى أفواه الأعداء (٥) » .

« يليق بالكاهن ان يتحصن من كل جانب بسلاح متين من اليقظةوالتدقيق المستمر فى أسلوب حياته ، حتى لا يكتشف أحد فيه نقطة ضــعف فيطعنه فيها طعنة قاتلة ، لأن جميع المحيطين به ينتهزون فرصة لطعنه وطرحه أرضا ليس اعداؤه ومناضلوه فحسب بل وكثيرون من الذين يدعون صداقته . . .

بقدر ما تدبر حياة الكاهن تدبيرا حسنا فى كل مجال تكون بعيـــدة عن المكائد ، أما اذا تهاون فى هفوة كانسان يعيش فى محيط هذه الحيـــاة المملوءة مخاطر ، فان أعماله الأخرى الصالحة لن تعفيه من ألسنة ناقديه ، بل تطغى هذه الهفوة االصغيرة على كل ما سواها **« كل الناس يتاهبـــون للحكم على الكاهن كأنه ملاك تحرر من كل أسباب الضعف ، وليس كائنا يحمل جســـدا او انسانا ورث الطبيعة البشرية (٦) »** .

« السيرة الطاهرة تسد فم الشيطان وتبكمه ! (٧) » .

لقد آمن قديسنا بالتقوى العملية بكونها الفلسفة الحقة وحدها ، فلا يقـــدر الراعى أن يدخل بأولاده اليها دون أن يمارسها ، **انه يقـــدم حياته لا كلماته لأولاده** .

له أحاديث كثيرة وطويلة فى « حياة الكارز المقدســـة غـــير الملونة » كقدوة وكرازة لشعبه نقتطف منها :

« القدوة الحســـنة تعطى صوتا أعذب من أصوات المعـــزف وجميع آلات الطرب ، لان الناس لا يعتبرون ما نقوله بقدر ما نفعله (٨) .

« يليق بالـــكاهن أن يتلألأ ، فيضىء بســـيرته الحســـنة على جميـــع الناس ليقتدوا بمثاله . أما اذا استحال هـــذا النور الى ظلام ، فماذا يحل بالعالم ؟! أما يصير خرابا (٩).

---

(٤) الحب الرعوى ص ٦٥٤ . (٥) الحب الرعوى ص ٦٥٥ .
(٦) الكهنوت المسيحى . (٧) الحب الاخوى ص ٨٤ .
(٨) الحب الرعوى ص ١٧٠ . (٩) الحب الرعوى ص ١٧٨ .

« لا السماء ولا النهار ولا الليل تمجد الله كما تمجده النفس القديسة فكما اذا تأمل الانسان زينة السماء يقول « المجد لك يا الله فيما صنعت » هكذا اذا ما رأى الفضيلة فى انسان يمجده بالحرى أكثر .

من لا يندهل اذا ما رأى انسانا يشاركه فى الطبيعة البشرية لكنه يتصرف بين الناس كالماس ، لا يميل قط نحو الشهوات ! بل يكون اشد صلابة من الحجر الماس ، اذا وجد بين النار والحديد والوحوش يغلبهم بحسن العبادة ، ان شتم يبارك وان قالوا عنه رديئا يمدحهم ، وان اساء أحد اليه يصلى عنه ... » .

لنقودهم بمعيشتنا ، فان كثيرين من العامة قد أدهشوا عقول الفلاسفة ! فانهم اذ اعلنوا فلسفة الأعمال وسيرتهم وفضيلتهم اظهروا صوتا يفوق هتاف البوق ، واغزر بلاغة من اللسان (١٠) .

« لقد تركنا (الرب) هنا لنكون أنوارا ، لنعلم الآخرين ، لنكون خميرة ، نسلك كملائكة بين البشر ، كرجال مع أولادهم ، كروحيين مع أناس طبيعيين فينتفعون منا ، ونكون بذارا تخرج ثمارا .

لا حاجة للكلمات ما دامت حياتنا تضىء !

لا حاجة للمعلمين ما دمنا نظهر اعمالا !

ماكان يوجد وثنى لو كنا مسيحيين بحق !

لو أننا نحفظ وصايا المسيح ونحتمل الألم ونسمح للغير أن يستفيدوا منا ، اذ نشتم فنبارك ، نعامل معاملة سيئة فنصنع خيرا (١١) ، لما بقى أحد بعد متوحشا ولا يرجع الى الصلاح ... (١٢) .

مرة اخرى يلوم الخدام الكارزين بسبب فساد سيرتهم ، معلنا قوة القدوة فى الكرازة والرعاية بقوله :

« ما اسوأ أن نكون فلاسفة فى الكلمات لا فى الاعمال ! (١٣) » .

« لماذا هذا الكبرياء ؟ لانك تعلم بالكلام !

ما اسهل ترديد الكلمات ! علمنى بحياتك هذا أفضل (١٤) » .

---

(١٠) الحب الأخوى ص ٨٣ (راجع ص ٨٤ : ٨٦) .

(١١) ١ كو ٤ : ١٢ .

(12) In Tim , hom 10 .

(13) In 1 Tim , PG 62 : 552 .

(14) In Act . PG 60 : 225 .

« نحن محتاجون الى سلوك حسن لا الى لغة منمقة ، الى الفضيلة لا الى الخطابة الفذة ، الى الاعمال لا الى الكلام ! . . .

لا تهتم أن تعلم ابنك الخطابة بل علمه الفلسفة (التقوى) ، فانه ان لم يتقن الخطابة لا ينقصه شيء ، أما ان فقد الفلسفة فماذا تفيده كل بلاغة العالم ؟ ! (١٥) » .

أخيرا نختم حديثنا بحديث القديس عن اهمية حياة الكارز غير الملومة بكونه **كاهنا يخدم أسرار الله العلى** اذ يقول :

« وظيفة الكهنوت ، وان كانت فى الحقيقة تعطى على الأرض لكنها تعد بين الرتب السماوية . هذا أمر طبيعى ، لأنه ليس انسان ولا ملاك ولا رئيس ملائكة ولا خليفة أخرى ، بل البارقليط نفسه هو الذى رتب الدعوة ، مستخدما البشر — وهم فى الجسد — أن يقوموا بخدمة الملائكة ! لذلك ينبغى على الكاهن الذى يقدس أن يكون طاهرا ، كما لو كان واقفا فى السموات عينها بين تلك القوات ! . . .

عندما ترى الرب ذبيحا وموضوعا على المذبح ، والكاهن يقف مصليا على الذبيحة وكل المصلين قد اصطبغوا بالدم الثمين ، هل تستطيع ان تقول أنك لا تزال بين الناس ، وأنك واقف على الأرض . . . السبت على العكس قد عبرت مباشرة الى السماء ؟!(١٦) » .

« الكاهن الذى يدنو من المذبح بضمير دنس . . . هو أشنع من الشيطان ، لأن الشياطين ترتعد خوفا تجاه يسوع المسيح (١٧) » .

+ + +

٢ — وديعا :

ان كانت سيرة القديس هى لغة الكرازة الحية ، فان الوداعة — فى عينى القديس يوحنا — هى أهم أساسياتها .

ان كانت الخطية تجرح النفس وتذلها ، فالخطاة محتاجون لا الى من يزيد جراحاتهم بالغضب ، بل الى من يسندهم بوداعته .

---

(15) In Eph . PG 62 : 150 — 152 .

(١٦) الحب الرعوى ص ٥٠ الكهنوت المسيحى (كنيسة السيدة العذراء بالفجالة) ك ٣ ف ٤ .

(١٧) الحب الرعوى ص ١٤٦ .

هذا ما اكتشفه القديس يوحنا فى معلمنا بولس الرسول ، فانه حتى ان اراد ان يوبخ « انما قليلا وبلطف (١٨) » ، مســـتخدما الوداعة بكثرة ، لأن الخطية تجعل الانسان قاسيا ، فان وبخهم الكارز بقسوة صار الانسان جافا ومتجاسرا ، « أما ان تلطف معـــه فانه ينحنى عنقه وتزول جسارته ويصـــير نظره مطرقا نحو الأرض (١٩) » .

« لا يوجد شيء يفيد الآخرين ويجتذب القلوب لله أكثر من وداعة من يكون مهانا ومستهزءا به ومثلوبا ومعيرا ، يحتمل هذا كله بوجه باش وهدوء عظيم كأنه لا يشعر بشيء (٢٠) » .

« ان كان الأســـقف ذا طبـــع ثائر ، فانه يجلب كـــوارث عظيمة له ولأخوته (٢١) » .

من من الجموع يمكن ان يكون وديعا ان رأى قائده سريع التهيج؟!(٢٢)» .

+ + +

٣ ــ رجل صـــلاة :

الكرازة هى انسكاب القلب بالحب أمام الله والناس ، أمام الله العامل وحده فى النفس لكى يخلصها ويمجدها ، وأمام الناس بالوداعة والاتضاع لكى يتقبلوا الكلمة .

بهذا الروح كان القديس يوحنا كارزا مصليا ، يؤمن بالصـــلاة كحجر الزاوية فى كل عمل رعوى ، لا يكف عن أن يطلب عن شعبه ، ويطلب منهم ان يطلبوا عنه وعن انتشار الكلمة ...

يقول : « من دعته الضرورة ان يكون سفيرا عن مدينة بأسرها ــ ولا اقول عن مدينة فحسب بل عن العالم اجمع ــ يضرع الى الله كى يصفح عن خطايا الجميع ، ليس فقط الأحيـــاء منهم بل والراقدين أيضا ، فأى نوع من الرجال ينبغى أن يكون ؟! ...

فالكاهن ، لأنه أؤتمن على العالم كله وصار أبا لجميع الناس ، يتقدم الى الله متوسلا فى الصلوات الخاصة والعامة من اجل رفع الحروب فى كل مكان واخماد الاضـــطرابات ملتمسا الســـلام والهدوء لكل نفس والشـــفاء للمرضى ... (٢٣) » .

---

(١٨) الحب الأخوى ص ٩٤ .
(١٩) المرجع السابق ص ٩٤ .
(٢٠) الحب الرعوى ص ٢٢١ .
(٢١) الحب الرعوى ص ٢١٩ .
(٢٢) الحب الرعوى ص ٢٢٠ .
(٢٣) الكهنوت المسيحى ٦ : ٤

« الرب قادر أن يحول هذا الأسد الى حمل وديع ...

صلوات جماعتنا تنفعنا كثيرا ان كانت صادرة عن قلوب خاشعة! (٢٤)» .

٤ ــ قادرا على التعليم :

ان كان قديسنا قد ركز على « حياة الراعي » كلغة صادقة للتعليم ، لكنه يعود فيؤكد أن القدوة وحدها لا تكفى ، انما يلزم للكارز أن يكون قادرا على التعليم أيضا ، اذ يقول (٢٥) :

«هذا هو كمال التعليم ، أن يهيىء المعلمون تلاميذهم بالقدوة كما بالأقوال الى المستوى الذى يريده الله لهم، لأن **القدوة وحدها لا تكفى لتعليم الآخرين**.

لست أقول هذا من عندى ، بل هى كلمات المخلص القائل(٢٦) : « وأما من عمل وعلم فهو يدعى عظيما » . فلو كان العمل يغنى عن التعليم لما كانت هناك حاجة لقوله « وعلم » ... انما ذكر الكلمتين « عمل وعلم » ليظهر أن العمل شيء والتعليم شيء آخر ، **كل منهما يستند على الآخر لأجل البنيان** .

« اسمع ما يقوله اناء المسيح المختار لقسوس أفسس : « اسهروا متذكرين انى ثلاث سنين ليلا ونهارا لم أفترعن أن **أنذر بدموع** كل واحد(٢٧)» . فما الحاجة الى الدموع والانذارات الكلامية ما دام سلوك بولس كرسول واضحا؟! حقا كانت حياته المقدسة تحث الناس بشدة لحفظ الوصايا ، لكنى لا أجرؤ وأقول أنها وحدها كافية لتنفيذ كل شيء » .

مرة أخرى يقول (٢٨) : « عندما تدور مناقشة حول موضوع عقيدى حيث تكون الحاجة الى أدلة مستمدة من الكتاب المقدس ، ماذا تفيد قداسة الحياة ؟ » .

يقول الرسول: ملازما كلمة الحق الصادقة التى بحسب التعليم(٢٩).. أى يكون قادرا ان يعظ بالتعليم الصحيح ويوبخ المناقضين . فهو محتاج لا الى كلمات جوفاء بل الى فكر قوى ومهارة فى دراسة الكتاب المقدس ، الى أفكار راسخة . أما ترى بولس قد وضع ليحارب العالم كله ، اذ كان أقوى من أفلاطون وبقية الفلاسفة ؟ !

قد تقول انه تغلب عليهم بالمعجزات ... لكنك ان تتبعت سفر الأعمال لوجدته كثيرا ما يغلب بالتعليم أكثر من المعجزات ... « من لا يعرف

---

(٢٤) الحب الأخوى ص ١٠٤ . (٢٥) الحب الرعوى ص ٦٨٩ .
(٢٦) مت ٥ : ١٩ . (٢٧) أع ٢٠ : ٣١ .
(٢٨) De Sacer . PG 48 : 672 .
(٢٩) ١ تى ١ : ٩ .

كيف يقدم التعليم الصحيح فهو بعيد كل البعد عن كرسى المعلم ، لأن بقية الصفات يمكن أن توجد بين من يرعاهم ... أما مايميزه عنهم فهو قدرته على التعليم بالكلمة » .

غير أن القديس يوحنا لاحظ أن بعض المعلمين بسبب قدرتهم على التعليم سرعان ما يسقطون فى حب المديح ... فبدأ يتساءل أيهما أفضل : أن يكون المعلم قادرا على التعليم ومتكبرا أوبالعكس متضعا لكنه غير قادر على التعليم ؟

يجيب (٣٠) « اذا كان الكارز لا يبالى بالمديح لكنه يعجز عن تقديم التعليم الذى « بنعمة مصلحا بملح (٣١) تحتقره الجموع فلا ينتفع من سمو ذهنه .

ومن الجانب الآخر لو كان ناجحا ككارز لكنه مغلوب بأفكار المديح فانه يصاب هو والجموع بضرر متساو ، اذ فى حبه للمديح يهتم بالكلام كيف يبهج الناس لا كيف يفيدهم » .

٥ — حكيما

اذ يتحدث القديس عن سمات الكارز — مقدما الرسول نموذجا حيا — يتطلب (٣٢) :

« غيرة ملتهبة نشطة ،

نفسا مستعدة لاحتمال كل شىء ،

ذكاء مع حكمة » .

ماذا يقصد القديس بالحكمة ؟

(أ) **حكمة الصليب** التى تغلب النفس بالحب وتحكمها ، اذ يقول :

« حول الصليب الجهلة والأميين الى فلاسفة (٣٣) » .

« حول صانع الخيام اليونانيين والبرابرة ، أما أفلاطون فبالرغم من رحلاته الثلاث الى صقلية وسمو كلماته لم يستطع أن يقهر طاغية واحدا ... لقد قهر الله أفلاطون هذا لا بضربات فيلسوف أقدر منه ، بل بواسطة خاطىء جاهل (٣٤) » .

---

(30)De Sacer. 5 : 2.

(٣١) كو ٤ : ٦ .

(32) In Eph, hom. 6 PG 62 : 46

(33) In 1 Cor PG 61 : 34.

(34) In Rom, 1 Cor, Joan, Act, PG 60 : 47 ; 61 : 33 ; 59 : 31 ; 60 : 260 — 261.

(ب) **الحنكة فى الايمان** : فكما يقول الرسـول ان الأسقف لا يـكون حديث الايمان ، لكن « لا يستبعد الاحداث بالكلية عن الخـدمة بل يستبعد حديث الايمان والخبرة ، والفارق بين الاثنين كبير (٣٥) » .

(جـ) **اليقظة والقـدرة على معرفة خبايا النفوس** للعمـل على توبتها ونموها . « الراعى فى حاجـة الى افراز عظيم ان تـكون له ربوات الأعين لملاحظة طبيعة النفس من كل جوانبها (٣٦) » .

(د) قادرا على **التعامل مع الكثيرين فى يقظة** ، يعـرف كيف يعـامل الكل دون انحراف عن رسالته أو روحانيتـه . يسميه القديس يوحنـا « انسانا متعدد الجوانب many - sides man (٣٧) » .

يقول عنه : (٣٨) « يجب أن يكون حكيما ومحنكا فى أمور شتى ، وأن يكون خبيرا بشئون العـالم ليس بأقل من القوم المتصرفين فيه . وفى نفس الوقت متحررا من العالم أكثر من الرهبان سكان البرارى .

يختلط بالمتزوجين الذين لهم اطفال وخـدم ، كما يختلط بالأغنيـاء واصحاب المراكز العـامة وذوى النفوذ ... لهذا وجب أن يكون متعـدد الجوانب (اى يعرف كيف يعامل الكل) ...

أقول متعـدد الجوانب وليس انسـانا مخادعا متملقا او مرائيا ، انما على درجة كبيرة من المرونة والثقة والتضحية بالمصالح الشخصية ... يعـرف كيف يتلاءم مع كل واحـد حتى يربحه حسبما تقتضى الظـروف ، فيجمع بين الرحمة والحـزم ، لانه يستحيل ان يعـامل كل افراد رعيته بأسلوب واحـد . كالطبيب الذى ليس له أن يطبق علاجا واحـدا على جميع المرضى ... » .

سأله الأسقف باسيليوس « هل نقيم على الكنيسـة الذين يتنقـلون وسط المجتمع ويهتمون بشئون العـالم ... مملوئين بأصناف الفنون التى بلا عدد ؟ فيجيب : « لا يقبل امثال هؤلاء فى الكهنوت بل الذين لهم قدرة على مخالطة الكل والالتقـاء بهم دون ان تتلوث نقاوتهم أو يهـتز عـدم محبتهم للأمور الزمنية أو قداستهم أو مثابرتهم أو سموهم ، نائلين كل الفضـائل التى يتمتع بها المتنسكون ...

---

(٣٥) الحب الرعوى ص ٢١٨ .

(36) De Sacer 2 : 4 . (37) Ibid , 6 : 4 .

(٣٨) الكهنوت المسيحى ٦ : ٤ ، الحب الرعوى ص ٧٣٦ .

ظروف المجتمع الكثيرة قد تزيل توازن الفكر وتفقد استقامة الطريق...
فالأسقف مثلا الذى عهد اليه بكل القطيع لا يقدر ان يهتم بالذكور ويترك النساء اللواتى يحتجن الى بصيرة خاصة بسبب ضعفهن واستعدادهن للخطية . فالانسان المختار للأسقفية يلزمه أن يهتم بصحتهن الأخلاقية ، ان لم يكن اكثر من الرجال فلا أقل من أن يعطيهن اهتماما مساويا . فهو ملزم بزيارتهن فى مرضهن ، وأن يعزيهن عند حزنهن ، وينتهرهن عند كسلهن ، ويساعدهن فى ضيقاتهن ... فى كل هذا قد يجد الشرير مكانا ان لم يكن الراعى حريصا بزيادة ، لأن النظر الى الشريرات بل والى المتواضعات ، قد يؤدى الى طعنات واضطرابات فى الفكر (٣٩) » .

يرتعب القديس يوحنا لئلا فى عدم درايته فى خدمة قطيعه يفسده اذ يقول (٤٠) « انى أخشى لئلا اذا تسلمت القطيع فى حالة جيدة ومنتعشة ، بعدم مهارتى أفسده ، فأغيظ الله ضدى ، هذا الذى بذل ذاته لأجل خلاصه وافتدائه » .

٦ — غيورا

« الراعى الصالح كما يريده المسيح هو رجل يتراكم داخله آلاف الشهداء ، اذ يموت الشهيد مرة من أجل سيده ، أما الراعى فيموت كل يوم من اجل قطيعه (٤١) » .

يلزمه أن يكون متيقظا جدا ، حارا فى الروح ، كما لو كان ينفث نارا !

يليق به ان يعمل ، مثابرا نهارا وليلا ، اكثر من قائد جيشه (٤٢) » .

سبق أن رأينا انه لا يريد أن يلفظ أنفاسه حتى يستريح قلبه تجاه كل انسان ، وفى نفس الوقت لا ييأس ان لم يجد فى المدينة من يمارس حياة التوبة الحقيقية الا عشرة ، اذ يقول (٤٣) :

« ان كان الذين يدأبون فى الأمور الصالحة هم عشرة ، فان العشرة يصيرون عشرين ، والعشرون خمسين ، والخمسون مئة ، والمئة الفا ، والألف يخلصون مدينة بأسرها .

---

(٣٩) الحب الرعوى ص ٧٣٧ ، ٧٣٨ .
(٤٠) الحب الرعوى ص ١٦٠ .
(41) In Rom . PG 60 : 660 .
(42) In Tim . hom . 10 .
(٤٣) الحب الأخوى ص ١١١ . In Act, hom 3

ان كنت لا تقــدر أن تقنع الكل وتهديهم ، اقنع القليــل من كثيرين . فان الرســل أيضا لم يقوموا بهداية جميع البشر الموجودين ، لكنهم بشروا الكل ، فأخذوا المكافاة كأنهم خدموا الجميع » .

٧ ــ مهتمــا بخلاص نفسه :

لا تدهش ان كان كارز ناجح مثل القــديس يوحنــا الذهبى الفم وقد ذاب قلبه حبــا من أجل الخدمة وحسب شعبه كل حياته ، يتطلب فى الراعى يقظته لا فى خلاص الآخرين بل خلاص نفسه أيضا ، اذ يقول « ان كلامى أكثر فائدة لحيــاتى من الذين يسمعوننى (٤٤) » ... كأنه يضــع نفســه أول المحتاجين الى الكرازة والتعليم ...

لقد عرف خطورة هذ االعمــل وصعوبته ، حتى ليصعب على نفس الراعى ان تخلص متى انجرفت وسط زوابع الخــــدمة واهتماماتها ... اذ يقول (٤٥) :

« انى أعرف خطورة هذه الوظيفة وصعوبة عملها ، والزوابع الشديدة التى تجتاح نفس الكاهن فانهــــا أقسى من الزوابع التى تسبب للبحــر اضطرابا » .

« لســت أظن ان كثيرين من الأساقفة (والكهنة) يخلصــون بالحرى أكثرهم يهلكون بسبب أن أعمالهم تطلب عقلا عظيما ... » .

«الرجل العلمانى اذا زل ينتصح بسهولة ، أما الاكليريكى فاذا صــار رديئا يضحى غير قابل للنصح » .

(أ) لقد عالج القــديس الكثير من الضعفات التى يتعرض لهــــا الكاهن فى بحر الخدمة المتسع ، أهمها « **صخرة المجد الباطل المرعبــــة** » التى يسميها أخطر جنيات البحر » ... التى أرعبته فهــرب من الخدمة ، قائلا (٤٦) :

« من عهــد الى بهذا العمل يكون كمن قيــد يدى خلف ظهـــــرى ، وقدمنى للوحوش المفترســـة ، وســـحبنى على تلك الصخرة (حب المجــد الباطل) فأتمزق اربا يوما فيوما .

---

(44) In 2 Thes , PG 62 : 498 .

(٤٥) الحب الرعوى ص ١٥٧ ، ١٦٢ ، ١٦٤ .

(٤٦) الحب الرعوى ص ١٩٢ ــ ١٩٣ .

هل تسألنى : ما هى هذه الوحوش المفترســــــة (ألتى تعيش على الصخرة) ؟

انها الحنق ، اليأس ، الحســـد ، العداوة ، الوشـــاية ، اتهـــام الآخرين ، الكذب الرياء ، تدبير المكائد ، الغضب على من لا يصنع بى ضررا ، السرور بأمور غير لائقـــة يصنعها الكهنة ، الحـــــزن على نجاحهم ، حب المديح ، الرغبة فى الكرامة ، التى يحق أن تسحب النفس البشرية برعـــونة الى الهلاك الأبدى ، التعليم بما يرضى النـــاس ، الاطراء الدنىء ، التملق غير اللائق ، احتقـــار الفقـــير ، محاباة الغنى ، طلب الـــكرامة المضرة ، الخوف ، عدم الوضوح فى الحديث الخ . . .

هذه هى الوحـــوش ، بل واكثر منها تتولد على هـــذه الصخرة التى تحدثت عنها . . .

لكننى لا استطيع ان احمل الكهنوت مسئولية شرور الكهنة ، والا كان هذا جنونا منى . فالعاقلون لا يلومون السيف الذى فى يد المجرم ولا الخمـــر بالنسبة للسكير ولا القـــوة بالنسبة للمغتصب ولا الشـــجاعة بالنســـبة للمشهور ، بل يلقون باللوم على اســـاءة استخدام العطايا الممنـــوحة لهم من قبل الله . . .

بالتأكيد سيدينا سر الكهنوت ان لم نحسن استخدامه ، فهو فى ذاته ليس سببا للشرور السابق ذكرها » .

« من يدخل عمل التبشير وبه رغبات كهذه (حب المديح) ، أى آلام وشـــدائد تلاحقه ؟ **انه من الهين ان يكون البحـــر بلا امواج عن ان يكون مثل هذا الشخص بلا متاعب او احزان ! (٤٢)** » .

خاف القديس يوحنا على نفسه كبطريرك القسطنطينية فقال (٤٨) :

انى اسكب الدموع عندما ارى نفسى فى كرسى فوق كراسى الآخرين ، وعندما يقدم لى احترام أكثر من غيرى » .

(ب) أما الخطر الثانى الذى يتعـــرض له الراعى فهو **انحراف نظرته الى اخوته الخدام** ، اما بحسد من هم أكثر منه موهبة ، أو الزهو على من هم اقل منه موهبـــة . . . فان الله قد اعطى كل خادم موهبة بالقدر الذى يتناسب معه لخلاص نفسه ومجد الله وبنيان الكنيسة ، ليشـــكر الله عاملا حسب ما أعطى من موهبة ، متحـــدا مع اخوته الخدام بروح واحد من اجل غاية واحدة .

---

(٤٧) الحب الرعوى ص١٩٦ . راجع ص١٩٣ — ١٩٦، ١٩٧ — ٢٠١ .
(٤٨) الحب الرعوى ص ٧٦٤ .

يقول (٤٩) : « بما أن المعطى واحد ... فانك ان أخذت موهبة أصغر انما لنفعك . فلا تحزن كأنك مرذول ، لأن الله لم يصنع بك ذلك احتقارا منه بك ، ولا لأنك اقل من الآخرين ، انما لأجل فائدتك . فلو حمل انسان موهبة اكثر من امكانياته تكون غير مفيدة بل ضارة له ، وتؤدى الى رفضه » .

« هذه هى ارادة الله فى توزيع المواهب ، ليس لنا أن نعارض .

لعلك لا تزال مضطربا ، فلتنظر أن عملك الصغير غالبا ما لا يستطيع اخوك (الذى تحسده لعظم مواهبه) أن يقوم به . فبالرغم من صغرك عنه لكنك أنت بهذا نافع » .

« لم يعط المعلمون لنا ليقاوم بعضنا البعض ، انما للتآلف فيما بيننا ... » .

(جـ) لعل ظروف القديس يوحنا جعلته يحذر رجال الكهنوت من خطر « دخول النساء » فى حياتهم . فقد استطاعت بعض النسوة الملتفات حول الامبراطورة أن يسببن الكثيرمن المشاكل فى الكنيسة بالقسطنطينية خلال تأثيرهن على بعض الكهنة .

« من يسقط اسيرا فى المجد الباطل يسقط الى عمق العبودية حتى يصل احيانا الى امور لا يليق ذكرها ، اذ يهتم كيف يسر النساء .

حقا ان الشريعة الالهية قد استبعدت النساء عن الكهنوت لكنهن يسعين الى دفع انفسهن فيه ، واذ لا يستطعن ذلك بأنفسهن يصبغن اياه عن طريق الآخرين (اى بتأثيرهن عن الكهنة) ...

يوجد البعض ، بل كثيرون من الكهنة أسمى من هذه الأشراك ، لكن البعض سقطوا فيها (٥٠) » .

هذه لمحات سريعة للكارز فى سماته كخادم يقود النفوس فى مراعى الكنيسة بروح كهنوتى أبوى مملوء غيرة وحبا !

+ + +

(٤٩) الحب الرعوى ص ٧٧٠ — ٧٧٥ .
(٥٠) الحب الرعوى ص ٦٦٨ .

الكهنوت مسئولية

فى خاتمة مقاله « عن الكهنوت » بدأ القديس يوحنا يكشف لصديقه سر هروبه من الأسقفية قائلا (١) :

« لقد آن الوقت لكى القى بسرى الخفى ، قد لا يصدقنى الكثيرون فيما اقول ، لكننى مع ذلك لن أخجل من اعلان الحقيقة أمام العالم ...

منذ ذلك اليوم الذى القيت الى دعوة الكهنوت ، اهتز كيانى كله واصابنى الفزع وخيمت على نفسى سحابة من الكآبة لأننى كلما تفكرت فى مجد عروس المسيح وطهارتها وجمالها الروحى وحكمتها ولياقتها ، ثم اقارن هذا بما لدى من نقائص ارثى لحالها ولحالى . ووسط حزن متصل وحيرة كنت اخاطب نفسى : من الذى اشار بهذا ؟

وكيف تخطىء الكنيسة هذا الخطأ الجسيم ؟

ولماذا تثير غضب الله حتى تقدم الدعوة لى انا احقر الناس جميعا فتعانى عارا هذا مقداره ؟!

وما زلت اردد هذه الأفكار فى نفسى مرارا ، واذ لم استطع احتمال فكرة هذا الأمر المخيف استغرقت فى ذهول وصمت غير قادر أن اسمع أو ارى شيئا .

وحين كان هذا اليأس يفارقنى أحيانا تنساب دموعى ويتملكنى قنوط ، وبعد فيض من الدموع يستولى علىالجزع من جديدليزعجنى ويربكنى ويزعزع افكارى . ووسط هذه الدوامة أمضيت ايامى السالفة وانت لا تدرى عن حالى شيئا ، وتظن انى أعيش فى سكون وهدوء . الا اننى اكشف لك القناع عنالأنواء التىاجتاحت نفسى، عساك تصفح عنىوتعدل عن اتهامك لى..».

كانت نفسه ترتعب أمام ضخامة المسئولية ، بماذا يجيب عن كل نفس أمام الله فى ذلك اليوم العجيب ؟ فيقول :

«لست أظن أن كثيرين من الأساقفة (والكهنة) يخلصون ، بل بالحرى اكثرهم يهلكون ، بسبب أن أعمالهم تتطلب تعقلا عظيما .

كثيرة هى الضروريات التى تخرجه عن طبعه !

---

(١) الكهنوت المسيحى ٦ : ١٢ .

انه محتاج الى آلاف الأعين من كل جانب !

الم تر كثرة السمات التى يلزم ان يكون عليها الأسقف؟ أن يكون قادرا على التعليم ، صبورا ، مفصلا كلمة الحق باستقامة (٢) » .

اى متاعب وآلام تلاحق هذه الوظيفة ؟!

آخرون يخطئون وهو يتحمل اللوم ! (٣) » .

«أى عقاب قاسى يتوقعه انسان لا يعطى حسابا عن خطاياه التى ارتكبها بل بالحرى يتحمل خطرا أعظم بسبب الخطايا التى يرتكبها الآخرون ؟

ان كنا نرتعد بسبب دينونتنا عن شرورنا التى ارتكبناها ، واثقين أننا لا نستطيع الهروب من النار التى تنتظرنا فى العالم الآخر ، فأية آلام يجتازها انسان عتيد أن يجيب عن أخطاء آخرين كثيرين ؟! » .

اختيـــار الـــكاهن :

سيامة اســـقف او كاهن ليست بالأمر الهين ؛ انها اقامة أب يلتزم بروح الأبوة نحو الناس ، وراع يبذل حياته من أجل قطيع المسيح ، وكارز يختفى وراء كلمة الحق يكرز ويبشر من اجل الملكوت . . . لذلك فالشعب مع الاكليروس يلتزمون بالتدقيق الزائد فى اختياره ، فانهم مســـئولون أمام الله « الراعى الأعظم » عن كل اهمال . . .

« اخبرنى ، من أين نشأت هذه المتاعب الكثيرة فى الكنيسة ؟

أظن أن مصدرها الوحيد هو **الطريقة العشوائية الطائشة فى اختيار الرعـــــاة** .

يليق بالرأس أن يكون أكثر الأعضاء قوة حتى يضبط النزوات الشريرة التى تصدر عن بقية أعضاء الجسم ، ولكن ان كان هو ضعيفا وعاجزا عن صد الهجمات الوبائية ، فانه يزداد ضعفا ويهلك الجسد كله (٤) » .

أقول فى دقة أن هذه الأمور تحتاج الى تدقيق زائد ، فمن يقدم شخصـــا كمؤهل للكهنوت لا يكتفى بشهادة الجماهير له ، انما **ينبغى عليه هو شخصيا** — قبل كل انسان — أن يتحقق من شخصيته . فعندما قال الطوباوى بولس « ويجب أيضا أن تكون له شهادة حسنة من الذين هم خارج (٥) » لم يستغن بذلك عن البحث بتدقيق شديد (٦) » .

---

(٢) ١ تى ٣ : ٢ — ٩ .

(3) In Acts , hom 3 .

(4) De Sacer . 3 : 10 .

(٥) ١ تى ٣ : ٧ .

(٦) الحب الرعوى ص ٢٢٩ .

« الذين ينتمون الى المسيح يدمرون ملكوته اكثر من الأعداء والمقاومين له ، ذلك باختيارهم غير المستحقين للخدمة (٧) . . . » .

أنت بلا عــــذر(٨) :

عالج الذهبى الفم مدى مسئولية الخادم نفسه عن فشله فى الخـــدمة او تعثره فيها بسبب جهله لمسئولياته ، أو جهله السمات التى كان يليق به أن يكون عليها أو بسبب دخوله هذا الميدان قسرا تحت ضغط الشعب ، فقال:

« لو كان ممكنا ان كون الجهـــــل عذرا ، لكان بالأولى أن يحتمى به العلمانيون أكثر من الأساقفة (والكهنة) .. **لأنه لا يقــدر ذاك الذى يحسب عينـــا لتصحيح اخطاء الغير وتحذيرهم للصراع ضد الشيطان المهاجم لهم ان يعتـــذر بجهله ، قائلا :** لم اسمع صوت البـــوق ، ولا نظـــرت الحرب (الروحية) . فانه قد وضع لهذا القصـــد . يقول عنه حزقيال انه يبـــوق للآخرين وينذرهم بالمخاطر القـــادمة نحوهم ، لذلك يكون عقـــابه محتـــوما ، حتى وان لم يصب أحـــــد بضرر . « فان رأى الرقيب الســـيف ولم ينفخ فى البوق ، ولم يتحذر الشعب ، فجاء السيف وأخذ نفســـا منهم ، فهـــو قد أخذ بذنبه ، أما دمه فمن يد الرقيب أطلبه (٩) » .

« لو ان عشرة آلاف شخص رشحوه للكهنوت وحثوه على ذلك فعليـــه الا يعطى لذلك بالا ، بل **يبحث قلبه** ، ويختبر الأمر من كل نواحيه بدقة قبل ان ينصت الى حاجاتهم .

لا يخاطر انسان ما ويتعهد ببنـــاء منزل ما لم يكن مهندسا ، ولا يحاول علاج المرضى ان لم يكن طبيبا ، حتى لو حثه على ذلك كثيرون ، **فانه يليق به ان يرفض دون ان يخجل من جهله** ، فهل الذى يتعهد أرواحا كثيرة لا يختبر نفسه أولا . . . انما يقبل الكهنوت لمجرد أن طلب احدهم منه ذلك أو الزمه ثان أو خشى مخالفة ثالث ؟ ! . . . » .

« قد ينخدع المنتخبون بمؤثرات خارجية ، أما المختار كاهنا فلا يقدر ان يقـــول « لا اعرف نفسى ، كما يقول الآخرون عنه ، لذلك فعقوبته أقسى من التى يسقط تحتها المنتخبون له . . .

لهـــذا السبب نصح الرب من يريد ان يبنى برجا الا يبـــــدأ بوضـــع

---

(٧) الحب الرعوى ص ٢٣٠ .
(٨) راجع الحب الرعوى ص ٦٤٣ ـــ ٦٥٠ .
(٩) حز ٣٣ : ٦ .

الأســـاس ما لم يحسب قدرته على البنـــاء ، حتى لا يجلب على نفســـه سخريات المـــارة (١٠) غير المتناهية .. » .

قدم لنا القديس يوحنا ذهبى الفم أمثلة كثيرة لأناس لم يقدر أحـــد منهم أن يحتج بجهله ، نذكر منهم ملكا وكاهنا ونبيا وتلميذا .

١ — **شـــاول الملك** « لم يكن يطمع فى الملك لكنه كان يسأل عن اتنه فذهب الى صموئيل النبى يسأله عن الاتن ، فاذا بالنبى يحدثه عن دعـــوة الله له برسمه ملكا ، ومع هذا لم يسرع شـــاول بالقبـــــول .. لكن متى استخدم سلطانه كملك استخداما شريرا — هذا الذى أعطى الملك من قبـــل الله — فهل كان تراجعه هذا كفيلا أن يقيه غضب الله الذى وهبه هذا الملك؟ هل كان فى قدرته أن يقول لصموئيل عنـــدما أنتهـــره : « هل أنا تسرعت واندفعت فى قبول الســـلطان ؟ انى كنت أود أن أحيا كأحد العامة فى حيـــاة مملوءة سلاما وبلا اضطراب ، وأنت أرغمتنى على القبول ، فلو تركتنى فى حالى البسيط ما كنت قد سقطت فى كل هذه العثرات ، بل بقيت مجهولا بين الشعب ، وبالتالى ما كنت قد أرسلت الى هذه المعركة ولمـــا عهـــد الله الى بالحرب ضد عماليق ... وهكذا ما كنت قد أخطأت ...

من يظن فى نفســه أنه غير مسئول عن الخطأ ، لأنه قد تولى عملا لم ينله العـــامة ، يكون كمن يحتج بحب الله كعلة لأخطائه الشخصية .

٢ — **عالى الكاهن** « لم يطمع فى نوال هذه الوظيفة السامية ، لكنـــه ماذا نفعه هذا عندما أخطأ فيها ؟ !

لمـــاذا أقول « نواله هذه الوظيفة » مع أنه حتى ان أراد أن يرفض لم يكن يستطيع الهروب منها ، لأن الناموس يلزمه بقبولها ... ومع ذلك لم تكن عقوبته قليلة بسبب أخطاء ابنيه .

٣ — **موسى النبى** كان بعيدا عن السعى نحو قيادة الشعب ، مقدما اعتراضات عندما أمر بالقيـــادة ... لكنه عندما أخطأ عند ماء مريبـــة ، هل كان هذا الرفض المتكرر شفيعا له ؟ !

٤ — **التلميـــذ الخـــائن** « فقد اختار الله يهوذا ، وحسبه أحـــد أعضاء الجماعة المقدسة ، وعهد اليه كالباقين أن يقـــوم بالأعمال الرسولية، بل أعطاه فوق هذا أمانة الصندوق (١١) ، لكنه عندما أساء استعمال هذه

---

(١٠) لو ١٤ : ٢٨ ، ٢٩ .

(١١) يو ١٢ : ٦ .

الأمور التى عهد اليه بها ... هل هرب بعد العقاب ؟ كلا بل لهذا السبب عينه صب عليه عقابا أعظم » ...

« من يطلب العفــو عن العقاب المستحق عليه بحجة تكريمه بوظيفة عظيمة عن غيره يكون كما لو أن احـــد اليهود غير المؤمنين عنـــــد سماعه السيد المسيح يقــول « لو لم أكن قد جئت وكلمتهم لم تكن لهم خطيـــــة . لو لم أكن قد عملت بينهم اعمالا لم يعملها احــد غيرى لم تكن لهم خطية(١٢) قال يوبخ المخلص محب البشر قائلا : « لمـــاذا تصـــنع المعجزات وقد جعلت عقوبتنا اشـــد ؟ ! » يا لها من كلمات جنونية ، يتفوه بها من هو بلا شعور، لأن الطبيب العظيم جاء ليشفيك لا ليهلكك ، لا ليعبر بك مريضا بل ليخلصك من المرض تماما ، لكنك أنت بنفسك قبلت أن تلقى بنفسك من يديه ، فتتحمل عقابا اشد ! ! ... » .



(١٢) يو ١٥ : ٢٢ ــ ٢٤ .

الكــرازة والمسيحي
أو
العلمانيون في الكنيسة

الكرازة كما اختبرها القديس يوحنــا الذهبى الفم ليســت واجبــا وظيفيا يتممه الكارز بكل أمانة . ولا هى عمــل تعصبى يمارســه الخادم ، لكنها « روح » يعيشــه المسيحى ويمارسه حتى فى مخدعه أو وحدته .

الكرازة هى انفتاح القلب بطريقة علوية أمام الصليب ، فيدرك قوة الصليب ومجد السماويات مشتهيا لو انطلق العالم كله بالروح القـــدس الى أحضان الفادى ينعم بالدم الثمين .

فالــكرازة حياة داخلية قبل ان تكون ممارسة خارجية ، يعيشــها كل مؤمن ذاق عــذوبة الخلاص واختبر حيــاة الشركة مع الفادى ... هــذه الحيــاة كانت للأسف تحتضر بين شـــعب القسطنطينية كما بين خدامها ورعاتها ، فقد انفتح باب البلاط على مصراعيه لرجال الكنيسة وانشــغل الأساقفة والكهنة فى أمور كثيرة غير الرعاية الروحية الكارزة . وكان من ثمــر هذا انسحابهم الى نوع من الأرستقراطية الكنسيه ــ ان صح هــذا التعبير ــ فحسبوا انهم وحدهم دون سواهم يمثلون الكنيسة ، وسلبوا من العلمانيين ليس مركزهم الكنسى فحسب ، بل ودورهم الايجابى أيضــا ! افقدوهم روحهم وحياتهم ! لذلك وضع القديس فى قلبه أن يعود بالخــدام الى الكنيسة بقلوبهم حاملين معهم شعبهم بروح التوبة والحب والعمل ...

بدأ الأسقف أو البطريرك القسطنطينى منــذ سيامته يبعث فى أولاده روح الخدمة والعمل الايجابى ، لا فى اندفاع حماسى أو خلال عواطف مثيرة ، انما فى تعقل من أجل بنيانهم وممارستهم حقهم فى عضويتهم للكنيسة ...

واننى أرجو فى الرب ــ ان استطعت ــ أن اقدم صورة مبسطة لهذه النظرة الايجابية من واقع عظاته وكتاباته .

مركز العلمانيين فى الكنيسة :

١ ــ ليس من آباء الكنيسة الأولين والمحدثين من سجل لنا عن رهبة سر الكهنوت وبهاء عمله السرائرى وخطورته مثل القديس يوحنا ، حتى رفع الكاهن الى ما فوق الملائكة ، وطالبه أن يكون أكثر بهاءا من الشمس ...

لقد عرف سلطان الكهنوت حتى قال (١) :

« الملك له وظيفة ادارة الأمور الزمنية ، اما السلطة الكهنوتية فمستمدة من فوق ... ليس مسموحا لك ايها الملك ان تقدم بخورا فى قدس الأقداس ، والا تكون قد تعديت حدود سلطانك ، وتطلب ما لم يعط لك . هذا ليس لك انما هو لى ! » .

بقدر ايمانه بسلطان الكهنوت آمن ايضا بمركز العلمانيين بكونهم « كهنة علمانيين » ، مميزا بين « الكهنوت كسر » وبين « الكهنوت العلمانى — Laymen Priesthood » ... فالمؤمن اذ يدخل المعمودية يصير كاهنا علمانيا يقدر — فى المسيح يسوع — أن يقدم ذبيحة صلاة وصدقة وصوم وبذل ... اذ يقول (٢) :

« فى جرن المعمودية صرت ملكا وكاهنا ونبيا .

انت ملك ، تحطم على الأرض كل اعمال الشر وتذبح خطاياك .

انت كاهن تقدم لله ذاتك تقدمة : تقدم جسدك وذاتك ذبيحة لله ، قائلا (٣) ' ان كنا قد متنا معه فسنحيا أيضا معه .

انت نبى تعلم ما ستكون عليه ، اذ أوحى لنا من قبل الله ... » .

يعلق (٤) ايضا على قول الرسول بولس(٥) : أطلب اليكم ايها الأخوة برأفة الله أن تقدموا اجسادكم ذبيحة حية مقدسة مرضية عند الله عبادتكم العقلية ، قائلا :

« كما أن الذى يخدم فى بيت الله ويقوم بالتقديس — أيا كانت رتبته — يجمع نفسه (٦) ويصير اكثر بهاءا (٧) ، هكذا يليق بنا أن نضع فى اذهاننا أن نكون كذلك كل أيام حياتنا بكمالها بكونها خدمة وتقديسا ...

هذا ما تحققه بتقديم نفسك ذبيحة له كل يوم ، فتصير كاهنا لجسدك لصالح نفسك ، مقدما على سبيل المثال تعقلا وصدقة وصلاحا واحتمالا ... أى تقدم « عبادة عقلية » !

---

(1) In Vid Dom . PG 56 : 125 — 126 .
(2) In 2 Cor . , hom 3 : 7 .
(٣) ٢ تى ٢ : ١١ .
(4) In Rom . , hom 20 .
(٥) رو ١٢ : ١ .   (٦) حز ٤٤ : ١٩ .
(٧) ربما قصد انه يرتدى ملابس بهية أثناء الخدمة .

لقد أظهر (الرســـول) أن كل انسان كاهن لجسده » .

٢ ــ **كشف أيضا القديس عن مركز العلمانى فى العبادة الليتورجيــة** فان العبادة هى عمل الكنيسة كلها ، ليست عمل الكاهن وحده ولا العلمانى وحـــده ، يشترك العلمانى فى العبـــادة لا كمتفرج ولا كمستمع لكنه كمشترك حقيقى ، بدونه لا يقوم العمل الليتورجى .

لقد سبق لى معالجة هذا الفكر الكنسى الأرثوذكسى عند الحديث عن الأفخارستيا ، كذبيحة الكنيسة كلها وعمل تعبدى للجميع كأعضاء فى جسد المســيح (٨) ... وهـــذا أيضا ما أكده القــديس فى أكثر من موضـــع ، نذكر منه (٩) :

توجد ظروف لا يكون فيها تفريق بين الكاهن ومن يسودهم . مثـــال ذلك عندما نتناول الأسرار المرهبة ، فاننـــا جميعا نتساوى فى التأهل لهـــا فالأمر ليس كما فى العهد القـــديم حيث يأكل الكاهن أشياء والذين تحتـــه أشياء أخرى ، اذ لم يكن يحق للشعب أن يشارك الكاهن الأشياء الخاصة به . أما الآن فالأمر غير ذلك ، اذ هو جســـــد واحد وكأس واحـــدة أمام الجميع ...

الصلوات أيضا مشتركة بين الكاهن والشعب ...

تقدمة الشـــكر أيضا مشـــتركة بينهما ، فلا يقدمها الكاهن وحـــده بل ومعه كل الشعب . يبـــدأ بالشكر عندما يتقبل أصواتهم معلنين قبولهم ، قائلين « مستحق وحق (عادل) » ...

لمـــاذا تتعجبون ؟ .. فان الجميع يشـــتركون مع الشاروبيم أنفسهم والقوات السمائية ، مقدمين التسابيح المقدسة فى شركة معا .

قلت هذا ، لكى يكون كل علمانى متيقظـــا ، مدركا اننا جميعا جســـدا واحـــدا ، أما الاختلافات بيننا فهى اختلاف أعضـــاء قبالة أخرى . بهـــذا لا نلقى بالعبء كله على الكهنة ، انما نشترك أيضـــا معهم فى الاهتمام بكل الكنيسة ، بكونها جسدا واحـــدا عاما للجميع ، فان هذا يســــــند سلامنا العظيم ونمونا المتزايد فى كل فضيلة » .

٣ ــ لا يقف عمل العلمانى عند الشركة مع الكاهن فى العمل التعبدى انما أيضا فى التدبير مثل اختيار الكهنة والشمامسة الخ ...

---

(٨) للمؤلف : المسيح فى سر الافخارستيا .

(10) In 2 Cor., hom 18 : 3.

يقول القديس يوحنـــا انه لا يليق بالكهنة ان يعتـــدوا برأيهم ويمتلأوا كبرياء ، فانه افضـــل للكنيسة ان يتشاور الكاهن مع أصـــحاب الرأى من العلمانيين ، مقـــدما لنا الرسل انفسهم مثالا ، اذ « غالبا ما كانوا يضمون معهم العلمانيين ليشتركوا معهم فى قراراتهم ، فعند رسامتهم السبعة (١١) (شمامسة) اجتمعوا أولا مع الشعب . وعند رســـامة متيـــاس (١٢) كان الكل حاضرا : الرجال والنساء ... (١٣) » .

٤ ــ **العلمانيون يسندون الكهنة بالصـــلاة** ، فقـــد رأينـــاه يطالبهم بالصـــلاة من أجله ومن أجل الكرازة ...

هـــذا ما تعلمه ايانا الكنيســـة فى ليتورجياتهـــا « اذ فى أكثر الأسرار رهبـــة يصلى الكاهن من أجل الشعب ، ويصلى الشعب من أجـــل الكاهن أيضا (١٤) » .

حدثهم أيضا عن قوة صـــــلاة الشـــعب فى خدمة الرســـل أنفسهم ، قائلا : (١٥) .

وبالتأكيد صلوات الكنيسة حلت بطرس من قيوده ، وفتحت فم بولس (للكرازة) ، أصواتهم سندت ــ ليس بقليل ــ الذين نالوا سلطانا روحيا .

٥ ــ **العلمانيون أقدر على الخدمة الفردية :**

هذا ما لمسه القديس يوحنا فى خبرته العملية ، أن العلمانيين أقدر من الكاهن على الخدمة الفردية ، وله فى ذلك أقوال رائعة ، منها (١٦) .

« لا تلقـــوا كل العبء على معلميكم ، لا تلقـــوه بأكمـــله على من يقودكم ...

ان أردتم تستطيعون أن تعملوا فيما بينكم أكثر منا . فان لديكم فرصا أكثر للالتقـــاء معا وتعرفون ظروف بعضكم أكثر منا ، ولا تجهلون ســـقطات بعضكم بعضا ، لديكم أيضـــا حرية أعظم فى الحـــديث والحب والمودة ، هذه الأمور ليست بقليلة فى التعليم ...

أنتم أقدر منـــا أن ينتهر الواحد الآخر وينصحه ...

ليس هذا فقط ، انما أيضا انا لست الا واحدا ، أما أنتم فكثـــيرون ، تستطيعون بعددكم الكبير ان تعلموا ...

---

(١١) أع ٦ : ٢ ، ٣ .
(١٢) أع ١ : ١٥ .
(13) In 2 Cor., hom 18 : 3
(14) In 2 Cor., hom 18 : 3.
(15) Ibid.
(16) In Hebr. hom. 30 : 4 — 7 PG 63 : 211.

اتوسل اليكم الا تهملوا هذه الموهبة ، فانه لكل واحـــــد منكم زوجته وصديقه وخادمه وقريبه ...

ان كان لازما أن تذهب الى جنازة أو وليمة أو تساعد قريبك فى أمر ما فكيف لا تفعل هذه الأمور بقصـــد تعليمه الفضيلة ؟ أرجوكم الا يهمل أحدكم هذا ، فانه يتقبل من الله مكافأة عظيمة ...

تقول لى : ليس كلام ! لكن لا حاجة الى الكلام ولا الى الفصاحة ... اسنده لا بكونك انسانا تفعـــل كل شيء كما يليق « أى تسنك بلا خطيـــة ، ولا كمعلم له بل كصديق وأخ له »...

هذه هى الصداقة : « أخ يعين أخا يصير مدينة محصنة (١٧) » . ليست الصداقة أكلا وشربا ، فان مثل هذه توجد حتى بين اللصوص والقتلة . لكننا ان كنا بالحقيقة أصدقاء غليعتن كل واحد بالآخر ...

« احملوا بعضكم اثقال بعض وهكذا تمموا ناموس المسيح (١٨) » .

اذ ينتهر الواحد الآخر ويحمل اثقاله نستطيع أن نتمم التهذيب وبهـــذا تجعلون عملنا خفيفا، تشاركوننا فى كل شيء ، وتبسطون أيديكم لنا، وتكونون شركاءنا ، مهتمين كل واحد بخلاص الآخرين وخلاص نفسه.

مرة أخرى يقول (١٩) : « كل واحد منكم ــ ان أراد ــ فهو معلم ، ان لم يكن للآخرين فلنفسه ...

انك مصـــباح عندما تضيء يقـــدر أن يضيء منه عشرات الألوف من المصابيح ، أما اذا انطفأ فلا يعطى ضوءا لنفسه ولايضيء غيره من المصابيح. هكذا فى الحياة النقية ، ان كان النـــور الذى فينا يضيء فانه توجد أعـــداد ضخمة من التلاميذ والمعلمين ، يجلسون قبالة بعضهم كنماذج ، كل يأخذ من الآخـــر . لأنه لا تستطيع كلماتى الخارجة منى أن تفيد السامعين مثل نفعهم من حياتكم ...

هم يسمعوننى مرة فى الشهر أو مرتين وربما اقل ، وحتى ان حفظوا ما يسمعونه فى الكنيسة فسرعان ما ينسونه ، أما اذا رأوا حياة انسان على الدوام فينالون منه نفعا عظيما ...

---

(١٧) أم ١٨ : ١٩ .

(١٨) غلا ٦ : ٢ .

(19) In 2 Thes . hom 5 .

انا اعرف عائلات كثيرة نالت نفعا عظيما من فضائل خدمهم .

اوجه حديثى للجميع بصفة عامة ، كما لكل فرد على وجه الخصوص ، ليهتم كل واحد بخلاص اقربائه . . . فان فى هذا العمل نفعا عظيما ، ليس فقط يصير العمل خفيفا على المعلم ، بل يشترك كل تلميذ فى الآلام ليصير قادرا ان يكون معلما . . . » .

« يمكننا أن نعتبر كل مؤمن راعيا لبيته واصـدقائه وخدمه وزوجته واولاده (٢٠) » .

« اجعل بيتك كنيسـة ! (٢١) » .

الخلاصـــة :

نستطيع أن نخلص من هذا كله بأن الحياة المسيحية ــ فى عينى القديس يوحنا ــ حياة حب عاملة لا تعرف السلبية ، فان السيد المسيح جاء ليخدم ويبذل نفسه فدية عن كثيرين . هكذا يليق بالمسيحى أن يحيا فى المسيح وبروحه ، لا يعرف الا أن يكون فعالا فى حياة الآخرين بالعمـل الايجابى : بالحب والصلاة والخدمة والمشاركة فى المشاعر الخ . . .

المسيحى ــ كاهنا او راهبا او بتولا أو أرملا او متزوجا ــ له دوره فى حياة الكنيسة ، يعمل ويجاهد لا لاحتياج الكنيسة لعمله بل بالحرى لحاجتها الى حيويته فيها ، ولحاجته هو الى تفاعله معها . . .

« ليس شىء يجعل الانسان مثل المسيح كاهتمامه بأقربائه (٢٢) » .

«لا اقدران اصدق خلاص انسان لايعمل من اجل خلاص اخيه(٢٣) » .

« ليس شىء تافها مثل مسيحى لا يهتم بخلاص الآخرين .

لا تقل انى فقير ، فان فلس الأرملة يخجلنك . وبطرس أيضـا قال : ليس لى فضـة ولا ذهب ، وبولس كان فقيرا حتى انه كثيرا ما كان جائعا .

---

(20) In Rom . PG 60 : 660 — 661 .
(21) In Gen PG 54 : 607 .
In Princip . Act . PG 51 : 99 — 100 .
(22) In 1 Cor . , hom 25 : 3 .PG 61 : 208 .
(23) De Sacer . 3 : 10 . PG 48 : 686 .

لا تحتج بظروفك القاسية ، فانهم كانوا أيضا فى ظروف قاسية .

لا تحتج بجهلك ، فقد كانوا غير متعلمين .

ربما تكون عبدا هاربا ، انسيموس أيضا كان هكذا !

قد تكون مريضا ، تيموثاوس كان هكذا !

كل احد كان يقدر ان يعين اخاه حتى ولو بالارادة الصادقة ان لم يكن له فى قدرته أن يفعل شيئا ...

لا تقل انك لا تستطيع ان تؤثر على الآخرين ، فانك ما دمت مسيحيا يستحيل الا أن تكون صاحب تأثير ... فان هذا هو جوهر المسيحى .

ان قلت انك مسيحى ولا تقدر أن تفعل شيئا للآخرين يكون فى قولك هذا تناقضا ، وذلك كالقول ان الشمس لا تقدر أن تهب ضوءاً (٢٤) .

« ان كانت الخميرة لا تخمر العجين فهل تكون خميرة ؟ !

وان كان العطر لا يعبق الجو المحيط به فهل يكون عطرا ؟!

هكذا مسيحى لا يعمل من أجل خلاص غيره فهل هو مسيحى ؟!(٢٥)» .

هكذا يرى القديس « المسيحية » و « خدمة الآخرين » متلازمين ، كما لا تقدر الشمس الا أن يكون لها ضوء فى ذاتها ، لا يمكن أن توجد مسيحية بغير حب لخلاص البشرية .

هذه هى غاية الانسان المسيحى كل يوم ، اذ يقول (٢٦) :

« من ثم أتوسل اليكم ، عندما يحل الصباح ونخرج من بيوتنا فليكن لنا هدف واحد ، فوق كل الأهداف ، وهو أن نخلص من هم فى خطر ، لست أقصد الخطر الذى تدركه الحواس ، فان هذا ليس خطرا بالمرة ، انما أقصد خطر النفس الذى يجلب الشيطان على البشر » .

« ان رأيت انسانا أعمى سيسقط فى هوة ، أما تمد يدك اليه وتسنده حالا ؟! كيف اذن يسوغ لنا أن نرى اخوتنا ساقطين فى مثل هذه المخاطر ولا نمد اليهم يد العون وهم مشرفون على السقوط فى الحفرة الجهنمية الخالدة ؟ ! (٢٧) » .

---

(24) In Acts , hom 20 : 4 . PG 60 : 162 .
(25) In Act . PG 60 : 163 .
(26) In Mat., hom 59 : 5.

(٢٧) الحب الأخوى ص ٧٢ .

« عالج نفوس اخوتك المتألمة بآلام الخطية كما تعــالج نفسك ، عالمــا ان زمان حياتنا الوقتى نذر يســير . فاننا ان لم نربح هــذا الكسب النافع للنفس لن نحصــل هناك على خلاص لنفوسنا ... لأنك اذ تنقــذ نفســا من رق الخطية ، تكون قد رفعت عن نفسك أوثاقا صـــعبة من الخطــايا العظيمة ، وتوجد يوم الدينونة مكللا ، لأنك انقذت نفوسا من التعــابى يوم الدين وسعيت فى خلاصها .

نحن أيها الأخوة ملتزمون أن يجاهد كل منا من أجل خلاص أخيه حتى نستقبل المسيح يوم الدينونة بوجوه مبتهجة ثابتة ، وبدالة جزيلة ، مقدمين له تلك الهدايا التى لا يوجد أفضل منها ، وهى نفوس الخطاة والضــالين التى رددناها اليه بوعظنا وتهذيبنا (٢٨) » .

« يجب علينــا أن نظهر الحب الأخــوى والتدبير اللائق نحــو بنى طبيعتنا ، ونتحملهم بالمحبـــة التى هى راس الفضـــائل ، والتى بدونها لا يستطيع أحــد أن ينجو .

لهذا لا تفتر أيهــا الحبيب ابدا ، بل كن ناصــحا لأخيــك ولو قذفك وأرهبك بالضرر والخسارة ، اظهر له جناح الحنو واطل اناتك عليــه حتى تربح نفسه ولو بالغ فى عدائه لك ...

متى رايت انسانا محتاجا الى شفاء روحى أو جسدى ، فلا تقـــل فى نفســك أن هذا من عمل فلان ، هــو ينقذه من شره ويشــفيه ، فأنا علمانى لى زوجة وأولاد ، هذا من عمل الكهنة والرهبان .

أجبنى يا هذا : لو وجــدت وعاءا مملوءا ذهبــا هل تقول فى نفســك لم لا يأخــذ هذا الوعاء فلان أو فلان ... بل كالذئب الخاطف تبادر وتأخذه قبل أى انسان ؟ !

ليكن لك هذا الاشتياق بالنسبة لاخوتك الساقطين ، واضعا فى نفسك انك قد وجدت كنزا ثمينا جدا ، هو اعتناؤك بأمر خلاص اخيك ، هو ذا الله نفسه يقول على فم رســوله أنك ان انقذت انسانا من الضـــلالة تخلص نفسا من الموت » .

+ + +

---

(٢٨) الحب الأخوى ص ٧٣ .

واجه القديس يوحنا الذهبى الفم مقـــاومات من الوثنيين واليهــود والهراطقة ، فما هو موقفه تجاههم ؟ !

فى القــرن الرابع ظهــر اتجاه خطير هو تبرير مضــايقة الهراطقة والمبتــدعين باستخدام السلطان المدنى ضدهم ، حتى يبدو أن القـــديس جيروم (١) كما لو كان يبرر اعدامهم معتمــدا على قــول الكتاب المقــدس « اذا اغواك سرا أخــوك ابن امك او ابنــك او ابنتــك .. قائلا : نذهب ونعبــد آلهة اخرى ... فلا ترض منه ولا تسمع له ولا تشفق عينك عليــه ولا ترق له ولا تستره ، بل قتلا تقتله . يدك تكون عليه أولا لقتله ثم ايدى جميع الشعب اخيرا . ترجمه بالحجارة حتى يموت ، لأنه التمس ان يطوحك عن الرب الهك (٢) » .

اما القديس اغسطينوس الذى انتمى لأتباع مانى قرابة تسع سنوات قبلمــا تنتشــله نعمة الله للدخول فى الايمان المستقيم فقــد رفض مضايقة الهراطقــة ... وان كان بعــد عام ٤٠٠ م نتيجــة خبرته مع الدوناتيين Donatists بدأ يبرر اضطهادهم اذ يقــول (٣) : « حقا من الأفضـــل للبشر أن يتقدموا لخدمة الله خــلال تثقيفهم لا بسبب الخــوف من العقاب والألم ... لكن وان كانت الوسيلة الأولى افضــل ، فان هــذا لا يعنى تجاهل الثانية .. فان كثيرين كعبيد اشرار لا يعودون الى ربهم غالبـــا الا بعصـــا الآلام المؤقتة ، وذلك قبلما يبلغـــون الى درجة من التقــدم فى التقوى » .

اما منهج القديس يوحنا الذهبى الفم فى تعامله بخصوص الهرطقـــة والخارجين عن الايمان فيتلخص فى :

١ ــ قبــول الايمـــان امر اختيارى :

لا يؤمن بالتــوبة او الرجوع الى الايمان باستخدام العنف انما هــو عمل روحى اختيارى .

---

(1) Ep . 37 .

(٢) تث ١٣ : ٦ ــ ١٠ .

(3) Ep . 185 ad Banifacium 21 , 24 .

« لا يسمح للمسيحيين ان يعالجوا سقطات الخطاة كرها .. فانه يلزم اصـــلاح الخطاة بالاقناع لا بالارغام ، فنحن لم نعط بالقانون سلطانا من هذا النوع لقمع الخطاة ، وان اعطى لنا ذلك فلا مجال لممارسته ، ما دام الله يكافىء الممتنعين عن الشر باختيارهم لا قسراً (٤) » .

٢ ـــ عـــدم الانشغال بالجدال :

يؤمن القديس بالايجابية فى العمل ، لا يليق بالراعى او قطيعـــه ان يفسدوا وقتهم بالجدال خاصـــة مع من لا يود التعرف على الحق بل يكون محبـــا للمحاولات العقلية والمباحثات الغبية .

واما المباحثات الغبية والأنساب والخصومات والمنازعات الناموســـية فاجتنبها لأنها غير نافعـــة وباطلة . الرجل المبتـــدع بعد الانذار مرة ومرتين اعرض عنـــه ، عالماً أن مثل هذا قد انحرف وهـــو يخطىء محكوما عليـــه من نفسه (٥) » .

يعلن بولس أنه لا لزوم للصراع ضدهم ما دام لا يرجى منهم خير ... ان كان الشخص شاذا ومصرا على رايه فلماذا تصر على القاء البـــذار على الصخرة ؟ ! اليس من الأفضل ان نستغل جهدنا هذا فى فائدة ذوينا ؟ ...

كيف يقول الرســـول « لعل الله يعطيهم توبة » ، بينما يقـــول هنـــا « الرجل المبتدع بعد الانذار مرة او مرتين اعرض عنه ؟ ! ... قال هـــذا عمن يرجى توبتهم ، لكن متى كان المبتدع فى عناد ظاهر ومعلوم فلماذا تتعب معه باطلا ؟ ! (٦) » .

يقول ايضا (٧) : « فى الكلام الباطل خسارة عظيمة ، فانه يليق بالمعلم ان يعلم او يصلى او يشكر ... » .

« كما ان التغـــافل عن الذين فيهم رجاء فى التوبة هو فشـــل ، هكذا علاج مرضى بأسقام لا يرجى شفاؤها هو جهل وغاية فى الجنون ! » .

هكذا يليق بالكاهن وشـــعبه الا يفسدوا سلامهم ووقتهم بمناقشـــة غبية ، انما حرى بهم الا يكرزوا بالقـــدوة والعمل الايجـــابى ، فيخاطب شعبه قائلا (*) :

« كيف نقنع الوثنيين ؟

---

(4) De Sacr . 2 : 3 .

(٥) تى ٣ : ٩ ـــ ١١ .

(6) In 1 Tit ., PG 62 : 696 .

(٧) الحب الرعوى ص ٧٢٦ .

(*) In Joan . hom . 62 : 5 .

كيف نقنعهم بالقيامة والفضائل عندما نحدثهم عنها ؟ » يجيب : بالحياة التقوية وليس بالفلسفة والجدال .

مرة أخرى يحذر شعبه من عثرة الخارجين بسبب سوء صنيعهم ، قائلا : « بالعظم فساد سلوك هذا الزمان ! فان أى غريب متى قارن وصايا الانجيل بحياة هذا المجتمع الواقعية لأدرك على الفور أنهم ليسوا تلاميذ المسيح . لا ، بل هم أعداؤه » .

٣ ـ عدم الانفعال :

حذر القديس المؤمنين الا يفسدوا سلامهم الداخلى بانفعالات الغضب والخصومة والمرارة وهو فى هذا يسلك بروح الأسقف فلافيان القائل (٨) : « يجب ان نحرم العقائد الهرطوقية التى نجدها عندهم ، أما الأشخاص فيجب أن نرحمهم تماما ونصلى من أجل خلاصهم » .

بنفس الروح يقول القديس يوحنا (٩) : « بالتأكيد أن تغيير الانسان عقلية خصومه وهداية اذهانهم لهو اعظم من قتلهم واعجب !

ومما يزيد صواب هذا المبدأ أن التلاميذ لم يكونوا سوى اثنى عشر ، بينما كان سكان العالم أجمع ذئابا ، لنخجل نحن الذين لا نسلك على منوالهم اذ ننقض على خصومنا كالذئاب .

سنغلب ان سلكنا كخراف حتى ان كان حولنا ألف ذئب ! نحن أقوى من جميعهم وننال الغلبة !

أما اذا عملنا عمل الذئاب فسننهزم ، لأنه عند ذلك يحرمنا الراعى من عونه ، اذ هو راعى الخراف لا راعى ذئاب » .

مرة أخرى يقول(١٠)« تعودت أن أسقط تحت الاضطهاد لا أن أمارسه، أن تساء معاملتى لا أن أسىء معاملة الآخرين ...

ان دخل هنا ذئب هرطوقى اجعل منه حملا ! » .

٤ ـ ميز القديس بين عدم اضطهادهم ومضايقتهم وبين التساهل معهم ، فقد حرم الدخول الى اجتماعاتهم كما صادر كنائسهم وتحدث عن الضرورة ضد هرطقاتهم (١١) ، اذ له **مقالات ضد اليهود والوثنيين والهراطقة** .

(8) Moulard : St . Jean Chrysostome , p 138 .
(9) In Mat , hom 33 (See hom 29 , 46) .
(10) In S . Phoac . PG 50 : 700 — 702 .
(11) Schaff , vol 3 , p 144 .

حاول بعض الهراطقة أن يدخلوا بالبدع الى قلوب المؤمنين تحت ستار « **الاتضــاع** » ، خالطين بينه وبين الاستهتار فى التمسك بالعقيدة ، مرددين قول الرســول « غير انه على كل وجــه ســواء كان بعلة أو بحق ينادى بالمسيح (١٢) » ، مطالبين البسطاء ان يسمعوا لهم اذ هم أيضــا يتحدثون فى المسيح يســوع ! لم يقف القديس صــامتا بل القى مقالا مطولا يعالج المفهوم الحقيقى للاتضــاع فارزا اياه عن الاستهتار ، كما أوضــح لهم أن ما قاله الرســول لم يكن بخصــوص هراطقة انما بخصوص اناس كرزوا بالايمان المســتقيم بنيــة اثارة الحكام ضــد الرســول بولس ليبقى فى ســجنه « ظانين انهم يضيفون الى وثقه ضــيقا (١٣) » . وقد سبق لى ترجمة هذا المقال (١٤) .

+ + +

الصخرة ؟ !

(١٢) فى ١ : ١٨ .

(١٣) فى ١ : ١٧ ، ١٨ .

(١٤) « اتضاع الفكر » للقديس يوحنا ذهبى الفم .

(٣)

منهجه الكنسى

- كارز كنسى .
- الكنيســة وابعــادها .
- العبــادة الكنسية .
- الأسرار الكنســية .
- الطقس الكنسى .

كارز كنسى

كان القديس يوحنــا ذهبى الفم واعظــا كنسيا ، عاش فى الكنيســة عضوا حيا ، ينعم بانجيلها ويمارس عبادتها ويســلك بروحها . اذا ما اعتلى المنبر انما يعتلى منبر الكنيسة التى يعشقها ، يكرز من خلاله بمسيح الكنيسة ومخلصها ، حاملا سامعيه الى الحياة الكنسية الانجيلية التعبدية النســكية السرائرية الحاملة للسمة الســماوية مع واقع حى ! لقد اعتلى الكنيســة ليقود أولاده فى مراعى كنيسة المسيح الأصلية التى يعيش هو فيها .

لكننا نتساءل : ما هو مفهومه للكنيسة ؟

وما هى أبعادها ؟

وما هو مركز الانجيل فيها ؟

وما هى رسالتها ؟

وما هى علاقتها بالمذبح والذبيحة المحيية ؟

كيف تمارس طبيعتها السماوية وهى سالكة على الأرض ؟

هذه التساؤلات وما على شاكلتها يصعب تحديد الاجابة عليها فى نقاط مستقلة ، فهى فى مجمــوعها انما تعلن عن « حياة كنسية واحدة » ، هى محصــلة لقــاء المؤمن الحقيقى مع السيد المســيح داخــل الكنيســة — اى كعضو حى فى جسد الرب — خــــلال الانجيـــل والمعمودية والمذبح

والليتورجيات والمنبر ... يعيشـــها المسيحى داخــل جــدران الكنيســة كما فى مخدعه وخلال معاملاته مع الآخرين وسلوكه اليومى . هى حياة واحدة جــديدة يمارسها المؤمن خـــلال اتحاده بمسيح الكنيســة اى راسها ، اينما وجد !

هذه الحيـاة الكنسية لم يسجلها لنــا القــديس يوحنــا ذهبى الفم فى مقالات معينـــة بطريقة دراسية منظمة ومنسقة ، لكنها تنبعث من خـــلال الأسطر دون تدبير او تخطيط من جانبه ، يحسها القارىء فى عظاته ومقالاته البسيطة العملية غير الفلسفية ، ويلمسها بصـــــورة حيـــة تتجلى فى كل موضوع يتحدث عنه القديس .

والآن لنبدا بالتعرف على مفهومه للكنيسة او الحياة الكنسية وابعادها.

+ + +

يقول القديس يوحنا ذهبى الفم (١) :

« الكنيسة هى رجاؤك وخلاصك وهى ملجأ لك !

هى أعلى من السماء ، وأكثر اتساعا من المسكونة !

انها لن تشيخ ، انما تبقى فى كمال حيويتها بغير توقف .

يشير الكتاب المقدس الى قوتها وثباتها ، فيدعوها « جبلا » ،

والى طهارتها فيدعوها « العذراء » ،

والى سلطانها فيدعوها « الملكة » ،

والى انتسابها لله فيدعوها « الابنة » ،

والى نموها فيدعوها « العاقر التى لها سبع بنين » . . .

تحمل الكنيسة أسماء عدة لتعبر عن سموها ، فهى مثل سيدها الذى يلقب بأسماء كثيرة . . . اذ هل يقدر اسم بمفرده أن يعبر عن حقيقتها الكاملة ؟ مستحيل ! » .

هذا ما سجله لنا القديس ذهبى الفم فى احدى عظاته عندما هرب اتروبياس من الكنيسة مرتعبا،فسقط بين يدى الامبراطور ونفى ثم أعدم(٢). خلال هذه المناسبة انطلق القديس يكشف لشعبه عن « مفهوم الكنيسة » كما يدركه ويتلمسه ، فوجد اللغة عاجزة عن أن تعبر ، أو بمعنى أدق أوقفته بشريته عن قياس أبعاد كنيسة المسيح .

١ — تارة يتطلع اليها **كحياة انجيلية ايمانية** علوية ، يهبها لنا الآب فى ابنه خلال الصليب بالروح القدس ، فيقول عنها : « الكنيسة هى رجاؤك وخلاصك وهى ملجأ لك » .

---

(١) مقالتان عن أتروبياس ، طبعتنا تحت عنوان : « الكنيسة تحبك » ١٩٦٨ ، ص ٤٢ ، الناشر كنيسة مارجرجس باسبورتنج .

(٢) ص ٧١ — ٧٥ .

هذا ما اكده فى نفس العظة حين قال : **عندما أقول الكنيسة ، لا اقصد مجرد المكان بل طريق الحياة . لا اقصد حوائطها بل شرائعها ... الكنيسة هى ايمان وحياة !))** .

٢ ــ مرة ثانية يتطلع الى الكنيسة من جهة رسالتها فى هذا العالم ، ((**الأم الولود**)) أو كما دعاها « العاقر التى لهـا سبع بنين » . هى أم تلد اولادا لله خلال حبها للبشرية وكرازتها للعالم وتعميد القابلين للايمان ... تلدهم مقدسين للرب وتهتم بهم بالنعمة الالهية .

٣ ــ مرة ثالثة يفحص الكنيسة فىطبيعتها: هل هى سماوية أم ارضية ؟ أم ارضية ؟ فاذا به يدعوها « اعلى من السماء واكثر اتساعا من الأرض » .

اخـيرا غلب القديس على أمره ، ان تطلع اليها من خلال الصليب دعاها « جبلا » لا تقـدر قوات الظلمة أن تحطمه ، وان تلامس مع عفتها ونقاوتها دعاها « العذراء » العفيفة المهياة للعرس الأبدى ، وان رفع عينيه الى أمجادها الأبدية ونسبتها لله وجدها « الابنة والملكة » الجالسة عن يمين الله ، شريكة المسيح فى المجد . وان أراد أن يعرف نهايتها يجـدها « لن تشيخ بل تبقى فى كمال حيويتها بغير توقف » ...

فى عظاته تارة يدعوها « حياة وايمان » ، وأخرى « جسـد المسيح وعروسه » وثالثة يدعوها « هيكل الله المقام من نفوس المؤمنين » الخ ...

اخيرا احسب أن كتابا كهذا لا يكفى لسرد كل ما ورد فى كتابات القديس عن الكنيسة ، انما اكتفى بذكر مقتطفات من كلمات تكشـف عن نظرته للكنيسة فى جوانبها الثلاث :

١ ــ الكنيسة كحياة انجيلية ايمانية .
٢ ــ الكنيسة حب وكرازة .
٣ ــ الكنيسة سماء ارضية .

+ + +

١ ــ الكنيسة حيـاة انجيلية ايمانية :

ارتبطت الكنيسة فى ذهن القـديس بالانجيل العملى ، كل منهما يسند الآخر ويتقوم به . الانجيل هو سور الكنيسة (٣) يحوط بها ويحفظها لتعيش كنيسة المسيح الانجيلية ، وفى نفس الوقت الكنيسة هى التى « تعطى الانجيل مفهومه الحقيقى وتفسيره السليم (٤) » ، حتى لا ينجرف به أحد عن مفهومه الأصـيل .

---

(3) In Act. PG 60 : 244 .
(4) Moulard : St. Jean Chrysostome, P 89 .

الكنيسة هى حياة انجيلية عملية جادة ، اذ يقول : « ليست الكنيسة مسرحا تأتون اليه للاستماع من اجل التسلية ، انما يليق بكم ان تخرجوا حاملين نفعا ، مقتنين فائدة جديدة وعظيمة ... اظهروا ما أقوله لكم بأعمالكم (٥) » .

٢ ـ الكنيسة حب وكرازة :

« ما هى الكنيسة الا بيت مبنى من نفوسنا نحن لبشر ؟ ! (٦) » .

هذا هو مفهومه للكنيسة ، انها البيت ، قوامه نفوسنا التى هى حجارة حية ، اى بناء حى ينمو بغير توقف ، يرتبط معا ويرتفع نحو السماء ليصير بيت المسيح الواحد والمتكامل .

بهذا نفهم كنيسة المؤمن انها « حب انجيلى عامل لبناء نفسه ونفوس اخوته » ، هى عمل مستمر لا يتوقف حتى يقوم البناء متكاملا ، خلال الولادة المستمرة لأولاد الله .

بمعنى آخر الروح الكنسية هى روح الانفتاح نحو الآخرين لجذب غير المؤمنين الى الايمان للتمتع بالميلاد الكنسى الجديد ، وجذب المؤمنين المتراخين والدفع بهم الى تيار الحياة العاملة من أجل بناء الله الحى .

سبق لى الحديث عن هذا الروح المنفتح للخدمة اثناء عرضى لمنهجه الكرازى ، والآن اكتفى بمثالين من عظاته .

عندما تحدث عن التحرر من خطية القسم قال : « لنلاحظ هذه النقطة ، ليس اننا قد تحررنا من هذه الخطية ، بل وان نخلص آخرين منها أيضا ليتنا لا نتوقف عن العمل ، بل يقدم كل منا لله عشرة اصدقاء يصلح حالهم (٧) » .

وفى حديثه عن الغائبين عن الاجتماعات قال (٨) :

« كم انا مغموم ؟ ! ... يا له من جزء كبير من جسد الكنيسة اشبه بجثة هامدة ؟ !

أتقولون ما لنا وهذا الأمر ؟ اقول : لديكم امكانية عظيمة بخصوص اخوتكم . انكم مسئولون ان كنتم لا تنصحونهم وتصدوهم عن الشر ،

---

(5) Conc. Statues, hom 2 : 11 .
(6) In Eph. hom 10 .
(7) Conc. Statues, hom 20 : 23 .
(8) To those who had not attended the assembly .

قام بترجمتها المؤلف تحت عنوان « رسالتك فى الحياة » سنة ١٩٦٧ .

وتجذبونهم بقوة الى هنا ، وتسحبونهم من تراخيهم الشديد ، اذ لا يليق بالانسان أن يهتم بنفسه فقط بل يلزمه أن يهتم بالآخرين أيضا ... فانه اى فائدة لمصباح لا يضيىء للجالسين فى الظلمة ؟ ! واى نفع للمسيحى الذى لا يفيد غيره ؟ ! ولا يرد احدا الى الفضيلة ؟ ! ...

مداومة النصيحة والتعليم يحثان الانسان على الاجتهاد واصلاح حاله . فى هذا أؤكد الحقيقة ، مقتبسا المثل العام القائل : « قطرات الماء المتواترة تشق الصخر » .

لا يكن اجتماعكم هذا باطلا ؛ فانى لا اكف عن التوسل اليكم بكل غيرة قائلا لكم « تعالوا باختوكم الى هنا ارشدوا الضالين . علموهم بالعمل لا بالكلام فقط ... » فانه يليق بكم وانتم خرجون من هذا الموضع أن تعلنوا عنه أنه موضع مقدس . **تخرجون كأناس نازلين من السماء عينها** ، مملؤون وقارا وحكمة ، ناطقين وعاملين كل شيء بلباقة .

عندما ترى الزوجة رجلها قادما من الاجتماع ، ويرى الأب ولده ، والصديق صديقه، والعدو عدوه ... يرون فيهم آثار البركات الحالة عليهم ، يدركون انكم قد صرتم ودعاء وحكماء ومتزنين .

تأملوا اى امتيازات تنعمون بها فى الأسرار المقدسة ؟!

علموا الذين فى الخارج أنكم فى صحبة السيرافيم . علموهم أنكم محصون مع السمائيين ، معدون فى مصف الملائكة ، تتحدثون مع الرب وتكونون فى صحبة السيد المسيح ...

واذ يتطلعون الى جمال نفوسكم المتلألئة تلتهب قلوبكم بمظهركم الصالح، مهما بلغ غباؤكم ، لأنه ان كان جمال الجسد يغرى ناظره كم بالحرى جمال النفس وتناسقها يهز ناظريها ويجذبها الى ذات الغيرة ؟! » .

٣ ـ الكنيسة سماء ارضية :

الكنيسة « هى اعلى من السماء واكثر اتساعا من المسكونة (٩) » . هى عودة الى الحياة الفردوسية الاولى ، بل واعظم منها اذ صارت كجنة مغروسة فى جنب المسيح السماوى ترتوى من ينابيع دمه المحيى .

---

(٩) الكنيسة تحبك ص ٢٤ .

يقارن بين الحياة الكنسية الجديدة والحياة الفردوسية الأولى قائلا :

« لا أعود أذكر حواء الأولى علة السقوط ، انما أرى كنيسة قائمة !

لا أنظر أوراقا تستر العرى بل ثمار الروح !

لا أجد أسوارا من الأشواك بل كرمة محصبة ! (١٠) »

مرة أخرى يتحدث على لسان السيد المسيح ، فيقول (١١) :

« لقد غرستك فى الفردوس ، والشيطان طردك .

انظرى ، ها أنا اغرسك فىّ !

انى أسندك فلا يعود يقوى الشيطان على الاقتراب منك .

لا أرفعك الى السماء ، بل الى هنا حيث رب السماء .

أحملك فى داخلى انا رب السماء .

يحملك الراعى فلا يقدر الذئب أن يقترب اليك ، أو بالحرى لا اسمح انا له بذلك » .

الكنيسة ... عرس سماوى :

فى عظته الثانية على اتروبياس ، وسط احداث مثيرة وجو عاصف صاخب (١٢) ، استطاع القديس ذهبى الفم أن يرتفع بشعبه من الأحداث الزمنية القاتمة الى العرس الالهى المفرح ، يكشف لهم عن الكنيسة وهى تسير على الأرض تنطلق من يوم الى يوم نحو العرس الأبدى . لقد كشف أن الكنيسة فى أصلها — قبل تمتعها بالخلاص — كانت متدنسة بالخطايا أوكما يلقبها « زانية » ارتبطت بعريس آخر غير الله ، فجاءها الكلمة الالهى متجسدا ليخطبها ، جاءها على الأرض متخفيا فى الناسوت حتى لا ترهبه وتهرب منه ، ودخل بها من حياتها الدنسة الى سمواته فى استحقاقات الدم لتحيا كملكة سمائية وعروس فريد ، مقدما لها روحه مهرا ، ومواهبه كتوب عرس لها وسمواته بيت الزوجية الروحى ، كاشفا لها دورها الايجابى فى هذا العرس .

فيما يلى مقتطفات من أقواله فى هذا الشأن :

---

(10) De poen PG 49 : 336 .

(١١) الكنيسة تحبك ص ٥٧ .

(١٢) الكنيسة تحبك ص ٧١ — ٧٥ .

زانية تصير عذراء (١٣) :

« دعيت الكنيسة عذراء ، هذه التى كانت قبلا زانية !

هذه هى المعجزة التى صنعها العريس : اخذها زانية ، وجعل منهـا عـــذراء !

يا له من أمر عجيب وجـديد ! فنحن بالزواج نفقـد بتوليتنا ، أما الله فبالزواج يعيد للكنيسة عذراويتها ! بالنسبة لنا من كانت عـذراء بزواجها تفقد بتوليتها ، أما بالنسبة للسيد المسيح فبزواجه من النفس البشرية يجعل منها عذراء ، حتى وان كانت قبلا زانية . . .

عندما تسمع هذه الأمور ، لا تفهمها بصورة مادية ، بل حلق بفـكرك عاليا . لا لتفهمها بصورة جسدية . . . فان الكنيسة التى نعيشها روحيـة لا مادية . ففى مجال الجسديات تفهم هذه الأمور بفكر ضيق ، أما فى الروحيات فنفهمها على مستوى متسع !

كيف صارت ملكة وعروسا سماوية (١٤) ؟

كيف صارت ملكة هذه التى كانت عند موطىء القدمين وفقيرة ؟

الى اين صـعدت ؟ لقد جلست بجوار الملك (١٥) فى الأعالى ، كيف تحقق ذلك ؟

صار الملك خادما . . . رغب العظيم القوى فى الزانية ، فلم يرسل لها احد خدامه : لم يرسل ملاكا ولا رئيس ملائكة ، ولا شاروبا ولا ساروفا ، بل نزل بنفسه اليها . اقترب اليها ذاك الذى يحبها !

مرة اخرى أقول حين تسمع كلمة « يحبها » لا تنظر الى ذلك (بفـكر جسدانى ضيق) ، بل اذكر ما تعنيه كلمة « الحب » . . .

الله يرغب فى الزانيـة ، فماذا يفعل ؟ انه لا يقودها الى العلا وهى زانيـة ، فهو لا يريد أن يدخل بها الى السماء وهى على هـذا الحـال ، انما نزل اليها . نزل الى الأرض ما دامت تعجز هى عن الصعود الى فوق . جاء الى الزانية ، ولم يخجل من أن يمسك بها وهى فى سكرها . . .

---

(١٣) الكنيسة تحبك ص ٤٦ ، ٥٠ .

(١٤) الكنيسة تحبك ٥٠ ـــ ٥٥ .

(١٥) مز ٤٥ .

كيف جاء اليها ؟ لم يأت بجوهر طبيعته مجردا بل صار مثلها ، لا بالنية بل بالفعل . صار مثلها حتى لا ترتعب منه عند النظر اليه فتجرى وتهرب . جاء الى الزانية وصار انسانا . . . لقد حبل به فى الرحم ، ونمى قليلا قليلا مثلى من جهة النمو البشرى . . .

الله ظهر ، لكن اللاهوت لم يعلن ! جاء فى شكل العبـــد لا السيد . له الجسد الذى لى ، أما جوهر طبيعته فلم يظهره . كان ينمـــو قليلا قليلا مقيمـــا العلاقات مع البشرية . اقترب اليها مع انه وجـدها زانية ومملوءة قروحا ومستوحشة وخاضعة للشياطين . . . واذ راته يقترب اليها هربت ، فاستدعى الحكماء قائلا : لمـــاذا تخافون منى ؟ انى لم أت ديانا بل كطبيب ، ما جئت لأدين العالم بل لأخلصه (١٦) . . .

المعمودية كتهيئة للعـــــرس (١٧) :

قد تقول : لكننى خاطئة ونجسة !

لا تضـطربى ، فانى طبيب . أنا أعــرف الاناء الذى لى . أعــرف كيف فسد فأعيد تشكيلك فى جرن المعمودية ، مسلما اياك لعمل الفـــار (الروح القدس) .

تأمل ، لقـــد أخذ الله ترابا من الأرض ، وخلق الانســـان وشكله ، فجاء الشيطان وأفسده . عندئذ جاء الرب وأخذه من جديد وعجنه ، وأعاد تشكيله فى المعمودية ، فلم يعـــد بعد ترابا بل صـــار صلبا شديدا . خضع التراب اللين لنار الروح القدس : «سيعمدكم بالروح القدس ونار (١٨)» . . . هكذا يتعمد الانسان فيعـــاد تشكيله بالمـــاء ، وبالنار يتقوى ! . . .

مهـــر العـــــروس (١٩) :

اذ أقام المسيح معنـــا عقدا عين لى مهـــرا ، لا من المـــال بل بالدم ، هـــذا المهـــر هو عربون الأمور الصالحة : « ما لم تر عين ولم تسمع أذن ولم يخطر على بال انسان (٢٠) » . عين لى الأمور التالية مهرا : الخلود ، تسبيح الملائكة ، الخـــلاص من الموت ، التحرر من الخطية ، ميراث الملكوت العظيم ، البر ، التقديس ، الخـــلاص من الشرور الحـــاضرة ، اكتشـــاف البركات المقبلة .

---

(١٦) يو ٢ : ٤٧ .
(١٧) الكنيسة تحبك ص ٥٧ ، ٥٨ .
(١٨) مت ٣ : ١١ .
(١٩) الكنيسة تحبك ص ٦١ ــ ٦٦ .
(٢٠) ١ كو ٢ : ٦ .

عظيم هو مهرى ! ...

جاء واخذنى ، وعين لى المهر ، قائلا لى : اعطيك غناى !

هل فقدت الفردوس ؟ أرده لك ...

ومع ذلك فهو لم يعطنى المهر كله هنا : لماذا ؟

لكى اعطيه لك عندما تدخل الوضع الملوكى .

هل انت اتيت الى ؟ لا ، بل انا الذى جئت اليك ... لا لكى تمكث فى موضعك ، انما آخذك معى ، وارجع بك . فلا تطلب منى المهر وانت هنا فى هذه الحياة ، بل كن مملوءا رجاءا وايمانا !

اما تعطينى شيئا فى هذا العالم ؟

يجيب : اعطيك هنا الغيرة ، لكى تثق فى بخصوص الخيرات العتيدة .

أعطيك خاتم الخطبة وهدايا الخطبة ، لهذا يقول بولس « لأنى خطبتكم (٢١) . هدايا الخطبة هى البركات الحاضرة التى تثير فينا الاشتياق نحو البركات العتيدة . اما كمال المهر فنناله فى الحياة الأخرى .

كيف يكون ذلك ؟ ...

هنا أصير كهلا ، اما هناك فلن اشيخ !

هنا اموت ، اما هناك فلا موت !

هنا أحزن ، اما هناك فلا أحزن !

هنا يوجد فقر ومرض ومكائد ، اما هناك فلا وجود لشىء من هذا ...

هنا الحياة محدودة ، اما هناك فحياة بلا نهاية !

هنا توجد الخطية ، أما هناك فبر ! ...

هنا يوجد الحسد ، أما هناك فلا يوجد شىء من هذا !

قد يقول قائل : هب لى هذه الأمور ههنا . لا ، بل انتظر حتى يخلص العبيد رفقاؤك . واقول انتظر ذاك الذى يثبتنا ويعطينا عربون الروح ، وأى عربون هذا ؟ انه الروح القدس بمواهبه ...

---

(٢١) ٢ كو ١١ : ٢ .

لقد اعطى خاتم الخطبة للرسل قائلا : خذوا هذا ، اعطوه للجميع ... أخـــذ بطرس عربون الروح القدس ، وايضا بولس . حال بطرس فى العالم يغفر الخطايا ويشفى المقعدين ويكسى العراة ويقيم الموتى ويطهـــر البرصى ويخرج شياطين ويتحـــدث مع الله ويعمل فى الكنيسة ويزيل معـــابد ويهدم مذابح ويبيـــد رذائل ويقيم من البشر ملائكة ! ... فملأ الروح العالم كله . وايضـــا انطلق بولس الى هنـــا وهنـــاك كطائر ذى اجنحة ، وبفم واحـــد حارب العدو وحمل خاتم الخطبة .

رأى البشر الله يخطب طبيعتنا . رأى الشيطان ذلك فتقهقـــر . رأى العربون فرتعب منسحبا . رأى ثياب الرسل فهرب (٢٢) . يا لقوة الروح القدس ! ...

تأمل : ماذا فعل الروح ؟ لقد وجـــد الأرض مملوءة شياطين فجعـــل منها سماءاً ...

ثوب العـــــرس (٢٣) :

يقول النبى : « قامت الملكة عن يمينك بثوب موشى بالذهب (٢٤) » . لا يقصد هنا ثوبا حقيقيـــا بل الفضيلة ، اذ يقول الكتاب المقـــدس فى موضع آخـــر للذى حضر الوليمة فى غير لباس العرس : « لمـــاذا أتيت الى هنـــا لا يقصـــد عدم ارتدائه ثوب معين ، انما يقصد حيـــاته المملوءة نجاسة . وكما يشـــير الثوب الموشى بالذهب الى الفضـــيلة . هـــذا الثوب الخاص بالملك قد وهبه لها ، اذ كانت قبلا عارية وقبيحة ...

انظر الى التعبير : « ثوب موشى بالذهب » ، فانه لم يقـــــل « ثوب ذهبى » بل « موشى بالذهب » ...

الثوب الذهبى يكون بكامله ذهبيـــا ، أما الموشى (المنسوج) بالذهب فان جزءا منه ذهبى والآخر حريرى ... بهذا يشير الى التنوع فى الكنيسة فمنـــا من هو بتول ، والبعض ارامل ، وآخرون مكرسون ...

ربنـــا يعـــلم انه لو رسم لنا طريقا واحـــدا فقط لضـــل الكثيرون ، لهذا رسم طرقا كثيرة .

انت لا تقـــدر ان تدخل الملكوت عن طريق البتولية ، ادخل اليه بزواج واحـــد ، وربما بزواج ثان (بعد وفاة الزوجة الأولى) ...

---

(٢٢) أع ١٩ : ١١ .
(٢٣) الكنيسة تحبك ص ٦٨ — ٧٠ .
(٢٤) مز ٤٥ .

انت لا تقدر أن تدخل الملكوت عن طريق الزهد ، اشفق على الآخرين مقدما عطاءا أو قدم صياما ...

ان لم تكن ذهبا ، فكن حريرا ، فانى اقبلك ما دمت منسوجا فى ثوبى . هكذا يقـول بولس « ان كان احد يبنى على هذا الأساس ذهبا ، فضـة ، حجارة كريمة ... (٢٥) » .

وفى موضع آخر يقول « مجد الشمس شىء ومجد القمر آخر ، ومجد النجوم آخر (٢٦) » . انت لا تقدر أن تكون شمسا كن قمرا ، والا فكن نجما ... اقبل أن تكون اصغر شىء ، انما يلزمك أن تكون فى السماء ! ...

بيت الزوجيـــة (٢٧) :

« اننى اعدك بالملكوت ... نعم لقد وهبتك النصيب الأعظم . اعطيتك حتى رب الملكوت . » لأن الذى لم يشفق على ابنه بل بذله لأجلنا اجمعين كيف لا يهبنا ايضا معه كل شىء ؟ ! (٢٨) » .

دور العـــروس :

بماذا اقدر أن اساهم ؟ اخبرنى .

ساهمى بارادتك وايمانك .

ماذا تريدين أن افعل ؟

« انسى شعبك (٢٩) » ...

واى نوع هو هذا الشعب ؟

الشياطين وعبادة الأوثان ودخان الذبائح والدم ...

اتركى اباك وتعالى اتبعينى ... فاننى كمن ترك اباه وجاء اليـك ؛ افلا تتركى اباك ؟ !

+ + +

---

(٢٥) ١ كو ٣ : ١٢ . (٢٦) ١ كو ١٥ : ٤١ .
(٢٧) الكنيسة تحبك ص ٧٥ . (٢٨) رو ٨ : ٣٢ .
(٢٩) الكنيسة تحبك ص ٧٥ ، ٧٦ .

العبادة الكنسية

مفهوم العبادة الكنسية :

لا اقصد بالعبادة الكنسية مجرد الممارسات التى تتم داخل المبنى الكنسى بل كل تعبد يمارسه المؤمن كعضو حى فى الكنيسة ويتم بالروح الكنسى ، سواء داخل المبنى او فى مخدعه .

العبادة عند القديس ذهبى الفم لا تستطيع الكنيسة أن تمارسها الا من خلال مسيحها ، اذ هو كاهن الكنيسة والذبيحة . « صار المسيح كاهنا بروحه ، وذبيحة بجسده . يخدم طقس الذبيحة التى هى جسده(١)». خلاله تقدم الكنيسة كل عبادتها من تسابيح واصوام وتقشفات وصدقات وتداريب روحية ... الخ .

منهجه التعبدى :

١ ـ العبادة المسيحية او الكنسية ليست نوعا من التجارة ، يساوم المتعبد الله فى الملكوت الذى وعد به السيد المسيح (٢) ، كلها نوع من الحب ، يربط الانسان بالآب فى شخص ابنه يسوع المسيح ، لا يمارسها المؤمن خوفا من عقاب ولا ابتغاء مكافأة .

فى هذا يقول القديس ذهبى الفم : « القديسون لا يحبون الله من اجل خيراته ، انما يحبون الخيرات من أجل الله (٣) . « الا تعلم أن مكافأتك تكون اعظم واجمل ان تممت عبادتك دون أنتظار للمكافأة ؟ ! (٤) » .

هذا ما يرجوه القديس فى كل مؤمن ، لكن من أجل الضعف يحفز المؤمنين على العبادة من اجل المكافأة ، واحيانا يضطر الى التهديد بالنار الأبدية .

---

(1) De Curce. PG 49 : 400 .

(2) Moulard : St. Jean Chrysostome, ch 6 .

(3) In 2 Thes. PG 62 : 476 .

(4) De Compunctione PG 47 : 420 .

١ — العبادة وهى سر اتحادنا بالراس « يسوع المسيح » السماوى ، اذا يليق بها ان تحمل السمة الاسخاتولوجية (الأخروية) .

« لنعجب الى اين رفع الكنيســـة ؟ لقـــد رفعها كما بوســـيلة تعنيـــه وأقامها فى الأعالى وأجلسها على عرش سام ، لأنه حيث يكون الراس هناك يوجـــد الجسد أيضا . لا يوجـــد فاصل بينهما ، والا فلا يعود الجسد جسدا ولا الراس راسا (٥) .

« فى استطاعتنا — ان أردنا — الا نكون فى الجسد ، ولا على الأرض بل نكون فى الروح ، فى السماء !

لندخل الى نفوسنا . . . الى السماء ، فى الروح !

لنمكث فى سلام الله ونعمته ، ولنتحرر من الجسديات ، فننعم بالصالحات فى المسيح ربنا (٦) » .

العبـــادة عنـــده هى دخـــول الى الحيـــاة السماوية ، شركة مع السمائيين والامتثال بهم ، ففى تعليقه على قول الرسول بولس « لتدبير ملء الأزمنة ليجمع كل شىء فى المســـيح ما فى السموات وما على الأرض (٧) » يقول : « أقام الله راسا واحـــدا للملائكة والنـــاس . بتجسده جمع البشر اعضاء فيه ، وبكونه كلمة الله جمع الملائكة خلال هذا الراس الواحد . . . اذن لنمتثل بحياة الملائكة وفضائلهم ونهتدى بهم (٨) » .

أما قمة هذه العبـــادة السماوية فهى الشركة فى المائدة السماوية ، اى ليتورجيا الافخارستيا ، اذ يقول : « انه يدعونا للســـماء ، يدعونا الى مائدة الملك العظيم والعجيب ، فهل نتردد بدلا من أن نسرع اليها ونجرى نحوها ؟! اى عذر لنا ؟ فاننا لا نقدر أن نلوم ضعفنا ولا نشتكى طبيعتنا ، بل بالحرى اهمالنا وحده هو سر عدم استحقاقنا (٩) » .

٣ — واجه القديس خطرين متناقضين يهددان « العبادة الكنسية » . الخطـــر الأول هو الفـــكر اليهودى المتزمت ، وهو فـــكر حرفى مادى متطرف يندفع بالانسان فى عبادته نحو الأرضيات ويحبس نفسه عن الانطلاق نحـــو السماويات . والثانى على نقيضه ، الفكر الغنوسى الذى يحتقر المادة والارض ويعادى الجسد كعنصر ليس من عمل الله . لذا بقدر ما كان القديس حريصا فى ابراز الجانب السماوى من العبادة السماوية اهتم أيضـــا بابراز الواقع

(5) In Eph., hom 3 .

(6) Ibid, hom 5 .

(٧) أف ١ : ١٠ .

(8) In Eph, hom 1 .

(9) In Eph., hom 3 .

العملى لوجودنا على الأرض وعبادتنا خلال الجسد المقدس فى الرب .

فى هذا يقول : « أرنى نفساً بغير جسد ! أما تسمع الأطباء يقولون : هذا المرض الجسدى بسبب اضطرابات نفسية لا ! (١٠) » .

« لنتعبد هكذا : نأتى الى ملكنا ونسجد له لا بالجسد وحده بل وبالعقل ايضا (١١) » .

٤ — ربط العبادة بالكرازة ، بكونهما يمثلان حياة واحدة غير منقسمة. ففى حديث الكاهن يوحنا ذهبى الفم مع شعبه عن ضرورة مساندتهم لبطريركهم فلافيان فى عمله الكرازى سألهم أن يعينوه بعبادتهم الصادقة ، قائلا : « تقدر جماعة الكنيسة أن تعمل الكثير ان كنا نقدم صلواتنا بنفس حزينة وروح منسحق (١٢) » .

٥ — ان كان القديس قد فتح الكنيسة على مصراعيها أمام الجميع لسماع كلمة الله والوعظ ، لكنه آمن بالأبواب المغلقة اثناء العبادة خاصة عند ممارسة المقدسات الالهية ، حتى تقدر الكنيسة أن ترفع ايدى طاهرة ومقدسة فى المسيح يسوع بواسطة روحه القدوس .

« لسنا نفعل هذا عن ضعف يلحق بطقوسنا ، انما لعدم استحقاق الكثيرين بالكمال لممارستها (١٣) » .

« خير لنا أن نقدم صلواتنا التى اعتدناها باثنين أو ثلاثة يحفظون نواميس الله عن أن نندفع معا كجموع كثيرة من العصاة ومفسدى الآخرين (١٤) » .

ويحدث الشماس قائلا : « ان اقترب احد بغير استحقاق امنعه حتى وان كان قائدا او حاكما ، لا حتى وان كان متوجا بالاكليل الامبراطورى ، فانك تحمل سلطانا (روحيا) أعظم منه ... احذر لئلا تغضب الرب وتثيره ضدك ... فانه ان اقترب يهوذا جديد امنعه . خف الله لا الانسان ، فانك ان خشيت الانسان يحتقرك الله ، وان خشيت الله يكرمك الناس (١٥) » .

٦ — ربط القديس بين العبادة والكنيسة والجهاد الروحى ، فيقول : « ان كنت تشترك فى التسبيح بمزمورين أو ثلاثة مزامير وتتمم الصلوات

(10) In Act. PG 60 : 32.
In Mat., hom 51.
(12) Conc. Statues, hom 3 : 1.
(13) In Mat., hom 23 : 3.
(14) Ibid 19 : 9.
(15) Ibid hom 82.

المعتادة كيفما كان الحال ثم تنصرف ، فهل تظن أن هذا يكفى لخلاصك ؟! الم تسمع مايقوله النبى: هذا الشعب يكرمنى بشفتيه أما قلبه فمبتعدعنى(١٦)» .

يظهر ذلك بأكثر وضوح حينما تحدث القديس عن مساندة الكنيسة لعدوها « اثروبيوس » ... قائلا « هذا هو زينة المذبح (١٧) » . اذ تقبل الكنيسة اعداءها وتحمى مقاوميها وتعلن حبها له ... صار هذا العمل فى اتحاده بالعبادة زينة المذبح .

وفى وصفه لكنيسة الرسل ربط القديس بين العبادة السماوية والجهاد الروحى او الحياة الفاضلة ، قائلا : « الم تسمع ان الرجال والنساء كانوا مجتمعين فى العلية ، وكان الكل مستحقا للسموات ؟!... لأن النساء كن يمارسن انكار الذات بشدة ، وكان الرجال وقورين واطهارا (١٨) » .

شفاعة القديسين وصلواتهم عنا :

ما دمنا نتحدث عن العبادة الكنسية لا نستطيع ان نتجاهل طلب صلوات القديسين معنا وعنا ، فقد اعتاد القديس يوحنا أن يقيم احتفالات اسبوعية يذكر فيها اعمال الشهداء والقديسين ، ويطلب صلواتهم . ومن عاداته الجميلة انه كثيرا ما كان يلجأ الى مدافن الشهداء فى ريف انطاكية يستمد بركتهم ويطلب صلواتهم ويتعلم منهم دروس فى الامانة والشجاعة والهدوء ، اذ يقول : « كثيرا ما كنت اتوجه الى كنائسهم ليس فقط فى ايام الاجتماعات ، بل فى غيرها لكى انعم بهدوء عميق ، وترتفع نفسى للسكنى مع هؤلاء الراحلين الطوباويين ، واحلم بالسعادة التى يتمتعون بها (١٩) » .

وفى نهاية مقاله التذكارى عن القديسين Prosdoce, Bernice يحث سامعيه ان يسألوا صلواتهما ليس فقط فى تذكار استشهادهما بل وفى كل وقت ، قائلا « اذ لهما الدالة لدى الله ليس خلال حياتهما على الارض بل وبعد موتهما ... نعم تكون دالتهما اكثر بعد الموت ، اذ يحملا جراحات المسيح (٢٠) ، بهذا يطلبان من الملك ما يريدان » .

روى لنا ايضا انه فى احدى السنوات اذ كان المحصول فى خطر

(16) Ibid 11 : 9 .

(١٧) الكنيسة تحبك ص ٢١ .

(18) In Mat. hom 73 : 3 .

(19) Moulard : St. Jean Chrysostome. (PG 50 : 685) .

(٢٠) آثار الجراحات .

بسبب تزايد المطر ، اجتمع كل شعب القسطنطينية فى كنيسة الرسل يطلبون شفاعة الرسل القديسين بطرس واندراوس وبولس وتيموثاوس الخ ...

مرة أخرى اذ يقارن بين مقابر القديسين وقصور الملك والأباطرة يقول : « مقابر خدام المسيح مجيدة ، اذ ملكوا المدينة الملوكية العظيمة ؛ وصارت أيامهم مشهورة ، صارت أياما للعالم ! ...

مقابر خدام المصلوب أروع من قصور الملوك . لست اقول من جهة فخامة المبانى وجمالها ، انما بالحرى اتحدث عن غيرة المترددين عليها . فانه حتى ذلك الذى يرتدى الأرجوان يذهب بنفسه ليقبل هذه المقابر . يلقى كبرياءه ويستجدى شفاعة القديسين عنه أمام الله . الذى يلبس التاج يتوسل الى صانع الخيام والصياد (٢١) اللذين ماتا ليكونا نصيريه ! (٢٢) » .

والقديس يوحنا كرجل كنسى واع خشى أن يفهم عامة الشعب صلوات القديسين تواكلا وتراخيا فى الجهاد الروحى ، لهذا نجده يؤكد :

« ما أعظم بركات صلوات القديسين ان كنا نحن أيضا نعمل (٢٣) ! » .

« حقا أن صلوات القديسين لها قوتها العظيمة بشرط توبتنا واصلاح حياتنا » .

« ان كنا مهملين لا نستطيع أن ننال خلاصا حتى ولا بمساعدة الآخرين . وعلى العكس فاننا ان كنا ساهرين متيقظين نقدر أن نفعل ذلك بأنفسنا ... لست أقول هذا لأنفى طلبات القديسين وانما لكى أوقف اهمالكم واكتفائكم بالثقة فى الآخرين وأنتم مطروحون على ظهوركم نائمين (٢٤) » .

« حسنا ، اننا ننتفع بصلوات القديسين ان كنا نحن أنفسنا متيقظين .

قد تقول : وما حاجتى الى صلوات القديسين ما دمت انا نفسى متيقظ ؟

ان كنا نفكر تفكيرا صادقا ندرك أننا فى حاجة اليها على الدوام ، فبولس لم يقل : ما حاجتى الى صلوات (الآخرين) مع أن الذين كانوا يصلون عنه كانوا غير مستحقين للصلاة عنه ولا هم على قدم المساواة معه ، وأنت تقول : ما حاجتى الى الصلاة ؟ ! ...

---

(٢١) الرسولان بولس وبطرس .

(22) In 2 Cor., hom 26 : 5 .

(23) In 2 Thes., hom 5 .

(24) In Mat., hom 1 : 7 , 8 .

انك محتاج بالأكثر الى الصلوات بسبب شعورك بعدم احتياجك اليها. نعم فانك وان صرت كبولس فانت محتاج اليها لا تستكبر لئـلا تسقط .

اتريد ان تعرف فائدة الصلوات ؟ . . .

اسمع يعقوب وهو يقول للأبان : « لولا ان اله ابى كان معى لكنت الآن صرت فارغا (٢٥) » .

اسمع ايضا ما يقوله الله : « احامى عن هذه المدينة لأخلصها ، من اجل داود عبدى (٢٦) » . متى قال هذا ؟ فى أيام حزقيال الذى كان بارا . فلو ان الصلوات تفيد الأشرار المتمسكون بشرهم فلماذا لم يقل هذا أيام نبوخذ نصر بل اسلم المدينة ؟ لأن الشر قد غلب . . .

لكى تعرف هذا اسمع ما يقـوله الله بالنبى : « ان وقف نوح ودانيـال وايوب لا يخلص أولادهم ولا بناتهم (٢٧) » ، لأن الشر قد غلب . مرة اخـرى يقول : « وان وقف موسى وصموئيل . . . (٢٨) » . انه يتحدث عن نبيين قد سبق فصليا عن الشعب ولم يغلبا . . .

اذن يليق بنـا الا نحتقر صـلوات القديسـين ، كما لا نلقى كل شيء عليهم . فمن ناحيـة لا نعيش متكاسلين ومهملين ، ومن الناحيـة الأخـرى لا نحرم انفسنا من نفع عظيم .

يليق بنـا ان نطلب منهم الصلاة ، رافعين ايديهم من أجلنا ، وفى نفس الوقت نلتصق نحن بالفضيلة (٢٩) » .

بركات القديسـين :

لا يتحدث القديس عن قوة صلوات القديسين فحسب ، وانما يشـير اليهم كبركة ممتدة فى حياتهم وفى كل ما تمتـد اليه ايديهم حتى ثيابهم تتبـارك بهم . ففى حديثه عن ثوب أيليا الذى شق نهر الأردن يقول :

« اسمع . . . فان البار اكثر شجاعة من الأسـد ! هكذا كان ايليـا ، فقد وقف أمام الملك كالأسـد . . . مع ان الملك كان يرتدى ارجوانا والآخـر يلبس ثوبا من جلد الماعز ، لكن اى الثوبين كان اكثر قوة ؟ . جلب الارجوان مجاعة خطيرة ، اما ثوب جلد المـاعز فعالج الـكارثة . شق الثوب الأردن وجعل فى اليشع روحين من ايليا .

---

(٢٥) تك ٣١ : ٤٢ .

(٢٦) ٢ مل ١٩ : ٣٤ .

(٢٧) حز ١٤ : ١٤ ، ١٦ .

(٢٨) أر ١٥ : ١ .

(29) In 1 Thes., hom 1 .

يا لعظم فضيلة القديسين ! ليس فقط فى كلماتهم او أجسادهم بل حتى فى ثيابهم ؛ غالبا ما تحمل كرامة عظيمة بواسطة الخليقة كلها !

ثوب جلد الماعز الذى لايليا شق نهر الاردن .

نعـــال الثلاث فتية وطأت النيران .

كلمة اليشع غيرت المياه فجعلتها تحمل الحديد فوق السطح .

عصا موسى شقت البحر الأحمر وصدعت الصخرة .

ثياب بولس أخرجت شياطين .

ظل بطرس نزع حروب .

رفات الشهداء القديسين تطرد الشياطين (٣٠) » .

المريميـــــــات :

ما دمنا نتحـدث عن القديسين وقوة صلواتهم عنـــا وبركتهم يليق بنـــا أن نشير أى «المريميات Mariology» لدى القديس يوحنا ذهبى الفم ، والذى تتلخص نظرته فى النقاط التالية :

١ — القديس يوحنا ذهبى كراعى وكارز اكثر منـــه لاهوتى لم يرد أن يدخل فى مناقشات ومجادلات لاهوتيـــة (٣١) ، فلم يذكر قط لقب « ثيؤتوكوس Theotokos » الذى تبنته مدرســة الاسكندرية وعارضــته انطاكية فى ذلك الحين ، بل ولم يذكر لقب والدة المسيح « خريستوتوكوس Christotokos » الذى اعتاده الأنطاكيون ، Anthropotokos الذى استخدمه معلمه ديؤدور الطرسوسى .

٢ — علم بوضوح عن دوام بتوليـــة القديســـة مريم ، اذ يقـــول : « نحن نجهل الـــكثير : كيف يوجد غير المحدود ، فى رحم ، كيف يحمـــل ذاك الذى يحمل كل شىء وتلده امرأة ، كيف تلد البتول وتبقى بتولا ؟ ! (٣٢) .

وفى تفسيره انجيل القديس متى دافع عن بتوليتها عند تفسيره العبارة : « لم يعرفها حتى ولدت ابنها البـــكر » ذاكرا بعض العبـــارات الكتابية جاءت

(30) Conc. Statues, hom 8 : 3 (See hom 1 : 5) .
(31) Quasten : Patrology, vol 3, P 476 — 7 .
(32) In Mat. 4 : 3. PG 57 : 43 .
Quasten : Patrology, vol 3, P 99 .

فيها كلمة « حتى » بطريقة لا تعنى المحدودية (٣٣) ؛ نذكر على سبيل المثال.
« وارسل الغراب فخرج مترددا حتى نشفت المياه عن الأرض (٣٤) ، فان كلمة « حتى » لا تعنى أن لغراب عاد بعد أن نشفت المياه وجفت الارض وايضا « قال الرب لربى اجلس عن يمينى حتى أضع أعداءك موطئا لقدميك (٣٥) » ؛ لا يعنى أن الجلوس عن يمين الآب ينتهى بوضع الأعداء موطئا لقدميه ، وأيضا «يشرق فى أيامه الصديق وكثرة السلام حتى يضمحل القمر »(٣٦) لا يفى عدم اشراق الصديق أو نزع السلام بعد اضمحلال القمر.
كما دلل القديس على بتوليتها وعدم انجابها أولادا آخرين من تسليم السيد لها فى ايدى القديس يوحنا الحبيب حين كان معلقا على الصليب . فلو كان لها أولاد لما سلمها له .

٣ ــ اذ يصعب على البشرية قبول الولادة من العذراء ، لهذا لم يترك الله البشرية تتخبط ، انما هيأ الأذهان لهذا العمل الفريد بتقديم بعض أعمال رمزية تعين البشرية فى قبول هذا لحدث (٣٧) :

(أ) اخراج الله فردوسا من أرض عدن البكر كرمز لعذراوية القديسة مريم (٣٨) .

(ب) سماح الله لبعض النساء العاقرات أن ينجبن مثل سارة ورفقة راحيل وحنة أم صموئيل هؤلاء كن يعلن قدرة الله كتهيئة لعمل أعظم ، اذ يقول : « انجاب العاقر اليصابات يقع فى منتصف الطريق بين ولادتنا نحن وولادة السيد . فهى ولادة أقل من ولادة السيد من العذراء ؛ لكنها اسمى من ميلادنا نحن حسب الطبيعة . بهذا الطريق قاد فكر العذراء من الولادة الطبيعية الى ما يتعداها (٣٩) .

٤ ــ هل عرفت السيدة العذراء أسرار المسيح .

يجيب القديس : « العذراء التى كانت تحمل المسيح على صدرها لم تكن تعرف خبايا السر . اخوته لم يؤمنوا به ، والذى تبناه لم يقدر قيمته (كما هى) (٤٠) » ، لكنه عاد ليقول « أن الوسيلة التى حبل بها والظروف التى أحاطت بولادته قدمت لها فكرة عقلية بخصوصه (٤١) » .

٥ ــ كتاباته عن لسيدة العذراء لا تقبل مطلقا فكرة « الحبل بها

(33) In Mat. 5 : 5 .
(٣٤) تك ٥ : ٧ (٣٥) مز ١١٠ : ٢ . (٣٦) مز ٧٢ : ٧
(37) Moulard : St. Jean Chrysostome, P 109.
(38) De Mut. Nom. PG 51 : 129 (39) Pec fratr. PG 51 : 361 .
(40) In Ps. PB 55 : 242 . (41) In Jean. PG 59 : 130 .

بلا دنس » ، بل بالعكس ، بالرغم من احساسه بقداستها ونقاوتها تحدث عن حاجتها للخلاص و لتعلم من السيد المسيح ، بل وأحيانا ليست لها بعض الضعفات ، وكما سبق أن اشرنا فى كتابنا « القديسة مريم فى المفهوم الأرثوذكسى » انه مع بعض الآباء مثل القديس ايريناؤس واوريجينوس نسب لها بعض الأخطاء ، وأن هذا الرأى لا يمثل تقليد الكنيسة الأولى فى المريميات (٤٢) » ...

أما الضعفات التى نسبها للقديسة فهى :

(أ) تساءل : لماذا لم يبشر يوسف قبل أن تبشر العذراء بالحبل بالسيد المسيح ؟ وجاءت الاجابة أنه ربما خشى من أن تأخير البشارة يجعلها تشعر بالحمل فتخاف وتتصرف مع نفسها تصرفا خاطئا (٤٣) .

(ب) مرة اخرى لماذا تحدث السيد مع القديسة مريم بجفاء فى عرس قانا الجليل ، قائلا لها (٤٤) : « مالى ولك يا امرأة ، لم تأت ساعتى بعد؟!» ، ويجيب « لأنها كانت تطلب أمرا مظهريا (٤٥) » ... كما يعلق على هذه العبارة ، قائلا « هذا هو سبب انتهاره لها فى هذه المناسبة : انه يعلمها ألا تفعل هذا الأمر مستقبلا ، فقد كان حريصا أن يكرم أمه ، لكنه كان يهتم بخلاص نفسها وصنع الخير للكثيرين الذين من أجلهم أخذ جسدا . هذه كلمات تصدر لا عمن يحتقر أمه ، بل عن من يتصرف بحكمة (٤٦) » .

(جـ) فى تعليقه على قول السيد : « بل طوبى للذين يسمعون كلام الله ويحفظونه » ردا على قول المرأة : « طوبى للبطن الذى حملك والثدين اللذين رضعتهما (٤٧) ... قال (٤٨) « لم يكن جوابه هذا تحقيرا لأمه ، وانما أراد ان يظهر انها ما كانت تستفيد من ولادته له لو لم تكن هى انسانة صالحة مؤمنة . فلو استبعدنا سمو نفسها لما استفادت مريم من ولادتها للمسيح ... » .

(د) يقول ايضا : « اكى نؤكد احترامه لأمه احتراما عظيما اسمع ما يرويه لوقا أنه كان « خاضعا » لأبويه (٤٩) ، كما يعلن الانجيلى (يوحنا) انه كان يفكر فيها فى نفس لحظات الصلب ...

---

(42) Fr. Malaty : St. Mary in the Orthodox Conccpt, P 56 .
(43) In Mat. PG 57 : 45 .
(٤٤) يو ٢ : ٤ .
(45) De Melchisedecho PG 56 : 260 .
(46) In Jean, hom 21 : 3 .
(٤٧) لو ١١ : ٢٧ ، ٢٨ .
(48) In Jean, hom 21 : 3 .
(٤٩) لو ٢ : ٥١ .

اما قوله : « من هى أمى ومن هم اخوتى (٥٠) » ، فذلك لأنهم لم يفكروا فيـــه كما يليق . اذ هى ولدته واعتنت به فانهـــا كعادة الأمهـــات الأخريات ارادت توجيهه فى كل شيء فى الوقت الذى كان يلزمها ان تكرمه وتتعبد له . . .

انه لم يرد بذلك اهانة من حملت به ، حاشـــا لنـــا ان نفـــكر هذا ! انما أراد ان يقودها الى منافع عظيمة فلا تفكر فيه فكرا عاديا . ان كان هو يهتم بالآخرين ويستخدم كل وســـيلة لكى تزرع فيهم افكارا تليق به كم بالأكثر يفعل هذا مع امه ؟ ! (٥١) » .

أخيرا ، فان القديس قد ادرك اهمية دور القديسـة مريم فى حياة الكنيسـة ويعلن بتوليتها وقداستها ، فمن أقواله (٥٢) : « قديما بعذراء اهلك الشيطان آدم ، أما فيما بعد فبعذراء غلب السيد المسيح الشيطان » .

+ + +

(٥٠) متى ١٢ : ٤٨ .

(51) In Jean, hom 21 : 2 .

(52) De S. Dross. PG 50 : 687 .

جاء حديث القديس يوحنا ذهبى الفم عن الأسرار الكنسية متغلغلا فى اغلب عظاته وتفسيره وكتاباته وكأنها شرايين الحياة المسيحية ، وكان جزءا من عمله الرعوى أن يعين شعبه على اكتشاف هذه العطايا المجانية بروح تقوى عملى . انه بين الحين والأخر يكشف لأولاده عن عمل المعمودية كسر الوحدة بين المؤمن والسيد المسيح وبينه وبين اخوته فى المسيح يسوع كما يوضح قوة الأفخارستيا كدعامة أصيلة لحفظ هذه الوحدة وتثبيتها . . الخ .

ركز القديس فى حديثه عن الأسرار الكنسية على جانبين هامين :

١ ــ الأسرار الكنسية هى عطية الله لشعبه ، لا تعطى كثمرة لفضيلة الكاهن خادم السر ، بل هى نعمة مجانية يمنحها الله لمؤمنيه فى أستحقاقات الصليب .

الكاهن يفتح فمه ؛ لكن الله هو الذى يقوم بالعمل ، الذى قدس التقدمة الأولى (السيد المسيح) هو الذى يتمم كل الأسرار ، وليس البشر (١) .

« عندما يعمد الكاهن ، ليس هو الذى يعمد ؛ بل الله نفسه يمسك براس المعمد - بقوته غير المنظورة (٢) .

« تأخذ مياه المعمودية فاعليتها خلال قوة الروح (٣) » .

٢ ــ الأسرار وهى تحمل قوة فى ذاتها لكنها لا تعمل فينا بدون جهادنا ، بل يعتبر دينونة علينا .

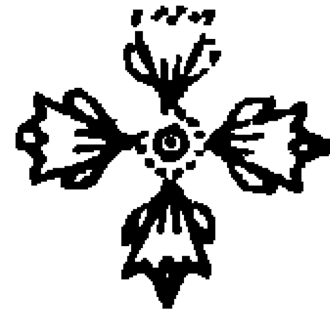
ففى حديثه عن المعمودية مع الموعوظين يقول : « بقدر الجرن ان يغفر الخطايا السابقة ، لكننا ان عدنا اليها ثانية لا يكون الخطر بسيطا ، بل يتحول العلاج الى جراحات (٤) » . وفى حديثه عنها مع المؤمنين يقول : « اننا محتاجون الى غيرة عظيمة لنحفظ النبوة التى طبعت علينا بالمعمودية (٥) » .

---

(1) In 2 Tim, hom 2 : 4 .
(2) In Mat. 50 : 3, Act. PG 58 : 507 , 60 . 116 .
(3) In Act. hom 1 : 5 .
(4) Instr. to Catech., 2.
(5) In Joan, hom 10 .

وفى حديثه عن سر الأفخارستيا يربط الشركة فيه بالجهاد التقوى ومحبة الآخرين خاصة الفقراء ، فيقول : « اتريد ان تكرم جسد المسيح ؟ لا تهمله متى كان جائعا ... بينما تقدم له (على المذبح) ثيابا حريرية تتركه فى الخارج يهلك بردا وجوعا . الذى قال (هذا هو جسدى) اكد بالحقيقة انه هو بنفسه يقول ايضا (٦) وكنت جائعا فلم تطعمونى ... ما فعلتموه باحد هؤلاء الأصاغر فبى قد فعلتم ؟ . انصنع له كأسا ذهبيا وانت لا تقدم له كأس ماء بارد ؟ ! (٧) » .

اذ سبق أن اشرت الى حديثه عن سر الكهنوت أثناء الحديث عن منهجه الكرازى الرعوى للكهنوتى اكتفى الآن بالحديث عن سرى العماد والأفخارستيا كمثلين عن الأسرار الكنسية .



(٦) مت ٢٥ : ٤٢ ـ ٤٥ .

(7) In Mat., hom 32 : 9 .

سر المعمـــودية

أن كانت المسيحية هى دخول الى الحياة الانجيلية العملية ، فانه ليس من دخول الى هذه الحياة بدون التـــوبة ، اذ لا يستطيع المؤمن ان يمـــارس هذه الحياة الفاضـــلة بنفسه دون عون الهى .

« من يريد أن يقتفى اثر الفضيلة يلزمه اولا أن يدين الشر ، بعـــد ذلك يسلك فى الفضيلة . . .

التوبة وحدها لا تقدر أن تنقى من الرذيلة ، لذا يتعمـــد المؤمنون حتى يستطيعوا بنعمة المســـيح أن يحققوا الأمور التى يعجـــزون عن تنفيذها بأنفسهم .

لا تكفى التـــوبة للتطهير ، لذا يقبل المؤمنون على المعمودية (١) » .

يا لقـــوة المعمـــودية !

« يسمع الغير عن العمـــاد فيحسبونه مجـــرد ماء ، أما أنا فلا ارى مجرد المـــادة المنظورة ، بل ارى تنقية النفس بالروح !

ثم يحسبونه غسلا للجسد ، أما أنا فأومن أن النفس تتنقى وتتقدس :

انى احسبه القبر المقدس ، القيامة ، التقـــديس ، البر ، الخـــلاص ، التبنى ، الميراث ، الملكوت السماوى ، تدفق كامل للروح .

لست أحـــكم على هذه الأمـــور حسب الظاهر بل حســـبما تراه عينى عقلى (٢) :

« ليس للعماد اسم واحـــد ، بل يحمل عدة اسماء متباينة :

من اجل التطهير يدعى « جرن التجـــديد » ، اذ يقول : « خلصـــنا بغسل الميلاد الثانى وتجديد الروح القدس (٣) » .

ويدعى أيضا « استنارة » . هكذا دعام القديس بولس قائلا : « لكن تذكروا الايام الســـالفة التى فيها بعـــد ما أنرتم صبرتم على مجاهـــدة آلام كثيرة (٤) » . . .

(1) In Hebr., hom 9 : 4 .
(2) In 1 Cor., hom 7 : 2 .
(٣) تى ٣ : ٥ .
(٤) عب ١٠ : ٣٢ .

يدعى ايضا « معمودية » ، « لان كثيرين الذين اعتمتم بالمسيح قد نبستم المسيح (٥) » .

يدعى « دفنا » ، اذ يقول : « دفنا معه بالمعمودية للموت (٦) » .

يدعى « صليبا » اذ ان انساننا العتيق قد صلب معه ليبطل جسد الخطية (٧) .

وهكذا يمكننا ان نورد اسماء أخرى غير هذه . . . (٨) » .

« خلال المعمودية تقبلنا غفران الخطايا والتقديس وشركة الروح والتبنى والحياة الأبدية ، فماذا تطلبون بعد ؟ ! (٩) » .

« عظيم هو العماد ، بدونه يستحيل بلوغ الملكوت (١٠) » .

سر الميلاد الجديد (١١) :

الروح القدس الذى كان يرف على وجه المياه يخلق ، ينزل على المعمودية ويرف عليها ، يعيد خلقتنا روحيا . . . هذا هو سر المعمودية الذى فيه ننزع من الزيتونة البرية ونطعم فى المسيح يسوع فنصير زيتونة جديدة (١٢) بفعل الروح القدس . . .

فى هذا السر ننال الميلاد الجديد حيث ننعم بالبنوة للآب(١٣) ، فنصير ابناء الملكوت ، لنا حق الميراث الأبدى كقول السيد نفسه لنيقوديموس : « الحق الحق اقول لك ان كان احد لا يولد من فوق فلا يقدر ان يعاين ملكوت الله . . . الحق الحق اقول ان لم يولد الانسان من الماء والروح فلا يقدر أن يعاين ملكوت الله . المولود من الجسد جسد هو . والمولود من الروح هو روح (١٤) » .

أما أقوال القديس فى هذا الشأن ، فهى :

« ليس بأم واب ، ليس باجتماع بشر ، ولا بآلام المخاض نولد ثانية ، ولكن من الروح القدس تصنع انسجة طبيعتنا الجديدة ، وفى الماء نشكل ، ومن الماء نولد سرا كما من الرحم . . .

---

(٥) غلا ٣ : ٢٧ .
(٦) رو ٦ : ٤ .
(٧) رو ٦ : ٦ .
(8) Instr. to Catechumens, 1 .
(9) In Act, hom 40 .
(10) In 1 Cor., hom 3 : 6 .
(١١) راجع للمؤلف : الحب الالهى ك ٧ ، الله مقدس » ص ٤٥ .
(١٢) رو ١١ : ٢٤ .
(١٣) رو ٨ : ١٥ .
(١٤) يو ٣ : ٣ — ٦ .

الرجم يحتاج الى زمن كثير يتشكل فيه الجسد ، أما الماء والروح فمنهما «تتشكل حياة الروح ، فى لحظة ، فى طرفة عين (١٥) » .

« الذى يعتمد للمسيح لا يولد من الله فقط ، بل يلبس المسيح ايضا . لا نأخذ هذا بالمعنى الأدبى ، كأنه عمل من أعمال المحبة ، بل هو حقيقة . فالتجسد جعل اتحادنا بالمسيح وشركتنا فى الألوهة أمرا واقعا (١٦) » .

تحدث القديس عن هذا الميلاد الجديد كميلاد فائق للطبيعة يرمز اليه بميلاد اسحق من سارة العاقر الحرة ، الذى تحقق بوعد الهى فائق للطبيعة « ميلادنا ليس حسب الطبيعة ، انما يتم بالكلمات التى ينطق بها الكاهن ، والتى يعرفها المؤمنون ، فيكون جرن المعمودية اشبه برحم فيه يشكل المعمد ويولد ! اذن نحن اولاد العاقر ، نحن احرارا ! (١٧) » .

العماد سر الصلب :

«فى العماد يتحقق عربون ميثاقنا مع الله: الموت والدفن والقيامة والحياة . يحدث هذا كله دفعة واحدة !

عندما نغطس برؤوسنا فى الماء يدفن الانسان العتيق كما فى القبر من أسفل، يغطس بكماله الى الأبد. واذ نقيم رؤوسنا من جديد يقوم فينا الانسان الجديد عوض العتيق .

كما يسهل علينا أن نغطس برؤوسنا ونقيمها ثانية ، هكذا يسهل على الله أن يدفن الانسان القديم ويظهر الجديد . هذا يحدث ثلاث دفعات لكى تعلموا أن ما يتم انما هو بقوة الآب والابن والروح القدس .

ولئلا تظنوا ان ما اقوله هو على سبيل الحدس اسمع ما يقوله بولس (١٨) : «دفنا معه بالمعمودية للموت » ، وأيضا « انساننا العتيق قد صلب معه » ، « متحدين معه بشبه موته» .

ليس فقط المعمودية تدعى صليبا ، بل والصليب ايضا يدعى معمودية،

---

(١٥) الله مقدس ص ٤٨ .
(١٦) الله مقدس ص ٥٢ .
(17) Comm. on Gal, Ch 4 .
(١٨) رو ٦ : ٤ — ٣ .

اذ يقول المسيح : « بالمعمودية التى اعتمد بها تتعمدان (١٩) » ، « لى معمودية اعتمد بها (٢٠) » .

وكما يسهل علينا ان نغطس رؤوسنا ونقيمها ثانية ، هكذا فى اكثر سهولة مات المسيح وقام حين اراد ذلك وان كان قد بقى ثلاثة أيام من أجل تدبير السر (٢١) » .

« العماد هو الصليب . ما قد حدث بالنسبة للمسيح فى الصلب والدفن يصنعه العماد معنا ، وان كان ليس بذات الطريقة .

لقد مات المسيح بالجسد ودفن، أما نحن فنموت عن الخطية وندفن..

ان كنت تشاركه الموت والدفن ، فبالأولى تشاركه القيامة والحياة(٢٢)».

يكرر القديس ذات العبارات تقريبا فى عظاته على الرسالة الى العبرانيين، اذ يقول :

« العماد هو صليب ... كما مات المسيح بالصليب ، هكذا نموت نحن فى المعمودية ، لكننا لا نموت حسب الجسد ، بل نموت عن الخطية .

انظر . يوجد موتان : مات المسيح حسب الجسد ، أما نحن فندفن انساننا العتيق وقام انساننا الجديد حاملا شكل موته ...

ما هو العماد الا دخول فى الموت والقيامة ؟! (٢٣) » .

مرة اخرى يتحدث عن المعمودية كموت وقيامة ، هدم وبناء ، قائلا :
« لا تعجب من حدوث ولادة وهلاك فى المعمودية ... هذا هو عمل النار ، تصهر الشمع وتستهلكه ،وتحل العناصر المعدنية فى الأرض وتخرج ذهبا . قبل العماد كنا أرضا ، وبعده نصير ذهبا « الانسان الأول من الأرض ترابى ، والانسان الثانى الرب من السماء (٢٤) » ...(٢٥) » .

العماد ... بر المسيح :

« هنا يخلق الانسان لا من الماء ولا من الأرض ، انما يخلق فى بر الحق وقداسته ... يخلق الله فى المعمودية ابنا له (٢٦) » .

---

(١٩) مر ١٠ : ٣٩ .
(٢٠) لو ١٢ : ٥٠ .
(21) In Joan, hom 25 .
(22) In Rom., hom 10 .
(23) In Hebr, hom 9 : 6 .
(٢٤) ١ كو ١٥ : ٤٧ .
(25) In Colos, hom 7 .
(26) In Eph, hom 8 .

ويعلق القديس على كلمات الرسـول بولس : « مع المسيح صلبت فأحيا لا أنا بل المسيح يحيا فى(٢٧) » ، قائلا : « يشير بذلك الى المعمودية... معلنا طريق الحياة التى تعيشها اعضاؤنا الميتة ... فانها لا تفعل شـيئا لا يوافق المسيح (٢٨) » .

العماد ... سر القيامة والدخول فى السماويات :

يقول : « أقامنا معه (٢٩) بواسطة جرن المعمودية ، فكيف يجلسـنا معه ؟ ... ان كنا نتألم معه فسنملك أيضا معه (٣٠) ، انما ان كنا نموت معه فسنحيا معه . حقـا اننا محتاجون الى الروح والاعلان لنتفهم أعماق هـذه الأسرار (٣١) ! » .

مرة أخرى يقول : « بالمعمودية لم يجعلنا ملائكة ولا رؤساء ملائكة ، بل ابنـاء الله المحبوبين لديه ! ... اذ تذكر هذا اظهر حيـاتك مستحقة لحب ذاك الذى دعاك . اظهر مواطنتك لذاك العالم (السماوى) وللكرامة التى أعطيت لك اعلن بوضوح انك مواطن فى المدينـة السماوية . لا تهتم بالأرضيات فان كان جسـدك لم ينتقل بعد الى السماء الا أن رأسـك ماكث هناك فى الأعالى (٣٢) » .

ديناميكية العمـاد :

كشف القـديس يوحنـا ذهبى الفم النظرة الكنسـية الأصيلة لسر العماد ، فان الانسان مهما بلغ جهاده أو أخلاقياته او سلوكه لا يقدر أن ينعم بالنبـوة لله بغير التمتع بشركة الصلب والدفن والقيامة خلال المعـمودية ، وفى نفس الوقت ليست المعمودية عملا جامدا يمارسـه المؤمن فى حيـاته مرة وانتهت ، لكنها هى حياة دائمة مستمرة ، تبقى فاعلية المعمودية طوال حياة المؤمن تبثه على الجهاد الروحى والسمو المستمر .

ادرك أهميـة المعمودية فأعلن أسـفه على من لم ينعم بها ، اذ يقول فى احدى عظاته : « أى موت مفاجىء قبل التكريس (المعمـودية) يدفع بالنفس — بالرغم من جميع فضائلها الزمنية — الى جهنم ، وكأسها المسموم ونارها الأبدية ؟ ! . « ابك على غير المؤمنين ، واندب الذين لا يختلفـون عنهم فى شىء ، هؤلاء الذين رحلوا دون أن ينعمـوا بالاستنارة ، وبغير أن

(٢٧) غلا ٢ : ٢٠ .
(28) Com. on Gal, Ch 2 .
(٢٩) أف ٢ : ٦ .
(٣٠) ٢ تى ٢ : ١٢ .
(31) In Eph, hom 4 .
(32) In Mat, hom 12 : 4 .

ينالوا الختم . هؤلاء بحق يستحقون سكب الدموع عليهم ، ويستوجبون تنهداتنا ،لأنهم مطرودون من المواضع الملوكية مع المجرمين الذين تحت الحكم، فقد قيل (٣٣) : الحق أقول لكم ان لم يولد الانسان من الماء والروح لن يدخل ملكوت السموات (٣٤) » .

يحزن القديس أيضا على الذين يرجئون نوالهم سر العماد الى النفس الأخير خشية أن يخطئوا ، ظانين انهم بهذا ينعمون بالحياة الأبدية دون خطية (٣٥) انهم يشوهون السر ، فانه قد أعطى لنا كسر قوة حية وعاملة فينا للجهاد والنمو . لهذا نجده يقول : « قبول العماد قبل النفس الأخير بمثابة تسجيل الانسان اسمه فى قوائم الجيش قبيل انتهاء الحرب مباشرة ؛ أو تكون بمثابة مصارع يخلع ثيابه بينما يبدأ جمهور المشاهدين مغادرته الحلبة ... **لقد وهبنا السيد المسيح العماد لا لنتقبله ونموت ، بل لنعيش ويثمر** (٣٦) » .

يحدث الموعوظين عن العماد كبداية جهاد ، قائلا : اذ تتقبل الختم نصير جنديا مهيئا حسنا للنصرة على الشيطان (٣٧) » . ويحدث المؤمنين الذين نالوا هذا السر ، قائلا : « ليس للشيطان ان يهاجمك الا عندما يراك قد نلت كرامة أعظم (٣٨) » .

العماد وثمر الروح :

« ليس الماء مجردا هو الذى يعمل بل نعمة الروح التى تتقبلها المياه والتى تغفر خطايانا » ، « العماد يجعل الانسان اخا وشريكا فى الأسرار الالهية (٣٩) » .

اذ نتقبل العماد ننال غفران خطايانا ونتمتع بالشركة مع الثالوث القدوس وندخل الى الأسرار الالهية خلال عمل روح الله فينا . هذا الثمر الحامل للرائحة الالهية الذكية يتطلب من جانبنا جهادا مستمرا :

« اننا نمسح فى المعمودية ، فتفوح فينا رائحة ذكية ، اما من جانبنا فيليق بنا ان نهتم بالبقاء فى هذه الرائحة (٤٠) » .

---

(٣٣) يو ٣ : ١٢ .
(34) In Joan, Philip . PG 59 : 152 , 62 : 503 .
(35) In Hebr, hom 20 .
(36) In Act. PG 60 : 24 , 25 .
(37) Inst. to Catechumens 2 . (N - XPNF) .
(38) In Mat, hom 13 : 1 .
(39) In Joan, hom 36 : 1 ; Mat, hom 79 : 1 .
(40) In 1 Tim, hom 2 .

« يليق بالمؤمن أن يكون مشرقا لا بما يتقبله من الله فحسب (فى المعمودية) وانما بما يساهم به من (جهاد) . يليق به أن يكون متعقلا فى كل شيء : فى مشيه ونظراته وملابسه وصوته (٤١) » .

« فى حالة استنارتنا عندما يزرعنا المسيح وينعم علينا أن نرتوى بالروح ان لم تظهر ثمرا تنتظرنا نار جهنم غير المنطفئة (٤٢) » .

العماد والتوبة المستمرة :

حياتنا تحتاج الى جهاد مستمر بواسطة النعمة الموهوبة لنا فى المعمودية ... وان ضعفنا فلا نكف عن التوبة لنعيش كما يليق كأولاد لله.

« الله لا يسمح أن نسقط فى ضيقات (خطايا) عظيمة هكذا ، فنخطىء بعد نوالنا سر العماد . لكن ان حدث هذا فالله رحوم ، أعطانا طرقا كثيرة لنوال المغفرة . الا ان الذين يخطئون بعد نوالهم العماد يعاقبون بأكثر قسوة من الموعوظين . أما الذين يعرفون طرق العلاج بالتوبة ولا يتوبون فهؤلاء عقابهم اشد (٤٣) ! » .

« لقد وهبنا الحياة لنبقى أحياء ولا نعود الى موتنا السابق ، لأن المسيح لا يموت ايضا ، لأن الموت الذى ماته قد ماته لأجل للخطية مرة واحدة (٤٤) . انه لا يريدنا أن نخلص بالنعمة وحدها كأننا دائما فارغون من كل شيء لكنه يريدنا أن نشترك بنصيب من جانبنا . لنساهم نحن فى حفظ حياة النفس (٤٥) » .

« اذ دفنت خطايانا فى المعمودية لا تعود تظهر بل تختفى ما دمنا نود التوبة (٤٦) » .

« هذا هو عمل الله فينا : أن نولد سريا ، ونتنقى من كل خطايانا السابقة خلال المعمودية . أما أن نبقى فى المستقبل أتقياء بلا عيب فهذا من سلطاننا وبجهادنا (٤٧) » .

ولئلا نفهم سلطاننا وجهادنا انه مجهود ذاتى من عندياتنا يقول : « فى المعمودية تدفن الخطايا وتمحى الأمور القديمة (٤٨) ، ويصير الانسان حيا ، تنقش النعمة فى قلبه كما على لوح ... (٤٨) » اى يصير جهاده

(41) In Mat, hom 4 : 14 .
(42) In Hebr, hom 20 : 1 .
(43) In Act, hom 1 .
(٤٤) رو ٦ : ٩ ، ١٠ .
(45) In 2 Cor, hom 6 : 3 .
(46) In Joan, hom 34 : 3
(47) In Joan, hom 10 : 3 .
(48) In 2 Cor, hom 6 : 2

بعمل النعمة المنقوشة فى قلبه مرة أخرى يؤكد أن الروح القدس هو سر حياتنا : « العهد الجديد لا يهب فقط الحياة ، بل يهبنا الروح واهب الحياة ، الذى هو أعظم من الحياة ذاتها (٤٩) » .

المعمودية والفردوس الأول :

يقارن بين الخلقة الأولى حيث وجد الانسان ، جنة عدن وبين تجديد الخلقة فى جرن المعمودية قائلا :

" هناك كان العبد مع سيده ، أما هنا فيتم الميثاق بين صديق وصديقه !

هناك قيل « يوم تأكل منها موتا تموت » فكان التهديد هو الوسيلة ؛ أما هنا فلا أثر للتهديد ! ...

هنا يوجد عرى كما كان هناك ، لكن العرى هناك سببه الخطية ؛ اما هنا فيتم العرى لكى يتحرر الانسان من الخطية .

هناك خلع الانسان مجدا سبق أن ناله ، أما هنا فيخلع انسانه العتيق ، يخلعه بسهولة كما يخلع ثوبه قبل صعوده من المعمودية .

هنا يدهن ليحسب مصارعا مدرجا اسمه فى قائمة المصارعين .

هنا يتم الميلاد مرة واحدة وليس تدريجيا ...

هناك أخذ الله ترابا من الأرض وخلق الانسان ، أما هنا فلا أثر للتراب ؛ انما الروح القدس هو الذى يشكله ويجعله صالحا ...

الله لا ينطق هنا (ليخلق) فى الفردوس ، بل فى السماء ، فان ما يحدث لا يتم على الارض ، بل ينقلك الى السماء فى حضرة الملائكة . يرفع الله نفسك الى فوق ويصلحها ، ويقيمها بجوار عرشه الملوكى .

فى الماء يتشكل الانسان ، فيتقبل الروح عوض النفس ، ولا يحضر له الله حيوانات بل يأتى اليه بالشياطين مع رئيسها ، قائلا له : « تطأ الحيات والعقارب (٥٠) » .

يقيمك الله لا لتحفظ الجنة بل لتصير مواطنا سماويا .

---

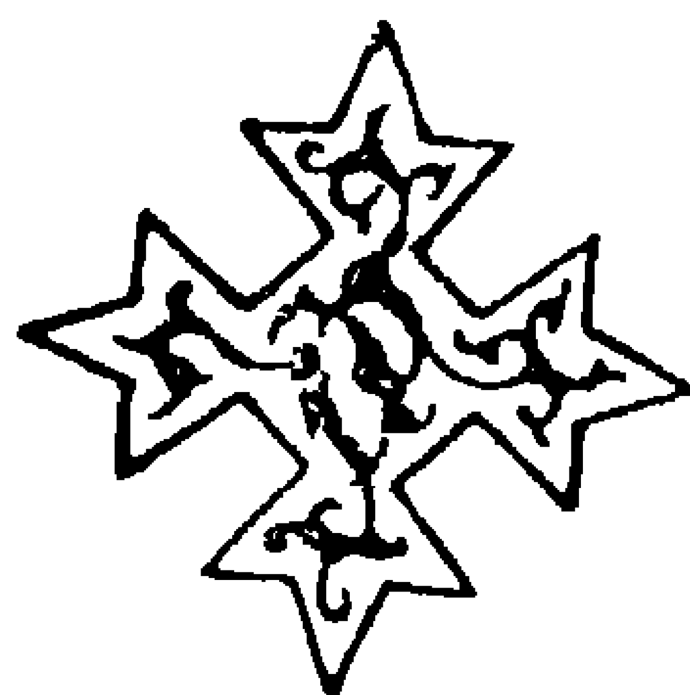
(49) In 2 Cor, hom 7 : 1 .

(٥٠) لو ١٠ : ١٩ .

لا تعود تبصر أودية أو اشـــجار او ينبـــوعا ، بل تنال الرب نفســـه وتختلط بجسده العـــلوى الذى لا يقـــــدر الشيطان أن يقترب اليـــه ... **فانك ما دمت لا تنزل اليه لا يقـــدر هو على الصعود اليك ، لأنك فى السماء! انه لا يقترب الى السماء !**

هنا لا توجـــد شـــجرة معرفة الخير والشر ، بل توجد شـــجرة الحياة حدها .

لا يعود يخلق من جنبك امراة ، انما قد أخذنا نحن جميعـــــا منجنب المســـيح ... (٥١) » .



(51) In Colos, hom 6 .

سر الأفخارستيا

استحق القديس يوحنا ذهبى الفم ان يدعى بحق « استاذ الأفخارستيا Doctor Eucharistiae » ، ليس لأنه أكثر الحديث عن هذا السر العظيم ، وشهد بامانة وفى وضوح عن تحول القرابين ، وحضور الرب حقيقيا ككاهن السر الخفى والذبيحة المحيية فى نفس الوقت، لكنه أيضا عرف كيف يسحب قلوب الكثيرين الى مذبح الله ويدخل بهم الى المقدسات الالهية . تارة يجتاز بهم الى الجلجثة ليروا جسد ابن الله مبذولا عنهم الى التمام ، واخرى يرتفع بهم الى السماء ليدركوا سماوية السر تجذبه الطغمات السمائية فى شركة الأرضيين تحت قيادة الرب نفسه ، وثالثة يعلن لهم مهابة السر وجلاله ليقف الكل بخوف ورعدة كما امام العرش الالهى ، ثم يعود بهم الى الحياة الداخلية ليعرفوا هذا السر انما هو لهم لكى يمارسوا اتحادهم مع الرب : كأعضاء حية ثابتة فيه ، واخيرا يخرج معهم الى الشوارع والطرقات ليوضح لهم أن « الفقراء والمعوزين » هم جسد السيد الجائع والعريان يتألم كل يوم (١)...

هذا السر كما عاشه وكرز به انما هو :

١ — سر المسيح المصلوب القائم من الأموات والواهب جسده ودمه حياة أبدية لكل من يتناول منهما .

٢ — سر السماء ، حيث يرتفع الانسان ليشترك مع السمائيين فى العمل التسبيحى الفائق .

٣ — سر الكنيسة حيث تجد فيه الكنيسة سر وجودها ووحدتها مع الراس وحياتها ، خلال تمارس الكنيسة قمة التعبد والتسبيح والشكر والفرح والتهليل وتنعم بالحب والوحدة والتقوى ...

الأفخارستيا ... سر المسيح :

لما كان سر الأفخارستيا فى جوهره هو دخول الى « العشاء الأخير » عينه ، لترى الكنيسة السيد المسيح نفسه كاهنها حالا فى وسطها يقدم ذات الذبيحة التى قدمها لتلاميذه فى علية صهيون ، لهذا دعى هذا السر « سرا الهيا (٢) » ، « مائدة الهيبة مهوبة (٣) » ، « سرا

(1) Quasten : Patrology, vol 3 , P 479 .
(2) Hom. in Pascha. PG 52 : 769 .
(3) Hom. in Not. Dom. PG 49 : 360 .

مخوفا (٤) » ، « غير منطوق به (٥) » ، مائدة الخوف المقدس(٦) » ، «مائدة روحية (٧) » ، « ذبيحة مقدسة مرهبة (٨) » .

اكد القديس أن **السيد المسيح هو كاهن السر والذبيحة فى نفس الوقت :**

« الذى يحول القرابين الموضوعة الى جسد المسيح ودمه ليس انسانا ، بل المسيح نفسه الذى صلب عنا . الكاهن هو ممثل له ينطق بالكلمات ، اما القوة والنعمة فهما للرب ، الذى يقول : « هذا هو جسدى » . فان هذه الكلمات تحول العناصر القائمة أمامنا .

وكما أن العبارة « اثمروا واكثروا » نطق بها مرة ولا تزال عاملة عبر الزمن تعطى لطبيعتنا قوة الانجاب ، هكذا قوله « هذا هو جسدى » نطق بها مرة ولا يزال عاملا بها فى كل مائدة فى الكنائس منذ ذلك الحين حتى يومنا هذا ، والى مجىء المسيح . انه يجعل الذبيحة كاملة (٩) » .

« لنلمس نحن أيضا هدب ثوبه ، او بالحرى ان أردنا فلنأخذه بكامله ، فان جسده مضطجع امامنا الآن ، ليس فقط ثوبه بل وجسده ، لا لنلمسه بل لنتناوله ونشبع .

ليقترب كل واحد منا بضعفه اليه فى ايمان . . .

آمن انه جالس الآن فى العشاء الذى كان فيه بنفسه ، فانه من هو حاضر الآن هو بذاته الذى كان حاضرا قبلا . لأنه ليس انسان صنع هذا ذاك (التحول) ، بل الذى صنعه قبلا ، كلاهما من عمله هو !

عندما ترى الكاهن يسلمك (التناول) لا تظن انه هو الذى يفعل ذلك ، انما يد المسيح هى التى تبسط لك . . . (١٠) » .

« أقول أمرا غريبا ، لا تندهشوا منه . . .

ان التقدمة التى يقدمها انسان (كاهن) أو بولس او بطرس هى بعينها التى اعطاها المسيح لتلاميذه ، هذه التى يخدمها الكهنة الآن (١١) » .

(4) In Mat, hom 25 . PG 57 : 331 ;
In Joan, hom 46 . PG 49 : 261 ;
In 1 Cor, hom 24 : 3 . PG 61 : 919 .
(5) In 1 Cor, hom 34 .
(6) Hom de bast . Christi . PG 49 : 370 .
(7) In Mat, hom 32 : 10 .
(8) De Pnod. Judae, hom 2. PG 49 : 490.
(9) Ado. Judae 2 : 6 . PG 43 : 380 f .
(10) In Mat, hom 50 : 3 . PG 58 : 507 f .
(11) In 2 Tim, hom 2 .

« سر الفصح (الذى أقامه السيد) ليس أكثر فعالية عما يقدس الآن ، بل هما واحد . ما يقدس الآن . . . هو ذات الفصح (١٢) » .

« اننا نقدم ذات التقدمة ، فلا نقدم اليوم حملا ، وفى الغد حملا آخرا ، انما نقدم ذات التقدمة ، اذ الذبيحة واحدة .

هل لأن الذبيحة تقدم فى مواضع كثيرة يوجد مسحاء كثيرون ؟ لا ، بل هو مسيح واحد ، موجود فى كل موضع ، بكماله موجود هنا ، وبكماله هناك ، هو جسد واحد .

ان كان يقدم فى مواضع كثيرة ، لكنه جسد واحد وليس أجسادا كثيرة . وهو ذبيحة واحدة .

هو نفسه رئيس الكهنة ، يقدم الذبيحة التى تطهرنا .

ما نقدمه الآن هو ذات ما قدمه ، هذه التقدمة التى لا تنفذ . . . انها ليست ذبيحة أخرى كما كان يفعل رئيس الكهنة (فى العهد القديم) . . .

انها ليست كلماتنا ، بل هى كلمات الروح الالهى (١٣) » .

« الآن ، كما كان قبلا ، الرب نفسه هو الذى يعمل وهو الذى يقدم الكل (١٤) » .

« نحن نقوم بدور الخدم ، لكنه هو بنفسه الذى يبارك ، وهو الذى يحول القرابين (١٥) » .

كثيرا ما كان يؤكد فى عظاته « وجود السيد المسيح نفسه » على المذبح :

« يليق بنا لا أن نرى الرب فحسب بل نأخذه فى أيدينا ونتناوله . . . وفى أكثر ود نتحد به (١٦) » .

« سجد المجوس للمسيح وهو فى المزود ، أما نحن فلا (١٧) نراه فى المزود بل على المذبح ، لذلك يليق بنا أن نمجده بالأكثر » .

---

(12) In 1 Tim, hom 5 .
(13) In Hebr, hom 17 : 6 , 7 .
(14) In 1 Cor, hom 27 : 4 . PG 61 : 229 .
(15) In Mat, hom 82 : 5 . PG 58 : 744 .
(16) In Joan, hom 46 : 3 . PG 59 : 260 .
(17) In 1 Cor, hom 24 .

« المسيح متكىء هناك (على المذبح) ذبيحا (١٨) » .

« تأمل يا انسان اى جسد ذبيحى تتسلمه يدك ؟ ! الى اى مائدة انت تقترب ؟ ! اذكر انك وانت تراب تتسلم دم المسيح وجسده ؟ ! (١٩) » .

« ما بالكأس هو بعينه الذى فاض من جنب المسيح . . .

ما هو الخبز ؟ انه جسد المسيح (٢٠) » .

« ما لم يسمح به الرب على الصليب (كسر عظامه) يسمح به الآن فى التقدمة من أجل حبه لنا ، بسمح ان يكسر لكى يشبع كل البشر (٢١) » .

« لنصدق الله فى كل شىء ولا نعترض على قوله فى شىء ؛ حتى وان بدى لنا مناقضا لأفكارنا وحواسنا . . . هذا ما يليق بنا ان نفعله فى الأسرار غير ناظرين الى الأمور المنظورة بل مفتكرين فى أقواله ، لأن كلمته لا يمكن ان تخدعنا أما حواسنا فيمكنها ان تخدعنا . . . فاذ قال : هذا هو جسدى » نقبل كلمته ونصدقها . . .

ما اكثر القائلين الآن : كنت اود أن أنظر هيئته وشكله وثيابه ونعليه ! ها أنت تراه وتلمسه وتتناوله . حقا ، أنت تريد أن ترى ثيابه ، أما هو فيعطيك ذاته لا لكى تراه بل وتلمسه وتتناوله وتتقبله فيك (٢٢) » .

الأفخارستيا ذكرى « أنامنسيس » حية (٢٣) :

لقد أوضح أن « أنامنسيس Anamnesis » لا تعنى ذكرى لحدث ماض غائب عنا ، بل هو تذكار يحمل حضورا فعالا . . .

فى هذا يقول : « الا نقدم الذبيحة يوميا ؟ ! نعم نقدمها ، لكننا نفعل هذا « انامنسيس » لموته ، وهى ذبيحة وحيدة غير متكررة ، قدمت مرة عن الجميع وحملت الى قدس الأقداس .

« الأنامنسيس هو علامة موته ، فان ما نقدمه هو ذات الذبيحة ، فلسنا نقدم اليوم ذبيحة وغدا ذبيحة أخرى مختلفة .

واحد هو المسيح فى كل مكان ، كامل فى كل موضع ، جسد واحد . فاذ يوجد جسد واحد فى كل موضع تكون الذبيحة واحدة .

---

(18) De Adu. Judae, hom 1 : 2 .
(19) In Mat. hom 7 . PG 49 : 361 .
(20) In 1 Cor, hom 24 : 3 , 4 . PG 61 : 200 .
(21) In 1 Cor, hom 24 : 2 . 3 . (22) In Mat, hom 82 : 4 — 6 .

(٢٣) راجع للمؤلف : المسيح فى سر الأفخارستيا ، طبعة ١٩٧٥ ، ص ٥٧ — ٦١ .

هذه هى الذبيحة التى لا نزال نقربها الى اليـوم . هذا ما نعنيـه بالأنامنسيس (٢٤) » .

التحـول فى الأفخارستيا (٢٥) :

يتسـاءل بعض اللاهوتيين : متى يحل التحول ، هل أثناء « قصـة التأسيس » او ما نسميه بالرشومات حيث يردد الكاهن ذات كلمات السـيد المسـيح أثناء العشاء الأخير ام اثناء حلول الروح القدس ؟

أو بمعنى آخـر ، من الذى يقوم بالتحـول الكلمة الالهى ام الـروح القدس ؟ .

يرى بعض اللاهوتيين أن التقديس الأفخارستى يشـبه حلول الروح القدس على القديسـة مريم لأحـل تجسد الكلمة . فكما أن لتجسد هـو من عمل الروح القدس لكن « الكلمة » قام بدور ايجـابى فى التجسـد ... هكذا التقديس الأفخارستى ينسب للروح القدس دون تجاهل لدور الكلمـة الالهى ... لهذا نجد القـديس ذهبى الفم ينسبه تارة للروح القدس واخرى للكلمـة الالهى ، اذ يقول : « عنـدما يقف الكاهن أمام المـائدة ويرفع يديه الى السماء ، يستدعى الروح القدس فيأتى ويلمس القـرابين ، ويكون سكون ووقار على الموضع ... (٢٦) » ، « الذى يحول القرابين الموضوعة الى جسد المسيح ودمه ليس انسانا بل المسيح الذى صلب عنا ... (٢٧) ».

الأفخارستيا ... سر السماء :

سر الأفخارستيا انما هو رحلة الى السماء عينها :

« كأن الانسـان قد أخذ الى السماء عينها ، يقف بجوار عرش المجـد ويطير مع السيرافيم ويتغنى بالتسبيحة المقدسة (٢٨) » .

« آهرق هذا الدم لماتحا طريق السماء (٢٩) ».

« ما دمنا قد صرنا سمائيين ، وحصلنا على ذبيحـة كهذه ، فلنخف ! يليق بنا الا نستمر فى زحفنا على الأرض ، فانه يستطيع من يريد منا الا يكون بعد على الأرض من الآن ...

---

(24) Jean Danielou : The Bible & Liturgy, P 137 .
In Hebr, hom 17 : 6 .

(٢٥) المؤلف : المسـيح فى سر الأفخارستيا ، ص ٤٧٣ ، ٤٧٤

(26) Hom. in Coent, app 3 . (27) De Prod (adu) Judae 1 : 6 .

(٢٨) المسـيح فى سر الأفخارستيا ، ص ٣٧٩ ، ٤٤١ .

(29) In Joan, hom 46 .

اذ نقترب من الله نصـــير فى السماء ، بل **ماذا اريد من السماء ان كنت ارى رب السماء وصرت انا نفسى سماءا ؟! »** .

لتكن نفوسنا سماءا ... اقصـــد لنمتثل ببولس الذى وهو على الأرض يقضى حياته فى السماء (٣٠) ! » .

حضـــــور الملائكة :

« تأمل من يشترك معك ؟ ! فان هذا يكفى ليجعلك تسهر . اذكر انك وأنت فى الجسد مرتبط به صرت اهلا ان تحتفل مع القوات المتجسدة لســـيد واحد للجميع (٣١) » .

« لنذكر أننا انما نتناول الجسد الجالس على العرش ، والمسجود له من الملائكة ! ...

أتوسل اليكم ، أنظروا ، انها مائدة ملوكية قد اعـــــدت لنا ! الملائكة تخدمها ، والملك جالس بنفسه ، فهل تقفوا متثائبين ؟ ! ...

هنا الذبيحة حاضرة ! المسيح نفسه حمل الرب قد ذبح ! » .

متى سمعت « صلوا معـــا » ويفتح الســــتر تصور السماء مفتـــوحة من السماء فوق والملائكة هابطين (٣٢) ! .

خـــدمة الملائكة :

فى خدمة هذه الليتورجية يشترك العلويون معنا :

« أى رجاء لا يكون لك فى هـــذه اللحظة يا اخى الحبيب ؟ ! فانه ليس فقط يرفع الانسان هذه الصرخات العالية المقدسة بل ويرتمى الملائكة عنـــد قدمى السيد ، ويتضرع اليه رؤساء الملائكة .

انها الساعة المقبولة التى فيها يتشفع (السمائيون) وتكون الذبيحـــة ذاتها هى العين لهم ! ...

وكما أن الانســـان يقطع اغصان شجر الزيتـــون ويلوح بهـــا امام الملوك ليذكرهم بهذا بالعطف والمحبة ، هكذا تقـــدم الملائكة فى هذه اللحظة جسد الرب ذاته عوض اغصان الزيتون ، ويتضرعون الى الرب من اجـــل جنس البشر ... وكأنهم يرددون قائلين :

نصلى اليك من اجل الذين حسبتهم اهلا لحبك فوهبتهم حياتك .

---

(30) In Hebr, hom 16 : 7 .
(31) De Incomp. 4 PG 48 : 409 — 413 .
(32) In Eph, hom 3 .

نسكب اليك تضرعاتنا عنهم كما سكبت دمك من اجلهم .

نطلب اليك من اجلهم هؤلاء الذين بذلت جسدك هذا لأجلهم (٣٣) » .

ويرى القديس ان الملائكة وهى تقدم الشكر لله لأجل اعماله الخلاصية معنا انما تعطينا درسا فى تقديم الشكر له من اجل اعماله مع الآخرين :

« هذا (العمل الليتورجى) يحررنا من الأرض ويتحرك بنا نحو السماء ، ويجعلنا ملائكة عوض كوننا بشرا . اما هؤلاء الذين هم طغمة علوية فيشكرون الله من اجل اعماله الصالحة التى قدمها لنا ، قائلين له (٣٤) : المجد لله فى الأعالى وعلى الأرض السلام وبالناس المسرة .

ماذا يعنى هذا بالنسبة لنا ؟ فهم ليسوا على الارض ولا هم بشر ... (ويشكرون من اجلنا) ، بهذا يعلموننا أن نحب شركاءنا حتى نحسب ما ينالونه من بركات كأنما نلناه نحن ...

ليتنا نحن ايضا نشكر الله لا من اجل بركاته علينا بل من اجل بركاته على الآخرين ، البركات العظيمة والصغيرة ... (٣٥) » .

الأفخارستيا ... سر الكنيسة :

هذا السر الأفخارستى — كما يراه القديس . تجد فيه الكنيسة سر وجودها وشركتها واتحادها مع الراس ، فيه سر تقيدها المقبول لدى الآب ، سر تقديسها المستمر وجمالها الروحى :

١ — الأفخارستيا ... سر وجود الكنيسة :

« جعلنا اعضاء جسده ومن عظامه (٣٦) ، ليس خلال الحب وحده ، وانما بالفعل ذاته ... هذا يتحقق بالطعام المجانى الذى قدمه لنا ، مريدا أن يعلن حبه لنا . من اجل حبه مزج نفسه بنا ، عجن جسده بجسدنا ، لكى نصير معه واحدا ، نصير جسدا واحدا متحدا بالراس (٣٧) » .

---

(33) De Incomp. 3 PG 48 : 449 — 464 .

(٣٤) لو ٢ : ١٤ .

(35) In Mat, hom 25 : 4 .

(٣٦) اف ٥ : ٣ .

(37) In Joan, hom 46 : 3 .

يؤكد ارتباط سر الأفخارستيا بسر الكنيسة بدعوة الكتاب المقدس للاثنين « جسد المسيح (٣٨) » .

هذا ويظهر مدى التحام الاثنين معا من ارتباط الكنيسة بالمذبح فى ذهن القديس حتى متى تحدث عن أحدهما قصد الاثنين ، مثال ذلك عندما تحدث عن أثروبياوس يقول :

« أتريد أن تحمى نفسك ؟ تمسك بالمذبح الذى بلا حصون لكن فيه عناية الله الحارسة . تمسك بالكنيسة ... فانك ان كنت مع القطيع لا يقدر الذئب أن يدخل اليك ... الحصون تشيخ مع الزمن أما الكنيسة فلا تشيخ . الحصون يحطمها البرابرة أما الكنيسة فلا تقدر عليها حتى الشياطين . لست انطق بهذه الكلمات على سبيل المباهاة بل من خلال الواقع . كثيرون هاجموا الكنيسة فهلكوا أما هى فتحلق فى السماء (٣٩) » .

٢ — الكنيسة ... سر شركة الكنيسة ووحدتها :

فى سر الأفخارستيا يجتمع المؤمنون بروح الشركة والوحدة فيكون اصلواتهم فاعلية ... لهذا كان القديس يحزن من أجل الذين يستمعون العظات ولا يشتركون فى ليتورجيا الأفخارستيا ، اذ يقول :

« قد تقول : أستطيع الصلاة فى بيتى ، لكننى لا أقدر ان اسمع عظة فى بيتى ...

« لللك تخدع نفسك يا انسان ، فانك وان كنت تقدر بالحقيقة أن تصلى فى البيت لكن ليس بذات الكيفية التى تتم فى الكنيسة ، حيث يشترك كثير من الآباء الروحيين ؛ وترتفع صلوات مشتركة أمام الله .

عندما تطلب فى مخدعك لاتكون الاستجابة مثلما تطلب خلال شركة اخوتك . هنا يوجد شىء آخر هو اتحاد الروح بالكلمة ، ورباط الحب ، وصلوات الكهنة ... فترتفع الصلوات الى السماء ! ... (٤٠) » .

ان كانت صلوات الفرد لها قوة عظيمة كم بالحرى تكون صلاة الشركة .

يرى القديس فى سر الأفخارستيا سر وحدة الكنيسة :

---

(38) Comm. on Gal, ch 5 .

(٣٩) الكنيسة تحبك ص ٢٩ — ٣١ .

(40) De Incomp. 3. PG 48 : 380 — 405 .

« اذ كان الخبز يحوى حبوبا كثيرة صارت متحدة معا ، فلا تظهر الحبوب بعد . هى موجودة فعلا لكن لا يظهر اختلافها بسبب اتحادها معا . هكذا رتبط مع بعضنا البعض فى المسيح ، فليس هو جسدا لشخص وآخر لشخص آخر ، بل هو جسد واحد يغتذى به الكل ! انه شركة فى جسد الرب . . . شركة مع المسيح نفسه (٤١) » .

« حقا توجد أمور كثيرة تربطنا معا : مائدة واحدة معدة للجميع . . . مشرب واحد مقدم للكل . . . بل نشرب من كاس واحدة ، الأمر الذى يصدر عن حب متسع .

اننا نشترك فى مائدة روحية ، فلنشترك ايضا فى حب روحى ، لأنه ان كان اللصوص اذ يشتركون معا فى الملح(٤٢) ، ينسون طبيعتهم (كلصوص ؛ فأى عذر لنا نحن الذين نشترك على الدوام فى تناول جسد الرب ؟!(٤٣) » .

هذا المفهوم الخاص لقيام سر وحدة الكنيسة خلال سر الافخارستيا كما ورد فى صلوات ليتورجيا الأسقف سرابيون المصرى (٤٤) .

٢ ــ الافخارستيا . . . سر تعبد الكنيسة وشكرها :

فى ليتورجيا الأفخارستيا يقدم الكاهن مع الشعب ، ويشترك معهم السمائيون فى تقديم الشكر لله خلال الذبيحة ، اى خلال صليب ربنا يسوع ، وذلك من أجل اعماله الخلاصية لأجلنا (٤٥) .

« عندما ادعوه «سر الشكر» اكشف كل كنوز صلاح الله ، وادعو الذهن للتامل فى تلك المواهب العظيمة (٤٦) » .

« لذلك ــ كما تعلمون ــ ينضم الكاهن ليقدم شكرا عن العالم من اجل اعمال الله السابقة ، واعماله الحاضرة لأجلنا ، وما سيهبه لنا حتى صارت الذبيحة قائمة بيننا (٤٧) » .

---

(41) In 1 Cor, hom 24 .

(٤٢) اشارة الى عادة شرقية لا زالت قائمة أن الذين يشتركون فى الطعام « خبز وملح » لا يخون احدهم الآخر .

(٤٣) ديداكية ٩ : ٤ .

(٤٤) المسيح فى سر الأفخارستيا ، ص ٦١٤ .

(45) In Mat, hom 25 : 4 .

(46) In 1 Cor, hom 24 .

(47) In Mat, hom 25 : 4 .

٤ — الأفخارستيا ... سر قداسة الكنيسة :

فى الذبيحة المقدســـة تختفى الكنيسة فتظهر حاملة قداسة المســيح وبره ... تصير عروسا بلا عيب للعريس القدوس .

« بهذه العطية تتزين نفوسنا وتتجمل (٤٨) » .

« به تتطهر النفس وتتجمل وتلتهب (٤٩) » .

« هذه المائدة هى عضـــد نفوسنا ، ورباط ذهننا ، واساس رجائنـــا ، وخلاصنا ونورنا وحياتنا ...

عندما ترى المائدة معدة قدامك ، قل لنفسك :

من اجل جسده لا اعود اكون ترابا ورمادا ، ولا اكون سجينا بل حرا .

من اجل هذا الجسد اترجى السماء واتقبل الخيرات السماوية والحيـــاة الخالدة ، ويكون لى نصيب الملائكة واناجى المسيح .

سمر هذا الجسد بالمســـامير وجلد ولا يعود يقدر عليه الموت .

انه الجسد الذى لطخ بالدماء وطعن ، ومنه خرج الينبوعان المخلصـــان للعالم : ينبوع الدم وينبوع الماء (٥٠) » .

« هذا الدم يجعل صورة ملكنا واضحة فينا ، ويجلب علينا جمالا لا ينطق به ، ولا يسمح بانتزاع سموننا ، بل يرويه دائما وينعشــه ...

هذا الدم متى اخذناه بحق يطرد الشياطين ويبعدهم عنا ، بينما يدعو الينا الملائكة . فاذ يظهر دم الرب تهرب الشياطين وتجتمع الملائكة .

هذا الدم المسفوك يطهر كل العالم ...

هذا الدم يطهر الموضع السرى وقدس الأقداس ...

هذا الدم يقدس المذبح الذهبى ...

هذا الدم يقدس الكهنة ...

هذا الدم هو خلاص نفوسنا ... به تغتسل النفس وتتجمل وتلتهب . به يلتهب فهمنا كالنار ، وتتلألأ النفس أكثر من الذهب .

لقد سفك هذا الدم فاتحا لنا طريق السماء ...

مهوبة حقا هى أسرار الكنيسة !

---

(48) In Mat, hom 50 : 3　　(49) In Joan, hom 46 : 6 .
(50) In 1 Cor, hom 24 .

موهوب حقا هو المذبح !

لقد خرج من الفردوس ينبوعا يبعث انهارا مادية ، أما هـذه المائدة فاخرجت ينبوعا يبعث انهارا روحية ، لا يزرع على جوانبها شجر الصفصاف غير المثمر بل تزرع اشجار تصل الى السماء وتحمل ثمرا دائما لا يفسد .

ان كان احد نفحه الحر فليقترب من الينبوع فتبرد حروقه وينطفىء ظماه ويحمل راحة عوض الحروق التى سببتها السهام النارية لا الشمس ...

هذا الينبوع هو نور يبعث اشعة الحق ، تقف بجواره القوات السمائية فى الأعالى تتطلع الى جمال مجاريه ...

من يشترك فى هـذا الدم يقف مع الملائكة ورؤسـاء الملائكة والقوات العلوية ، ملتحفا بثوب المسيح الملوكى ، له اسـلحة الروح ، لا بل يلتحف بالملك نفسه ... (٥١) » .

الأفخارستيا ... حياة تقوية اجتماعية :

اذ يتحدث القديس عن سر الأفخارستيا يحلق بنـا عاليا فى السموات ، لكنه ، فى نفس الوقت لا يتجـاهل واقعنـا كأناس نعيش على الأرض ، لذا يرى فيه سر نمونا الروحى وجهادنا فى المسيح يسوع .

١ ـ الأفخارستيا والحيـاة التقـوية :

هذا السر هو سـند حياتنا الروحية ان كانت نفوسنا متيقظة مجاهدة ، حاملة للصـليب ، ومشتاقة للسـماويات . لقد تحدث القـديس كثيرا عن الاستعداد للتمتع بهذا السر حتى ننـال فاعلية فى حياتنا الروحية ولا نحمـل دينونة .

« ما دمنا نتحدث عن جسـد الرب ، فلنوجه انظارنا اليه ، هذا الذى صلب وسمر وتقدم ذبيحة . ان كنتم جسـد المسـيح فاحمـلوا الصليب ، اذ هو حمله . احتملوا البصق واللطمات والمسامير .

لقد جعلنا جسده ووهبنـا جسـده ومع هذا لم نعطى للشر ظهورنا ، يا للظلمة ! يا لعمق الهاوية ! يا لعـدم المبالاة !

«يقول الرسول اطلبوا ما هو فوق حيث المسيح جالس عن يمين الله» ، ومع هـذا لا يزال يضع البعض قلبه فى المال أو الفسق وآخـرون تأسرهم الشهوات .

---

(51) In Joan, hom 46 : 3 .

(٥٢) كو ٣ : ١ .

الا ترى انه ان كان فى جسدنا عضو زائد وبلا نفع نبتره ونلغيه عنا . ليته لا تكون ثقتنا زائدة هكذا لمجرد أننا جعلنا أعضاء فى هذا الجسد ... فان المسيح لا يحتمل دخول أحد بهذا الحال فى حجاله . ان كان قد طرد صاحب الثياب الدنسة وأخرجه افلا يفعل ذلك مع من يدنسه (٥٣) » .

« ليته لا يقترب احد الى الأسرار بغير مبالاة أو بقلب واهن . انما يلزم أن يكون الكل بقلوب ملتهبة بحرارة . ليكن الكل متيقظا . فان كان اليهود اكلوا الذبيحة وهم مستعدون : أحذيتهم فى أرجلهم وعصيهم فى أيديهم، فكم بالحرى انت ، يجب ان يكون نشاطك اعظم . ان اليهود استعدوا للذهاب الى فلسطين وعليهم هيئة المسافر ، أما أنت فمستعد للسفر الى السماء (٥٤) » .

« كيف تقف أمام كرسى الديان يا من تتجاسر على هذا الجسد وتتقدم بأيد دنسة وشفاة نجسة ؟ !

ان كنت لا تقدر ان تقبل ملكا بفم قذر ، اتقبل ملك السموات بنفس دنسة ؟ ! يا له من انتهاك للمقدسات !

اخبرنى ، اتريد أن تتقدم بأيد غير نظيفة ؟ أظنك لا تقبل هذا ، بل تفضل عدم حضورك عن مجيئك بأيد ماوثة . فان كنت تدقق فى الأمور الصغيرة ، فهل تحضر بنفس ملوثة وتتجاسر وتلمس الذبيحة ؟ !

ماذا ، اما ترى الأوانى المقدسة نظيفة تماما ومتألقة ؟ ! يليق بنفسك ان تكون اكثر نقاوة منها وأكثر قداسة وبهاءا ! لماذا ؟ لأن هذه الأوانى وجدت من أجلنا نحن . انها لا تشترك فى التناول الموجود فيها ولا تدركه ، اما نحن فنشترك فيه . . .

هل لا تقبل أن تستخدم آنية ملوثة بينما تقترب بنفس دنسة ؟! (٥٥)» .

« تصور سخطك على الذى سلم المسيح ، وعلى الذين صلبوه : احذر أن تكون مجرما أمام جسد المسيح ودمه . هؤلاء اماتوا الجسد الكلى القداسة وانت تتقدم اليه بنفس غير نقية بعد ان خصك بهذه النعم .

لم يكتف المسيح انه صار انسانا بل تبل اللطمة والموت . اننا نتحد معه ليس بالايمان فقط بل بالجسد . فما هى النقاوة والطهارة الواجبة على من يتلذذ بهذه الذبيحة ؟ يجب على اليد التى تلمس هذا الجسد ان تكون

---

(53) In Eph, hom 3 . (54) In Mat, hom 82 : 4

(55) In Eph, hom 3 .

اطهر من اشعة الشمس ، وهكذا يجب ان يكون الفم المملوء بالنار الروحية واللسان المضرج بالدم المخيف . فما اعظم تلك المائدة التى تتلذذ بها ! ان الملائكة تنظر اليها ولا تجسر أن تحدق فيها من دون خوف ورعدة بسبب النور الساطع الصادق . اما نحن نغتذى بها ، ونتحد من المسيح بواسطتها ونصبح معه (٥٦) جسدا واحدا . فمن يحدث بجبروت ويسمع تسبحته كلها (مز ١٠٥ : ٢) . . .

يتحدث ايضا القديس عن الاستعداد الروحى لهذا السر أنه ممتد الى ما بعد التناول ، قائلا : « ان كنت لا تسرع الى السوق بعد الابتحمام حتى لا تفسد ما تمتعت به فى الحمّام ، كم بالأحرى يليق بنا أن نفعل هذا بعد التلذذ بالتناول . . . فانه يليق بك عند عودتك الى منزلك بعد التناول الا تحسب شيئا اهم من تذكرك للأمور التى سمعتها . نعم انها لغباوة عظيمة أن نعطى خمسة ايام او ستة للعمل فى أمور هذه الحياة ولا نسمح لأنفسنا بيوم واحد لحياتنا الروحية ، أو حتى جزءا من يوم (٥٧) » .

يحذرنا القديس من التهاون بعد التناول ، قائلا « لقد صرت جسد المسيح ، فان سلمت نفسك للشيطان يدوس عليك (٥٨) » . فتهين المسيح .

٢ـ الأفخارستيا والعمل الاجتماعى :

ربط القديس بين الجسد الذبيح المقدس وبين اعضاء جسد المسيح المتألمة والجائعة ، فيقول (٥٩) » : « المائدة هى بعينها كتلك (التى كانت فى علية صهيون) وليس اقل منها . لأنه ليس المسيح صنع تلك ، اما هذه فصنعها انسان ، بل المسيح ايضا يصنع هذه ! انها ذات العلية التى كان التلاميذ مجتمعين فيها حين ذهبوا الى جبل الزيتون .

لنذهب نحن أيضا الى ايدى الفقراء بكونها جبل الزيتون ، لأن جموع الفقراء هم اشجار الزيتون المغروسة فى بيت الرب ، يقدمون زيتا يفيدنا فيما بعد ، الزيت الذى كان للعذارى الخمسة ، والذى افتقدته العذارى (الجاهلات) الأخريات . اذ نتقبل هذا الزيت فى مصابيحنا المتلألئة نستقبل العريس (٦٠) » .

---

(٥٦) المطران ايفانيوس : الآمالى الذهبية من مقالات لأبينا الجليل فى القديسين يوحنا الذهبى الفم ، بيروت ١٩٧٢ ، ص ٨٢ ، ٨٣ .

(57) In Mat, hom 5 : 1 . (58) In Hebr, hom 20 : 3 .

(٥٩) للتوسع راجع اقواله فى كتابنا « الحب والعطاء » ص ٦٧ـ٧١ .

(60) In Mat. hom 82 : 5 .

مرة اخرى يوبخ الذين يهتمون بتقديم ستائر حريرية وكؤوس من ذهب للمذبح تكريما للذبيحة ويتركون الفقراء — جسد المسيح . فى عوز ، فيقول : « ان اردت ان تكرم الذبيحة فقدم نفسك التى لأجلها ذبحت . لتكن نفسك من ذهب . لكن ان ابقيت نفسك ترابية وقدمت أوان من ذهب ، فما المنفعة ؟ ! . . .

ليته لا يكون هدفنا تقديم أوان ذهبية فحسب ، انما نفعل هذا بغيرة صادقة . . . فان الكنيسة ليست مسبكا للذهب ولا هى متجر لسك الفضة انما هى جماعة ملائكة . . .

انريد أن تكرم جسد المسيح ، لا تتغافل عنه وهو عريان . لا تكرمه هنا فى الكنيسة بثياب ديباج وفى الخارج تضرب عنه صفحا ، وهو يموت من البرد والعرى (٦١) » .

دعوة للاشتراك فى سر الأفخارستيا :

« اخبرنى ، لو أن انسانا دعى لوليمة ، وغسل يديه وجلس وصار الكل مستعدا على المائدة ، بعد هذا كله رفض الاشتراك فى الوليمة ، أما يكون بهذا قد اهان من دعاه ؟ اما كان الأفضل له الا يحضر ؟ ! هذا ما تفعله أنت ، اذ تترنم بالتسبيحة (الثلاث تقديسات) وتشترك فى الصلوات وتعلن أنك من بين المستحقين اذ لم تخرج مع غير المستحقين (قبل بدء قداس المؤمنين) فلماذا لا تشترك فى المائدة ؟

تقول : انى غير مستحق .

هل غير المستحق للتناول مستحق للشركة فى الصلوات ؟ ! فان الروح يحل لا بواسطة التقدمات فحسب بل وخلال التسابيح . . .

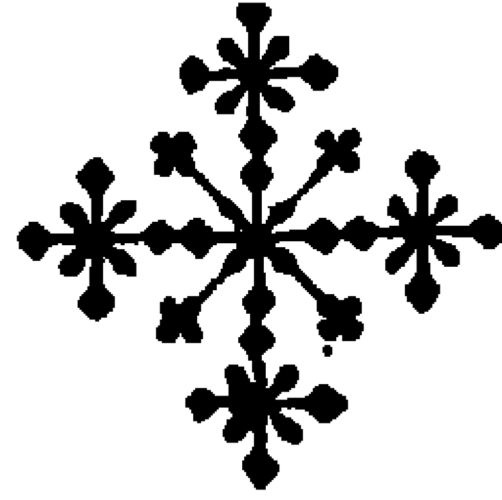
انه يدعونا للسماء ، لمائدة الملك العظيم العجيب ، فهل تتردد متراخيا بدلا من أن تسرع اليها ؟ ! (٦٢) » .

« من لا يشترك فى الأسرار ، انما يجلس فى وقاحة . . . (٦٣) » .

بقدر ما يشجعنا على التمتع بالتناول يحزن ان يعتاد الناس على التناول فى ايام الأعياد كعادة بغير توبة ولا استعداد ، اذ يقول : « كثيرون من المؤمنين أمعنوا فى الجهالة والتهاون العظيم فيتقدمون لمناولة الأسرار المقدسة فى الأعياد ، ملوثين بالخطايا وغير مهتمين لنفوسهم ، ولا عالمين ان

(61) In Mat, hom 50 : 4 .
(62) In Eph, hom 3 .
(63) Ibid .

وقت المناولة المقدسة لا يحده عيد او فرح ، بل الضمير النقى والحيـاة التى لا عيب فيها . فكل من يعرف نفسه نقيـة من الخطيئة يجوز له أن يتقـدم الى الأسرار الطاهرة يوميا ، وبالعكس فان المثقل بالخطايا وغير التـائب عنها ، لا يخلو تقدمه اليها من الخطر حتى فى الأعياد ، لأننـا نتقدم اليهـا مرة فى السنة ، فان كان تقدمنا هذا عن غير استحقاق ، لا يبررنا من الذنوب ، بل يكون دينـونة لنا لأننـا تقـدمنا مرة واحـدة فى السـنة ، ومع ذلك بلا طهارة (٦٤) » .



---

(٦٤) المطران ايفانيوس : الأمالى الذهبية ص ٦٥ .

الطقس الكنسي

تعتبر كتابات القديس يوحنـــا الذهبى الفم وثائق لها اهميتهـــا فى علم الليتورجيات واللاهوت الطقسى ، اذ تدخل بنـــا الى جو العبادة الكنســـية كما عاشتها كنيستا أنطاكية والقسطنطينية فى أواخر القرن الرابع ، لا من حيث أنها حملت الينـــا الكثير من الاشارات الخاصة بهذه الطقوس بل ايضا اوضحت لنا روحها ومفاهيمها اللاهوتية والروحية .

وقد جمع Brightman النصوص الواردة فى أعماله بخصوص النظام الليتورجى ، كما افرد Probest فصلا خاصـــا عن ليتورجيته (١) .

واننى فى هذه الدراسات لا استطيع ان استعرض جميع النصوص التى وصلت الينا فى هذا الشـــأن ، انما اكتفى بعـــــرض سريع للطقس الكنسى كما أعلنه القديس :

(أ) مفهومه للطقس الكنسى .

(ب) الطقس الليتورجى الأفخارستى .

(جـ) الأعياد والأصوام .

(د) علامة الصليب .

(هـ) طقوس أخرى .

+ + +

---

(1) Sources Chrétiennes, t 28 bis, P 51 .
Liturgie des vierten Johnhunderts und deren Reform. Münster i, w. , 1893 .

(أ) مفهـــوم الطقس الكنسى

أولا : الطقس الكنسى دخول فى الحياة السماوية :

الطقس الكنسى يحترم الجسد وأحاسيسه ، لكنـــه لا يحبس النفس فى حدود الجسد والمحسوسات بل يعرف كيف ينطلق الروح القدس بالمؤمن نحو الأمور السماوية خلال الزمنيات ، فلا يعود المؤمن يرى فى الكنيسة معابد وكهنة وحركات جسدية فى العبـــارة بل يمارس شركة مع السمائيين ودخول الى أمجاد أبدية وتمتع بحضن الآب .

« لنتقدم بقلب صادق (١) الى الأمور المقدســـــة ، الى الايمان ، الى الخدمة الروحية ... فلا نرى منظورات : كاهنا أو ذبيحة أو مذبحـــا ... انما يدخل الكاهن الى قدس الأقداس ، لندخل نحن أيضا معه (٢) » .

« هنـــا كل شىء يخص الســـماء والسماويات ، أمور يخص نفوســـنا وحياتنا (٣) » .

« الملائكة حاضرون فى كل موضع ، خاصــــــة فى بيت الله ، اذ يقفون بجوار الملك .

الكنيسة مملوءة كلها بالقوات غير المتجسدين (٤) » .

« ان كانت (طقوســـــنا) تتم على الأرض لكنها متاهلة للسموات ، اذ يكون ربنـــا يسوع المســيح نفسه الذبيح ـ مضطجعا ، والروح مرافقا لنا ، والجالس عن يمين الآب حاضرا هنا .

« خلال الغســـل (المعمـــودية) يوجد الأبنـــاء ، الذين يقتفون أثر السمائيين ، حاسبين ان لهم وطنا سماويا . هؤلاء اذ يتعـــذبوا عن الأمور الزمنية يمارسوا الأعمال السماوية .

ماذا ؟ ... أليست تسابيحنا سماوية ؟ !

ألسنا نحن الذين نعيش على الأرض ننطق فى انسجام مع ترنيمـــات الطغمات الالهية التى للقوات غير المتجسدين ؟ !

أليس المذبح سمائيا ؟ ! ... اذ لا يحمل أمورا جسدانية ، بل تقدمة روحية . فالذبيحة لا تتحول الى تراب ورماد بل هى بهية وسامية .

---

(١) عب ١٠ : ٢٢ .

(2) In Hebr, hom 10 : 2

ما هى سمة طقوسنا الا انها سماوية ، فقد قيـــل (٥) : من غفرتم خطاياه تغفر له ومن أمسكتم خطاياه أمسكت . فمن كان له مفاتيح الســماء كيف لا تكون بقية اموره سماوية ؟! . . .

الكنيسة سماوية ، بل هى السماء ! . . .

لقد قادنا مرتفعا بنـــا الى السماء ، وأظهر لنا انه قد صارت لنا السماء عوض الهيكل (القديم) (٦) .

ثانيا : الطقس كعمـــل روحى تقوى :

حذر القديس من ممارسة الطقس فى شـــكليات بلا روح ، قائلا : « ان كان بولس يخاف لئلا بعدما كرز للأخرين يصير هو نفسه مرفوضا (٧) . . . فأى عذر لنا ان كنا فى غير خوف نمارس مسيحيتنا كعادة فى شكليات ؟!(٨) » .

يرى أن الشكليين فى ممارستهم للطقس بلا روح يشبهون هيرودس الذى طلب السجود لمولود بيت لحم وهو يحمل فى داخله شوقا لقتله . . . « لنخف نحن أيضا لئلا ونحن نحمل مظهر العابدين له والمتضرعين اليه ننطق فى داخلنا بنقيض ذلك (٩) » .

لقد أعطى اهتماما بالطقس الخارجى للصـــلاة مثل الوقوف برهبـــة والســـجود وبسط اليدين آلخ . . . لكنـــه فى نفس الوقت ركز على العمق الداخلى ، اذ يقول :

« الصلاة هى أعماق أكثر منها كلمات !

هى نفس متأملة اكثر منها أيد مرتفعة !

هى تأمل أكثر منها حركات خارجية »

انها تتطلب قلبا حارا وفكرا متضعا !

كان بولس فى سجنه يصلى وهو ملقى على ظهره ، حزقيال على فراش مرضه ، واللص معلقا على الصليب ، ويونان فى بطن الحوت » .

« عندما تقف أمام جمهور الملائكة لتصلى ، فلتكن اكثر اهتماما من عازف القيثارة وهو يستعد لدخول المسرح خشية أن يخطىء العزف .

---

(3) Conc. Statues, hom 10 : 2 .
(4) In Hebr, hom 15 : 8 .
(٥) يو ٢٠ : ٢٣ .
(6) In Hebr, hom 14 : 3 .
(٧) ١ كو ٩ : ٢٧ .

ليعبر لساننا بعذوبة ما يحمله من مكتومات ! » .

مرة اخرى يوبخ الذين يتممون الطقس فى حرفيته بغير روح قائلا :

« عندما نتقدم للحديث مع أناس أعظم منا نستعد لذلك بضبط تصرفاتنا وطريقة مشينا ولبسنا ، لكننا اذ نتقدم امام الله نتثاءب (ونهرش) ونحرك رؤوسنا هنا وهناك ويشت فكرنا حتى أننا ونحن ساجدون على الأرض يجول عقلنا فى الأسواق العامة » .

رأينا اتجاهه العملى فى الربط بين الطقس والحياة التقوية خلال ربطه التناول من الأسرار المقدسة وخدمة الفقراء والمحتاجين ... فكما نكرم الذبيحة « جسد المسيح » يلزمنا ان نكرم جموع الفقراء « جسد المسيح المتألم (١٠) » .

ثالثا : كشف لنا القديس عن دور الشعب فى الطقس الكنسى والعبادة الليتورجية ... فمن كلماته : « لماذا تتعجبون من اشتراك الشعب مع الكاهن فى كل موضع ، فان الجميع يشتركون بحق مع الشاروبيم أنفسهم والقوات السمائية ، مقدمين التسابيح المقدسة فى شركة معا (١١) » .

\+ + +

---

(8) In Hebr, hom 10 : 2 . (9) In Mat, hom 50 .

(١٠) راجع ايضا عظة ٢٧ على ١ كو ، عظة ٨٢ : ٦ على انجيل متى.

(11) In 2 Cor, hom 18 : 3 .

(ب) الطقس الليتورجى الأفخارستى

فيما يلى بعض الطقوس الليتورجية الخاصة بالقداس الالهى ومفاهيمها اللاهوتية والروحية كما وردت من خلال عظاته وكتاباته :

اولا : تقـديم ذبيحة يوميـة :

كانت الكنيسة الأولى تقيم الأفخارستيا يوم الأحد بكونه احتفـالا بعد قيامة الرب ، فيه تنعم الكنيسة بالقيـامة خلال اتحادها بالجسد القـائم المخلص واتحاده فيها ، وأيضا تقدسه فى بعض أعياد الشـهداء والقديسين من الأموات . كما تقدس هذا السر فى الأعياد السيدية بكونه التقاء مع الرب اعلانا لتبولنا الحياة السماوية فى شركة مع القديسـين الذين عبروا الى الفردوس. لكن عظات القديس تكشف عن تقديس السريوميا فى الكاتدرائية . . . يبدو أن هذه العادة كانت فى بعض الايبارشيات الكبيرة فقط .

فى حديث له مع الشعب يقول : « ماذا ؟ ألسنا نقدم الذبيحة يوميـا ؟ نعم نقدمها ، لكننا نفعل هذا أنامنسيس (ذكرى) لموته . هى ذبيحة وحيدة غير متكررة . . . (١) » .

كما يوبخ الذين لا يشـتركون فى التمتع بالسر ، قائلا : « هل باطلا نقدم الذبيحة يوميـا ؟ هل نقف أمام المذبح باطـلا ؟ لمـاذا لا يشترك أحـد فى التناول ؟ (٢) » .

ثانيا : التمييز بين ليتورجيا الموعوظين وليتورجيا المؤمنين !

ان كان قلب الكنيسة متسعا بالحب نحـو كل البشرية ، تفتح أبواب منبرها الجميع يسمعون كلمة الله ، لكن ليس الكل يقدر أن يمارس « طقس العبادة » ، انما هذا الحق خاص بالأبناء التائبين المجاهدين . لهذا كثـيرا ما تحدث القديس عن اخراج جماعات غير المؤمنين أو الذين تحت التـأديب بعد ليتورجيا الموعوظين ، واغلاق الأبواب لكى يعيش المؤمنون فى لحظـات القداس الالهى الرهيبة ، يشتركون فى ليتورجيـا المؤمنين .

---

(1) In Hebr, hom 17 : 6 .   (2) In Eph, hom 3 .

اما الفئات التى لا تشترك فى ليتورجيا المؤمنين فهم :

١ — الوثنيون ، ولا تتلى عليهم اى صلاة .

٢ — جماعة الموعوظين ، من اصل يهودى او وثنى ، قبلوا الايمان لكنهم لا يزالوا تحت الوعظ والتعليم حتى يتهيأوا للعماد ، لذا يسمون بطالبى العماد .

٣ — المربوطون بالأرواح الشريرة ، تتلى عليهم صلاة خاصة قبل خروجهم حتى يترفق الله بهم ويطرد عنهم الأرواح الشريرة .

٤ — الذين تحت التأديب .

اخيرا فان الهراطقة ليس لهم ايضا حق الشركة مع المؤمنين فى ليتورجيا الموعوظين . يطلب القديس من شعبه ان يصلوا عنهم ، قائلا لهم : « ان كنا نطلب اليكم تقديم الصلاة من اجل المرضى والعاملين فى المناجم والمستعدين والمربوطين بأرواح شريرة كم بالأحرى نطلب ايضا من اجل الهراطقة ؟ ! (٣) » .

كانت الكنيسة تصلى من اجل الموعوظين عند خروجهم حتى يهبهم الله العضوية فى جسده المقدس . وقد جاءت الصلاة فى عظاته تطابق الطقس السريانى كما ورد فى القوانين (الدساتير) الرسولية The Apostolic Constitutions فى الكتاب الثامن الفصل السادس والتى سبق لى ترجمتها(٤) .

اما الصلاة كما وردت فى عظات القديس ، فجاءت هكذا :

« لنصل من اجل الموعوظين بكل حرارة لكى يسمع الله الكلى الشفقة والرحمة صلواتهم ،

ويفتح آذان قلوبهم ويلقن فيها كلمة الحق .

ويزرع فيهم مخافته ،

ويثبت ايمانهم ،

ويكشف لهم انجيل البر .

ويهبهم ذهنا صالحا وحكما سديدا وحياة فاضلة ، فيفكرون فيه على الدوام ، ويمارسون اعماله ، ويلهجون فى ناموسه نهارا وليلا ، ويذكرون وصاياه ، ويحفظون احكامه .

---

(3) De Incomp. 3 PG 48 : 347 — 350 .

(٤) للمؤلف : المسيح فى سر الأفخارستيا ، ص ٦٢٤ — ٦٢٧ (القوانين الرسولية ٨ : ٦ ، ٧) .

لنتضرع من اجلهم فى اكثر غيرة حتى يخلصهم من كل شر ، ومن كل تدبير شيطانى ، وكل مضايقات العدو ،

ويحسبهم مستحقين لتجديد الجرن فى الزمان المحدود ، وغفران الخطايا ، ولباس عدم الفساد ،

ويبارك دخولهم وخروجهم وكل شئون حياتهم ،

ويبارك بيوتهم ،

ويكثر نسلهم ويبارك فيهم ويبلغ بهم الى حد القامة ويعلمهم الحكمة ،

ويدبر كل أمورهم للخير ...

ايها الموعوظون قفوا ، صلوا من اجل ملاك السلام ، لكى تكون كل اموركم فى سلام .

صلوا لكى يكون هذا اليوم وكل ايام حياتكم مملوءة سلاما وتكون نهايتكم مسيحية .

قدموا انفسكم لله الحى ومسيحه .

احنوا رؤوسكم .

ليجب الكل بصوت عال : آمين (٥) » .

ما يحدث ايضا بالنسبة للموعوظين يتم ايضا بالنسبة للمربوطين بأرواح شريرة ، اذ نقدم عنهم صلاة خاصة بهم .

« فى هذه اللحظة يدعو الشماس الماسورين من الشياطين ويأمرهم أن يحنوا رؤوسهم فقط ، فانه يليق بهم على الأقل أن يشتركوا فى التضرع لله بخضوع اجسادهم ، اذ لا يسمح لهم بالشركة فى صلوات اجتماع الاخوة ...

انه يدعوهم لكى يرثى لكارثتهم وصمتهم (٦) ... ويشفع فيهم امام الله ...

هؤلاء لا يحضرون لكى يعاقبوا ، انما لكى يرفع الشعب وكل المدينة المجتمعة هنا الطلبات من اجلهم ، متوسلين بقلب واحد الى الرب ، متضرعين الى لطفه بأصوات عالية (٧) » .

---

(5) In 2 Cor, hom 2 .

(٦) البعض يصابون بخرس .

(7) De Incomp, hom 3 , 4 .

ثالثا : الشمامسة ينذرون الشعب بالصمت !

يتحدث عن انذار الشماس للشعب للوقوف بصمت ورعدة ، قائلا :

« النداء الذى يوجهه الشماس للجميع ، قائلا : قفوا وانصتوا لا يقال بغير سبب ، انما لكى نرفع افكارنا التى ارتبطت بالأرض ، ونطرد هموم الحياة اليومية ، فنقدم لله نفوسنا المتحررة ...

الوقوف بخوف لا يعنى الا الوقوف فى حضرة الله كما يليق بخوف ورعدة ، اى بنفس ساهرة متيقظة (٨) » .

مرة اخرى يعلق على ذات الموضوع ، قائلا :

« تذكر بجانب من أنت واقف ؟

وفى صحبة من انت تصلى لله ؟!

انك فى شركة مع الشاروبيم .

تذكر الجوقة التى تقف معك فهذا يحفزك على السهر .

تذكر أنك وانت فى الجسد ومرتبط به قد تأهلت للاحتفال بسيد الكل فى شركة فى القوات غير المتجسدين . لذلك لا يليق ان يشترك احد فى هذه الالحان المقدسة السرية بفتور . لا يسمح أحد لأفكاره أن تنحط الى الماديات انما يليق به أن يطرد من ذهنه كل فكر ارضى ، مرتفعا الى التمام فى صحبة السيرافيم ، مسبحا للرب ترنيمة مقدسة ، تسبحة المجد والعظمة (٩) .

رابعا : تسبحة الثلاث تقديسات Trisagion :

يرى القديس ان التسبيح بهذه التسبحة هو دخول الى الليتورجية السماوية حيث « يمجد الملائكة الله ، ويتعبدون له ، ويترنمون له بتسابيح النصرة السرية mystical فى وقار (١٠) » .

خامسا : اعطاء السلام :

يقول القديس : « فى كل كنيسة يعطى الرئيس (الأسقف) السلام(١١) » .

لقد اقتطف Bingham عن القديس هذا القول :

« ليس شىء مثل السلام والاتفاق ، فان ابانا (الأسقف) لا يصعد على هذا الكرسى الا بعد ان يعطى السلام للجميع ، ولا يقدم تعليماته لكم الا بعد

---

(8) Ibid. PG 43 : 389 — 395 . (9) Ibid. PG 48 : 408 — 420 .
(10) De Incomp, hom 1 .

اعطائه السلام للكل . والكهنة يقدمون اولا هذه الصلاة من اجلكم عند القديس وبعد ذلك يعطون البركة . والشمامسة عندما يأمرونكم بالصلاة انما يطلبوا أن تصلوا لأجل ملاك السلام .

كل الأمور الموضوعة أمامكم هى لسلامكم ...

وعند انصرافكم من هذا الاجتماع يطلب لكم قائلا » امضوا بسلام(١٢)» .

ويرى القديس ان الكنيسة وهى بيت الجميع وموضوع السلام للكل ، فيها يقبل الأخوة بعضهم بعضا بقبلة السلام كعمل افخارستى جوهرى .

سادسا : ليتورجيا من اجل العالم كله :

يقدم المؤمنون ذبيحة الحب بقلب متسع للعالم كله ، فيصلون من اجل الرئيس (الامبراطور) والجند والمرضى والمسافرين ... لينعم كل شخص بما يحتاج اليه .

لايقف حبنا عند حدود اخوتنا فى العالم بل نذكر حتى الذين سبق رقادهم:

« ليس باطلا تذكر الذين رحلوا عنا ، فى الأسرار الالهية ، ونشفع فيهم متوسلين الى الحمل المضطجع أمامنا ، الحامل خطايا العالم (١٣) » .

« ليس باطلا أمر الرسل أن نذكر الموتى فى الأسرار المهوبة ، اذ يعرفون ان فى ذلك نفعا عظيما لهم . لأنه كيف لا يغلب الله بتوسلاتنا عنهم متى وقف الشعب كله بأيد مرفوعة فى اجتماع كهنوتى ويقيموا ذبيحة مهوبة ؟! اننا نفعل هذا من أجل الراحلين المؤمنين ... ونقدم عطاءا للفقراء من أجلهم ، اذ يريدنا الله أن نعين بعضنا البعض (١٤) » .

سابعا : كانت العادة فى أيامه ان يتقبل المؤمنون الجسد فى أيديهم ، كما يظهر من قوله : « لا تتجاسر ان تلمس الذبيحة المقدسة بأيد غير مغسولة ... ولا تقترب بنفس غير مغتسلة . فان الأمر الأخير اشر من الأول ويجلب عقوبة أشد (١٥) » .

ثامنا : يمنع الشماس غير المستحقين من التقدم للتناول ، اذ يخاطبه قائلا : « ان أتاك انسان للتناول عن جهل فامنعه ولا تخف . خاف الله لا الانسان . فانك ان خشيت الانسان تحتقر أيضا منه . لكنك ان خشيت الله يحترمك حتى الناس . ان كنت لا تجسر على ذلك فاحضره لى ... انى

(11) In Mat, hom 32 : 9 .
(12) N & PNF, vol 10, P 216 .
(13) In 1 Cor, hom 41 : 4 .
(14) In Philip, hom 3 .
(15) Conc. Statues, hom 20 : 19

مستعد أن اسلم حياتى ولا اهين دم المسيح واقدمه لغير المستحقين . مستعد أن يسفك دمى ولا اعطى هذا الدم الموهوب بغير لياقة (١٦) » .

تاسعا : الاستحقاق للتناول :

« عندما يقول (الكاهن) : القدسات للقديسين ، هذا يعنى أن ينسحب من كان غير مقدس » .

« الذى يعطينا الاستعداد للاقتراب هو الاخلاص ونقاوة النفس(١٧) ».

« لا يقترب أحد من هذه المائدة تناول بدون اشتياق ، انما يلزم أن يتقدم الكل وهم ملتهبون بحرارة التقوى والشجاعة (١٨) » .

« نرى البعض قد اعتادوا الحضور الى الكنيسة بثياب نظيفة وايد مغسولة ، ولا يهتمون أن يحضروا بنفوس نقية لله . لست اقول هذا لكى أمنعهم عن غسل ايديهم وفمهم ، انما أود أن يغتسلوا كما ينبغى ، لا بالماء فقط وانما بكل الفضائل ، لأن دنس الفم هو الكلام الشرير والتجديف والسب والغضب والضحك ... (١٩) » .

+ + +

(16) In Mat, hom 82 : 5 .
(17) In Eph, hom 3 .
(18) In Mat, hom 82 : 4 .
(19) In Mat, hom 51 .

(جـ) الأعيـــاد والأصـــوام

تكشف لنا اعمـــال القديس عن بعض الطقوس والتقاليد الخاصـــــة بالأعيـــاد كما عاشتها الكنيسة فى انطاكية والقسطنطينية فى ذلك الحين ، كما تكشف عن بعض العادات الخاطئة التى حاول القديس معالجتها :

١ ــ كانت تقام عظات يومية فى كنيســـة انطاكية اثنـــاء الصـــــوم الكبير (١) .

٢ ــ كثيرون كانوا يجدون فى فترة الصـــوم الكبير والأعياد فرصة للتمتع بالتنـــاول من الأسرار المقدسة ، لكن القديس كان يوجههم للاهتمـــام بالتـــوبة والحياة الفاضلة كأساس للتمتع بهذه الشركة ، وليس مجرد حلول هذه الأيام (٢) .

٣ ــ كان بعض الأباطرة المسيحيين يبعثون برســـائل خاصة بالنصح فيها يعلنـــون اطلاقهم ما امكن من المسجونين ، وذلك كما حررنا الرب من أسر خطايانا . وقد جاءت رســـالة ثيؤدوسيوس عام ٣٨٧ م يقول فيهـــا : « آه لو امكننى أن أقيم حتى الموتى (٣) » .

٤ ــ من العـــادات التى مدحها القديس اجتماع العائلات الفقـــيرة معـــا فى جماعات لتقيم ولائم مشتركة على العيـــد ، حيث يعجز الفـــــرد او الاسرة الواحدة عن اقامتها (٤) .

٥ ــ كان البعض يشترون بعض الملابس الجديدة على العيد ، فكان يطالبهم أن يقتنوا فضائل جديدة تذكارا للعيد ، ويخلعوا رذائلهم .

مفهـــــوم العيـــــد :

« كل الأيام التى نعيشها هى عيد ... كل الزمان هو عيد للمسيحيين، وذلك من اجل سمو البركات التى ننالها (٥) » .

الحياة المسيحية ــ عند القديس ــ هى عيد ممتد ، خلالها ينعم المؤمن بفيض بركات عمل الله الخلاصى فى حياته ، متهللا بالله مخلصه ... هـــذا

---

(1) Conc. Statues, hom 5 : 20 . (2) In Hebr, hom 17 : 8 .
(3) Conc. Statues, hom 6 : 6 .
(4) Con. Statues, hom 11 : 15 ; In Rom, hom 24 .
(5) In 1 Cor, hom 27 .

المفهوم العـــام تسنده الأعياد السيدية السنوية حيث تذكرنا بجـــانب من جـــوانب اعماله الخـــلاصية كميلاد الســـيد (تجســـده) وقيامته الخ ... فلا نحتفل بالعيـــد كفرصة لتنعم الجسد بل لفرح النفس ونموها الروحى .

« العيد عو عرض لأعمال صالحة ،

هو تكريم للنفس :

هو تدقيق فى السلوك (٦) » .

هكذا يحمل العيـــد معنى عملى لممارسة حيـــــاة الشركة مع الله ، والسلوك كما يليق كأولاد لله ، لا ان ننغمس فى الأكل والشرب والشـــهوات :

« ليس من يفسد العيد مثل من يحفظه وهو لا يزال فى شره ودعواته ، بل بالأحرى اقول لكم ان مثل هذا الشخص لا يقدر ان يحفظ العيد حتى وان بقى عشرة ايام متتالية بلا طعام ، لأنه حيث يوجد الصراع والعداوة لا يوجد صوم أو عيد (٧) » .

« قد وضعت الأعياد لا لنسلك بغير لياقة ، ولا لكى نحشد الخطـــايا وانما لمغفرة خطايانا القائمة (٨) .

ولا يفوته أن يعلن مدى حزنه على تجمهر الشـــعب فى الكنيســـة أيام الأعياد وانصرافهم عنها بعد ذلك . « أنتم اليوم مسرورون وأنا وحدى حزين لأننى حينما انظر الى هذا البحر الروحى المائج بكم وارى غنى الكنيســـة غير المحصور افكر ان هذا الجمع الغفير بانقضاء العيد يبتعد عنى ويتفرق ، لذلك تحزن نفسى وينكسر قلبى لأن الكنيسة التى ولدت اولادا كثيرين لا تتعزى بهم فى كل اجتماع بل فى الأعياد فقط (٩) » .

مفهـــوم الصـــوم :

الصوم — عند القديس — ليس عملا جسدانيا ، بل هو تحرير للنفس خلال جهاد الجسد مع الروح للدخول فى حياة الشركة مع الله .

« ليس الصوم رياضة جسدية بل روحية (١٠) » .

« الصوم غذاء الروح ، يجعلها أكثر صلابة ، ويهبها اجنحة خفيفـــة بهما تنطلق الى الأعالى (١١) » .

« لتقف بجوار انسان صوام ، فانك تشتم فى الحال رائحته الذكية ،

---

(6) In 1 Cor, hom 18 .
(7) Conc. Statues, hom 20 : 19 .
(8) In 1 Cor, hom 27 .
(٩) المطران أبيفانيوس : الآمالى الذهبية ، ص ٣٥ .
(10) In 1 Tim, hom 12 .
(11) Conc. Statues, hom 3 : 12 .

لأن الصلاة رائحة روحية ، يعلن صلاح النفس خلال العين واللسان وكل عضو ... لست اقول هذا لكى أدين الذين يأكلون ، وانما لأظهر فائدة الصوم (١٢) » .

« من يصم يصبح خفيفا كما لو كان له اجنحة فيصلى بنشاط كلى ويخمد الشهوات الشريرة ويستعطف الله ويجعل نفسه المتعجرفة متضعة ، لذلك صام الرسل أكثر الأوقات . ومن يصلى صائما يملك جناحين أخف من النسيم ، فلا يهذى ولا يتثاءب ولا تنحط قواه فى وقت الصلاة كما يحدث مع الكثيرين . فهو أسرع من لهيب النار وارفع من الأرض فقط ، وهكذا يظهر عدوا ومحاربا للشيطان . لأنه لا أحد أقوى من المصلى بحرارة ، فاذا كانت تلك المرأة قدرت أن تستعطف القائد القاسى الذى لم يخف ولا يخجل من البشر ، فكم بالحرى يستعطف الله من يقف أمامه رافضا الملذات العالمية وتاركا أنواع المآكل الشهية ... (١٣) » .

الصوم وسيلة لا غاية :

كثيرا ما تحدث عن الصوم كاستعداد روحى للعيد يلزم أن ترافقه التوبة عن الخطايا مع الصلاة والتأمل والشركة فى الأسرار المقدسة وممارسة الفضائل . كما تحدث عنه أيضا كاستعداد روحى يهيىء الانسان للتمتع بالشركة فى الأسرار (١٤) . فالصوم « هو معاون عظيم جدا وحليف لنفعنا (١٥) » .

« جرت العادة فى الصوم الأربعينى ان يسأل كل الآخر عن عدد الأسابيع التى صامها . من المحتمل أن نسمع واحدا صام اثنين أو ثلاثة ، وآخر صام الصوم كله . فما الفائدة اذا اجتزنا الصوم من دون أعمال صالحة ؟ فاذا سمعت أحدا يقول انه صام الصوم الأربعينى كله ، فقل له : كان لك عدو فسالمته ، وكنت معتادا على النميمة فتركت هذه العادة ، وكنت تهزأ بالآخرين ، فأهملت هذه العادة الذميمة أيضا . فليست الفائدة للملاحين فى اجتيازهم المسافات الكبيرة فى البحار فقط بل فى اجتيازهم اياها مع الأحمال الثقيلة والبضائع الكثيرة . كذلك نحن لا فائدة لنا من الصيام ان اجتزناه سدى بدون تأمل (١٦) » .

---

(12) Con. Statues, hom 20 : 19 .

(١٣) المطران ابيفانيوس : الآمالى الذهبية ، ص ١٢٠ .

(14) In 1 Cor, hom 27 .

(15) Conc. Statues, hom 3 : 12 .

(١٦) المطران ابيفانيوس ، الآمالى الذهبية ، ص ٥٩ .

الصـــــوم مع التـــوبة :

« صوم فمك عن الأحاديث الشريرة والتعنيف ، لأنه ماذا ينفع ان صمنا عن الطيور والأسماك (١٧) ، ونحن نأكل اخوتنا وننهشهم ؟

من يتكلم بالشر على أخيه انما يأكل لحمه وينهش جسد قريبه . لذلك نطق بولس بقول مرعب (١٨) : فاذا كنتم تنهشون وتأكلون بعضكم بعضـــا ، فانظروا لئلا تفنوا بعضكم بعضا (١٩) » .

« اننا لا ننتفع شيئا من هذه الأتعـــاب المضاعفة والجهادات الخاصة بالصـــوم ان كنا غير قادرين على التمتع بالمائدة المقدسة بضمير صالح ...

ليتأمل كل منـــا فى نهاية الصوم اى أخطاء قد أصلحها ؟ ! اى خطـــايا تخلص منها ؟ اى وصمات تطهر منها ؟ وليعرف الى أى حال أفضل قد بلغ ؟

بهذا يكتشف (المؤمن) خلال سيرته الصالحة ما انتفع به من الصـــوم مدركا فى داخله أنه قد اعتنى بجراحاته . بهذا يقترب الى هنا .

ليته لا يعتمد الانسان على الصوم وهو لا يزال بعد لم يصلح افعـــاله الشريرة (٢٠) » ...

« انى أتحدث عن الصوم الحقيقى ليس امتناعا عن الطعام فحسب ، بل وكف عن الخطايا أيضا ... فقد صام الفريسى وخرج صفر اليـــدين ، معدما من ثمر الصوم ... أما اهل نينوى فصاموا وربحوا مراحم الله(٢١)» ...

صام اليهود ولم ينتفعوا شيئا بل امتلأوا لوما (٢٢) .

فالخطر عظيم بالنسبة للذين لا يعرفون كيف يصوموا .

لنتعـــلم قوانين هذا التدريب حتى لا نسعى باطلا ، ولا نضرب الهواء ، ولا نحارب الظل .

الصوم دواء ، لكن الدواء يصـــير غير نافع بل ضارا للذين يستعملونه بغير مهارة ... (٢٣) » .

« كرامة الصوم لا فى الامتناع عن الطعام بل فى الانسحاب من الاعمال الشريرة ...

---

(١٧) القيت اثناء الصوم الكبير عام ٣٨٧ حيث يصام عن الأسماك .

(١٨) غلا ٥ : ١٥ .

(19) Conc. Statues, hom 5 : 19 .

(02) Conc. Statues, hom 20 . 1.

(٢١) يونان ٣ : ١٠ .

(٢٢) اش ٥٨ : ٣ ، ٧ ؛ ١ كو ٩ : ٢٦ .

(23) Conc. Statues, hom 3 : 8 .

لا تصوم فمك وحده ، بل صوم أيضا عينيــك وأذنيك وقدميك ويديك وكل أعضاء جسدك .

صوم يديك بالنقاوة من الاغتصاب والطمع .

صوم قدميك بالكف عن الجرى الى المسارح الشريرة .

صوم عينيك بتعليمها الا يرتكزا فى التطلع على ملامح البعض وينشغلا بالجمال الغريب ...

أما صوم الأذنين فيكون بعدم قبول الكلام الشرير (٢٤) » .

الصـــــوم والصــــلاة :

« صام الرسل أكثر الأوقات .

ومن يصلى صائما يملك جناحين أخف من النسيم (٢٥) » .

الصـــــوم والصــــدقة :

« صوم بدون صدقة لا يحسب صوما . من يفعل هذا يكون اشر من الانســان النهم والسكير لأن القســوة أخطر من الترف (٢٦) » .

الصـــوم والشركة فى اجتماعات الكنيسة :

« من يأكل ويشترك فى الجماعة المقدسة بغيرة لائقة ، افضل بكثــير من الذى لا يأكل ويغيب (٢٧) » .

+ + +

(24) Conc. Statues, hom 3 : 10 .

(25) In Mat, hom 57 : 5 . للمطران ابيفانيوس ، ص ١٢٠ .

(26) In Mat, hom 77 : 6

(27) Conc. Statues, hom 10 : 1 .

(د) رسم علامة الصليب

« انت احــد المؤمنين ، ارسم علامة الصليب .

قل : هذا هو سلاحى الوحيــد ، هذا هو دوائى ، لا اعرف شــيئا سواه (١) » .

هذه الممارسة تتحول فى حياة المؤمن الى عادة روحية لها فاعليتها فى طرد الافكار الشريرة ، اذ يقول : « كثيرون لهم عادة رشم الصليب باستمرار . هؤلاء لا يحتاجون الى من يذكرهم بها ؛ فغالبا ما تمارس يدهم هذه العــادة لا اراديا عندما يجول الفــكر الى امور اخرى ، وكأنها صارت بالنســبة لهم معلما حيا يشير اليهم بالرشم (٢) » .

رشم الصليب بفهم :

تحول رشم الصليب الى عادة يلزم الا يفقدنا فهمنــا لقــوة الصليب الخلاصية وادراكنا انها علامة لقبول حب الله اللانهائى لنــا وتجاوب لعمــل المصلوب ، وشوق لحمل الصليب مع الرب المصلوب ...

فى هذا يقول : « لا يخجل احــد من علامة مخلصنا المكرمة .

هى راس كل الاعمال الصالحة ،

بل ونحمل صليب المسيح بكونه اكليلا .

عندما يولد احــد ميلادا جديدا يكون الصليب حاضرا .

وعندما ننتعش بالطعام السرى او يسام احد (للكهنوت) أو يفعــل امرا ما ، تكون علامة النصرة موجودة .

لننقشه بكل حرص على البيت والحوائط والنوافذ وفوق جباهنا وعلى ذهننا .

هى علامة الخلاص المقدم لنــا ، وعلامة حريتنــا وصـــلاح ربنا لانه كشاة سيق الى الذبح (٣) .

عندما ترشم ذاتك بعلامة الصليب اشغل ذهنــك فى غاية الصليب ، مطفئا الغضب وكل الشهوات الأخرى .

---

(1) In Colos, hom 8 .
(2) In 2 Tim, hom 6 .
(٣) أش ٥٣ : ٧ .

عندما ترشم ذاتك بعلامة الصليب املأ جبهتك بالشجاعة ، ولتكن نفسك حرة ، لكى تعرف بكل تأكيد من أين تنال الحرية ؟ . فعندما قادنا بولس الى هناك ، اقصد الى حيث الحرية اللائقة بنا ، انما قادنا الى صليب ربنا ودمه ، مذكرا ايانا بهذا ، قائلا : لقد اشتريتم بثمن . لاتكونوا عبيدا للناس (٤) . كأنه يقول : تأملوا الثمن الذى دفع لأجلكم فلا تكونوا عبيدا لانسان ، قاصدا بالثمن « الصليب » .

لذلك فانه يليق بنا الا نكتفى برشمه بالأصابع فقط بل يجب ان ننقشه اولا باستعداد القلب مع الايمان العظيم . فان رشمت الصليب على وجهك بالصورة المذكورة لا يجسر روح شرير أن يدنو منك ، اذ يرى السيف الذى قهر به ، وجرح به جرحا مميتا . ان المرء يرتعش عند رؤية المقصلة المعدة لاعدام المجرمين ، فكم يكون خوف الشياطين عندما يرون ذلك السلاح الذى حطم به المسيح قواهم وقطع راس الحية ؟

لهذا لا تخجل من عظمة هذه النعمة كى لا يخجل منك المسيح عند مجيئه فى مجده ، اذ تظهر هذه العلامة امامه مضيئة اشد لمعانا من الشمس ! فظهور علامة الصليب برهان للعالم بأسره وشهادة عن تتميم ما ينبغى عمله لأجل المسيح .

هذه العلامة — كما اختبرها آباؤنا فيما مضى ونحن فى وقتنا الحاضر — تفتح الأبواب الموصدة وتلاشى قوة الأعمال المضرة وتحول تأثير السم وتبرى الجراح المميتة الحاصلة من انياب الوحوش الكاسرة . فكما انها حطمت ابواب الجحيم وفتحت أبواب السموات وقدمت مدخلا جديدا للفردوس وهدمت حصون الشياطين ، فلا عجب أن تغلبت أيضا على المواد السامة والوحوش الكاسرة وما شابهها ...

اذن ، فلتنقش هذه العلامة على ذهنك ... لأن الصليب جدد العالم وهداه ، وطرد الضلال واعاد الحق ، جعل الأرض سماءا والبشر ملائكة .

به لم تعد الشياطين مرعبة ، بل تافهة ومزدرى بها .

به لم يعد الموت موتا بل رقادا ، فقد انطرح الذى يحاربنا تحت اقدامنا .

ان قال لك احد : اتعبد المصلوب ؟ قل بصوت مملوء فرحا وملامح مبتهجة : نعم أعبده . وان ضحك فابك عليه (٥) » .

---

(٤) ٢ كو ٧ : ٢٣ .

(5) In Mat, hom 54 : 7.

« ليست علامة عظيمة عن محبة الله للبشرية : لا السماءولا البحر ولا الارض ولا خلقه كل شيء من العدم ، ولا هذا كله معا مثل الصليب !

لهذا فهو فخر بولس القائل (٦) : حاشا لي أن افتخر الا بصليب ربنا يسوع المسيح (٧) » .

« لنعلق الصليب فوق أسرتنا عوض السيف ،

ولننقشه على أبوابنا بدل المزلاج ،

وليكن حول بيوتنا موضع السور (٨) » .

+ + +

---

(٦) غلا ٦ : ١٤ .

(7) In 2 Tim, hom 2 .

(٨) الآب حنانيا كساب : مجموعة الشرع الكنسي ، بيروت ٧٥ ، ص ٥٩٤ .

(هـ) طقوس اخـــرى

حملت كتابات القديس وعظاته الكثير من الطقوس التعبدية والتنظيمات الكنسية بغير حصر ، نذكر على سبيل المثال : طقس التســـبيح والترنم ، اذ يقول :

« لا شيء يعطى للنفس أجنحة ، وينزعها عن الأرض ، ويخلصـــها من رباطات الجســـد ، ويعلمها احتقار الأمور الزمنية مثل التسبيح بالنغمات الموزونة » .

« النفس بطبيعتها حساسة للموسيقى ، فلكى يحرم الله الشـــياطين من أن توحى للبشر بالأغانى الخليعة وضع لهم المزامير لحمايتهم ، فهى نافعة ومحببة فى نفس الوقت . بالأناشيد الروحية تنطلق النفس مع الشـــفتين بنعمة الروح القدس » .

كما أوضح كيف استخدم طقس التجنيز التسبيح بالمزامير ، اذ يقول :

« فكر بماذا ترنم فى هذه المناسبة ؟

« ارجعى يا نفسى الى موضع راحتك لأن الرب قد احسن اليك (١) » .

وايضا : « لا اخاف شرا لأنك انت معى (٢) » .

وايضا : « انت ملجاى من الغم الذى احاط بى (٣) » .

تأمل ، ماذا تعنى هذه المزامير ؟ لكنك لا تعطى اهتماما لمعانيها بل تسكر حزنا . تأمل باهتمام ان الأحزان الخاصة بموت الغير انما هى لعلاجك !

« ارجعى يا نفسى الى راحتك لأن الرب احســـن اليك » . اخبرنى ، هل تقـــول أن الرب احسن اليك وانت تبكى ؟ اما يكون هذا تمثيلا ، أو يكون رياءا ؟ فان كنت تؤمن حقـــا بما تقـــول فلا موضع لحزنك ، لكن ان كنت تقوم بدور تمثيلى وتظن أن هذه الأمور واهية ، فلماذا تغنى بالمزامير ؟ ... لـــماذا لا تطرد المرتلين بها ؟(٤) » .

+ + +

---

(١) مز ١١٦ : ٧ .

(٢) مز ٢٣ : ٤ .

(٣) مز ٣٢ : ٧ .

(4) In Hebr. hom 4 : 7 .

(٤)

منهج السلوك الإيماني

- الحيـــاة الفاضـــلة .
- الحيـــاة الفاضـــلة والعمل الالهى .
- الحيـــاة الفاضـــلة والجهـــاد .
- حـــول الحيـــاة الفاضـــلة .

الحياة الفاضلة

يعتبر القـــديس يوحنـــا الذهبى الفم رجل « الحيـــاة الفاضـــلة » ، اتسم فى عظاته وكتاباته بالواقع العملى . فقد آمن بالحياة الايمانية الانجيلية الكنسية كحياة عملية تمارس وتختبر وليس كمادة للاهوت النظرى أو الفلسفة والتأمل .

لقد عشق الكتاب المقدس ، لكنه لا يحبس نفسه ليعيش بين المجلدات ليخرج تفاسير جـديدة ، ولا يقضى الليالى الطوال فى التأمل والدهش ... لكنه يرى فى الكتاب المـــادة الحيـــة ياكلها المؤمن يشبع بها ويشـــهد لهـــا . أحب الكنيســة وتقاليدها واسـرارها لا فى تعصب ممقوت بل فى اتساع قلب . يراها حيـــاة ملائكية علوية لكنها ايضا تحمل الجانب الواقعى العمـــلى لأناس يعيشون فى هذا الجسد على الأرض . وفى حبه لايمانه لا يشتهى أن يحلق فى اللاهوتيات ليكتب أسرارها انما يرى فى الشركة العملية مع الثـــالوث القدوس كل الكفاية للنفس وكل الحصانة ضد الهراطقة والمقامين .

هذا الاتجاه العملى جعل من كتاباته وعظاته مزيجا حيا للجانب الايمانى الروحى الكنسى مع الجانب الانســـانى الواقعى لهذا خرجت كلماته بسيطة محيية النفس ، لتلتقفها الكنيســـة شرقا وغربا لا لتحتفظ بها فى مكتباتها كتراث ثمين بل بالأكثر تمزجها مع طقوسها ليعيش بها الشعب عبر العصور ...

وفيما يلى صورة مختصرة لمفهومه للحياة الفاضلة أو السلوك المسيحى العملى عند هذا القديس .

مفهـــوم الحيـــاة الفاضـــلة :

١ — تحدث القديس يوحنــا الذهبى الفم كثيرا جدا عن « الحيـــاة الفاضلة » ككل وعن الفضـــائل فى تفاصيلها من جانبيها الايجابى والسلبى ؛ فتحدث عن فضائل الحب لله ومحبــة القريب ومحبــة الأعـــداء والعطـــاء وعدم الادانة وعدم الحسد وعدم القسم والطهارة والبتولية الخ ... لكننى أود أن نكون أناسا أخلاقيين نعيش الحياة الفاضلة على المستوى الاجتماعى الأخلاقى البحت ، لكنه أرادنا أن ننعم بالفضيلة خلال شركتنا مع الله لنكون على شبهه وندخل الى الحياة الملائكية السماوية .

فى هذا يقـــول : « اننــا (بالفضائل) نصير متساويين مع الملائكة . يقدم لنا الملكوت فنحسب متحـــدين مع المســـيح . اننـــا نعلم اننـــا بدون الفضـــيلة نصير أدنى من الحيوانات العاقلة ؛ لذا يليق بنـــا أن نتـــدرب أن نكون بشرا ، لا بل بالأحرى نكون ملائكة ، لكى ننعم بالبركات الموعود بهـــا خلال نعمة ومحبة ربنا يسوع المسيح (١) » .

مرة أخرى يقول : « يمكننا ان اردنا وبمعونة نعمة الله العـــاملة فينا أن ننافس بأرواحنا الأرواح السماوية ، بل وقد نفوقها (٢) » .

٢ — الحيـــاة الفاضلة ليست مجموعة فضائل متراصة واحدة بجوار الأخـــرى ، لكنها فى حقيقتها هى **وحــدة واحـــدة متكاملة** تمثل « الحيـــاة الواحـــدة فى المســـيح يســـوع » . كل فضيلة انما تمثل جانبا من هذه الحياة غير معتلية للفضــــائل الاخرى ، لهذا يقـــول : « لا تكفى الفضيلة الواحـــدة ان تحضرنا بدالة امام كرسى المسيح . لا ، بل **نسأل أن تكون لنا الفضيلة العظيمة المتنوعة الجامعة الكاملة** . اسمع ما يقوله السيد المسيح لتلاميذه : « اذهبـــوا وتلمذوا جميع الأمم » وعلمـــوهم أن يحفظوا جميع ما أوصيتكم به (٣) » وايضـــا : « من يكسر أحـــد الوصايا الصغيرة يدعى الأصـــغر فى ملكوت السموات (٤) » ، أى فى القيامة ... بل لا يدخل الملكوت (٥) » .

٣ — لا تقف الحياة الفاضلة عند السلبيات بل يلزم أن يرافقها العمل الايجابى . ففى المسيح يســـوع ليس فقط تهدم أعمال الأنســـان العتيق ، وانمـــا تقوم فينـــا أعمال الانســـان الجديد لنحيـــا كأولاد لله . الفضـــيلة ليست رفضا لمملكة ابليس وكل اعمالها فحسب وانما هى قبـــول الملكوت

(1) In Philip, hom 7 .
(2) In Gen. PG 54 : 104 .
(٣) مت ٢٨ : ١٩ .
(٤) مت ٥ : ١٩ .
(5) In Eph, hom 4.

المسيح وأعماله فينا . هى تحطيم للشر خلال ممارسة الخير والبنيان الايجابى الداخلى .

يقول : « تنقسم الفضيلة الى أمرين : ترك الشر وفعل الخير . الانسحاب من الشر ليس كافيا لبلوغ الفضيلة ، انما هو بداية الطريق الذى يقود اليها . لا تزال تبقى هناك حاجة لنشاط عظيم (٦) » .

« تطلع الى الطوباوى بولس الذى ينزع البذار الشريرة ، وفى نفس الوقت يحثنا على احتجاز البذار الصالحة ، اذ يقول : « كونوا لطفاء (٧) » . فانك ان نزعت الأشواك وتركت الحقل عاطلا يعود فيمتلىء أعشابا غير نافعة . اذن الضرورة ملحة لشغل الحقل وزرع البذار الصالحة والنباتات المفيدة .

لنطرد الغضب ، ونضع الشفقة .

لننزع كل مرارة ، ونثبت الحنان .

لنستبعد الحقد والسخط ونزرع التسامح عوض عنهما (٨) » .

٤ ـــ **الفضيلة بين لغة الروح واللغة الانسانية** : حين يتحدث القديس يمزج بين لغة الايمان والروح وبين اللغة الانسانية بطريقة بشرية كما يتحدث أحيانا بلغة الأرقام .

ففى حديثه عن الصدقة يتحدث بلغة الروح فيتحدث عن الفقير كممثل للسيد المسيح ، قائلا : « بقدر ما يكون الانسان من الأصاغر هكذا يأتيك المسيح خلاله (٩) » ... ويرى فى أموالنا هى أموال الجسد كله أى الكنيسة : « لا تقل اننى انفق من أموالى ، ومن أموالى أعول الآخرين ، فانها ليست أموالك ، بل هى أموال غيرك . فكل فعل او نفع يعود على الجسد كله ويخدم كافة الأعضاء ، فان عاد النفع على عضو واحد فقط كان هذا العضو غريبا عن الجسد ، هكذا بالنسبة للأموال (١٠) » .

مرة اخرى يحدثنا عن الصدقة بلغة بشرية : « ان كنت تشتهى أن يكون لك أناس ينظرون صدقتك ، فانه لن يعدمك هذه الشهوة فى الوقت المناسب ، بل يشبعها فيك بزيادة كبيرة ... فان الله يشهد بها ويذكرك فى حضرة أهل المسكونة كلها (١١) » .

---

(5) In Eph, hom 4 .

(6) In Thess, hom 5 .

(٧) اف ٤ : ٣٢ .

(8) In Eph, hom 16 .

(٩) للمؤلف : الحب والعطاء ، طبعة ١٩٧٠ ، ص ٨ .

(١٠) الحب والعطاء ص ١٣ .

(١١) الحب والعطاء ص ١٨ ، ١٩ .

ويتحدث عنها ايضـــا بلغة الأرقام اذ يعلن استعداده أن يقدم احصائية عن الفقراء والأغنياء ليؤكد أن المدينة قادرة أن تشبع عشر مدن أخرى .

وفى حديثـــه عن محبة الاعداء يتحدث بلغة الروح قائلا : « كيف تطمع فى نوال المغفرة اذا تضرعت الى الله وأنت لم تسامح بعـــد نفسك بعـــدم مســـامحتك الذين صـــنعوا بك شرا ؟ ! كيف اذن يصـــفح الله عن هفواتك ؟ ... (١٢) » . ويتحدث أيضا عن المستوى الانسانى الاجتماعى : « ان أردت أن تنتقم لنفسك ، فاستخدم هذه الوسيلة : قابل الشر بالخير . بهذا تجعله مدينا لك وتنعم بنصرة مجيـــدة . أتحتمل شرورا ؟ ! اصـــنع الخـــير فتنتقم من عدوك ، لأنك ان قاومته يلومك الجميـــع كما يلومونه على نفس المستوى . لكنك ان احتملتـــه يمدحونك ويعجبـــون بك ، أما هو فيوبخونه . أية عقوبة للعـــدو أشد من أن يرى عدوه قد صار موضع اعجاب كل النـــاس ومديحهم ؟ ! وأى مرارة قاسية يعانيها اذ يرى نفسه ملوما من الجميع أمام عدوه ؟! ان فتحت فمك لتنتقم صمت الكل، أما ان صمت أنت فانك تسبه لا بلسان واحد ، بل بعشرات الألوف من الســـنة الآخـــرين ، فيكون الانتقام اعظم ... أتظنون ، لمـــاذا قال ربنـــا المســـيح : « من لطمـــك على خدك الأيمن حول له الآخر أيضـــا (١٣) » . ليس لكى يحتمل الانســـان ضربا أكثر ، وانما لأن فى هذا نفع للاثنين ... فانك بهذا تشبع رغبة الانسان الغضوب فيخزى ... فان الكلاب أيضا يقال عنها أنها اذا هاجمت انسانا فألقى بنفسه على ظهره ولم يفعل شـــيئا يهدأ غضبهم فى الحال . فان كانت الـــكلاب تحترم من يحتمـــل شرها ، كم بالأكثر يليق بالبشـــر وهم اكثر تعقلا ؟! (١٤) » .

وفى حديثه عن محبة العالم وشهوات الجسد يتحدث بلغـــة الروح ، فيرى فى التوبة طريق الانطلاق فوق كل محبة للأرضـــيات وسمو لأحاسيس الجسد واشتياقاته ، فيقول : « التوبة نار تلتهم كل ضـــعف بشرى ، تنزع التهاون والكسل وثقل الجسد ، وتعطى للنفس جناحا تطير به نحو السماء ، وتظهر لها خلال هذه القمة المرتفعة بطلان هذه الحياة الحاضرة . من لا يرتفع الى مركز المراقبة لا يستطيع أن يلتقط صورة صادقة للأرض ومحتوياتها . فان أمورا كثيرة تظلم مجال الرؤية وتصم الأذنين وتلعثم اللسان . لهـــذا يليق بالانسان أن ينتزع نفســـه من هذا الصخيب ويبتعد عن الدخان ويدخل الى الوحدة ليجد السلام العميق والهدوء والسكون مع الاستنارة . عندما تركز الأعين على حب الله ، ولا تعود تسمع الأذن الا كلماته وكأنهـــا سيمفونية

(12) In Mat, hom 66 : 3 .

(١٣) الحب الأخوى ، ١٩٦٤ ، ص ٣٢٢ .

(١٤) مت ٥ : ٣٩ .

زوجية عذبة ، تصبح النفس أسيرة (لله) تشعر بتقزز من الطعام والنوم . حقا ان ضجة العالم والاهتمامات المادية تنزاق على النفس لكنها لا تدخل اليها وبارتفاع النفس هكذا لا نعود تبالى بفرقعات العواصف الأرضية . وكما ان الذين يبلغون قمة الجبل لا يعودون يسمعون اصوات المدينة ولا يرون ما يدور فيها ، انما يحسبون هذه كلها أشبه بضجيج مبهم ، هكذا الذين تركوا العالم بارادتهم وانطلقوا يطيرون فى مرتفعات الفلسفة (الحكمة) لا يعودون يدركون شيئا عن احوال العالم لأن كل حواسهم متجهة نحو السماء . **اذن لنبحث لا عن وحدة البرية فحسب انما عن وحدة الرغبة الداخلية** . لنختبىء فوق أعلى قمة انفس حيث لا يسكن فيها شيء أرضى . ان قوة التوبة كمثل هواء يطرد الغبار ويكنس الشهوات اسرع من الدخان (١٥) » .

ويتحدث « عن الشهوات الجسدية » بطريقة بشرية فيقول : « ان كنت تدرب كلابا على مقاومة الجوع ، وتستأنس أسودا متوحشة ، وتروض حيوانات جامحة ، وتدرب عصافير على الكلام ، الا يكون من الغباء أن نعلم حيوانات غير عاقلة أن تتصرف بعقل ونترك المخلوق العاقل نهبا للشهوات الحيوانية ؟! (١٦) » .

+ + +

(15) In Eph, hom 16 .
(16) In Acts, PG 60 : 251 .

الحياة الفاضلة والتجسد الالهى :

الحيـــاة الفاضلة ليست مجموعة من الأخلاقيات أو نوع من الســـلوك الخارجى ، لكنهـــا هى تمتع بالطبيعة الجديدة الداخلية ، ليكون الانســـان الداخلى متمثلا بالله شبهه ، يحمل سمات حبه . . .

هذا هو هدف التجســـد الالهى . . . « صـــار (ابن الله) ابنا للانسان لكى يصير ابناء الانسان ابناء لله (١) » . خلال التجسد الالهى قدمت لنا الطبيعة الجديدة التى على شبه المسيح نفسه . بهذا تصير حياتنا مبهجة للآب الذى يحبنا ، اذ يصير الانسان قيثارة متوافقة نغمها الروحى يسحر الله (٢) » .

خلال هـــذه الطبيعة الجديدة نسمع كلمات القديس : « ها أنت ترى الفضيلة هى التى حسب الطبيعة والرذيلة ضد الطبيعة ، وذلك مثل الصحة والمرض (٣) » .

بمعنى آخر «الحياة الفاضلة» ليست من صنعنا البشرى ، لكنها «طبيعة جديدة» قدمها لنا الله الذى قال لنا انه اختارنا ولسنا نحن الذين اخترناه(٤) . . . « ان كل الفضل هنا لصاحب الدعوة ، وما على المدعوين الا الطاعة (٥) » . وكما يؤكد القديس « الا نلاحظ أنه ليس شىء ما نفعله بدون المسيح (٦) » .

استشهد القديس بالرسول بولس الذى له فضل فى اختياره وتمتعه بهذه الحياة الفاضلة الغنية ، قائلا : « نتعلم من بولس ان المسيح هو الذى أعلن ذاته له . من اجـــل هـــذا يقول الســـيد : « ليس أنتم اخترتمونى بل أنا اخترتكم » (٧) » .

الحياة الفاضلة وعمل الروح فينا :

اذ انطلق الرب الى سمواته ارسل لنا روحه القدوس يســـندنا لكى فى المعمودية يهبنا الميلاد الروحى الجديد ، ويبقى الروح القدس بمواهبه وعطاياه

(1) In Joan, In Rom, PG 59 : 79 ; 60 : 466 .
(2) In Ps. PG 55 : 497 .
(3) In Eph, hom 2 .
(٤) يو ١٥ : ١٦ .
(5) In 1 Cor. PG 61 : 12 , 13 .
(6) In Eph, hom 1 .
(7) De Laud S Pauli .

سندا لنا يغذى الحياة الفاضلة لكى نبلغ ملء القامة ... الحياة الفاضلة هى فى عمل روح الله فينا ...

فى هذا يقول القديس يوحنا ذهبى الفم :

« لا نقدر ان نجرى فى طريق الله الا محمولين على أجنحة الروح (٨) » .

« بمعونة الله نحن نفعل الخير الذى نمارسه (٩) » .

« ليس اقوى من الذى يتمتع بالعون السماوى ، كما انه ليس اضعف من الذى يحرم منه ! (١٠) » .

« لنكن اقوى من الجميع ، متمثلين ببولس وبطرس ويعقوب ويوحنا ، فانه ان غاب عنا عون الله لا نقدر أن نقاوم اتفه اغراء (١١) » .

« لا نخشى شيئا ، فاننا لكى نقهر الشيطان يلزمنا أن نعرف ان مهارتنا لن تفيد شيئا ، وان كل شىء هو من نعمة الله (١٢) » .

« الذين يعاقبون ، فمن اجل العدالة ،

أما الذين يكللون ، فمن أجل النعمة .

فلو انهم مارسوا الف عمل صالح ، انما يتمتعون بالسماء والملكوت مقابل هذه الأعمال الصغيرة لأجل حرية النعمة ، فيرتفعون الى ما لا يقاس (١٣) » .

اخيرا يحث القديس شعبه على التجاوب مع عمل روح الله فيهم قائلا: « لقد اخذت النعمة الالهية فى المعمودية ، اخذت نصيبك فى الروح ، وأن لم تتصور ان هذا يكفى لعمل المعجزات ، فليكن على الأقل كاف للسلوك فى الحياة المنتظمة (١٤) » .

+ + +

---

(8) In Mat, In Gen. PG 57 : 30; 53 : 228.

(9) In Mat PG 57 : 303.

(10) In Paralyt. PG 51 : 51.

(11) In Mat PG 58 : 720.

(12) In Act PG 60 : 124.

(13) In Mat PG 58 : 720.

(14) De Compunct. PG 47 : 407

الحيـــاة الفاضلة وحرية الارادة :

لا يلزمنا الله على الخلاص قهرا ولا يطلب منا ايمـــانا سلبيا ، يريدنا سادة لنـــا الايمان الحى فى امكانياته لنعمـــل بكامل حريتنا ، مجاهدين حتى النهاية .

« لا يغضبنا الله ولا تلزم نعمـــة الروح ارادتنا ، لكن الله ينادينـــا وينتظر أن نتقدم اليه بكامل حريتنا ، فاذا اقتربنا يهبنا كل عونه (١) » .

« الله لا يلزم الذين لا يريدونه ، لكنه يجتذب الذين يريدون (٢) » .

« الله لا يقيـــد رغباتنا او ارادتنا بعطاياه ، لكن ما نكاد نبدأ ونظهـــر الاستعداد حتى نجده يعرض علينا فرصا عديدة للخلاص (٣) » .

« أوجد الخـــالق طبيعتنا سيدة نفسها . ففى رحمته يهبنا معــــونته على الدوام وهو يدرك ما هو خفى فى أعماق القلب . انه يرجونا وينصحنا وينهانا ويحذرنا من التصرفات الشريرة ،لكنه لا يفرض علينـــا شيئا قسرا . يعرض الأدوية المناسبة ، تاركا الأمر كله لقرار المريض نفسه (٤) » .

« نحن سادة ، فى امكاننا أن نجعـــل كل عضـــو فينا آلة للشر أو آلة للبر (٥) » .

« ان عطش احـــد فليقبل الى ويشرب (٦) » .

انى لا أجتذب انسانا بالقـــوة أو العنف ، لكن ان كان لأحـــد الارادة الحسنة وملتهبا بالرغبة ، فهذا أنا أدعوه (٧) » .

« لقد ترك كل شيء لارادتنا بعد النعمة التى هى من فوق ، لذا وضعت عقوبات ضد الخطاة ومكافاة للفضلاء (٨) » .

« يعتمد الخير علينا وعلى الله أيضا . فنحن علينا أن نقبل الخير ، فاذا ما اخترناه ينعم الله علينا بما عنده . انه لا يسبق رغبتنـــا حتى لا يغتصب

(1) De verb Habents.
(2) De mut. nom PG 51 : 143 .
(3) In Joan. PG 49 : 117 .
(4) In Gen PG 53 : 158 , 159 .
(5) Ad. pop PG 49 : 66 , 67 .
(٦) يو ٧ : ٣٧ .
(7) In Tit. PG 62 : 688 .
(8) In Gen PG 63 : 187 .

ارادتنا الحرة . لكن ما نكاد أن نختار حتى ينعم علينا بمعونة هائلة (٩) » .

« هكذا عندما يرى سيدنا أن نفسا ترتفع نحو الخيرات الروحية بشوق شديد وحيوية ينعم عليها بنعمته (١٠) » .

« لو كانت النعمة لا تنتظر ما يتحقق من جانبنا لانسكبت بفيض فى كل النفوس ، لكنها اذ تطالب ما هو من جانبنا تسكن فى البعض بينما تترك البعض الآخر ، ولا تظهر فى البعض لأن الله يشترط اولا الاختيار السابق (١١) » .

ويعطى القديس مثالا لتضافر عمل الله مع ارادتنا الحرة بالرسول بولس ، اذ يقول : « كيف صار بولس بولس ؟ هل من ذاته أو هو عمل الله ؟ من عمل الله ، لأنه من ذاته (اذ بارادته سلم نفسه لله) (١٢) » .

كيف تكون لى الارادة الصالحة ؟

ان كان الله فى عمله فينا يتطلب ارادتنا الصالحة التى تسلم كل شيء فى يدى الله الذى يعمل ، فكيف ننعم بهذه الارادة الصالحة .

حتى هذه الارادة الصالحة هى عطية من الله ... لكن لنبدأ نحن ما فى استطاعتنا — مهما كان صغيرا وهينا — فان العمل يجلب عملا،والارادة الصالحة تنتج ارادة أفضل ...

يعلق القديس على قول الرسول بولس : « الله هو العامل فيكم أن تريدوا وان تعملوا من اجل مسرته (١٣) » قائلا : :

« ان اردتم ، يكون هو العامل فيكم أن تزيدوا ... فان الرغبة القلبية وتنفيذ العمل هما عطية من عنده .

حيث تكون لنا الارادة هو يقوى ارادتنا ...

كما ان العمل يجلب عملا ، كذلك عدم العمل يجلب عدم عمل .

اتعطى صدقة ؟ بعطائك الصدقة يزداد شوقك للعطاء ! (١٤) » .

هكذا لا يعفى القديس الانسان من مسئوليته ، فان كانت حتى الارادة الصالحة من عمل الله ، لكن الله يهبها حينما ننطلق بارادة عمل مهما بلغ صغرها ... لنبدأ ، والله هو الذى يعمل !

مرة اخرى يؤكد القديس ارادتنا الحرة وتضافرها مع العمل الالهى بقوله :

---

(9) In Hebr, PG 63 : 99 .
(10) In Gen PG 53 : 39 .
(11) De Compunct PG 47 : 408 .
(12) De Laud Pauli PG 50 : 510 .
(13) فى ٢ : ١٣ .

« هناك حاجة الى ارادتنا الشخصية ... لكن هذا يلزم فى نفس الوقت الى اعلان من فوق حتى تتقوى النفس التى تتقبله (١٥) » .

« كان المجوس مدفوعـــين بتحريك داخلى من الله ، لكن هـــذا لن يمحو ارادتهم الشخصية بأى حال من الأحوال (١٦) » .

« النور الذى أعمى بولس كان من الخارج (من قبـــل الله) فانفتحت عيناه الداخليتان (١٧) » .

الحيـــاة الفاضـــلة والجهـــاد :

الله هو سر حياتنا التقـــوية الفاضلة ، يعمل فينا دون أن يفقـــدنا حريتنا الشخصية بل يترك كل شيء لارادتنا ... ومع هذا فانه يعمل فينـــا أيضا لتكون لنا هذه الارادة الصالحة ...

بهذا يدمج القديس العمل الالهى بالجانب الانسانى ليجعل من علاقتنـــا بالله ، ليس علاقة الانسان المتكل على ذاته المنعـــزل عن الله ، وفى نفس الوقت ليس بالكائن السلبى الذى يتقبل كل الحب من الله دون جهـــاد من جانبه ... لقد ركز القديس كثيرا على جهاد الانسان ، اذ يقول :

« أى شعلة يلهبها الروح فى داخلنا يمكننا ان أردنا أن نوهجهـــا أكثر فأكثر ، وان لم نرد نفقدها للحال (بتراخينا وعدم جهادنا) (١٨) » .

« لا يريد الله أن تكون العطية بكاملها من جانبه ، لكنه يريد أن تدخل فيها الصلاة حتى لا يصير العبد بلا مكافأة .

الله يريد أن يظهر العبـــد وكأنه قد ســـاهم فى شيء حتى لا يسقط فى الخجل (١٩) » .

« النعمة دائما مستعدة ! انها تطلب الذين يقبلونهـــا بكل ترحيب . هكذا اذ يرى سيدنا نفسا ســـاهرة وملتهبة حبا ، يسكب عليها غناه بفيض وغزارة تفوق كل طلبته (٢٠) ».

« يلزمنا أولا أن نصنع ما نستطيع ، فيعمل الله فينا » .

« (يهب الرب نعمته) عندما نقدم الدليل بالجهاد الشخصى (٢١) » .

« يطلب الله منا حجة صغيرة لكى يقوم هو بكل العمل (٢٢) » .

---

(14) In Philip, hom 8 .
(15) In Joan PG 59 : 254 .
(16) In Mat PG 57 : 67 .
(17) De mut nom PG 51 : 150 .
(18) In Mat PG 57 : 99 , 80 .
(19) In Mat PG 58 : 592 .
(20) In Gen PG 53 : 76 , 77 .
(21) In Paralyt PG 51 : 52 .
(22) In Rom PG 60 : 499 .

« اذا قيل أن الله يعطى ، فلا تظنوا أن العطية تقدم جزافا ، انما يهبها من جعل نفسه أهلا لقبولها (٢٣) » .

« ما يحبه المسيح فوق كل شيء هو أن يكتسب المؤمنون المجد بأنفسهم وليس بنعمته وحدها (٢٤) » .

« الله يريدكم أن تبذلوا مجهودا صغيرا حتى تنتزعوا النصر ، وذلك مثل ملك يريد أن يقف بابنه وسط الجيش داخل المعركة ويطلب منه ولو يلقى حجارة حتى يسند اليه النصرة ، مع أن الملك هو الذى يفعل كل شيء . هكذا يفعل الله معنا فى الحرب ضد الشيطان » .

« الله فى حبه أعدنا من قبل (النعمة) للخلاص . هذا الخلاص نبلغه لا بمجهودنا ولا بأعمالنا الصالحة انما بنعمته . ولكن ليس بها فقط انما بالفضائل أيضا . فانه لو كان كل شيء من قبل النعمة وحدها لخلص جميعنا . ولو أن كل شيء بفضليتنا الشخصية فما فائدة شفاعة المسيح وتجسده بالحقيقة نحن مخلصون لا بالنعمة وحدها ولا بالفضيلة وحدها بل بالاثنين معا (٢٥) » .

« الله يدعو ويجذب الى الحق الذين حتى فى أخطائهم يطلبون طريق الحق (٢٦) » .

« يقول (الرسول) : « فى المحبة سبق فعيننا (٢٧) » . هذا لم يحدث عن تعب أو عن عمل صالح مارسناه بل من قبيل محبة الله . لكنه ليس خلال المحبة وحدها بل وأيضا خلال فضيلتنا وحدها لما كانت هناك ضرورة لمجيئه وتدبيره الالهى .

يقول الرسول « اختارنا » ، والذى يختار يعرف من هم الذين يختارهم . ويضيف « فى المحبة سبق فعيننا » لأن الفضيلة لا تقدر أن تخلص بدون المحبة (الالهية) .

اخبرنى ، ماذا كان ينفع بولس لو يدعه الله منذ البداية ؟ لقد أحبه وجذبه اليه !

بجانب هذا وهبنا ميزات عظيمة بسبب حبه وليس بسبب فضيلتنا ...

---

(23) De verb Habents PG 51 : 276 .
(24) In Mat PG 58 : 541 .
(25) De poen PG 49 : 316 .
(26) In 1 Cor PG 61 : 70 .
(٢٧) أف ١ : ٤ .

فقد نقلنا من العداوة الى النبـوة كاولاد ، وهذا بحق هـو من عمل الحب الحقيقى الفائق (٢٨) » .

« حل الروح على (كيرنيليـوس) لأنه هو أولا فعـل ما كان يجب أن يفعله فوهب له الايمان (٢٩) » .

« يدعـو الفضـائل نعمـا ، لكنها ليسـت مثل بقيـة « النعم » (صنع المعجزات) فان الأخيرة من الله بالكامل ، أما الأولى قلنا فيها نصيب. وان كان النصيب الأكبر هو من الله لكنها تنسب لله بالكامل ليس لالغـاء ارادتنـا الحرة وانما لكى يجعلنا متواضعين ونتصرف حسنا (٣٠) » .

« تأكد أنه يستحيل أن يبذل انسـان كل جهـده ليخلص ويفعل كل ما فى قدرته ويتركه الله (٣١) » .

« الذين يسقطون فمن اجل ضعفهم الخاص ابتعدوا عن الله ، وليس الله هو الذى تركهم (٣٢) » .

الجهـاد والبر الذاتى :

مرة أخـرى يخاف القديس على المؤمن اثناء جهاده لئلا يظن أنه يجاهد بذاته فيفقد روح الجهاد بالبر الذاتى ، اذا يقول :

« يعـد الله النفس بالسهر ثم يسكب فيها النعمـة (٣٣) » ، وكأن السهر ذاته هو عطية من الله ...

« لا شيء يجعل أعمالنا الصـالحة بلا فائدة وباطلة الا ان تذكرناها حاسبين فى انفسنا اننا نصنع صلاحا » .

« اعترف انك بالنعمة تخلص ، حتى تشعر أن الله هـو الدائن ... فان اسندنا لله (أعمالنا الصـالحة) تكون مكافأتنا عن اتضاعنا أعظم من المكافأة عن الأعمال نفسها ...» .

---

(28) In Eph, hom 1 .
(30) In Philip, hom 4 .
(32) Ad stag PG 47 b 440
(31) In Nou est PG 56 : 162 .
(33) In Acts PG 60 : 124 .
(29) In 2 Tim PG 62 : 612 .

الايمـــــان والأعمـــــال :

لم يكف القديس عن أن يكرر انه لا خلاص بالايمان بدون الأعمال(٣٤) ؛ بدونها يصير الايمان كخيال غير ملموس (٣٥) .

مرة اخرى يقـــــول : « ماذا تفيـــد شــــجرة كبيرة وكثيفـــة ان كانت بلا ثمر ؟ ! (٣٢) » . اذ يليق بالمسيحى أن يكون معلما وخميرة ونورا وملحا للأرض (٣٧) ، وهو لا يستحق أن يحمل هذه الألقاب ان لم تتجمع أعمـــــاله الصالحة « فى نسيج حكمة الحياة مع ارثوذكسية الايمان (٣٨) » .

وفى الصــــلاة من اجل الموعوظين يطلب الصلاة لأجل تمتعهم بالحيـــاة العاقلة (٣٩) .

+ + +

(34) In Mat, In Rom, In Hebr. PG 57 : 528; 60 : 551 ;
(35) In Hebr PG 36 : 77 .
(36) In Gen 53 : 110 .
(37) In Joan PG 59 : 592 .
(38) In Incom PG 48 : 811 .
(39) In 2 Cor PG 61 : 401 .

الحيـــاة الفاضـــلة والكتاب المقـــدس :

وجد فى الكتاب المقدس المـــادة الحيـــة لحث شعبه على الحيـــــاة الفاضلة ، فكانت عظاته على الكتاب التى تكاد أن تكون يومية تحمـــــل تفســـيرا سلوكيا عمليا . يظهر هذا بوضوح فى عظاته على انجيل القـــديس متى حيث أكثر الحديث عن الصدقة حتى قال : الآن اشـــــعر بالخجل من الصـــدقة فقد تكلمت عنها كثيرا ، وان كنت لم أبلغ الثمر اللائق . حقا لقد تزايد عطاء البعض للفقراء لكن ليس كما أود ...(١) » .

هذا وقد أوضح أهمية الكتاب المقدس للحياة الفاضلة ، اذ يقـــول : « تبدو أباطيل العالم كبيرة ، اذ هى كالظل الذى يكون ضـــخما حينما تـــكون الشمس بعيـــدة ، أما وقت الظهيرة حيث تكون الشمس فوق رؤوســـــنا فيتضاءل الظل. هكذا تبدو الضعفات البشرية ضخمة للبعيدين عن الفضيلة ، أما الذى يقف تحت نور الكتاب الالهى المبهر فيراها واهية وصغيرة وباطلة ، وسريعة الهروب (٢) » .

« ان النبى العظيم داود لعلمه بالفـــائدة الجمة من مطالعتـــه الكتب المقدســـة كان دائما يصـــغى بكليته اليها ويلذذ بالحديث عنها . أما هـــو القائل : طوبى للرجل الذى لم يسلك فى مؤامرة الأشرار ... يكون كغرس مغروس على سواقى المياه يعطى ثمره فى حينه وورقه لا يذبل ، وكل ما يعمل يصلح (٣) » . فوجود الشجرة على سواقى الميـــاه يعطيهـــا الرى الدائم الواقى اياها من تقلبات الطقس فلا تضرها أشعة الشمس المحرقة ولا الهواء الجاف ، لأن الرطوبة الكافية داخلها تلطف لها حرارة الشمس . **هكذا النفس الواقفـــة أمام ينابيع الكتابة الالهية تستقى منها الحيـــاة وتنعم بنـــدى الروح القدس** ... (٤) .

« التمرين على مطالعة الكتب الالهية هى الميناء الهادىء والســـــور الحصين الذى لا ينهدم ..

---

(1) In Mat, hom 66 : 3 .
(2) In Ps. PG 55 : 513 .
(٣) مز ١ : ١ — ٣ .
(٤) المطران ابيفانيوس ، ص ٩ .

انها تطرد اليأس ، وتحفظ الوداعة ، وتغنى الفقير أكثر من الغنى ، وتبعد الأغنياء عن الخطأ ، وتجعل الخاطىء صديقا ، وتقـود الصديق الى المأوى الحصين ، وتستأصل الشر وتزرع الخير حيث لا اثر له وتطرد الحقد والضغينة والحفيظـة ، وترد النفس الى الفضيلة وتثبتها . بل هى كالطبيب للنفس ، ونشيد الهى سرى يميت الشهوات ويستأصل اشواك الخطيئـة . انها تنقى الحقل وتزرع البذور الطاهرة وتنضج الأثمار . انها الطيب المنتشر لا بكميته بل بطبيعته . هكذا الكتب الالهية تعطينا المنفعة العظيمة لا بكثرة كلامها بل بالقوة الكائنة فيها (٥) .

« انر نفسك وجسدك بوجود الكتابة المقدسة على شفتيك وفى قلبك : فكما أن القباحة تدنسنا وتستدعى الشيطان ليأذينا ، هكذا المطالعة الروحيـة تنير النفس وتجلب لها نعمة الروح القدس (٦) » .

الحيـاة الفاضـلة والحب :

ان كانت طبيعة الله حب ، فان الحياة الفاضلة المتمثلة بالله جوهرها الحب . فى هذا يقول القديس : « الحب هو الأصل ، وهو محصلة الفضائل، بدونه تكون جميع الفضـائل بلا نفع . اى شىء يعـادل الحب الذى يضم الناموس والأنبياء ، الحب الذى بدونه لا الايمان ولا التأمل ولا معرفة الأسرار بل ولا الاستشهاد نفسه يقدر أن يخلص ؟ ! (٧) » . كما يقول : « ان كنا فضلاء ، فالمحبة لا تهلك ، لأن الفضيلة تنبع عن الحب ، والحب ينبع عن الفضيلة (٨) » .

كما ان الحب هو غاية الحياة الفاضلة وهو سر هذه الحياة ، والدافع اليها ، فان حب الله لنا هو الذى قدم لنا هذه الحياة الفاضلة .

« محبة الله هى التى توحد الأرض والسماء معا .

محبة الله هى التى اجلست الانسان على العرش الملوكى .

محبة الله هى التى اعلنت عن الله على الأرض .

محبة الله جعلت الرب خادما .

محبة الله جعلت المحبوب يسلم ذاته من اجـل اعدائه ، يقدم الابن حياته لأجل مبغضيه ، الرب من أجل خدامه ، الله من أجل الناس ، الحـر من أجل العبيد (٩) » .

---

(٥) المطران ابيفانيوس ، ص ١٠ .

(٦) المطران ابيفانيوس ، ص ١١ .

(7) De Incom PG 48 : 701 — 702 .

(8) In Eph, hom 9 .

(9) In Eph, hom 9 .

الحيـــاة الفاضـــلة والخـــوف :

ان كان الحب هو الدافع الحقيقى للحيـــاة الفاضلة ، لكن البعض يمارســـون هذه الحياة من أجل الخوف من العقـــوبة ، والبعض خجلا من الناس ...

« انى متأكد أن كثيرين كان يمكنهم أن يستهينوا بالخيرات التى لا ينطق بها لو شعروا أنهم لا يعاقبون (١٠) » .

« بالخـــوف من الجحيم بالـــكاد نقبـــل أن نتمم بعض الأعمـــال الصالحة (١١) » .

« زرع الله بذار الخجل فى طبيعتنا ، فان كان الخوف لا يكفى لتجنبنا نحو طريق الحق ، فقد أوجد الله وســـائل كثيرة لتجنب الخطيـــة . فعلى سبيل المثال يمتنع الانسان عن الخطأ اما خوفا من القوانين الوضعية أو لأجل سمعته أو بقصد تكوين صداقات ...

ما لا نصنعه من أجل الله نفعله بدافع الخجل .

ما لا يفعله الانسان من أجل الله يفعله خوفا من الناس (١٢) » .

طريق الحيـــاة الفاضـــلة :

يرى أن بدء الحياة الفاضلة هو الاحساس بالغربة ... هذا الاحساس يلازم الانسان بالحب نحو السماويات .

« أهم العـــلوم وأولها هو أن نعرف أننا غرباء فى هذه الحياة (١٣)» .

أما قمة الطريق فهو « حياة البتولية » ... بتولية النفس والجسد(١٤) أيضا ، فالبتوليون « هم جيش المسيح اللامع (١٥) » . « البتولية هى قمـــة الفضيلة ، هى الثوب الموشى بالذهب الذى للكنيسة (١٦) » .

الحيـــاة الفاضـــلة كحيـــاة داخلية :

الحياة الفاضلة هى حياة داخلية يعيشها الانســـــان بغض النظر عن الموضع الذى يعيش فيه او الظروف التى تحيط به ، سواء الغنى أو الفقر ، الصحة أو المرض ، الكرامة أو الهوان ...

« ليس الموضع هو الذى يخلص بل طريقة السلوك والارادة (١٧) » .

(10) In 2 Thess PG 62 : 477 .
(11) In Rom PG 60 : 430 .
(12) In Philip, hom 4 .
(13) In Ps PG 55 : 341 .
(14) In Hebr PG 63 : 202 .
(15) Quad reg. fem PG 47 : 515 .
(16) In Ps. 55 : 202 .
(17) De poe PG 49 : 344 .

« ليس فى ارادتنا أن نكون عظماء أو صغار ؛ أما أن نكون صـالحين ولطفاء فهذا من نصيب قرارنا (١٨) » .

« أمامك أمثلة بلا حصر فى الكتب المقدسة عن حياة اناس فاضلين ، لك أن تختار من تريد ليكون مثلا لك بعد السيد . منهم من أظهر الحياة الفاضلة خلال فقره ، وابراهيم خلال الغنى . خذ لك المثال السهل بالنسبة لك والمناسب لحياتك العملية .

ايضا واحد أظهر الحياة الفاضلة خلال الزواج وآخر خلال البتولية : ابراهيم خلال الزواج والآخر (ايليا) خلال البتولية . لك أن تتبع ما تريد فان الطريقين يقودان الى السماء .

واحد أظهر الحياة الفاضلة بالأصوام مثل يوحنا ، وآخر بدون أصوام مثل ايوب . الأخير اهتم بزوجته وأولاده وبنـاته وعائلته وكانت له ثروة عظيمة ، أما الأول فلم يكن له الا ثوبا من الشعر .

داود اظهر حياته الفاضلة خـلال مملكته ، فان الارجـوان والتاج لم يدفعانه الى الرخاوة ـ اقصد موسى ـ تسلم قيادة الشعب كله فى ظروف قاسية . وبقـدر ما وجدت الصعوبات بصورة أقسى كانت قوته أعظم . . .

وعلى العكس ، تأمل ، فان البعض هلك وهو فى الزواج والاخر وهو فى البتولية . شمشون هلك وهو متزوج ، ولم يكن الزواج هو سبب هلاكه انما سوء اختياره . فى البتولية ايضا هلك الخمس عذارى (الجاهلات) . هلك البعض فى الغنى مثل الغنى الذى احتقـر لعـازر ، وهلك البعض فى الفقر اذ لا تزال اعداد بلا حصر من الفقراء يهلكون . . .

أتريد أن ترى جنديا قد خلص ؟ ! كرنيليوس . . .

أتريد حاكما خلص ؟ ! خصى ملكة كنداكة . . .

ان استخدمنا الثروة استخداما صالحا لا تهلكنا . . . ليس لشىء ما سلطانا ان يؤذى الانسان المتيقظ . . . متى كانت النفس نقية ليس من شىء يعوقها عن الحياة الفاضلة . من يجاهد ليس شىء خارجى أن يعوقه !

الانسان الفاضل الذى تكرست حياته لله تعلن فيه هذه الحياة الفاضلة سـواء كان يتمتع بثروة او يلحقه فقر ، فى صحة أو يعـانى من مرض ، له كرامة عظيمة او يصيبه هوان . الم يعمل الرسـول تحت كل الظروف :

(18) Ad illum PG 49 : 236 .

« بمجد وهوان ، بصيت حسن وصيت ردىء (١٩) » . هكذا يكون المصارع مستعدا فى كل شىء ! هذه هى طبيعة الفضيلة .

ان كنت تقول انى غير قادر على قيادة الكثيرين فاسلك فى حياة الوحدة ، فأنت تسىء الى الفضيلة التى تمارس فى كل الأحوال ، وتشرق فى كل الأوضاع ما دامت قائمة داخل النفس . ان وجدت مجاعة أو كان هناك فائض تظهر الفضيلة قوتها ، وكما يقول بولس : « أعرف كيف أغتنى وكيف اكون فى عوز (٢٠) » . هل احتاج ان يعمل ؟ انه لم يخجل بل صار يعمل لمدة عامين . هل التزم ان يحتمل الجوع ؟ انه لم يخر بسبب هذا ولا اضطرب . هل التزم أن يعانى من الموت ؟ انه لم ييأس ، وانما أعلن سمو افكاره وفنه فى كل شىء .

اذن لنمتثل به فلا نجد عمله للحين .

أخبرنى ، اى شىء له من القوة حتى يحزن الانسان ؟ لا شىء ...

لنفترض أن انسانا صالحا له زوجة وأولاد وغنى وكرامة عظيمة ، يعيش فى هذا كله حياة فاضلة . انزع عنه هذا كله يبقى أيضا فاضلا ، لا تهزمه المصائب ولا ينفخه الغنى ، انما يكون كالصخرة راسخا . ان كان البحر هائجا أو هادئا لا تحطمه الأمواج ولا يؤثر فيه الهدوء . هكذا يبقى العقل الراسخ ثابتا فى الهدوء كما أثناء العاصفة .

لو أن أطفالا يبحرون فى مركب لكانوا يخافون ، أما القائد فيجلس ضاحكا بغير اضطراب . يضحك عليهم اذ يراهم مضطربين . هكذا أيضا النفس الحكيمة بالحق تبتسم على الدوام مهما تغيرت الظروف ، بينما يكون غيرها مضطربا . تجلس فى ثبات كما لو كانت تمسك بذراع الدفة ومرساة الورع .

اخبرنى ، اى شىء يقدر أن يقلق النفس الورعة ؟

الموت ؟ انه بداية حياة جديدة .

الفقر ؟ انه معين للنفس على الفضيلة .

المرض ؟ انها لا تبالى به ، لا تبالى بالامور المفرحة أو المحزنة ، اذ تمارس حياة الألم بارادتها .

الازدراء ؟ لقد صلب العالم لها .

---

(١٩) ٢ كو ٦ : ٨ .
(٢٠) فى ٤ : ١٢ ، أع ٢٨ : ٣ .

فقدان الأولاد ؟ لا تخاف هذا اذ تنتظرهم بكل ثقة فى القيامة .

أى شيء أيضا يمكن أن يعجبها ؟ لا شيء !

هل الثروة ترفعها ؟ كلا ، فهى تعلم أن المال لا شيء .

المجد ؟ لا ، فقد تعلمت أن مجد الانسان كزهر العشب (٢١) .

الترف ؟ لا ، فهى تسمع قول الرسول : أما المتنعمة فقد ماتت وهى حية (٢٢) .

بهذا فهى لا تغضب ولا تتضايق . أى صحة مثل هذه ؟ ! ...

حقا اننا مواطنوا السماء حيث لا يوجد فيها تغير ... لنعلن مواطنتنا السماوية ولنكن فى هدوء على الدوام . فان هذا لا يعتمد على الثروة أو الفقر، الكرامة أو الهوان ، المرض أو الصحة ... انما يعتمد على نفوسنا ، ان كانت راسخة ومهذبة بعلم الفضيلة بكون كل شيء بالنسبة لها سهلا (٢٣)» .

الحيـــاة الفاضـــلة والدوافع :

آمن القديس يوحنا الذهبى الفم بالدوافع — أيا كانت — كعطايا صالحة وهبت لنا من قبل الله . فالغضب عطية عظيمة أعطيت لنا بدونها ما نقدر أن نمارس التوبة ولا نحارب عدو الخير ونقاتل ضد الخطية .

فى هذا يقول : « لقد أعطى لنا الغضب لا لنرتكب أعمالا عنيفة ضد اخوتنا بل لكى نصلح من شأن الساقطين فى الخطية بالعمل بدون كسل . لقد زرع فينا الغضب كنوع من النحاس لكى نصر على أسناننا ضد الشيطان مملؤين عنفا ضده وليس لنضاد بعضنا البعض . أسلحتنا هى لمحاربة العدو وليس لمحاربة بعضنا البعض .

هل أنت غضوب ؟

كن هكذا ضد خطاياك . أدب نفسك ، واجلد ضميرك ، وكن قاضيا قاسيا ، واحكم بلا رحمة على خطاياك .

هذا هو طريق الانتفاع من الغضب . هذا هو السبب الذى لأجله غرس الله فينا الغضب (٢٤) » .

---

(٢١) أش ٤٠ : ٦ .

(٢٢) ١ تى ٥ : ٦ .

(23) In Philip, hom 12 .

(24) In Eph, hom2 .

الحيـــاة الفاضـــلة كحياة شخصية :

وحدة الكنيسة ومشاركة الأعضـــاء بعضهم البعض يسند الحيـــاة الفاضلة فينا ، لكن هذا لا يعنى التراخى على حساب الآخرين .

« عندما أستحلفكم أن تكونوا يقظين ، كثيرون منكم يستهترون قائلين : نحن لا نخشى شيئا فستكون أنت موجودا (تشفع فينا) . قد يقـــول قائل : ان أبى شهيد وآخـــر يقول أن جده كان أسقفا ... هذا كلام سخيف ، فان فضيلة الآخرين لا تفيدكم شيئا .

تذكروا العـــذارى الحكيمات اللواتى رفضن أن يقتسمن زيتهن مع الجاهلات ، فدخلن حجرة العـــرس بينما طردت الجـــاهلات خارجا . ان رجاءكم الوحيـــد فى الخلاص يكمن فى عملكم الشخصى . فانه حتى وان كان بولس نفسه أبا لكم ان لم تقتـــدوا بفضيلته قرابته لكم تدينكم ولا تنفعـــكم شيئا .

قد يقول قائل : أمى تمارس الصدقة . حسنا ، ولكن ان كنتم قســـاة القلب فان صدقة والدتكم لا تنتج الا الكشف عن قبح تصرفكم (٢٥) » .

« ما كانت مريم تستفيد من كونها أما للمسيح لو لم تكن قد مارســـت الفضيلة ! (٢٦) » .

« صلوات القديسين لا تكون فعـــالة الا اذا صحبتها الأعمـــال . ان قيامة طابيثا هى من عمل صلوات بطرس وصـــدقات هذه المرأة (٢٧) » .

الحيـــاة الفاضـــلة ومواجهة الهراطقة :

فى نهـــاية العظة الثامنة والثمانين على انجيـــل متى يطلب القديس من شعبه أن يصلحوا حياتهم الداخلية ، اذ يرى أن الحياة الفاضلة هى افضـــل سلاح ضد الهراطقة وغير المؤمنين .

« أما بخصوص المعركة (الروحية) ضد اليهود والوثنيين والهراطقة فاننا كيف ننذرهم بالحرب وأنتم لستم أصحاء ؟ !

كيف أقودكم الى صفوف المعركة ، وأنتم لا تزالون مجروحين ولا تزال آثار العمليات الجراحية فيكم ؟ !

بالحقيقة حين أجدكم أصحاء تماما سأقودكم الى صفوف المعـــركة فترون بنعمة المسيح عشرات الألوف (من الشياطين) ساقطين أمواتا ...» .

« اننا لسنا قادرون على النصرة تماما بسبب تهاون الجماهير ، فاننا ان كنا نغلبهم بالتعـــاليم ربوات المرات ، لكنهم يوبخـــوننا بسبب سلوك الجماهير التى لجمعنا وجراحاتهم وأمراضهم التى فى داخل النفس (٢٨) » .

---

(25) De Laz . PG 48 : 1005, 1006, 1036 .
(26) In Mat PG 59 : 464 . (27) In Ps PG 55 : 229 .
(28) In Mat, hom 88 .

(٥)

لاهوتيـاته

أفـــكاره

- الله .
- رؤية الله وادراكه
- الكنيســـة .
- الألم .

الله

اللاهوتيـــــات :

كان القديس يوحنـــا الذهبى الفم قائدا روحيا حارا ، يدفع النـــاس الى حياة الشركة مع الله ، منشغلا ببنيـــان نموسهم على أســـاس سليم لادراك العقيـــدة وتفهم للتعـــاليم الكنسية . لكنه لم يهتم بالدراســـات اللاهوتية ولا انشـــغل بالنضال العقيدى فى ذلك الحين . ان دحض بدعة انما يفعـــل هذا بالقـــدر الذى به يقدم المعلومات الضرورية والتعاليم اللازمة لبنيان مستمعيه روحيا .

الله :

اذ كان القديس حارا فى شركته مع الله كانه كل عظاته وكتاباته تتحدث عن قدرة الله وحكمته وترفقـــه وحبـــه وتدابيره الخلاصـــية وانشغاله بالانســـان ... كما دافع بكل قوة عن حقوق الله فى حياتنا ليس كســـيد آمـــر ناه ، انما كأب يشـــتاق أن يرى أبناءه على مثاله ، الانسان موضـــع حب الله ، القيثارة الروحية التى تصـــدر انغاما تسحره ... كتب كثـــيرا عن عناية الله بالانســـان موضحا كيف اعطـــاه سلطانا فلا يضرب الشيطان ولا ظروف الحيـــاة من فقر او غنى ، او مرض او صحة ، زواج او بتولية ، ما لم يضر الانسان نفسه بنفسه ، يبقى سيدا حرا ما دام القلب مقدســـا .

الثـــالوث القـــدوس :

مع أن القديس يوحنا هو تلميـــذ ديؤدور الطرطوسى لكنه لم يشـــعر بالدعوة لكى يقـــود بطريقة صريحة لاهوتيات المسيا لمدرسة انطاكية لم يرد أن يدخـــل فى الصراعات الفكرية خاصة فى التعبيرات اللاهوتية . لكنـــه

متى سمحت له الفرصة تحدث عن الثالوث القدوس بدقة وعلاقة الأقانيم ببعضهم البعض كما ركز على كمال لاهوت المسيح ضد الاريوسيين (١) . وكمال ناسوته ضد الابوليناريوسيين وان ناسوته يشابه ناسوتنا فيما عدا الخطية (٢) ، أعطى ايضا اهتماما خاصا بالكشف عن عدم ازدواج شخصية السيد المسيح وعدم الاختلاط بين لاهوته وناسوته ...

فيما يلى مقتطفات من عباراته فيما يخص الثالوث القدوس وشخص السيد المسيح :

(أ) الأقانيم الالهية :

« عندما أقول هذا لا أخلط بين الأقانيم ،

وأنا أستند الى وحدة الجوهر أؤكد تمايز الاقانيم (٣) » .

« عندما تسمع بأن الله يلد الابن لا تفكر فى انقسام فى وحدة الجوهر (٤) » .

(ب) تحدث عن الابن انه يحمل « ذات طبيعة الانسان (٥) » ، وقد فضل التعبيرين . « مساو للأب » ، « مساو فى الجوهر » .

« الكلمة جوهر ، اقنوم مولود من الآب نفسه (٦) » .

« الآب والابن هما واحد ، لكن كل منهما أقنوم متمايز (٧) » .

« لم يكن الآب قط بدون الابن ،

الابن اله دائم كائن مع الآب على الدوام (٨) » .

(جـ) وتحدث عن لاهوت السيد المسيح ، قائلا :

« عندما يعاقب ويكافىء ، يغفر الخطايا ، يشرع أو يعمل شيئا أعظم من هذا كله لا يلجأ الى الآب فى أى شىء ولا يصلى اليه انما يصنع كل شىء بسلطان (٩) » .

(د) وفى تجسد السيد وطبيعته يقول :

« مع بقائه كما هو ، اخلى نفسه الى ما لم يكن عليه قبلا . ومع انه صار انسانا لكنه بقى كما هو « الله » ، اذ اللوغوس ...

---

(1) In Mat, hom 1 : 2 PG 57 : 17 .
Contra Amon, hom 4 : 4 PG 48 : 732 .
(2) In Rom, hom 13 : 5 .
(3) In 2 Cor. PG 61 : 608 .
(٤) الكنيسة تحبك ، طبعة ١٩٦٨ ، ص ٤٨ .
(5) PG 57 : 17 ; 59 : 290 .
(6) PG 59 : 64 .
(7) In Ps. PG 55 : 271 .
(8) PG 59 : 47 .
(9) De Incomp. PG 48 : 737 .

صار الواحد (انسانا) ... لكنه لا يزال هو الآخر (الله) دون اختلاط ولا انفصال .

إله واحد ، مسيح واحد ، ابن الله !

بقولي مسيح واحد ، أقصد اتحادا بغير اختلاط ، فلا تتحول طبيعة الى أخرى ، بل اتحدتا معا (١٠) » .

« بالاتحاد والالتحام أصبح اللاهوت والناسوت واحدا بغير اختلاط ولا اختفاء لطبيعة احداهما ، انما اتحدتا بطريقة لا يعبر عنها ولا يمكن تحديدها .

كيف يتم هذا الاتحاد ؟ لا تسألني ، فان الله وحده هو الذي يعلم(١١)» .

« الله الكلمة صار مع الجسد واحدا بغير اختلاط ولا تغير في الجوهر ، بل في اتحاد غير منطوق به ، فائق للادراك . لا تقل كيف ؟ (١٢) » .

أما عن هدف التجسد ملخصه في العبارة « صار ابنا للانسان لكي يصير ابنا للانسان أبناء لله (١٣) » كما قال « بسبب الحب اخذ جسدنا وتراءف علينا ، ليس هناك سبب آخر لتجسده (١٤) » . وأيضا يقول « الله لم يجازنا عن تعدياتنا الكثيرة التي اقترفناها ضده رغم احساناته علينا ، بل أعطانا ابنه . جعله من اجلنا خطية ... تركه يدان ويموت كملعون . الذي لم يعرف خطيئة جعله كخاطيء وخطيئة ... انه يشبه ملكا يرى لصا على وشك الاعدام ، فيرسل ابنه الوحيد الحبيب ، ينقل عليه الموت ذاته بل وخطأ المجرم ! هذا كله من اجل خلاص المذنب ، ليرفعه الى كرامة عظيمة (١٥) » .

ورأى في الابن الوحيد المتجسد عمل الفداء ... « المسيح هو الكاهن والذبيحة . الكاهن حسب الروح ، والذبيحة حسب الجسد . كان يكهن ، وكان يذبح حسب الجسد (١٦) » .

وأما عن الصليب وعمل المسيح الخلاصي فيقول : « انه رمز لحب الله اللانهائي (١٧) » ، « دفع السيد المسيح أكثر مما نستحق بمقدار ما يتعدى المحيط قطرة ماء (١٨) » .

---

(10) In Phil, hom 7 : 2, ٦.
(11) PG 59 : 80 .
(12) In Joan, hom 11 .
(13) In Hebr. PG 63 : 47 .
(14) In Joan, in Rom. PG 59 : 79 ; 60 : 466
(15) In 2 Cor, 1 Tim. PG 61 : 477 — 480 ; 62 : 536 — 537 .
(16) De cruce PG 49 : 400 .
(17) In Rom. PG 60 : 408 .
(18) In Rome PG 60 : 477 .

يصور لنا شخص المسيح كمشبع للنفس ، مناجيا الانسان هكذا :

« من يستطيع ان يعادلنى فى الجود ؟ انى أب واخ وعريس وبيت وطعام ولباس واصل كل ما تشتهى ، لا اتركك تحتاج الى شىء .

ساكون ايضا خادما لك ، فقد جئت لا لكى اخدم بل لكى اخدم .

انا ايضا صديق وعضو ورأس واخ واخت وام . انا كل شىء ، فقط كن صديقا لى !

من أجلك افتقرت ، ومن اجلك كنت أشحذ .

من أجلك صليت ، ومن اجلك دفنت .

فى السماء اسأل الآب عنك .

انت كل شىء بالنسبة لى . الأخ والشريك فى الميراث والصديق والعضو .

ماذا تريد اكثر من هذا ؟

لماذا تنصرف عن من يحبك ، وتتعب من أجل العالم ؟

لماذا تغترف المياه من برميل مثقوب ؟ فانه هكذا هو التعب من اجل الحياة الحاضرة ! (١٩) » .

مرة اخرى يقول :

« لماذا دعى الطريق ؟ لكى نفهم أن بواسطته نلتقى بالآب .

لماذا دعى الصخرة ؟ لكى نفهم أنه حافظ الايمان ومثبته .

لماذا دعى الينبوع ؟ لكى نفهم أنه مصدر كل شىء .

لماذا دعى الاصل ؟ لكى نفهم أن فيه قوة النمو .

لماذا دعى الراعى ؟ لأنه يرعانا .

لماذا دعى الحمل ؟ لأنه قدم نفسه فدية عنا وصار تقدمة .

لماذا دعى الحياة ؟ لأنه اقامنا ونحن أموات .

لماذا دعى النور ؟ لأنه انقذنا من الظلمة .

لماذا دعى الذراع ؟ لأنه مع الآب جوهر واحد .

لماذا دعى الكلمة ؟ لأنه مولود من الآب . فكما أن كلمتى هى مولودة منى ، هكذا ايضا الابن مولود من الآب .

لماذا دعى العريس ؟ لأنه قبلنى كعروس له .

لماذا دعى بلا دنس ؟ لأنه اخذنى كعذراء .

---

(19) In Mat. PG 58 : 700 .

لمـــاذا دعى ثوبنا ؟ لأنى التحفت به عندما اعتمدت .

لمـــاذا دعى المائدة ؟ لأنى اتغذى عليه عندما اشترك فى الأسرار .

لمـــاذا دعى المنزل ؟ لأننى فيه اقطن .

لمـــاذا دعى السيد ؟ لأننى عبد له . . .

ان سمعت هذه الأمور ، أرجـــوك الا تفهمهـــا بمعنى مادى بل حلق بفكرك عاليا ، لأنها لا تؤخذ بمعنى جسدى (٢٠) » .

+ + +

(٢٠) الكنيسة تحبك ، ص ٤٩ ، ٥٠ .

رؤية الله وإدراكه

منذ بداية العصور أثيرت بعض الأسئلة الخاصة برؤية الله وادراكه خاصة عند دراسة مقالات القديس يوحنا الذهبى الفم عن « عدم ادراك طبيعة الله Incomprehensibility of the Nature of God وعظته الخامسة عشر على انجيل القديس يوحنا ...

لقد واجه القديس بدعة أونوميوس القائل بأن الله يمكن التعرف عليه بالعقل ، وادراك جوهره بالذهن البشرى ... لذا اهتم القديس بالرد على أتباع أونوميوس فى كثير من مقالاته وكتاباته خاصة الاثنى عشر مقالا عن « عدم ادراك طبيعة الله » والعظة الخامسة عشر السابق الاشارة اليها .

نستطيع أن نلخص آراءه فى النقاط التالية :

١ — رأى الأنبياء الله ، لكنهم لم يروا جوهره انما بدى لهم ذلك قدر ما يستطيعون . وقد أعلن ذلك النبى « كثرت الرؤى وبيد الأنبياء مثلت تشبيهات (١) ، كأن الله يقول : « لا أعلن جوهرى ذاته ، انما أتنازل (فى رؤى) بسبب ضعف هؤلاء الذين يروننى (٢) » .

وما هو هذا التنازل ؟

انه اعلان الله الذى يجعل نفسه منظورا : « ليس كما هو ، بل بالقدر الذى به يقدر الناظر أن يرى ، اى حسب ضعف الناظرين فى الرؤية (٣) » .

٢ — هذه الحقيقة لا تخص البشر وحدهم انما تخص حتى الخليقة السماوية الروحية . هؤلاء يرون الله وجها لوجه ، لكنهم ايضا — فى رأى القديس — لا يرون جوهره غير المدرك ، بل يتمتعون حسب قدرة ادراكهم ...

انهم يغطون أعينهم بسبب عجزهم عن احتمال حتى هذا التنازل للاعلان عنه (٤) .

---

(١) هو ١٢ : ١٠ .

(2) Incomp. of God 5 : 4 . PG 48 : 740 .

(3) Ibid 3 : 3 . PG 48 : 722 . (4) Ibid 1 : 6 PG 59 : 98

يليق بنـا أن نتشبه بالسمائيين فهم ـ ليس كاوتوميوس ـ يطلبـون أن يتعرفوا على جوهر الله ، بل فى غير انقطاع نمجده وتسجد له (٥) .

« يصيح السيرافيم قائلين : قدوس قدوس قدوس رب الصباؤوت... ان القوات العلوية يأخـذ منها الرعب كل مأخذ بغير انقطـاع ، فهى تدير وجهها وتبسط اجنحتها كحائط ، يقيها من الاشعاع غير المحتمل الصادر من قبل الله ، ومع ذلك فما تراه انما هو صورة مصغرة للحقيقة ...

بينما لا يقوى السيرافيم حتى على مشـاهدة الله الذى لا يتجلى لهم الا كتنازل منه حسب ضعفهم ، نرى اناسـا يتجاسرون متصورين فى عقلهم الطبيعة عينها التى يعجز السيرافيم عن ادراكها . انهم يزعمون أنهم قادرون على التطلع اليها بوضـوح وبغير حدود ! ارتعدى أيتها السموات واندهشى أيتها الأرض (٦) » .

« حقـا ان الله حتى بالنسبة لهـذه الطغمات غير مدرك ، ولا يمكن الدنو منه . لهـذا فهو يتنـازل ليظهر بالطريقـة التى وردت فى الرؤيا . الله الذى لا يحده مكان ولا يجلس على عرش ... من قبيل محبته لنـا يظهر جالسا على عرش وتحيط به القوات السمائية .

اذ ظهر على العرش وأحاطت به هذه القوات لم تقدر هذه القـوات على معاينته ولا احتملت التطلع الى بهـاء نوره ، فغطت أعينها باجنحتها ، ولم يعـد لها الا أن تسبح وترنم بتسابيح مملوءة مجدا ورعـدة مقدسـة ، وأناشيد تشهد لقداسة الجالس على العرش (٧) » .

٣ ـ ان كان الله ـ بارادته الطيبة ـ يتنازل من أجـل خليقتـه الساوية والارضية كخلائق ضعيفة لمعاينته قدر ما تستطيع أعينهم الضعيفة ، الضعيفة ، فان هذا الحنو بلغ كماله فى تجسد الابن .

الابن هو صـورة الله الآب غير المنظور ، وهو نفسه غير منظـور ، بتجسده صار منظورا لا للنـاس بل وللملائكة أيضـا ، مفسرا ذلك بقـول الرسـول « الله ظهر فى الجسد ... ترآى لملائكه (٨) » . قبـل التجسد كانت الملائكة تراه فى افكارهم ، تتأمل بطبيعتهم النقية الساهرة .

---

(5) In Joan, hom 15 : 1 . (6) In Isai, hom 2 : 2 .

(٧) الآباء الأولون : ١٠ . العناية الالهية للقديس يوحنا ذهبى الفم ص ١٣ ، ١٤ . (٨) ١ تى ٣ : ١٦ .

هنا يحمل القديس جانبا سلوكيا وليس لا هوتيا اذ يقول أن الابن له وحده المعرفة الكاملة للجوهر الالهى ، بكونه مساويا للآب ، فى حضنه . أما اعلانه لنا فحمل مجرد تفسير أو توضيح أو اخبار عن طريق أعماله المملوءة حبا ومعجزاته وحياته وتعاليمه . لقد بقى الابن الغير منظور مختفيا فى لاهوته فانه حتى فى تجليه سمح بظهور النور بالقدر الذى يمكن لطبيعتنا القابلة للموت أن تقبله ... انه مرة أخرى يتجلى لنا لكن فى صورة غامضة عن البركات المقبلة ... فى مرآة فى لغز (٩) .

لقد فسر القديس قول السيد : « من رآنى فقد رأى الآب (١٠) » هكذا :

« هذا القول يعنى : ليس ممكنا أن ترانى ولا أن ترى الآب . فقد قصد فيلبس معرفته للمسيح خلال النظر ، واذ ظن أنه رأى المسيح أراد أن يرى الآب على نفس المستوى ، لكن يسوع أوضح له أنه فى الواقع لم يره (١١) » .

٤ — يعتبر القديس الذهبى الفم البحث فى جوهر الله خدعة شيطانية تفسد حياة الانسان الروحية وتحرمه من نعمة الله ، اذ يقول :

« هذا هو مكر الشيطان : انه يقود الذين يطيعونه الى خارج الحدود التى وضعها الله الى أمور أعظم . ولكن بينما يغوينا بهذه الأمنيات اذ به يحرمنا من نعمة الله . ليس فقط لا يعطينا شيئا اضافيا ، بل ولا يسمح لنا أن نعود الى حالنا — السابق حيث كنا فى أمان وضمان ، انه يضللنا فى كل الاتجاهات ولا يترك لنا أساسا ثابتا .

هكذا سبب طرد الانسان الأول من الفردوس اذ نفخه بتوقيع معرفة أعظم وكرامة أكبر فكان ان حرم حتى مما كان فيه فى ضمان (١٢) ... » .

٥ — يود القديس أن ينصب اهتمام المؤمن لا على التعرف على طبيعة الله انما على التمتع بوجوده منه واعلان رائحة معرفته فى حياته الروحية السماوية .

« اننا نعرف الله أنه كائن ، أما طبيعته فلسنا نعرفها بعد . اننا نشبه مجمرة ملوكية ، اينما وجدنا تنبعث فينا الرائحة السماوية ، الرائحة الروحية الذكية (١٣) » .

---

(9) Ad Thead. laps 1 : 11, PG 61 : 292.

(١٠) يو ١٤ : ٩ .

(11) In Joan, hom 74 : 1

(12) Ibid 7 : 1.

(13) In 2 Cor, hom 5 : 2.

٦ — اعلن القديس انه ليس طبيعة الله فقط غير مدركة وانما حتى أحكام عنايته بنـــا وتدابيره من نحونا [illegible] حديثه عن [illegible] « العثرة » : [illegible] الانسان [illegible] بسبب ما يحل به من ضـــيقات ، فيقول :

« ما هى علة هذا الخطر العظيم : تجاهل عناية الله ؟ ... ترى من فاق بولس فى حكمته ؟ اخبرنى الم يكن اناءا مختارا ؟ ! الم يأخذ نعمة الروح الفائقة غير المنطوق بها ؟ ! . الم يتكلم المسيح فيه ؟ ! الم يسمع ما لا يحق لانسان ان ينطق به ؟ ! الم يختطف الى الفـــــردوس وارتفع الى الســـماء الثالثة ؟ ! الم يجوب البحار والبر يجذب الوثنيين الى المسيحية ؟ ! ... ومع هذا كله ، فان هذا الرجل بعظمته وحكمته وقوته وامتلائه بالروح — اذ خصه الله بهذه الامتيازات ، عندما يتطلع الى عناية الله ، لا فى كل جوانبهـــا ، بل فى جانب واحد منها ، تأخذه الرعدة منسحقا ، ويتراجع سريعا خاضعا لله غير المدرك ...

اكتشف الرسول انه امام محيط واسع ، واذ حاول فحص اعماق هذه العنـــاية ارتجف متحققا استحالة تفسير عللهـــا ، وارتعب قدام عنايته اللانهائية غير المحدودة ولا موصوفة ولا مفحوصة ولا مدركة . تراجع فى مهابة متعجبا ، وهو يقول « يا لعمق غنى الله وحـــكمته وعلمه (١٤) » .

لقد اوضح بعد ذلك كيف تلامس مع أعماقها دون أن يفلح فى استقصائها، قائلا : ما ابعـــد أحكامه عن الفحص وطرقه عن الاستقصاء ؟ ! ...

انهى حديثه — وقد امتلأ عجبا ورعدة — بأنشودة شكر ، قائلا :

« لان من عرف فكر الرب او من صار له مشيرا ؟ !

أو من سبق فأعطاه فيكافأ ؟ !

لأن منه وبه وله كل الأشياء .

له المجد الى ابد الأبد . آمين » ... (١٥) » .

٧ — يرى أيضـــا ان معرفتنا للأمور الالهية هنـــا محدودة وغاية فى الضآلة ، لكننـــا سنعرف الكثير فى الحيـــاة الأبدية ، معتمدا على قول الرسول « لأننـــا نعـــلم بعض العـــلم ... ولكن متى جاء الكامل فحينئذ يبطل ما هو بعض (١٦) » ... ومقارنة الرســـول المعرفة الحالية والمعرفة

---

(١٤) رو ١١ : ٣٣ .
(١٥) العناية الالهية : ٢ .
(١٦) ١ كو ١٣ : ٩ ، ١٠ .

فى الحياة الأخــرى بمعرفة الطفل ومعرفة الرجل الناضــــج ، أو التطلع فى مرآة فى لغـــز والنظر وجها لوجه (١٧) ، ومع هذا فان المعــرفة الكاملة التى فى الحياة الاخرى تقدم لنا قدر ما نستطيع أن ندرك هناك .

فيما يلى ترجمة للعظة الخامسة عشر على انجيل القـــديس يوحنـــا التى تحمــــل ذات الأفكار الواردة فى مقالاته الاثنى عشر عن عـــدم أدراك طبيعة الله » :

« الله لم يره احد قط (١٨) » .

بماذا تجيب على الصوت القدير ـــ لأشعياء ـــ القـــائل : **رايت** الرب جالسا على عرش عال ومرتفع (١٩) » ؟ وعن يوحنـــا الذى يشـــهد له : « قال (أشعياء) هذا حين رأى مجده (٢٠) » .

وماذا نجيب عن حزقيـــال القـــائل انه **رآه** أيضـــا جالســـا فوق الشاروبيم (٢١) ؟ .

وماذا عن موسى نفسه القائل : « اكشف لى عن مجـــدك لكى **اراك** لاعرفك (٢٢) » ؟

وماذا عن دانيال القائل : « جلس القديم الأيام » (٢٣) ؟

ويعقوب أخذ اسمه عن نفس الأمر ، فقد دعى « اسرائيل » اذ تعنى الكلمة « يرى الله » (٢٤) .

اذن كيف يقول يوحنا : « الله لم يره احد قط » ؟

هذه اعلانات ، كلها أمثله عن تنازله ، وليست رؤى لجوهره بالكشف عنه . لأنهم لو نظروا جوهره ذاته لمـــا رأوه تحت اشكال مختلفة ، اذ هو بسيط ، بغير شكل ولا أعضاء ولا أساليب محــــددة . طبيعته لا تجلس ولا تقف ولا تمشى ، فان هذه الأمور كلها تخص الأجساد ، أما كيف هو ... هو وحده الذى يعلم ! هذا ما أعلنه بواسطة نبى قائلا : « كثرت الرؤى ، وبيد الأنبيـــاء مثلت أمثـــالا (تشـــبيهات) (٢٥) » ، بمعنى : انى اتنـــازل ولست اظهر كما أنا حقيقة !

---

(١٧) ١ كو ١٣ : ١١ ، ١٢ .
(١٨) يو ١ : ١٨ .
(١٩) اش ٦ : ١ .
(٢٠) يو ١٢ : ٤١ .
(٢١) حز ٢١ : ١ .
(٢٢) د ١ ٧ : ٩ .
(٢٣) الترجمة السبعينيه (خر ٣٣ : ١٣) .
(24) St. Augustine : De civ Dei, lib 16 : 39 .
(٢٥) هو ١٢ : ١٠ .

فاذا كان ظهور ابنه فى الجسد قد اقترب هيأهم منذ القديم لرؤية الله قدر ما يستطيعون . اما ما هو الله حقا فانه ليس فقط لا يراه المؤمنون بل ولا يراه الملائكة ولا رؤساء الملائكة . اذ سألتهم تسمعهم لا يجيبون بشىء عن جوهره بل يرسلون : « المجد لله فى الأعالى وعلى الأرض السلام وبالناس المسرة (٢٦) » .

ان أردت أن تعرف شيئا عن الشاروبيم والسيرافيم اسمع التسبحة السرية التى تخص قداسته : « السماء والأرض مملوءتان من مجده (٢٧) » ، اذ يقول داود « سبحوه يا كل جنوده » (٢٨) .

ان سألتم عن القوات العلوية تجدون عملهم الوحيد هو تسبيح الله ،

لكن الآب وحده هو الذى يراه ، والروح القدس !

كيف تقدر طبيعة مخلوقة أن تعاين الطبيعة غير المخلوقة ؟ !

ان كنا لا نقدر مطلقا ان نشاهد اى قوة روحية حتى المخلوقة مثل الملائكة فكم بالحرى لا نقدر ان نرى الجوهر الروحى غير المخلوق ! لذلك يقول بولس : « الذى لم يره أحد من الناس ولا يقدر أن يراه (٢٩) » . هل هذه الخاصية تخص الآب وحده دون الابن ؟ حاشا لنا ان ننكر هكذا ، انما تخص الابن أيضا . لكى تعرف هذا اسمع بولس الذى يقول عنه ذات الأمر : « صورة الله غير المنظور (٣٠) » . فان كان هو صورة غير المنظور يلزم أن يكون غير منظور والا فلا يكون صورته .

لا تعجب من بولس حين يقول فى موضع آخر : « الله ظهر فى الجسد(٣١) » ، فقد تحقق الظهور خلال الجسد ، لكن ليس ظهورا للجوهر .

أضف الى هذا ان بولس يتحدث عنه كغير منظور ، ليس فقط بين البشر ، بل وايضا بين القوات العلوية ، اذ بعد قوله « ظهر فى الجسد » يقول « تراءى لملائكة » . عندما لبس الجسد صار منظورا حتى بالنسبة للملائكة . اما قبلا فلم تره الملائكة ، اذ جوهره غير منظور حتى بالنسبة لهم.

ربما يسأل البعض : اذ كيف يقول المسيح : « لا تحتقروا أحد هؤلاء الصغار ، لأنى اقول لكم ان ملائكتهم فى السموات كل حين ينظرون وجه أبى الذى فى السموات (٣٢) » ؟ هل لله وجه ؟ وهل يحد بالسموات ؟ يا له من

---

(٢٦) لو ٢ : ١٤ .
(٢٧) اش ٦ : ٣ .
(٢٨) مز ١٤٨ : ٢ .
(٢٩) ١ تى ٦ : ١٦ .
(٣٠) كو ١ : ١٥ .
(٣١) ١ تى ٣ : ١٦ .
(٣٢) مت ١٨ : ١٠ .

جنون أن نزعم هذا . اذن ما هو معنى هذه الكلمات ؟ انها كقوله : « طوبى للأتقياء القلب لأنهم يعاينون الله (٣٣) » . انه يقصد الرؤية العقلية الممكنــه لنــا ، حيث يكون لنــا الله فى فكرنا . هكذا أيضا بالنسبة للملائكة فاننــا نفهم أنه بسبب نقاوة طبيعتهم الساهرة لا يفعلون شيئا سوى أن يتصوروا الله على الدوام أمامهم .

لهذا يقول المسيح « لا أحــد يعرف الآب الا الابن (٣٤) » . ماذا اذن ، هل جميعنا نجهل الآب ؟ حاشا ، لكن ليس أحــد يعرفه كمعرفة الابن له . كثيرون رأوه فى شكل رؤيا يسمح لهم بها ، لكن ليس من يرى جـــوهره . كثيرون منا يعرفون الله ، أما جوهره فلا يعرفه أحد ، غير المولود منــه . اذ يقصد بكلمة « يعــرف » أن تكون له فكرة دقيقــة وادراك كما للآب نحو الابن . « كما أن الآب يعرفنى أنا أعرف الآب (٣٥) » .

لاحظ بأى كمال يتحدث الانجيلى ، فانه اذ يقول « الله لم يره أحد قط » لا يكمل القول « الابن الذى يرى هو خبر » انما يتحدث عن الرؤية بأكــثر من هذا يقول ، « الذى هو فى حضن الآب هو خبر » فمن يكون فى الحضن تعنى أكثر من الرؤية . فمن يرى فقط لا تكون له معرفة دقيقة فى كل شىء ، أما الذى فى الحضن فلن يجهل شيئا عنه . . .

انه يشير الى الابن الحقيقى ، الواحــد ، الذى له ثقــة عظيمة نحو أبيه ، والذى ليس بأقل منه (٣٦) » .

+ + +

---

(٣٣) مت ٥ : ١٨ .

(٣٤) مت ١١ : ٢٧ .

(٣٥) يو ١٠ : ١٥ .

(36) In Joan, hom 15 : 1 , 2 .

الـكنيسة

فى حديثنا عن منهجه الكنسى تعرضنا لمفهوم الكنيسة وأبعادها عند القديس يوحنا ، فرأيناه حياة وايمان ، كارزة بالحب ، سالكة بروح سماوى دون تجاهل الواقع الزمنى ... أنطلقت من حياة الزنا الى العذراوية فصارت الملكة البتول تحمل القابا كثيرة كسيدها وعريسها . وفى كتابنا عن « الحب الرعوى » اعتمدت كثيرا على مقتطفات من كلماته عن مفهوم الرعاية الكنسية وسمات الكاهن ومسئولياته ... لذا رأيت ان اكتفى بالحديث عن الجوانب الأخرى الخاصة بالكنيسة .

الوحـدة الكنسية :

الكنيسة كجسد المسيح الواحد تحمل جمالا ، لكن ان فسد عضو فى الجسد تتألم معه بقية الأعضاء . ان جمال الكنيسة يمتثل فى الجمال الكلى ... فى هذا يقول :

« لا يكون الوجه جميلا الا اذا كانت العينان لامعتين والخدان مشرقين والشفتان حمراويتين والأنف مستقيمة والحاجب متوسا . فلو قطع جزء صغير من طرف الأنف لحل القبح على الوجه كله عوض الجمال » .

الكنيسة هى اتحاد معا فى المسيح يسوع بغير انقسام ، اذ يقول :

« من يقول الكنيسة انما يقول لا انقسام بل اتحاد واتفاق (١) » .

ويرى القديس ان الرسول بولس جاهد أن يقضى على الانشقاقات التى فى كورنثوس قبل أن ينزع الفساد المتفشى فيها ، فان الأولى اهم واخطر ... « لقد عرف (بولس) ما هو ملح : القضاء على الانشقاق ! » .

مرة اخرى يتكلم عن الانشقاق الذى دب انطاكية ، قائلا :

« ليس اسوأ من تمزيق القميص الذى لم يتجاسر العسكر على شقه ! الا تكفى الانشقاقات الأخرى حتى ننقسم نحن أيضا على انفسنا ؟!» .

وفى حديثه عن انضمام البعض الى ايفجاريوس (أوغريس) يقول :

« لا شىء يقسم الكنيسة مثل حب الرئاسات ، ولا شىء يضايق الله مثل تمزيق وحدة الكنيسة ...

---

(1) In 1 Cor. PG 61 : 13 ; De mut Nom PG 51 : 151 .

اقول هذا للذين — بدون افراز — ينضمون الى مثيرى الانشقاق ...
الطمع هو سبب الشرور ...

تقولون انهم يحملون ايمانا مستقيما ... اذن لماذا هم ليسوا معنا ؟ ... فان كانوا على حق نكون نحن مخطئين . اما اذا كان مسلكنا نحن سليما فيكون مسلكهم باطلا ...

كيف نواجه سخرية الوثنيين ان كانوا يأخذون علينا وجود هرطقات ؟ !
لماذا لا يسمعون لنا ؟ بسبب انقساماتنا ...

موضوع آخر هو عار علينا ... اذا تقدمت لمعاقبة انسان اخطأ يتضايق الجميع ويرددون قائلين انه سوف ينفصل عنا وينضم للمنشقين .
حسنا ليذهب الف مرة وينضم اليهم ! ليذهب هو وكل من يرتكب خطأ ...

حقا ان احشائى فى داخلى توجعنى ، لكن حزنى هذا لن يدفعنى الى عمل ما لا يجب فعله . انى لا اتسلط على ايمانكم يا أحبائى ولا أحكمكم كسيد ، أنا مدعو لتعليمكم وليس لأجلس على كرسى القضاء ، أو كرسى السلطة . انى لست الا مرشدا ... اتحدث اليكم لئلا تشتكوا فى يوم الدين قائلين : لم يعلمنا احد ولم نكن نعرف أن هناك خطية .

اوضح لكم ايضا واقرر ان تقسيم الكنيسة يعادل السقوط فى الهرطقة ... من يذبح المسيح ويقطع جسده ، الا يستحق جهنم ؟ !

لتعلمن ذلك ايتها النساء الحاضرات ، فان النساء هن مسئولات عن هذا الجرم بالقدر الأكبر . قولوا هذا للنساء الغائبات ولترعبهن .
ان ظنت البعض منكن انهن يسببن لى حزنا (بسبب الانشقاق) فليعلمن انهن يضعن وقتهن .

من أرادت ان تنتقم منى فانى أقدم لها طريقة لا تؤذى نفسها أو على الاقل تكون الأذية بدرجة اقل ... لتبصق على وجهى عندما تقابلنى وسط الجميع ولتشبعنى ضربا ! لعلك تقشعرين بسبب هذه الكلمات . الا تقشعرين اذ تقدمين على تمزيق المسيح ؟ ! ...

اقول للذين انضموا للمنشقين تبرما منى ، فليصفعوننى على وجهى ولا يفعلون ذلك .

الذين يبدون كأنهم حارون فى الروح هم سبب هذه الكارثة . لا اقصد الحاضرين معنا بل الغائبين الذين تركوننا .

ان كنتم ترون خطأ فى فأنا مستعد أن أتنازل عن رتبتى لمن تشـــاؤون من آجل الحفـــاظ على وحدة الكنيسة ...

ارجـــوكم ابذلوا قصارى جهـــــدكم لتكونوا ثابتين وتردوا كل الذين انشقوا عنا (٢) » .

+ + +

(2) In Eph . PG 62 : 85 , 88 .

الألم

كثرة ما خلفه لنا القديس من تراث روحى يفتح المجال للكشف عن الكثير من أفكاره ، وقد تركت الحديث عن أفكاره من جهة الصدفة (١) وعناية الله(٢) وامكانية الانسـان الا يؤذيه أحـد ما لم يؤذ الانسـان نفسه بنفسه (٣) والاتضاع (٤) والموت (٥) .... الأمور التى سبق أن تعرضت لها فى كتابات سابقة وترجمة لأقوال أو كتابات القديس ، والآن أكتفى بالحـديث عن نظرته نحو الألم كمثال حى لتفكيره .

رجـل آلام :

عاش القديس يوحنا الذهبى الفم صاحب المشاعر الرقيقة وسط أتون النـار ، يشارك ابن الله آلامه ، فجاءت أحاديثه وكتاباته عن الألم ليسـت نابعة عن فلسـفة فكرية استقاها من الكتب ولا مجرد عظات نظرية يلقى بهـا أمام الآخرين ، لكنها خبرة حياة عاشها طوال فترة خدمته .

وتزداد مرارة الألم أن الذى يشربه انسان نشأ فى طفولته وصبوته مدللا ... فقد نشأ فى طفولته الابن الوحيد المدلل ، ينعم بين أحضان امه الشابة الأرملة تسكب فيه كل حبها وعواطفها . وجاءت صبوته وكذا شبابه حيـاة سهلة ، لا يسمع الا كلمات الاعجاب والاطراء ، يمدحه معلمه وأصدقاؤه وزملاؤه على نبوغه وفصاحته ، لكنه ما أن دخل الدير حتى أحنى بالحب ظهره ليحمـل فى رقة مشاعره أثقال كل نفس متألمة ، واذ قبل موهبة الكهنوت انما قبـل روح الأبوة الحانية ، فدخل بالروح القدس أتون الألم مع كل ابن أو ابنة له . لم يكن يعرف الراحة ما دام يوجـد قلب لا يزال غير مسـتريح ، ولا أعطى لجفنـه نعاسا عميقا ما دامت هناك عين غير قادرة على النوم .

---

(١) راجع كتابنا الحب الأخوى : محبتنا للفقراء .
(٢) أنظر القديس يوحنا الذهبى الفم : عناية الله .
(٣) أنظر القديس يوحنا الذهبى الفم : من يقدر أن يؤذيك ؟
(٤) أنظر القديس يوحنا الذهبى الفم : اتضاع الفكر .
(٥) أنظر القديس يوحنا الذهبى الفم : رسالة تعزية الى أرملة شابة .

فى اكثر من موقف عبر القديس لشعبه عن هذه الأبوة الحاملة للألم ، فقال :

« انى أب مملوء حنوا ...

كل أم تصرخ وهى تتمخض فى ساعة الولادة . هكذا افعل أنا ايضـــا . ليتكم تستطيعون معاينة النيران الملتهبة فى قلبى،لتعرفوا انى أحترق...(٦)" .

« انى أب للجميـــع ، لا اهتم بالقائمين فحسب ، بل وبالســـــاقطين أيضا » .

نستطيع ان نتلمس ما صار اليه بعد الكهنوت ان عرفنا انه وهـــــو فى الدير — قبل نواله درجـــة القسيسية — حين ســـقط صـــديقه الراهب نيؤدور فى حب هيرمون بكاه بمرارة كما لوكانت تهدمت كل مدن العالم ، وشاركه المر حتى دخل به الى الدير مرة اخرى خلال التوبة الصادقة . واذا اصـــيب الراهب سناجيروس بمرض عصبى لم يهدأ قلبه حتى دخل به الى الرجاء وحياة الفرح مرة اخرى .

وما أن رسم كاهنا حتى ثارت مشـــكلة التماثيل التى كادت أن تدفع بشعبه الى الابادة وحرق مدينتهم بسبب تحطيمهم تماثيل لامبراطور احتجاجا على زيادة الضرائب ، فتصدى للمشكلة يسند شعبه بروح الأبوة ويشاركهم آلامهم طوال فترة الصوم الكبير .

اما حياته الأسقفية فكما سبق أن رأينا لم تكن الا سلسلة آلام متوالية . انهالت عليـــه اللطمات من كل جانب بغير حســـاب : من الأساقفة والـــكهنة الحاسدين له ، ومن رجال البلاط الحاقدين عليه ، من الامبراطورة أفدوكسيا والامبراطور بسبب جراته وعدم تملقه لهما . وجاءت مشكلة الاخوة الطـــوال القـــامة دفعت به دفعـــا الى النفى فى جبال القوقاز بأرمينيـــا يذوق مرارة السفر الشاق بجانب صحته المتوعكة والبرد القاسى وحرارة الصيف . لقد عاش أواخر حياته ، محروما من شعبه ، وحيدا وسط الآلام حتى دفعت به الى موت الجسد حيث أجهده الجند فى الطريق ...

والآن ماذا كتب رجل الآلام عن الألم ؟

+ + +

(6) In Hebr, hom 23 : 9 .

مفهـــــوم الألم :

لم يسجل لنا القديس مقالا عن « الألم » لكنه سكب خبراته الطويلة والأصيلة فى حيـــاة الألم خلال عظاته ومقالاته ورسائله . وجاءت هـــذه الخبرات مزيجا رائعا من الواقع العملى الذى عاشه والحيـــــاة الايمانيـــة الصادقة التى سلكها عمليا .

حين يكتب القديس أو يتكلم لا يخفى حقيقه مشاعره ، سواء فى لحظات ضعفه البشرى أو قوته الايمانية . فهو لا يدعى لنفسه العصمة من الضعف ، لكنه ايضـــا لا يقف عندها ، انما يسرع بالانطلاق نحو الصليب لكى يختـــبر الشركة مع المســيح المتـــألم ، فيعبر فوق الآلام الزمنية ليدخل الى قـــوة القيـــامة ، لينعم بالوجود فى حضن الآب .

كأسقف حكيم يعـــــرف كيف لا يستسلم للألم بل يرتفع مع شعبه الى الايمان الحى العملى . يدخل معهم الى الصليب ليجدوا فى الألم مفاهيم لاهوتية جـــديدة ، كما يفتح لهم الكتاب المقدس لا ليسمعوا عنه مجموعة من العظات أو بعض التفاســـير ، انما لكى يدخل بهم الى رجال الله القديسين المتألمين — من العهدين القديم والجديد — فى صداقة قوية ، خاصـــة ايوب البـــار ، والثلاث فتية فى أتون النار ، ودانيال فى الجب ، والرسول بولس ... يكشف لهم اعماق مشاعرهم ويحدثهم عن دقائق آلامهم ... حتى ليشتهى الانسان بالحق ان تكون له طوباوية الشركة معهم فى آلامهم من اجل الرب .

ماذا يقصـــــد بالألم :

الألم عند القديس يوحنـــا الذهبى الفم ليست مجرد مشاعر نفســـانية او تعب جسدى يرهق الانسان ، لكنه مرض يصيب غاية وجـــــوده ويفسر رسالته .

فالانسان اذ يشعر بتعب داخلى او بضيق فى نفســـه يحاول لا شعوريا ان يعلل ذلك الى اقرب حادث أو باعث خارجى.قد يبرر الـمه بسبب ما اصاب جســـده من مرض أو ما حل به من فقر أو من كوارث ... واحيـــانا ينسب آلامه الى ظلم الآخــــرين له أو تعديهم على حقوقهم المـــادية أو المعنـــوية أو من حـــرمانه من العطف الأبوى أو الأموى أو الأخوى أو نتيجة تقصـــير من ينتظـــر منهم حنـــوا ... لكن القـــديس يطالبنا بنظـــرة اعمق : الا وهى الدخول الى حقيقة وجـــودنا والتعـــرف على رسالتنا ، عنـــدئذ نتفهم الألم الذى يصيبنا ويفسد عملنا وغاية وجودنا .

فالحـــــديد مثلا ليس له مشـــاعر ، لكن الصـــدأ هو علة المـــه ، اذ يفقد صلاحيته .

هذا ما أراد القديس أن يوضحه فى مقدمة مقاله : « لا يستطيع احد أن يؤذى انسانا ما لم يؤذ الانسان ذاته » ، اذ يقول :

« كل شيء له عدو شرير يضره ،

فالحديد يفسده الصدأ ،

والصوف يفسده السوس ؛

وقطيع الخراف تهلكه الذئاب ،

والخمر يفسد شدة الاختمار خواصه حين يصير « حامض » الطعم ،

والعسل يفقد خواصه عندما تزول عنه حلاوته الطبيعية ، ويتحول الى عصارة مرة ،

وسنابل القمح يهلكها الجدب ...

فما الذى يفسد صلاح الانسان ؟ ! » .

هذه هى نظرته ... انه يود أن يدخل بنا الى اعماق المشكلة ، بالتعرف على المرض الحقيقى الذى يصيب سلام الانسان الدخلى وينقده حيويته وفرحه ، وينحرف به عن هدفه ، محطما صلاحه .

مصدر الألم :

يتساءل القديس فى اكثر من موضع : ما هو العدو الحقيقى الذى يحطم غاية الانسان وصلاحه ؟ هل الجسد أم أحداث الطبيعة ، الشيطان أم مدبرى المكائد أم القضاء والقدر ؟

هل الألم من فعل الله او هو من صنع الانسان ضدنا او هو ثمرة عمل الانسان نفسه ؟

هكذا اضطر القديس فى كثير من اعماله أن يكشف عن الألم من جهة علاقته بالجسد ، والأحداث الطبيعية ، الله والشيطان والآخرين ، وعلاقته بارادة الانسان نفسه ...

اولا : الألم والجسد :

من اثر الفلسفات الفارسية أن خرجت بعض الهرطقات تدعى المسيحية امثال أتباع المانية ، تهاجم الجسد بكونه عنصر الظلمة من صنع اله الشر ، سر فساد الانسان وعدوه الأول ، يكتم انفاس الروح ويحطم رسالتها وينحرف بها عن رسالتها ويفقدها صلاحها ، وكأن الجسد هو علة الألم . لذلك ابدى قديسنا يدافع عن صلاح الجسد بكونه صنعة الله الجميلة ، غير المسئول عن آلام النفس وفسادها دون شركة النفس معها ، اذ يقول :

« الجسد هو من صنع الله » .

« الجسد مادة ، والمادة غير مسئولة عن الأعمال الصالحة أو الضارة التي تصدر عنها ، فكيف نقـول أن الجسد هو مصدر الألم ؟ ! (٧) » .

« بحق لا يقدر الجسد أن يرتكب اضرارا خطيرة بدون النفس ، لـكن النفس تقدر ان ترتكب هذه الأمور دون الجسد (٨) » .

لقد أبدى اعجابا شديدا بالجسـد بكونه خليقة الله ، الفنان الأعظم ، اذ يقول مثلا عن العين :

« خلق الفنان الأعظم ، الله ، العين بهذا الجمـال الذى يبهـر من يتأملها . هذه العين تحمل قوة لكى تختزن فى داخلها مسافات شاسعة من خلال فتحة متناهية الصغر ، فترى مناظر بلا عدد : من جبال وغابات وتلال وبحـار وسموات (٩) » .

الجسد خليقـة جميـلة صالحة لا تحطم النفس بل بالعكس تسندها فى تحقيق غاية الانسان ، بكونه آلة بر صالحة ، اذ يقول :

« النفس بالنسبة للاناء الخزفى (الجسد الترابى) انما كالسـائق للمركبة ، والربان للسفينة ، والموسيقار للقيثارة ! انها تمسك باللجام وتناور بالدقة وتلعب على الأوتار لتؤدى غايتها وتخرج لنـا نغمات فضائل عـذبة متوافقة (١٠) » .

مرة أخرى يتحدث عن اهمية الجسد فى مساندة النفس ، فيقـول :
« ان هلك الجسد ماذا يكون أثر ذلك على النفس ؟ أى تشـويش وأمواج وعواصف تجتاحها ؟ ! ... حقـا لقد اوجد الله المعدة فى اجسـادنا كنوع من الطاحونة لكى تهبنا القوة المناسبة ، وتعين قدرا معينـا لكى تطحنه كل يوم » .

كما يتحـدث عن أهمية النفس فى ابراز صـلاحية الجسد وجماله اذ يقول « ممكن ان يكون الحصان ممتازا وسريع الحركة لكن لا يظهر هـذا بدون راكبه » .

أما انحراف الجسـد عن غايته فسره ليس فسـاد الجسـد فى ذاته بل اهمالنا وتراخينـا ... بل النفس هى المسـئول الأول لأنهـا قائد الجسد ...

---

(7) De Resur. Mort ; In Col, hom 8 : 1 .
(8) In Eph, hom 5 .
(9) De Statues, hom 2 : 3 .
(10) Deang. porta 51 : 41 .

« لقد وهبت لنا الأعين لننظر بها الخليقة فنمجد السيد الرب ، لكننا ان كنا نسيء استخدامها ، تصير خادمة للزنا .

أعطينا لسانا نعلم به ونسبح به الخالق ، لكننا ان لم نحترز لأنفسنا يصير علة تجديف .

أخذنا الايدى لنرفعها فى الصلوات ، فان لم نتيقظ تعمل فى الطمع والجشع .

وهبنا الأقدام لكى تسير فى الصلاح ، وبسبب اهمالنا تتسبب فى أعمال شريرة ... (١١) » .

وفى تعليقه على غلا ٥ : ١٢ « يا ليت الذين يقلقونكم يقطعون أيضا » يتحدث عن اتباع مانى الذين يجعلون من الجسد مصدرا للفساد يلزم التخلص منه ... اذ يقول :

« هؤلاء يدعون الجسد غدارا ، من اصل شرير ... الا يلزمهم بذلك يفقأوا أعينهم لأن الشهوة تدخل الى النفس عن طريقها ؟ لكن الحقيقة انه ليس العين ولا اى عضو آخر فينا هو الذى يلام انما ارادتنا الفاسدة وحدها هى موضع اللوم .

ان كانوا لا يقبلون هذا فلماذا لا يبترون اللسان بسبب التجديف والأيدى بسبب السلب والأقدام بسبب السلوك الردىء ، وباختصار يبترون كل أعضاء الجسد ؟ فان الأذن اذ يسحرها صوت المزمار غالبا ما تؤثر على لنفس ، والأنف اذ تتنسم الرائحة اللذيذة تسبى الذهن وتجعله يثور نحو اللذة . لكن هذا القول شرير ومبالغ فيه وجنون شيطانى ...

انلاحظ هنا أن ما يرتكبه انما هو خطية النفس . فان اشباع شهوات الجسد ليس من عمل الجسد بل من عمل النفس . وان أرادت النفس أن تميت هذه الشهوات لها السلطان المطلق فى السيطرة على الجسد .

ان ما يقولونه يشبه شخصا رأى انسانا يقدح نارا ويلقى وقودا على بيت ويشعل فيه ، فيلوم النار لا الذى اشعلها ، وذلك لأنها أمسكت بالوقود وارتفعت جدا . كان يليق بنا لا أن نلوم النار بل الذى أشعلها ؛ فقد أعطيت لنا النار لكى نطهى الطعام ونضىء بها ونستخدمها فى خدمات مماثلة وليس لحرق المنازل :

---

(١١) هل للشيطان سلطان عليك ؟ طبعة ١٩٧٢ ، ص ٥٨ .

هكذا أيضا الشهوة المزروعة فينا وجدت لأجل تشييد العائلات وضمان الحيـاة وليس للزنا والنجاسـة والفسق . لقد أعطيت ليكون الرجـل ابا لا زانيا ، زوجا شرعيا لا فاسقا ، يترك من بعده ورثة لا أن يحطم رجلا غده . فان الزنا لم يقم عن الطبيعة ، انما الخلاعة هى ضد الطبيعة ... » .

النفس هى المسئولة عن الجسد ، هى قائده وسيده ومدربه وليس عدو للجسد وقاتل له ... ففى تعليقه على كلمات الرسـول « أقمـع جسـدى واستعبده (١٢) » يقول : « لا يقول (الرسول) « اقتـل » ولا « اعاقب » ، فان الجسد ليس موضوع بغضة ، لكنه يقمعه ويستعبده . هذا هو عمل السيد لا العدو ، المعلم لا الخصم ، المدرب لا المقاوم (١٣) » .

ان فساد أعضائنا علته فينا ، أردنا ان نخطىء فأفسدنا حيـاتنا واشتركت النفس فى سر فسـاد الانسان ... لكن الله كلى الحب لم يترك جسدنا يهلكه الفساد ، بل حمل ناسوتنا بلا خطية ، حتى بتجسده وآلامه وموته وقيامته يعيـد اليه امجاده الأصيلة . فى هذا يقـول : « بسبب الخطية وضع الله جسد الانسان تحت سيف الفسـاد ، لكن هذه الصورة ليست نهائية ، انما يتمجـد الجسد من جديد فى جسـد المخلص عنـد القيامة (١٤) » .

وفى عظته الخامسة على الرسالة الى أهل أفسس يؤكد القـديس ليس حاجة الجسد فقط وانما حاجة النفس أيضـا الى توجيه علوى من السماء حتى لا يكونا فى فسـاد . فالانسان الذى يترك نفسه تعمل حسب هواها دون عمل روح الله القدوس يحسب انسانا « طبيعيا (*) » والذى يترك جسده يعمل حسب شهواته دون عمل روح الله القـدوس يحسب انسانا « جسدانيا » . ليس فقط الجسد بل « والنفس تحتاج الى توجيـه سماوى ، فانها فى ذاتها — ان لم تقبـل دافعا من فوق — لا يمكن أن تكون عظيمة وصالحة .

يكمل القديس حديثه قائلا : « على اى الحالات يلزم أن يكون لنـا الروح معنا حتى ينال الراكب (النفس) قوة جـديدة ، فيعطى جمالا للجسـد والنفس » .

---

(١٢) ١ كو ٩ : ٢٧ .

(13) In 1 Cor, hom 23 : 2.

(14) In Philip.

(*) ١ كو ٢ : ١٤ .

ثانيا : الألم والأحـــداث الجـــارية :

يرى الكثيرون أن سر الألم فى حياة الانسان هو فقدانه الســـلام بسبب تقلب الأحداث ، فقد يصاب الانسان بمرض أو يفقد بعض الممتلكات أو تهان كرامته ومركزه الأدبى او يحتمل آلام الضرب او النفى ... مثـــل هذه الأحداث وما على شاكلتها أو حتى مجـــرد الخوف من حدوثها يبعث فى النفس آلاما .

هذه النظرة دنيوية اكتسبناها من حكم الجماهير ، تحمل فكرا سطحيا لا يمس عمق الانسان الداخلى وغايته الأصيلة . وقد شبه القديس من لهم هذه النظرية بالذين يحكمون على صلاحية الفرس من لجامه الذهبى وسرجه الزاهى الألوان وعدة راسه المرصعة بالجواهر والغطاء المضفر بحبـــل ذهبى ... مع ان حقيقة صـــلاحيته تكمن فى خفـــة حَركته وقوة أقدامه وخطواته وشجاعته وقدرته على التصرف بهدوء فى ميدان المعركة وانقـــاذ صاحبه ان حدثت هزيمة ... (١٥) .

الأحداث والتصرفات : يقسم القديس يوحنا الأحـــداث والتصرفات الى ثلاثة أنواع :

(أ) احداث وتصرفات صالحة بطبعها مثل تصرفات الحب من احتمال لضعفات الآخرين والعطاء والســـتر على خطايا الغير مع العفة والبســـاطة والحكمة الخ ...

(ب) أحداث وتصرفات شريرة بطبعها مثل العداء والكراهية والحقـــد والزنا ...

(جـ) احداث وتصرفات سوية ، ليست صالحة ولا شريرة فى طبيعتها انما يمكن ان تكون هكذا او كذلك حسبما يوجهها الانسان ، أو كما يقـــول القديس :

« ليس هناك خير مطلق أو شر مطلق ، انما يتحدد ذلك حسب استعداد النفس » .

هذه الأشياء قد تكون صالحة او خـــارة حسبما يستخدمها المرء . فالغنى يمكن ان يكون اداة البخل أو الكرم . والفقر قد يدفع الى التجـــديف أو الشكر .

---

(١٥) من يقدر أن يؤذيك ؟ ص ١٧ .

هذه الأشـــياء التى ادعوها ســـوية هى : الغنى والفقر ، الصـــحة والمرض ، الحياة والموت ، الكرامة والهوان الخ ... (١٦) » .

يستطيع المؤمن أن يجد فى الأحداث المؤلمة سلاما وتعزية . وقد سجل لنا القديس فى احدى رسائله للشماسة اولمبياس احاسيسه عندما اشتدت به الآلام ، اذ قال : « عندما اذكر هـــذه الأمور يوما فيوم ، اذ اتأملها على الدوام أطير من السعادة ، اثب بالفرح كمن وجد كنزا عظيما قد خزن له . هذا هو حالى ، وهذه هى مشاعرى تجاه هذه الأمور . تلك اســـأل سموك أن تفرحى بهذه الأمور وان تسعدى وتثبى فرحا وتمجدى الله الذى حسبنى اهلا ان أحتمل مثل هذه الأشياء (١٧) » .

هذه النظرة سلمها القديس وهو فى اتون الألم ، أثناء نفيه ، معلنـــا انها سر ألم البشرية وشقائها . لقد كتب أيضـــــا الى الأسقف قرياقوس يقول :

« عندما استبعدت من المدينة لم أقلق ، بل قلت لنفسى :

+ ان كانت الامبراطورة ترغب أن تنفينى ، فلتفعل فان للرب الأرض!

+ وان كانت تود أن تنشرنى ، فانى أرى أشعياء مثلا !

+ وان أرادت اغراقى فى المحيط افكر فى يونان .

+ وان القيت فى النـــار اجد الثلاث فتية قد تحملوا ذلك فى الأتون !

+ وان وضعت امام وحوش ضارية اذكر دانيال فى جب الأسود !

+ وان ارادت رجمى فان اسطفانوس أول الشهداء يكون أمامى !

+ وان طلبت راسى ، فلتفعل فان المعمدان يشرق قدامى !

عريان خرجت من بطن أمى ، وعريان اترك العالم .

بولس يذكرنى : ان كنت بعد ارضى الناس لست عبدا للمسيح!(١٨)» .

هكذا لا يرتعب القديس من النفى أو التعذيب أو الموت أو الفقر ...

١ — **النفى** : لم يرتعب القـــــديس من النفى ، اذ يرى فى النفى « زيارة بلاد ومدن كثيرة » ، كما يقول أيضا : « ان أردت أن تفكر (فيـــه) فانك كمسيحى ترى الأرض كلها انما هى غربة (١٩) » .

منظار جديد خلاله لا نرى النفى علة الم جسدى أو نفسى ؛ بل مجـــرد تغيير للموضع ، اما تمتع بزيارة مناطق جديدة أو امتداد لحيـــاة الغربة التى نعيشها أينما وجدنا . النفى فى عينيه هو خروج من غربة الى غربة .

---

(16) Ego Dominus Deus . (17) Epis 14 ad Olymp .
(18) NPNF , Series 2 , vol 9 , P 14 .
(19) Epist . 4 , 54 , Epis . ad Olymp . 9 , 4 .

٢ ـ **اغتصاب الممتلكات** : فى نظر القديس الأمر يحتاج الى رثاء من فقد ماله بل الذى اغتصب ، لأنه يفقد صلاحه ، فى رأيه أن فاقد المال ان تقبل الحدث بشكر بغير تذمر ولا قلق يكون كمن قدم ماله المغتصب صدقة لله ، بل وأعظم من ذلك ، لأن حياة الشكر افضل من تقديم الصدقة (٢٠) . ففى حديثه عن ايوب البار يقول (٢١) ، « ان تقديمه للفقراء من خيراته لم يكن له ثماره مثل تقديمه كلمة شكر اثناء بلاياه .

٣ ـ **الفقر** : يقول « ليس الفقر شرا انما هو هدم للشر ان صحبه تدقيق مع حكمة (٢٢) » .

٤ ـ **المرض** : يتحدث عن المرض قائلا : « أى ضرر اصاب لعازر بسبب مرضه وقروحه وفقره وعدم وجود من بقية ؟ ! الم تضفر له هذه الأمور اكليلا من زهور النضرة ؟ ! (٢٣) » .

٥ ـ **الموت** : يسميه « نوما عميقا (٢٥) » ، ورقادا ورحيلا الى الميناء وعبورا من وطن الى آخر (٢٦) .

يقول : « ماذا يخيفنى ؟ الموت ؟ لا ، لأنه ليس بمرعب لى دائما به نصل الى الميناء الأمين (٢٧) » .

مرة اخرى يقول : : « أى ضرر اصاب هابيل بموته ، مع أنه مات موتا عنيفا فى غير اوانه وبيد أخيه ؟ ! أليس على حساب هذا صارت سمعة هابيل تجوب الأرض كلها ؟ ! (٢٨) » .

وفى رسالته الى الشابة الأرملة يعزيها فى زوجها يقول : « حقا لو أنه هلك كلية او نتهى امره تماما .. لكان ذلك كارثة عظمى وكان الأمر محزنا ، لكن ان كان كل ما فى الأمر انه ابحر الى ميناء هادىء ، وقام برحلة الى الله الذى حقا ملكه ، لذا يلزمنا الا ننوح بل نفرح !

هذا الموت ليس موتا ، انما هو نوع من الهجرة والانتقال من سيىء

---

(٢٠) المؤلف : القيم الروحية لعيد النيروز ص ٢٦ .

(٢١) المرجع اسابق ص ٨٥ .

(22) Ego Dom Deus.

(٢٣) من يقدر أن يؤذيك ؟ ص ٢٢ .

(٢٥) يسوع والمفلوجان ، ص ٦١ .

(26) In Gen. PG 53 : 345, 338.

(٢٧) الكنيسة تحبك ، عظتان عن أيدبيوس ، عظة ٢ .

(٢٨) من يقدر ان يؤذيك ؟ ص ٢٢ .

الى حال أفضل ، من الأرض الى السماء ، من وسط البشر الى الملائكة ورؤساء الملائكة ، بل ليكون مع الله الذى هو رب الملائكة ورؤساء الملائكة ...

ربما تشتاقين الى سماع صوت زوجك والتمتع بحبه ... حسنا ! ان الحب الذى كان يمن به عليك يمكنك أن تحتفظى به معك كما كان قبلا . لأن هذا هو قوة الحب انه يحتضن الحاضرين معنا ، القريبين فى المكان ، المنظورين ، كما يحتضن البعيدين لمسافات شاسعة ويكون قائما بينهم ويربطهم معا ، فلا يمكن لبعد الزمان أو المكان أو لشىء من هذا القبيل أن يكسر محبة الروح ويبددها » .

الموت ليس موضوع حزن ما دام الله يدعونا اليه لنرجع ونكون معه : « أعماق المسيحية هى انتظار الحياة بعد الموت وترجى الرجوع بعد الرحيل (٢٩) » .

اما سر نصرتنا على الموت فهو السيد المسيح الذى غلب الموت وحطم الخوف منه : « انه كراع شجاع أسر الأسد الذى كان يرعب القطعان ويخرب الحظيرة ، فكسر أنيابه وخلع مخالبه وحلق ذؤبته وتركه كلعبة مضحكة يلعب بها أولاده . هكذا انتصر المسيح على الموت الذى كان يثير ذعر البشرية ، وسلب منه صفته المرعبة ، حتى صارت البنات الصغيرات تلهون به (٣٠) » .

ثالثا : الألم والشيطان :

فى علاج مشكلة الألم قدم لنا القديس نظرة صادقة تجاه الجسد بكونه آلة بر — ان تمتع بقوة علوية — يعين الانسان على بلوغ غايته ويكون سندا للنفس . كما عالج مشكلة الأحداث المؤلمة التى يتعرض لها الانسان ، مقدما لنا نظرة ايمانية ترفع الانسان فوق المخاوف وتدخل به الى قوة الروح ليعيش وهو بعد فى الجسد على مستوى ملائكى . والآن ماذا يقول قديسنا بخصوص دور الشيطان تجاه الألم ؟

لقد كتب ثلاث مقالات فى هذا الشأن :

المقال الأول : « رد على القائلين بأن للشيطان سلطان علينا » .

المقالان الثانى والثالث : « سلطان الانسان على مقاومة الشيطان » .

وقد سبق أن ترجمت هذه المقالات ونشرت تحت عنوان « هل للشيطان سلطان عليك ؟ » .

---

(29) De Consol . mort . PG 56 : 299 .
(30) De S . Pelog . PG 50 : 579 .

فى هذه المقالات وغيرها أوضح النقاط التالية :

« لقد خدع الشيطان أبوينا الأولين وسمح للمياه أن تدخل سفينة حياتهم لتغرقها ، لكن الله جعل المكسب أعظم من الخسارة ، فأحضرها الى العرش الالهى . ان كان الشيطان قد خدعنا فحرمنا من الفردوس ، لكن الآب أرسل ابنه واجلسنا فى السموات (٣١) .

الشيطان خدعنا ، لكن الله أعلن عطيته التى لا يعبر عنها (٣٢) ووهبنا سلامه الذى يفوق كل عقل (٣٣) .

ان كان الشيطان كان سببا فى حرماننا من الفردوس ، فان الله أعلن عنايته بالانسان ليس فقط فى تقديم الفردوس لنا ، بل وأيضا فى حرماننا منه . . . اذ اهلنا لنعود الى حال أفضل .

٢ — اكد القديس أن الله لم يترك العالم فى يد الشياطين والا كان حالنا كحال المجنونين (٣٤) اللذين كانا فى كورة الجرجسيين بل واشر ، لأن الله لم يسلمهما بالكامل لظلم الشياطين (٣٥) .

٢ — فى المقال الثانى أوضح ان الشيطان لا يجبر الانسان على الهزيمة وانما يخدع . . .

الانسان — خاصة بعد أن تمتع بالنعمة الالهية — يحمل قوة وسلطانا لا يقدر عليهما الشيطان . انه بلا شك « يقاومنا على الدوام (٣٦) » ، وهو « مستعد مع جيوشه للقتال ضدنا بكل خبث (٣٧) » ، وقد « تسبب فى هلاك الكثيرين (٣٨) » ، لكنه ليس هو سر آلامنا المطلق . هو يثير الأضاليل ويوحى لنا بها ويشككنا ، لكنه يعجز عن أن يلزمنا بها لا اراديا . أنه لا يقدر أن يرغمنا على شيء ، أو يسوق ارادتنا (٣٩) » .

« العدو بالنسبة للأبرار لا يقدر أن يفعل شيئا الا أن يخيف (٤٠) » .

---

(٣١) اف ٢ : ٦ .
(٣٢) ٢ كو ٩ : ١٥ .
(٣٣) فى ٤ : ٧ .
(٣٤) مت ٨ : ٢٨ .
(٣٥) المقال الأول .

(36) Epist 5 : 34 .
(37) Epist . ad Olymp . 7 .
(38) De Prouid .
(39) In Gen, hom 31 : 1 .
(40) In Philip, hom 4 .

« الشيطان مخادع ... يريد أن يضللنا بمنــــاوراته » ... اما علة سقوطنا فهو « الانسان نفسه الذى ينجذب اليه . ويوافقه ، وذلك بسبب عدم جهاده أو ضعف ارادته (٤١) » . أو كما يقول القديس : « انه لا يكف من الهجوم ضدك ، لكنه ان لاحظ فيك أنك تشكر الله فى كل تجربة عوضا من أن تجدف على خالقك ، فانه للحال يكف عن أن يجربك (٤٢) » .

مرة أخرى يقول : « ان رآك الشيطان مرتبطا بالســماء ، ســاهرا ، فانه لن يجرؤ قط حتى أن يحدق فيك (٤٣) » .

« السيرة الطاهرة تسد فم الشيطان نفسه وتبكمه (٤٤) » .

« قد يقول قائل : الم يؤذ آدم اذ افسد كيانه وافقده الفــردوس ؟ لا ، وانما السبب فى هذا هو اهمال من أصابه الضرر ، وعدم ضبطه لنفسه وجهاده . فالشيطان الذى استخدم مكائد قوية مختلفة لم يقــدر أن يخضع أيوب ، فكيف استطاع بوسيلة أقل أن يسيطر على آدم ؟ (٤٥) » .

لمــاذا لم يستبعد الله الشيطان ؟

شغل هذا السؤال القديس فى كثير من كتاباته ، خاصة مقـــاله « سلطان الانسان على مقاومة الشيطان(٤٦) » ، وجاءت اجابته فى اختصار :

١ — الشيطان مضلل ... لكن كثيرون غلبوه فصارت لهم تزكيـــة وكرامة افضل بكثير من المغلوبين ، حتى ولو كان المغلوبون كثيرين . اذ يقال « ولد واحـــد خير من الف منافقين (٤٧) » .

٢ — ان كان المغلوبون قد أصابهم أذى ، فان السبب هــو كسلهم وليس الشيطان ...

٣ — لو أن الله استبعد الشيطان لأنه مضلل وبسببه يتعثر كثيرون فهل يستبعد الله الخليقة الجميلة بسبب عثرة البعض فيها ، وهل يستبعد الله أعضاءنا التى نستخدمها استخداما شريرا ... ولمــاذا ؟ فان البعض تعثر فى الصليب (٤٨) وفى الرسل (٤٩) . بل وتعثر اليهود فى السيد المسـيح نفسه (٥٠) .

---

(41) In Acts, hom 54 : 9 . (42) De Incomp, hom 4 .
(43) Ibid .

(٤٤) للمؤلف : الحب الاخوى طبعة ٦٤ ، ص ٨٤ .
(٤٥) من يقدر ان يؤذيك ؟ ص ٢١ .
(٤٦) هل للشيطان سلطان عليك ، ص ٥٢ — ٦٢ .
(٤٧) ابن سيراخ ١٦ : ٣ . (٤٨) ١ كو ١ : ١٨ .
(٤٩) ٢ كو ٢ : ١٦ . (٥٠) يو ٩ : ٣٩ .

اخيرا يؤكد القديس انه لا يبرىء الشيطان ، لكننا نستفيد من وجوده ومن حربه ضدنا لكى نتزكى ونكلل .

رابعا : الألم ومكائد الآخرين :

« ان كان الشيطان المملوء مكرا هذا مقداره بعدما صب كل ما فى جعبته ، مستخدما كل اسلحته ، وسكب كل شروره ضد انسان بار ذا مركز عالى سام لم يسبب له اذى ، بل بالحرى كما سبق أن قلت قد أفاده ، فكيف تقدر أن تتهم انسانا او آخر انه يحمل فى يديه ضررا لغيره وليس لنفسه ؟ ! ...

لست بهذا اقول انه لا يوجد من يضر غيره ، انما لا يصيب الضرر احد بيد آخر بل بسببه هو ... فقد اضر اخوة يوسف اخاهم ، لكنه لم يصب يوسف بضرر . التى قايين شباكه ضد هابيل ؛ لكن هابيل لم يسقط فيها ...

(ماذا يفعل بك الآخرون ؟) ...

ايسلبون مالك ؟ أذكر هذه الكلمات : عريانا خرجت من بطن امى وعريانا اعود الى هناك (٥١) » ، وقول الرسول : « لأننا لم ندخل العالم بشىء ، وواضح أننا لا نقدر أن نخرج منه بشىء » .

هل اسىء الى سمعتك ، وقذفك البعض بشتائم لا حصر لها ؟ أذكر القول : « ويل لكم اذا قال فيكم جميع الناس حسنا » وايضا : « افرحوا وتهللوا ان قالوا عليكم كلمة شريرة (٥٢) » .

هل اخذت الى النفى ؟ أذكر انه ليس لك هنا موضع انما يليق بك ان كنت حكيما ان تتطلع الى العالم كله كأرض غربة ...

هل يعانى انسان من موت عنيف ؟ ليذكر يوحنا الذى قطعت راسه فى السجن واخذت على طبق ، وقدمت مكافأة لرقص زانية ...

يامل المكافأة التى تنالها على حساب هذه الأمور ، فان هذه الآلام جميعها اذ تسقط على انسان من آخر ظلما انما تنزع خطايانا وشرنا .

عظيم اذن هو نفع هذه الأتعاب لمن يحتملها بشجاعة (٥٣) » .

هكذا اذ يدخل الانسان الى خبرة الحياة الأبدية يحمل نظرة جديدة نحو ظلم الآخرين ومكائدهم ، تتحول الآلام التى يصبونها علينا الى افراح .

---

(٥١) اى ١ : ٢١ ، ١ تى ٦ : ٧ .
(٥٢) لو ٦ : ٢٦ ، مه ٥ : ١١ .
(٥٣) من يقدر أن يؤذيك ، ص ٢٠ ، ٢٣ ، ٢٥ .

وقد أوضح القديس نظرتنا الى صانعى المكائد وأعمالهم هكذا :

١ ــ صانعوا المكائد اخوة لنا وليس أعداء ... فانه ليس لنا الا عدو واحد هو الخطية التى تفسد سلامنا ، أو هو الشيطان الذى يفرح ببث العداوة بين البشر (٥٤) . فعلى سبيل المثال : « لم ييأس بولس من خلاص راجميه بالحجارة او ضاربيه بالعصى اذ يمكن أن ينالوا الملكوت (٥٥) » ، ويصيروا اخوة له .

٢ ــ الله يسمح بوجود هذه المكائد ضدنا لا لكى نتألم وانما لنتكلل ... انه يرى خلال آلامنا الأمجاد الأبدية التى توهب لنا .

« لعمرى ، انك ما خسرت شيئا ، بل اخذت زيادة .

انك ما ظلمت انما تكللت ، اذ صرت شبيها بالله (٥٦) » .

« انى أنظر السيوف فأتأمل السماء !

اتوقع الموت فأفكر فى القيامة !

اتطلع الى متاعب هذا العالم السفلى فأضع فى أعتبارى المكافآت السماوية !

أدرك هذا لعدو فأتأمل الاكليل السماوى (٥٧) » .

مرة اخرى يقول : « ان كان لا يقدر أحد ان يلومنى على فعل الخطية ، فليقم العالم كله بحرب ضدى ، فان مثل هذه الحرب تجعلنى بالأكثر ممجدا (٥٨) » .

٣ ــ يرى القديس أيضا فى مكائد الآخرين فرصة لغسل الدم فى دم السيد المسيح ، وذلك بقبولنا لها من يدى الله بشكر كتأديب عن خطايانا ، اذ يقول :

« اذا اخطأنا ينهض الله علينا أعداءنا لتأديبنا ، لهذا يليق بنا لا أن نحاربهم ، بل نحاسب انفسنا وننقيها .

لنتقبل الآلام كقبول الأدوية من الطبيب لأجل خلاصنا ، وكقبول التأديب من الأب حتى نتمجد . لهذا يقول الحكيم ابن سيراخ : يا بنى اذا تقدمت لخدمة ربك فتأهب للتجارب واصبر (٥٨) » .

---

(٥٤) القيم الروحية لعيد النيروز ، ص ٤٤ .
(٥٥) الحب الأخوى ، ص ١٠٨ .
(٥٦) القيم الروحية لعيد النيروز ، ص ٦٢ .
(٥٧) الكنيسة تحبك ، عظة ٢ . (٥٨) الكنيسة تحبك .

« لا تقل ان شتمك وأساء اليك واستهزأ بك وسبك وصنع معك كل شر ... فانه قد أوجد لك فرصة لغسل خطاياك (٥٩) » .

٤ — أخيرا فان القديس يوحنا يجد فى مكائد الآخرين فرصة للغلبة على طبعه البشرى ، حيث يتدرب انسان كيف يغلب غضبه .

فى هذا يقول : « كان انتصار داود على الطبيعة الانسانية حين سامح شاول ابلغ اقتدارا من غلبته على جلبات الجبار الصنديد . هذه الغلبة أشرف لأنها بدون سفك دم ، وهى امر عجيب . لقد خرج داود فى اثر شاول شاكرا الله لا لأنه لم يقطع راس عدوه فحسب ، وانما لأنه أمات روح الغضب فى شاول ، فتخلص من روح الحقد وحطم عدوه (شيطان الانتقام) بحد السيف (٦٠) » .

خامسا : الألم وعناية الله :

كثيرا ما وضع القديس يوحنا الذهبى الفم التساؤلات التالية وأمثالها قدام شعبه :

ان كان البشر يتألمون فأين عناية الله محب البشر ؟

لماذا نرى الصالح متألما ، والشرير غنيا وصاحب سلطان ؟

لماذا يسمح الله لأولاده بالتجارب والضيقات ؟

وجاءت اجاباته تحوى مقالات طويلة قمنا بترجمة بعضها وتبويبها ونشرها (٦١) ، كما جاءت عرضا فى بعض عظاته . ويمكننا أن نلخص أفكاره فى النقاط التالية :

١ — يلزمنا أن نخضع لارادة الله بغير مناقشات كثيرة فضولية فان مقاصد الله غير مدركة حتى بالنسبة للسمائيين .

٢ — الله محب للبشر ، حبه ليس حب عاطفى ، لا يقارن بحب الأم لرضيعها او حب الزوج لزوجته او الحبيب لمحبوبته . انه حب علوى فائق ؛ غايته الدخول بالانسان الى شركة المجد الأبدى ... لذا فهو لا يريد لنا الألم ، انما يسمح به لخيرنا لتأديبنا أو تزكيتنا ، للدخول بنا الى الميراث الأبدى :

---

(٥٩) الحب الأخوى ، ص ٣٢٣ .

(٦٠) القيم الروحية لعيد النيروز ص ٦٦ .

(٦١) صدرت مقالاته فى هذا الشأن ونشرت بالعربية تحت العناوين : العناية الالهية ، هل للشيطان سلطان عليك ؟ ، يسوع والمفلوجان ، من يقدر أن يؤذيك ...

« انه لدليل مزدوج على محبة الله ان يسمح لكم بمثل هذه التجارب . هذه الكلمات تحمل تعزية عظيمة ، اذ تعرفنا أن الاحزان هى من عمل الله ، الضيقات من عنده (٦٢) » .

« الله أساسا لا يعاقبنا ، انما يريدنا أن نصير الى حال افضل(٦٣) » .

٣ — الله يسمح بالآلام للصالحين ، فليس احد مساويا للرسول بولس ومع ذلك تمضى حياته فى آلام مستمرة ، فى تنهيدات ليلا ونهارا ... ليس ثمرة خطاياه ولكن من اجل انتظار المكافأة . والاشرار يتحملون الآلام للتأديب ... وفى كلتا الحالتين نشكر الله لانه لا يسمح بذلك عن انتقام او كراهية بل علامة رعايته واهتمامه بنا (٦٤) .

٤ — يليق بنا الا نضيع وقتنا بكثرة التساؤلات انما ننتفع عمليا ، حاملين قوة جديدة خلال اتحادنا بالله ، فلا يصيبنا شر ، اذ يقول : « ان كنت تفحص أمور الله ولا تريد الخضوع لمقاصده العميقة غير المفحوصة . ان حصرت هدفك فى مجرد التساؤلات المملوءة فضولا . فانك تظل تتساءل عن أشياء اخرى كثيرة ... مع انه كان يجدر بنا لا أن نبحث فى هذا كله بل نسلم لحكمة الله غير المدركة . فان الانسان المحب الملتصق بالله على الدوام لا تؤذيه الأمواج مهما كثرت هذه ، بل على العكس يخرج منها بقوة جديدة . أما الانسان الضعيف المتخاذل فانه يسقط كثيرا حتى ولو لم يوجد ما يضايقه (٦٥) » .

سادسا : الألم والخطية :

« ليس هناك الا سبب واحد حقيقى هو علة الحزن : الخطية » .
« ليس شىء مؤلما غير الخطية ، أما ما عداها من نفى وفقدان ممتلكات وتدابير مكائد وما أشبه ذلك انما هو ظلال ودخان ، هو نسيج عنكبوت بل وأوهى من ذلك . انى لا أكف عن القول أن أمرا واحدا يحزننا هو الخطية (٦٦) » .

هكذا يرتفع الانسان فوق كل الأحداث بل وفوق مكائد الناس وخداعات الشياطين ، لكن أمر واحد يهزم الانسان هو « ارادته الشريرة » . فالانسان لا يقدر أن يؤذيه أحد ما لم يؤذ الانسان نفسه .

---

(62) In Hebr, hom 29 : 1 . (63) In Ps. PG 55 : 444 , 409 .
(64) In Tim, hom 8 .
(٦٥) العناية الالهية ، ص ١٢ .
(66) In Acts, hom 14 : 4 ; hebr, hom 33 : 4 ; Epist . ad Olymp

الالم والارادة الحـــرة :

الخطية التى يقبلها الانسان بمحض ارادته تفسـد اتزانه وتفقـــده قدرته على تقدير الأمور ، وتحرمه سلامه الداخلى النـــابع عن اتحاده مع الله ... انه بارادته الحرة هو المسئول الأول عن آلامه الحقيقية .

فى هـذا يقول :

« لا تظنوا اننا نخشى الكمائن اللهم الا اذا كنا نحن اعددناها لأنفسنا .

« الخير والشر هما فى ايدينا .

« انى أؤكد لكم ، واكرر بأعلى صوتى ، مخبرا اياكم عن ملجأ شـاهق العلو : ان المسيحى لا يخشى احد من سكان الأرض.. .بل ولا من الشيطان، ابليس الطاغية ... ما لم يضر الانسان نفسه أولا » .

« الله ليس مصدرا للألم ، ولا الطبيعة ، ولا القضاء والقـدر ، لكنه هو من عمل ارادتكم الحرة ورغبتكم (٦٧) » .

« فى الواقع ليس الغنى ولا الفقر يفسد حياتكم ، انما ارادتكم » .

« قد يهينك العالم كله ، لكنك ان لم تهن نفسك بنفســك لا تكون مهانا . الخيانة الوحيدة الحقيقية هى خيانة الضمير (٦٨) » .

« لاتخف قط من السيف ان كان ضـميرك لا يسىء اليك ، ولا تخف من الحرب ان كان ضميرك نقيا (٦٩) » .

الالم وسر المسيح :

ربط القديس الألم فى حياة المؤمنين بشخص السيد المسيح الذىقبل الالام من اجلنا بفرح ، مقدما مفهوما جديداً للألم :

١ ــ المسيح المتالم مثال للمتالمين :

لقد شرب السـيد الكاس حتى النهاية ، وفى هذا كله لم يفقـد هدوءه ولا صبره ولا شجاعته ولا حبه لمضطهديه ، مقدما لنا مثالا عمليا حتىكما سلك هو نسلك نحن ايضا .

« كان يمكنه ان يرسل صاعقة وبزلزل الارض وييبس يد رئيس الكهنة ، لكنه أراد ان يغلب بالهدوء ، معلما ايانا نحن البشر الا نندفع قط (٧٠) » .

---

(67) In Mat, hom 59 : 2 .

(٦٨) الكنيسة تحبك : عظتان عن أتروبيوس : ٢ .

(٦٩) المرجع السابق .

(70) In S . Phoce 2 .

« ارجوكم ان تلاحظوا فى هذا المجال (أحداث الصليب) كيف تمم المسيح كل هذه الأمور فى هدوء » . أمام التعبيرات لم ينطق قط ، مقدما لنا اعظم درس فى التسليم وسمو النفس ...

يسلم احد التلاميذ المخلص ، وبقية التلاميذ تهرب ، والذين صنع معهم خيرا يبصقون على وجهه ، وخادم رئيس الكهنة يلطمه والجند يوسعونه ضربا ، والمارة يشتمونه ، واللصوص يهيجون عليه ، وفى هذا كله لم ينطق بكلمة !

بصمته انتصر ، معلما ايانا أن نغلب الظلم بالصبر ، فيكون ذلك موضع اعجاب العالم كله (٧١) .

« يكفينا ان نقرا هذه الأحداث ونتذكرها : اكليل الشوك ، رداء الهوان الأرجوانى ، القصبة ، اللطمات ، البصاق ، وكل أنواع السخرية . اذا تأملنا فى هذه لأحداث لا نحتاج الى شىء آخر يطفىء كل شعور بالغضب فى قلوبنا (٢٧) » .

« المعصوم من الخطية قبل ان يموت لكى يعلمنا الاحتمال بشجاعة محتقرين الموت (٧٣) » .

« لقد صلى (وسط آلامه) ليعلمنا الصلاة ، طالبين ان يبعد عنا المخاطر . وان لم يتحقق هذا فاننا نتقبل ارادة الله الحلوة (٧٤) » .

« اجتاز هذا كله لكى يشارك آلامك كلها ، غالبا اياها بطريقة عجيبة لكى يعلمك ويرشدك الا تخاف شيئا من هذه المحن (٧٥) » .

٢ ـ بعد الخطية علة الألم :

بآلامه وصلبه وموته ودفنه اعطانا قوة جديدة ، ليس فقط أن نتمثل به ، لكنه حطم سلطان الخطية وكسر شوكة الشيطان وأمات الموت الروحى واهبا لنا حياة جديدة فيه . بآلامه حطم سلطان آلامنا .

« ضرب السيد المسيح الموت .

قتل المسيح المضروب الموت ، هازما ما كنا نظنه ابدى (٧٦) » .

« انى اتحدث عن اعظم الخيرات ، اقصد الصليب الذى به خلص العالم (٧٧) » .

« اترون كيف حطم قوات الشيطان بدفعه طغيان الموت؟! (٧٨) » .

---

(71) In Joan 84, 85, Mat. 87.
(72) In Joan 84 : 3.
(73) In Hebr, 28 : 2.
(74) Pater, si possible 4.
(٧٥) العناية الالهية ، ص ٣٠ .
(76) In Col, 6 : 3.
(٧٧) العناية الالهية ، ص ١٥ .
(78) In Hebr, 4 : 4.

٣ — بآلامه قدم مفهوما جديدا للألم :

كان الألم علته الخطية وسره فساد ارادتنا ، دخل الينا كمرض أصاب الانسان بسبب انعزاله عن الله مصدر حياته وسر فرحه ، لكن الرب دخل الآلام من باب جديد هو باب الطاعة للآب والحب . أطاع الآب وأحبنا مسلما نفسه للآلام حتى الموت ذبيحة حب للآب باسمنا ، فلم يعد الألم مرضا يصيب الانسان بعلته عن الله بل قوة ومجدا ، سر الطاعة والحب ، تفوح منه رائحة الصلاح لا الفساد .

هذا المفهوم الجديد للألم لمسناه بقوة فى مراسلاته الأخيرة وهو فى النفى حين أعلن لأخوته الأساقفة وأبنائه أنه يثب متهللا بالألم ، حاسبا نفسه غير أهل لشركة الآلام مع المسيح ... شركة الطاعة والحب .

ومن أقواله أيضا :

« انه يسمو بنفوسنا ، حاسبا هذه الآلام خاصة به ، فأى فرح يشملنا أن نكون شركاء المسيح ، ومن أجله نتألم ؟! » .

« كما تألم من الناس نتألم نحن أيضا معه ... لذلك يليق بكم الا تقلقكم هذه الآلام بل بالحرى تفرحكم ..

هكذا يليق بنا أن نسلك فى نفس الطريق حتى نشاركه فى المجد والكرامة ...

ما أمجد الآلام ! بها نتشبه بموته ! (٨٠) » .

« ليس شىء أقسى من الآلام الجسدية (التى عانها الشهداء) ، لكن بسبب فرحهم بالههم فان ما لم يكن محتملا للآذان أن تحتمل سماعه يصير بالنسبة لهم محتملا ، بل ويشتاقون اليه ! فلو أخذت شهيدا من على الصليب أو من داخل أتون النار وكان لا يزال به أنفاس فستجد فى داخله كنزا من الفرح لا يعبر عنه » .

« كيف يمكن أن يكون حزينا أو مرتعبا أو خائفا من الخطر من يتذكر الاله الذى تنازل وأحبنا ؟! (٨١) » .

وفى تعليقه على كلمات الرسول : « لأنه قد وهب لكم لأجل المسيح لا أن تؤمنوا به فقط بل أيضا أن تتألموا لأجله (٨٢) » ، يقول : « انه يعلمنا أن

---

(٧٩) الحب الالهى ، ص ٤٢٣ . (٨٠) فى ٣ : ٩ — ١٢ .
(٨١) القيم الروحية لعيد النيروز ، ص ١٧ — ١٩ ، ٣٢ ، ٤٢ .
(٨٢) فى ١ : ٢٩ .

الآلام نعمة من اجل المسـيح ، هى عطية النعمة ، عطية مجانية . لا تخجل من عطية النعمة هذه ، فهى اعجب من قوة الاقامة من الأموات أو صنع المعجزات ، فاننى ان فعلت هذه الأمور الأخيرة أكون مدينا (لله) ، أما ان احتملت الآلام فيكون المسيح هو مدين لى . لذلك يليق بنا ليس فقط الا نخجل منها بل بالحرى نفرح انه قد صار لنا هذه النعمة (٨٣) » .

مدرســة الألم :

اخيرا يرى القديس أن الألم هو « مدرسة الفلسفة (٨٤) » ، ونقصد بالفلسفة « الحياة الفاضلة الايمانية » يقول عنها :

« الألم هو معلمنا .

اننا لا نجلب الألم على أنفسنا ، انما نحتمله بشجاعة متى تعرضنا له ؛ لأنه دائما مصدر خيرات كثيرة (٨٥) » .

« هذه الحياة هى مكان للتدريب (على الألم) ، معركة ، وبوتقة فيهـا تنصهر الفضيلة وتتنقى (٨٦) » .

« كما أن عنف الرياح يجعل شجر البلوط قويا وأكثر صلابة ، هـكذا الروح النقيـة القديسة كروح أيوب الطوباوى لا تتزعزع تحت هجمات الآلام بل يقوى صبرها (٨٧) » .

« لا تشتهى حياة خالية من كل ضيقة ، فان هذا ليس فيه خيرك (٨٨) » .

«أن نشكر الله على خيراته، فهذا وفاء لدين، أما أن نشكره على الضيقات التى يسمح لنا ، فهذا يجعله مدينا لنا (٨٩) » .

أخيرا ينصحنا لكى ننجح فى مدرسة الألم ان نحنى ظهورنا عنـدما تهب رياح التجارب اى نقابلها باتضاع وهدوء وذلك « كالبحارة الذين يطوون القلاع عند هبوب الريح العاصف (٩٠) » .

+ + +

---

(83) In Philip, hom 4.
(84) In Acts PG 60 : 378.
(85) In Acts. PG 60 : 302.
(86) Ad eos qui scand PG 52 : 522.
(87) Ad pop. Ant PG 49 : 62.
(88) In Ps. PG 55 : 317.
(89) In Ps. PG 55 : 121.
(90) In Acts. PG 60 : 232.

الباب الثالث

القديس يوحنا الذهبي الفم

كتاباته

١ — عظـــاته .

٢ — مقـــالاته .

٣ — رســـائله .

٤ — ليتورجيتــه .

٥ — الكتابات غير الأصيلة .

تقـــديم

ترك لنا القديس يوحنا الذهبى الفم تراثا ادبيا ضخما ، ولعل شهرته الفائقة فى الوعظ وتفسير كلمة الله ، مع احتماله الآلام من أجل الحق ، جعـل شخصيته محبوبة ومكرمة فى الكنيسة شرقا وغربا مما حفظ كتاباته من المصير الذى آلت اليه كتبات معاصريه من آباء مدرسة أنطاكية بسبب ما حملته أحيانا من اتجاهات وميول نسطورية ، فى قليل أو كثير .

وهو الأب الأنطاكى الوحيد —من رجال الكنيسة فى ذلك الحين — الذى حفظت كتاباته بأكملها تقريبا ، بل وترجمت الى لغات كثيرة لتقرأ أجزاء منها اثناء الليتورجيات . . .كما انشغل بعض الآباء الرهبان والشعب بنسخ كتاباته وعظاته بكونها تراثا كنسيا انجيليا له وزنه .

ومن الجانب الآخـر ، استغل بعض الـكتاب الذين ارادوا لأعمالهم الخلود أن ينسبوها اليه ، فجاءت كتابات ليس بقليلة غير أصيلة .

اهميـــة كتاباته :

١ — ان كانت كتاباته لم تقدم دراسات لاهوتية عميقة ، لكنها تعتبر مثلا حياً للتطبيق العملى للانجيل فى الحياة العامة على المستوى الجماهيرى والمستوى الشخصى . كشفت لنا اسـلوب الحياة الذى يليق بالمسيحى — كاهنا أو من الشعب — أن يعيشه فى حياته الخاصة وفى علاقاته مع الآخرين .

٢ — جاءت أغلب كتاباته فى شكل عظة تقدم لنا صورة حية للحيـاة فى عاصمتى ســوريا وبيزنطة من الناحية الـكنسية والسياسية والاجتماعية والثقافية ، كما قدمت لنا كنزا يبحث فيه اللاهوتيون والمؤرخون وعلماء الآثار . يقول احد دارسى التـاريخ « أن اعمال ذهبى الفم قد أكملت معرفتنـا عن انطاكية فى ذلك الحين ، بقدر ما أمدتنا بطريقة غير مباشرة بخلفية للأحداث التفصيلية التى اشارت اليها (١) » .

اهم كتاباته :

نستطيع أن نقسم أهم الكتابات المنسوبة اليه الى :

أولا : عظـــاته . ثانيا : مقـــالاته .

ثالثا : رســـائله . رابعا : ليتورجيته .

خامسا : الكتابات غير الأصيلة .

---

(1) Glanville Doweny : A History of Antioch in Syria from Seleucus to the Arab Conquest, Princeton, 1961 , p 42 .

[أولا]

عظـات

١ — تعتبر عظاته من اهم ما وصل الينا من العظات الآبائية ، ظهر فيها الكاتب كطبيب حقيقى للنفوس ، يعرف كيف يشخص امراضها بكل دقة ، مظهرا كل حنو وفهم للضعف البشرى، لكنه فى غير تهاون أو مهادنة للشر(١) .

كثيرا ما كانت عظاته تحمل شيئا من العنف والانتهار لكن تحمل لمسات حب عميقة واتضاع مع ورع صادق، جذب اليه الكثيرين يسمعون له ولايملون .

٢ — امتازت عظاته ايضا ببساطة التعبير مع الوضـــوح واعطاء امثلة كثيرة من العهدين ومن الواقع العملى فى ذلك الوقت ، فكانت عظاته بحق انجيلا معاشـــا . . . تكشف عن دراية واسعة فى معالجة المشـــاكل اليومية الحاضرة باسلوب انجيلى .

٣ — يرجع أغلب هذه العظات — وهى عظات تفسيرية للعهدين — الى ما بين عام ٣٨٦ وعام ٣٧٩ م بانطاكية ، وهى تقدم شهادة عن دقة تدربه فى عقائد مدرسة انطاكية ، اذ كان يميل كثيرا الى التفسير الحرفى معارضـــا الرمزية فى مواضـــع كثيرة مع الاهتمام بالجـــانب الروحى . لم يحب منهج أوريجانوس الرمزى بالرغم من دفاعه عن أتباع أوريجانوس (٢) .

٤ — بسبب جهله اللغة العبرية جاءت عظاته على العهد القديم لا تحمل نفس قوة عظاته على العهد الجديد . وان كانت عظاته على العهدين لهما ذات الطابع (٣) .

٥ — لا نستطيع ترجمة هذه العظات ونشرها على الشعب كما هى ، للأسباب التالية :

---

(1) Quasten : Patrology, vol 3 , P 433 .

(٢) راجع مشكلة الأخوة الطوال القامة .

(3) NRNF . S . 1 , vol 10 , P xvlll .

[أ] فقدت بعض العظات قوتها لاختلاف الظروف التى القيت فيها عن الظروف الحالية . فلا نشعر مثلا بقوة « عظات التماثيل » ، مثلما أحس بها الذين عاشوا فى جو انطاكية المرعب فى ذلك الحين . فالواعظ الروحى الحكيم يعرف كيف يقدم كلمـة الله الحية مفسرة كغذاء يشبع نفوس سـامعيه تحت ظروف كنسية واجتماعية وثقافية وسياسية معينة ، فيدخل بهم الى كلمة الله الأبدية خلال الواقع العملى الذى يعيشونه .

[ب] ترجمة العظات من لغتها الأصلية ، اليونانية ، يفقدها أيضا شيئا من بلاغتها ، فالتشبيهات والأمثلة والتعبيرات تختلف من لغة الى أخرى .

[جـ] أغلب عظاته التى وصلت الينا لم تكن عن نسخة خطها المتحدث نفسه ، وانما هى ملاحظات سجلها بعض المستمعين ، وهناك فارق بين لغة الوعظ ولغة الكتابة . هذا وقوة العظة لا تقف عند العبارات لكنها تمتد الى روح المتكلم نفسه وطريقة حديثه ... الأمر الذى لا تستطيع الكتابة أن تفعله مع العبارات .

[د] بعض العظات سجلت لأجل الانتفاع بها فى الكنائس والأديرة ، فامتدت اليها يد النساخ لتصحيح بعض العبارات أو تعديلها او الحذف منها ليمكن قراءتها ...

+ + +

اولا : عظات على العهـــد القديم

١ ــ عظات على سفر التكوين (١) :

توجد مجموعتان من العظات على سفر التكوين ، يبـــدو انهما من أقدم كتاباته التفسيرية . الأولى تتكون من تسع عظات (٢) ، القيت فى انطاكيـــة فى الصوم الكبير عام ٣٨٦ م . باستثناء العظة الأخيرة تعالج هـــذه العظات الثلاث الاصحاحات الاولى من سفر التكوين . والمجموعة الثانية تتكون من ٦٧ عظة تقدم تفسيرا كاملا لسفر التكوين ، يبدو انها نشرت عام ٣٨٨ م . بعض العظات فى المجموعتين متطابقة تماما .

٢ ــ عظات على المزامير :

له مجموعة عظات على ٥٨ مزمورا (مز ٤ــ١٢ ، ٤٣ ــ ٤٩ ، ١٠٨ــ ١١٧ ، ١١٩ ــ ١٥٠) ... وقـــد جاءت تحت عنوان « تعليقات » وليس « عظات » . يشك البعض فى نسبتها اليه وان كانت تعتبر من أجمل عظاته على اسفار العهد القديم .

لم يلتزم بالترجمة السبعينية بل احيانا يشير الى ترجمات أخرى واحيانا يستخدم اكثر من ترجمة جنبا الى جنب .

تحدث فى هـــذه المزامير عن أنواع الصـــلاة (٣) ، الترنم بالمزامـــير والتسبيح (٤) ، الحج الى الأراضى المقدســـة (٥) ، العمل الكهنـــوتى (٦) ، البتولية (٧) ، التنـــاول باستحقاق (٨) ، كما هاجم الأريوسيين واتبـــاع مانى وبولس السوموسطائى .

وللقديس عبارات مبعثرة كتفاسير لمزامير أخرى .

---

(1) Quasten : Patroloqy , vol 3 . (2) PG 54 : 581 — 630 .

(٣) مز ٧ ، ٩ ، ١٤١ . (٤) مز ٤٨ . (٥) مز ١٠٩ .

(٦) مز ١٠٩ . (٧) مز ١١٣ ، ١١٦ .

(٨) مز ٤٦ ، ١٠٩ ، ١٤٨

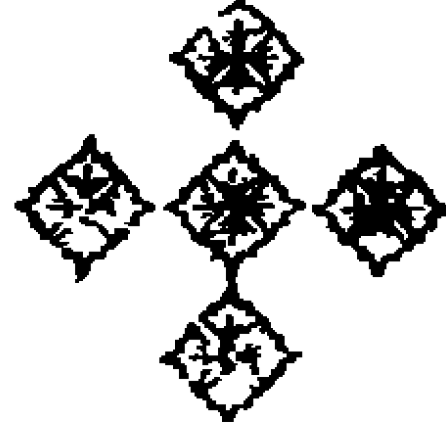
٣ ـ عظات على سفر اشعياء :

له ٦ عظات على اشـــعياء ص ٦ فى أصل يونانى (٩) ، ألقى بعضها فى انطاكية والآخر فى القسطنطينية . كما يوجد شرح كامل على سفر أشـــعياء باللغة الأرمنية .

٤ ـ عظات اخرى :

له عظات أخرى على أسفار العهد القديم منها خمس عظات على حنة (١٠) وثلاث عظـــات على داود وشاول (١١) ، وله عظتان عن الأمور الغامضـــة بالأنبيـــاء prophetarum obscuritate تعالج الأسفار النبوية بوجه عام ؛ القيتا بأنطاكية عام ٣٨٦ .

جاءت مقتطفات كثيرة للقديس فى الـ Catenae كتفاســـير عن ارميا ودانيال والأمثال وأيوب ... هذه حتى ان ثبت صـــحة نسبها للقديس ربما تكون مستخرجة عن كتابات أخرى له وليس عن عظات وتفاسير للعهد القديم .



(9) PG 56 : 97 — 142 .
(10) PG 54 : 631 — 676 .
(11) PG 65 : 675 — 708 .

ثانيـــا ــ عظاته على العهد الجديد

١ ــ عظات على انجيــل متى :

تحوى تسعين عظة ، ألقيت فى انطاكية (١) ، غالبا فى الفترة الاخيرة من خدمته ككاهن (٢) ، حوالى عام ٣٩٠ م .

جاء تفسيره للأمثال غاية فى الروعة .

ركز كثيرا على الحث على الصدقة ، معطيا اهتماما بالجانب السلوكى فى التفسير مثل عدم الغضب ، وعدم الحسد ، وغفران أخطــاء الآخرين ، وعدم الادانة والصوم الخ ... كما هاجم بعض العـــادات الشريرة فى ذلك الحين خاصـــة الذهاب الى المسارح .

مدح الحياة الرهبانية ، فتحدث عن قداسة رهبان مصر (٣) ، ووصف الحياة الديرية كحياة مثالية فى النصرة على الشر وحياة التكريس (٤) ، مثلا حياً للعلمانيين . دعاهم جنود المســيح ، لابسى ثوب العــرس فى حديث دائم مع الملائكة .

فى مقــدمة العظات تساءل : ألم يكن انجيل واحــد كاف أن يخبر بكل شىء ؟ وجاءت الاجابة : « حقـــا ان انجيل واحد فيه الكفاية ، لكن أن كتب الاربعـــة الانجيليين ، ليس فى وقت واحد ، ولا فى مكان واحد ، ودون أن يلتقوا معـــا ، ولا تناقشوا معـــا ، ومع هذا جاء حديثهم فى كل الامور كأنما يصدر عن فم واحد ، فهذا برهان عظيم على الحق .

ربما يقال انهم فى بعض المواقع متهمون بعدم الاتفــــاق فيما بينهم . بلى ، فان هذا الامر عينه يمثل شهادة عظيمة جــدا على الحق الذى لهم . فانهم لو اتفقـــوا فى كل الامور تماما حتى فى الزمن والمكان وكل الكلمـــات لمـــا صدق أعداؤنا هذا ، انما كانوا يقولون أنهم التقوا معا وكتبوا باتفـــاق بشرى فيما بينهم ... لكن ما قد يظنه البعض عدم اتفاق فى أمور بسيطة ينزع الشك فى وجود اتفاق فيما بينهم ، وهذا فى صالح الكتاب (٥) » .

فى هذه العظات ــ كما فى بقية تفاسيــره ــ لم يركز على الجـــانب العقيدى والمجادلات اللاهوتية ، لكنه كان حريصا أن يقدم العقيــدة السليمة خلال كلماته الروحية ، ، كما كان يرد على الهرطقات المعاصرة أحيانا بطريقة

(1) In Mat. hom 7 PG 57 : 81.
(2) N & PNF, ser. 1, vol 10, P lx.
(3) hom 8. (4) hom. 69, 70. (5) hom 55.

مباشرة وأخـــرى بطريقة غير مباشرة ، فرد على أتباع أريوس مؤكدا لاهوت السيد المسيح ومساواة الابن للآب . . . كما رد على اتباع مانى مفندا دعواهم بأن العهـــد القديم يختلف عن العهد الجديد ، وأن اله العهد القديم اله العدل واله العهد الجديد اله الحب . رد ايضـــا على دعواهم بأن الجســـــد هو مصدر الخطية ، اذ يقول : « لم يقل فى أى موضع أن جسدنا معيب فى شىء ، بل فى كل موضـــع المتهم هو الذهن الشرير . العيب ليس شريرا بطبيعـــه بل فى الذهن والفكر (٦) . وأوضح أيضا أن الشيطان ليس شريرا بطبعـــه الأصلى ، لكنه قبل الشر بارادته ، انما أصله أحد الخلائق الصالحة (٧) .

٢ ــ عظات على انجيـــل يوحنـــا :

تحوى ٨٨ عظة وهى اقصر من العظات على انجيـــــل متى ، القيت فى وقت متأخر عنها ربما فى عام ٣٩١ م ، غالبا ما كانت تلقى فى الصباح (٨) . وهى اكثر جدلا من العظات على انجيل متى والسبب فى هذا أنه كثيرا ما يلتقى ببعض النصوص التى يستخدمها الاريوسيون لانكار مســـاواة الابن للآب .

فى العظة السادسة أوضح ان السيد المسيح هو الله ، ابن الله الوحيد الحقيقى واحد مع الآب فى الجوهر البسيط . . . كما يقـــول على لسانه : « لست انا بالكائن الذى ينقص جـــوهره ، انما من أجل اهتمـــامى بخلاص الكثيرين نزلت الى هذا الاتضاع لأشهد لنفسى للانسان » .

وفى العظة الحادية عشر يقول : « صار ابن الله ابنا للانســـــان لكى يجعل من بنى البشر أولادا لله . فانه عندما يجتمع العالى مع الأقل لا يمس هذا كرامته ، انما يرتفع بالذى هو اقل وينقله من خسته الزائدة ، هكذا فعل الرب . بتنازله لم تنقص طبيعته شيئا ، انما رفعنـــا نحن الذين كنا نجلس فى العار والكلمة ودخل بنا الى مجد لا ينطق به » .

٣ ــ عظات على ســـفر الأعمال :

اشـــــار اليها Cassiodarus فى القرن الخـــامس انه بمساعدة أصدقائه قام بترجمتها الى اللاتينية . وقد وجد شـــــكلان مختلفان لها من المخطوطات ، أما الطبعات فجاءت خليطا منهما .

تحوى هذه المجموعة ٥٥ عظـــة القاها القديس فى أسابيع الفصح فى السنة الثـــالثة من أسقفيته (٤٠٠ م) ، حيث كانت العـــادة أن يقــرأ

(6) hom 1 : 5 — 6. (7) hom 17 : 3. (8) hom 19 : 10.

هذا السفر فى الفترة ما بين عيد الفصح وعيد البنطقستى . كانت القسطنطينية فى ذلك الوقت معرضة لاضطرابات مستمرة من الغوصيين .

للأسف جاءت هذه العظات هزيلة بالنسبة لغيرها من عظـاته وذلك لأن القليل منها اعدها كتابة ، اما اغلبها فجاءت مجـرد ملاحظات سـجلها بعض المستمعين له (٩) ، ولم يكن لدى القديس وقتا لمراجعتهـا بسبب مسئولياته الضخمة فى عمله الجديد . حملت العظات بعض الأخطاء كما جاءت احيانا بغير نظام او ترتيب .

فى هذه العظات انتقد الذين يهملون هذا السفر : « انى لا أترك كنزا كهذا يبقى مخفيا عن الانظار ، فانه بحق فائدته ليست بأقل ما للأناجيـل . انه منعم بالحكمة المسيحية والتعليم الصحيح خاصة ما ورد فيه عن الروح القدس . ليتنا لا نعبر عليه عبـورا سريعا بل نفحصه بدقة (١٠) » .

انتقد تأخير العماد ، كما عالج موضوع المعجزات : طبيعتها وغايتهـا والفـارق بينها وبين السحر ، موضحا انه خير لنا أن نتألم من اجل المسيح ونطرد الخطية عن ان نطرد شيطانا او نصنع المعجزات .

ركز على الاهتمام بالصلاة ودراسة الكتاب المقدس والصدقة والغضب والوداعة كما انتقد القسم وغير ذلك من العادات الشريرة (١١) .

٤ ـ عظات على الرسـالة الى اهل رومية :

تحوى ٣٢ عظة ، تعتبر من افضل كتاباته ، اذ يقول الأب اسيذورس Isidore of Pelusium ان « كنـوز حكمة يوحنـا المتعـلم ظهرت على وجه الخصوص فى تفسيره الرسالة الى اهم رومية . لست اظن أن أحدا يقدر أن يقول انى بهذا متملقا اياه ، فانه لو اراد بولس الالهى نفسـه أن يشرح بلسانه الفصيح كتاباته ما كان يتكلم بغير ما قاله هذا السيد الشهير (١٢) » .

القى هذه العظات فى انطاكية ما بين عام ٣٨١ وعام ٣٩٨ ، غالبا بعد نهاية عظاته على انجيل يوحنـا بفترة قصيرة .

بالرغم من أن الرسالة تعالج مشاكل تعليمية كثـيرة الا أن الذهبى الفم لم يكن لديه اى ميل للفـكر اللاهوتى ، بل كان منجـذبا نحو الاسـئلة السلوكية . . .

---

(9) N & PNF, Series 1, vol 11, P IX.
(10) hom 1. (11) N & PNF. P XII.
(12) Epist. 5 : 32.

بدأ عظاته بعبارات الاعجاب بالرسول بولس وسار فى التفسير هكذا وختم عظاته بمديح فائق له حتى أعلن شهوته ان يرى قبر الرسول بولس ليقبل تراب جسده ، يرى آثار العينين اللتين أعميتا بالمجد ثم شفيتا لأجل خلاص العالم ، العينان اللتان لم تعرفا النوم بل سهرتا فى نصف الليل ، ونظرتا الامور غير المنظورة . يرى آثار قدمى بولس الرسول اللتين كانتا تجريان فى العالم بلا ضجر ، اللتان كانتا مقيدتين فى المقطرة حين اهتزت أساسات السجن (١٣) .

فى عظته ٢٣ حديث دافع عن الفكر المسيحى السياسى ، كيف يلتزم المسيحى أيا كان كاهنا او راهبا أو من الشعب بالخضوع للسلطات الحاكمة فى الرب ...

ويلاحظ ان القديس فى تعليقه على رو ٥ : ١٤ (العظة العاشرة) اوضح نظرته الى « الخطية الجدية » أو « الخطية الأصلية » ، نه بانسان واحد قد دبت الخطية فى البشرية ... بهذا لم يحمل اى اتجاه بيلاجى كما ادعى يوليان اسقف Eclanum البيلاجى .

ولتوضيح ذلك نقول ان الغنوسيين واتباع مانى حرموا الانسان من كل حرية اختيار ، يولد شريرا او صلاحا ، لا خيار له فى ذلك ... فجاء بيلاجيوس يحمل التطرف المضاد فقال ان الانسان يولد بلا خطية أصلية وبكمال حريته يبدأ هو الطريق ويقدر ان يخلص أو يهلك ... مقللا من شأن النعمة الالهية . وقد استغل يوليان كلمات القديس فى عظة له للمعمدين حديثا جاء فيها « لذلك نعمد حتى الاطفال الصغار بالرغم من انهم بلا خطايا » . وقد رد القديس أغسطينوس أن كلمة « خطايا » هنا بالجمع تشير الى الخطايا الفعلية الشخصية وليس الخطية الأصلية (١٤) ، مقدما ثمان مقتطفات من كلمات القديس اغسطينوس يتحدث فيها عن وجود الخطية الأصلية .

اما بخصوص حرية الارادة فقد تحدث كثيرا عن حرية الارادة وكيف ان الله يريدنا أن نبدأ بالعمل لكى يعمل هو فينا ... لكنه فى مواضع أخرى يوضح حتى بدايتنا هذه لن تتم بدون معونة الله (١٥) . فالقديس لم يحمل اتجاها بيلاجيا ... خاصة وانه لا يتحدث فى عظاته كمناضل لاهوتى وانما كواعظ يحث الناس على الجهاد (١٦) .

---

(13) hom 32 .
(14) St. Augustine : Cont . Julianum 1 : 22 .
(١٥) راجع الفصل الخاص بمنهجه السلوكى .
(16) N & PNF , Series 1 , vol 11 , P 332 .

٥ ــ عظات على الرسالتين الى اهل كورنثوس :

تحوى ٤٤ عظة على الرسالة الأولى ، ٣٠ عظة على الرسالة الثانية ، وضعت فى انطاكية (١٧) ، اما تاريخ وضعها فيصعب تحديده . العظات على الرسالة الثانية جاءت بعد اربع سنوات من لعظات على الرسالة الأولى (١٨) .

« يرى المثقفون والاتقياء ان العظات على الرسالة الأولى الى اهل كورنثوس افضل عينات تفكيره وتعليمه . فى شكلها تحمل خليطا ما بين التفسير والنصائح ... (١٩) » .

فى العظة ٤٠ على الرسالة لأولى اقتبس مقتطفا من قانون الايمان الخاص بالمعمودية ... وتعتبر العظة سجلا تاريخيا هاما لليتورجية العماد فى ذلك الحين .

بجانب هاتين المجموعتين كتب القديس ثلاث عظات (٢٠) على ١ كو ٧ : ١ وثلاث عظات (٢١) على ٢ كو ٤ : ١٣ وعظة على ١ كو ١٥ : ٢٨ قام بنشرها S. Haidacher عام ١٩٠٧ .

٦ ــ تفسير الرسالة الى اهل غلاطية :

فى الاصل هى مجموعة من العظات ، لكنها حاليا فى شكل تفسير حيث يجرى شرح الرسالة آية آية .

كتبت فى انطاكية حيث يشير الى عظته الخاصة بتغيير الأسماء (٢٢) ، ويرى نيومان J. H. Newman (٢٣) انه لا يمكن تحديد تاريخ كتابتها وان كان يبدو أنها ليست قبل عام ٣٩٥ م .

٧ ــ عظات على الرسالة الى اهل افسس (٢٤) :

تحتوى على ٢٤ عظة ، القيت اصلا فى انطاكية اذ يشير الى قديسين محبوبين لهذه المدينة هما بابيلاس Babylas وجوليان (٢٥) ، كما اشار

(17) In 1 Cor, hom 21 : 9 ; 2 Cor, hom 26 .
(18) N & PNF , Series 1 , vol 2 , P IV .
(19) Ibid .
(20) PG 51 : 207 — 442 .
(21) PG 51 : 271 — 302 .
(٢٢) تفسير غلا ١ : ١٦ .
(32) N & PNF , Series 1 , vol 13 , P XIII .
(24) N & PNF, Series 1, vol 13, P XIII.
Quasten : Patrology vol 3 , P 447 .
(٢٥) عظة ٩ ، عظة ٢١ : ٣ . اشار تيؤدرت (٤ : ٢٧) الى الأخير انه زار انطاكية مرة واحدة .

الى المؤسسات الرهبانية فى الجبال المجاورة لأنطاكية (٢٦) والتى كان لها دور هام فى حياته .

تعتبر العظة ٢٠ هامة جـدا بالنسبة للتعليم عن الزواج .

٨ — عظات على الرسالة الى اهل فيلبى :

تحوى ١٥ عظة . يرى baer انها القيت فى انطاكية حيث كان له الوقت الكافى لتأليفها ، غير أن العظة ٩ : ٥ يتحـدث فيها عن مسئولياته كأسقف ، لذا يرى البعض أنها القيت بالقسطنطينية .

فى عظته السابعة عن فى ٢ : ٥ — ١١ دافع عن التجسد الالهى ضد الهراطقة اتباع مرقيون . بولس السوموسطائى وآريوس .

يتحدث عن وحدة اللاهوت مع الناسوت قائلا :

«ليتنا لا نخلط أو نقسم الطبيعتين . يوجد الله واحد ، مسيح واحد ، هو ابن الله . عندما أقول « واحد » أقصد اتحـادا وليس خلطا ، الطبيعة الواحدة لا تتغير الى الأخرى ، بل متحـدة معها (٢٧) » . ان كان لم يذكر صراحة أن للمسيح طبيعة واحدة متحدة من طبيعتين بلا اختلاط ولا امتزاج ولا تغيير ، لكنه يحمل جوهر تعليمنا فى طبيعة المسيح .

٩ — عظاته على الرسالة الى أهل كولوسى (٢٨) :

تعتبر هذه العظات مع عظاته على الرسالتين الى اهـل تسالونيكى اقل من بقية عظاته على العهد الجديد فى تكوينها الأدبى وسموها ، ربما لأنه كتب هذه العظات أثناء عمله الأسقفى ، فلم يكن له الوقت الكافى للاعـداد مثلما كان له فى أنطاكية وهو كاهن ...

لكن هذه العظات حملت روح كرازى قوى ، عظات ملتهبة ، تشـهد لغيرته المتقدة ... يتحدث فيها مع شعبه عن كل تفاصـيل حياتهم ...

عظاته على الرسالة الى اهل كولوسى حوت ١٢ عظة ، يتحدث فيهـا عن نفسه كأسقف ، القـاها بعـد سقوط أتروبيوس وقبـل اعدامه ، اى عام ٣٣٩ م .

فى العظة الأولى تحدث عن أنواع الصداقات بين البشر ، وفى الثانيـة

---

(٢٦) عظة ٦ ، ١٣ .

(27) PG 62 : 177 — 298.

(٢٨) عظة ٣ : ٤ .

اهتم بلاهوت السيد ، وفى الرابعـــــة اجاب على السؤال : لمـــاذا لم يأت السـيد الى العالم فى وقت مبكر ؟ وفى الخامسة عالج عجز العقل البشرى عن ادراك الأسرار الالهية ، وفى السادسة وصف موت المسيح كحل لرباطات الانسـان ، وفى السابعة تحدث عن عمل المعمودية كتحطيم لأعمال الانســان القديم والتمتع بالانسان الجديد . وفى الثامنة شرح « الشـــكر » كفلسفة الحياة العظيمـــــة واوضح ان حياة الشكر تدخــل فى رتبة الاستشهاد . وفى التاسعة ركز على ضرورة قراءة الكتاب المقدس كما اشار الى اهميـــة المزامير والتسبيح .

١٠ ــ عظات على الرسالتين الى أهل تسالونيكى :

تحوى ١١ عظة على الرسالة الأولى و ٥ عظات على الثانية ، وضعها فى القسطنطينية ، اذ يتحدث عن نفسه كأسقف .

١١ ــ عظات على رســـائل بولس الرعوية :

تحوى ١٨ عظة على الرسالة الأولى الى تيموثاوس و ١٠ عظـــات على الرسالة الثانية ، القـــاها فى انطاكية حيث لم يشر الى نفسه كأسقف أثناء حديثه عن العمل الأسقفى ، كما مدح المتوحدين (الذين بجوار انطاكية) وشهد عن حرق معبـــد أبولو فى Daphn. (٢٩) ...

كما تحوى ٦ عظات على الرســــالة الى تيطس ، القيت بأنطاكية ، و ٣ عظات على الرسالة الى فليمـــون ، حيث شـــجع فيها المسيحيون على تحرير العبيد والنظر اليهم كاخوة ... وهى غالبا القيت فى انطاكية .

١٢ ــ عظات الرسالة الى العبرانيين :

تحوى ٣٤ عظة وضعها فى السنة الأخيرة من وجوده بالقسطنطينية ، لأن العنوان يشير الى أنها نشرت بعد نياحته ، عن مذكرات كتبها قسطنطين كاهن بأنطاكية ...

١٣ ــ عظـــات اخـــرى :

ورد فى الـ Catenae مقتطفات لعظات تشرح اجزاء من رســـائل الجامعة تحت اسم الذهبى الفم ، لكن غالبا هـــذه المقتطفات لم تؤخذ عن عظات وضعها القديس عن رسائل الجامعة انما هى مقتطفات أخــذت عن مقالات له فى مواضع مختلفة .

---

(٢٩) عظة ٨ على ٢ تى ٣ .

عظـات غير تفســيرية

بجانب العظات السابق الاشـارة اليها الخاصـة بتفسير الـكتاب المقدس (العهدين) هناك عظات اخـرى القاها القديس فى ظروف معينة منها :

١ ـ عظات التمـاثيل (١) :

سبق الحديث عن ظروف القائها (١) .

القيت فى انطاكية عام ٣٨٧ م ، تحـوى ٢١ عظة ، وهى بدء انطلاق شهرته .

ويلاحظ فى هذه العظات :

(أ) راى ان يربح الجموع ويدفع بهم الى حياة التـوبة عوض أن يرتعبوا من الخطر القـادم ، اذ يقول : « احزنوا الآن واندبوا ليس من أجل عظم الغضب المتوقع ، ولكن من أجل الجنون الزائد الذى به ارتكبت هـذه الأمور (٢) .

(ب) طلب منهم ان يسلكوا بحكمة ، فلا يخرجوا فى الأسواق والشوارع حتى لا يقبض على البرىء مع المذنب ، ولكن يلزم الا يجد الخوف له مكان فى قلبهم : « يجلس المؤمن على الصـخرة فلا تقـدر تيـارات الأمواج أن تقذف به (٣) » .

(جـ) حـذرهم من الاندفاع وراء الطمـع ومحبـة المـال والكبرياء كما وجههم نحو تقديم الشـكر لله عند سماعهم بخبر العفو الصـادر من الامبراطور ...

(د) كشف عن أبوة الأب الأسقف الحانية ، الذى رغم شـخوخته أسرع بالسفر الى الامبراطور يشفع فى شعبه ... اذ يقول « انى اعرف انه بمجرد أن يراه امبراطورنا الورع ينطفىء غضبه لمجرد نظره الى شـكله وملامحه . فانه ليس فقط كلمات القديسين بل حتى ملامحهم المملوءة نعمة ... سيقول له ما قاله موسى لله : « الآن فاغفر لهم خطاياهم والا فاقتلنى معهم » خر ٣٢ : ٣١ ، ٣٢ . **فانه هكذا هى احشاء القديسـين ، انهم يحسبون الموت مع أولادهم اعذب من العيش بدونهم !** (٤) » .

---

(١) راجع الكتاب الأول : ٣ شموسيته وتسوسيته .

(2) hom 2 . (3) hom 2 . (4) hom 3 : 2 .

٢ — عظتان عن اتروبيوس (٥) :

سبق لى الحديث عن أتروبيوس والمناسبة التى القيت فيها العظتان ، كما قمت بترجمتهما وتبويبهما ونشرهما تحت عنوان « الكنيســـة تحبك » .

فى العظتين يقارن بين اباطيل العـــالم والحق الذى فى الكنيسة ، بين خداعات أهل العالم وحب الكنيسة للانسان حتى وان جرحته .

كشف القديس ايضا عن مفهوم الكنيسة واسمائها وعملها ، واوضـــح عمل الاله المتجسد فينا وعطية الروح القـــــدس والدخول بنا الى الحيـــاة السماوية التى بلا قلاقل .

٣ — عن طبيعة الله غير المدركة :

تتكون من مجموعتين ، الأولى تشـــمل خمس عظات القيت فى انطاكية عام ٣٨٦ — ٣٨٧ تهـــاجم اتبــــاع أنوميوس Eunomius الأســـقف الاريوسى (٦) ، الذى انكر ولادة الابن فى الطبع الالهى انما نظر اليه ككائن أوجده الآب مباشرة وتقبل منه القـــوة الخالقة خـــلالها شـــابه الآب . وظن أن الروح القدس له الأولوية بين الكائنات التى خلقهـــا الابن ، وهو أداة الابن فى تقديس النفوس (٧) . . .

فند القديس تجاديفهم متحدثا عن مساواة الابن للأب كما أوضـــح أن طبيعة الله لا ينطق بها وغير مدركة .

المجموعة الثانية القاها فى القسطنطينية عام ٣٩٧ م ، غالبا ليست ضد اتباع أنوميوس .

٤ — عظـــات عن العمـــاد :

خلال خـــــدمته فى انطاكية من عام ٣٨٦ — ٣٩٨ كان القديس يعـــد الموعوظين لقبول سر العماد . وللأسف لم يصلنا من هذا العمل غير مقالين « مقالات عن الاستنارة Cotheses ad illuminandos » القيت خـــــلال الصوم الكبير ٣٨٨ م . وفى عام ١٩٠٩ نشر A. Popadopulas - Kerameus

(٥) راجع الباب الأول : ٦ طريق الآلام .

(٦) هـــو فلاح كبادوكى ذهب الى الاســـكندرية وتتلمـــــذ على يدى Aetius الأريوسى ثم عاد الى انطاكيـــة حيث حضر مجمع أريوس عقـــــده Eudoxius ، ثم سيم شـــــماسا ، وفى عام ٣٦٠ م ســـيم اســـــقفا على Cyzicus فى Mysia ، نفى ايام ثيؤدسيوس الى Dahora حيث مات هناك .

(7) Cross : Oxford Dict. of Christian Church, P 480.

لأول مرة مجموعة من اربع عظات موجهة الى طالبى العماد ، العظة الأولى مطابقة للمقال الأول من المقالتين السابقتين .

وفى عام ١٩٥٥ اكتشف A. Wenger مجموعة من ثمان مقالات خاصة بالعماد بدير Stavronikita بجبل أتوس تام بنشرها عام ١٩٥٧ ، وهى غنية بالمعلومات الخاصة بليتورجية العماد فى القرن الرابع فى أنطاكية . ويلاحظ ان المقال الثالث جاء مطابقا للعظة الرابعة من العظات السابق الاشارة اليها وللعظة اللاتينية ad - neophytos فى ملحق المجلد الثانى من طبعة Fronton (باريس ١٦٠٩) .

٥ — عظات ضد اليهود (٨) :

تحوى ثمانية عظات ، مثيرة للغاية ، قصد بها نصح المسيحيين فى انطاكية بالامتناع عن ممارسة العادات والشعائر اليهودية الحرفية خاصة اعيادهم كما حذر الـProtopaschietes من تعييد الفصح المسيحى مع اليهودى (عظة ٣) . القاها عام ٣٨٦ — ٣٨٧ م .

٦ — عظات اخلاقية :

مع أن كل عظاته تميل للجانب الأخلاقى لكنه خصص بعض عظات موجهة ضد الخرافات والرذائل ، اشهرها عظات(٩) In Kalendes التى يوبخ فيها على العادات الشريرة والخرافات التى تتم فى الاحتفال برأس العام الجديد . القاها فى أنطاكية .

له أيضا عظة قوية القاها فى القسطنطينية فى ٣ يوليو عام ٣٩٩ « ضد السيرك والألعاب والمسارح » فيها أعلن سخطه على الاشتراك فى سباق الخيل فى الجمعة العظيمة واقامة المسارح يوم السبت المقدس (سبت النور) .

له تسع عظات (١١) De Poenitia القاها فى أوقات متعددة . وله عظة عن (١٢) « De eleemosyna » تقدم تفسيرا مطولا عن (١ كو ١٦ : ١ — ٤) وأخرى (١٣) De futurorum delécius et praesentuim vilitate ضد النظرة المادية للشعب .

٧ — عظات على الأعياد :

له مجموعة عظات على الأعياد نذكر منها :

عظة على عيد ميلاد عام ٣٧٨(١٤) D. N. Jesu Christu In diem natalem وقد حدث جدل طويل حولها .

---

(8) PG 48 : 843 — 942 .
(9) PG 48 : 953 — 962 .
(10) PG 56 : 263 — 270 .
(11) PG 49 : 277 — 350 .
(12) PG 51 : 261 — 272 .
(13) PG 51 : 347 — 354 .

وعظة اخرى عن الميلاد (١٥) دافع عن C. Martin عن نسبتها له .

عظة عن عيد الغطاس « الابيفانيا » (١٦) De Baptismo Christi Epiphania تبدو انها اصيلة .

عظتان عن خميس العهد (١٧) De Proditione Judae وثالثة ربما تكون مزيفة (١٨) .

عظتان عن الجمعة الكبيرة De Coemetris et cruce .

عظتان عن الجمعة الكبيرة (١٩) De cruce et latrone .

عظتان عن الصعود (٢٠) يبدو أن الأولى اصيلة .

عظة عن عيد البنطقستى (٢١) .

٨ — ميامر القديسين :

القى القديس عدة ميامر فى مدح بعض قديسى العهد القديم مثل ايوب واليعازر والمكابيون وأمهم ، وايضا فى مدح الشهداء بصفة عامة وبعض الشهداء بصفة خاصة مثل رومانيوس ويوليان وبرلعام وبيلاجين وبيرنيس وبرسدوس ، وايضا بعض اساقفة انطاكية مثل أغناطيوس وبابيلاس وفلوجينوس ويوستاخيوس وميليتوس ، وكتب ميمرا فى مدح معلمه ديؤدر الطرسوسى فى حضرته عام ٣٩٢ م .

القى سبع عظات عن القديس بولس حيث نظر اليه كقديس لم يفقه احد قط فى العهدين ، قارن بينه وبين رجال العهد القديم من هابيل حتى يوحنا المعمدان ليظهر انه فاق الجميع (٢٢) .

٩ — عظة بمناسبة اختياره للكهنوت :

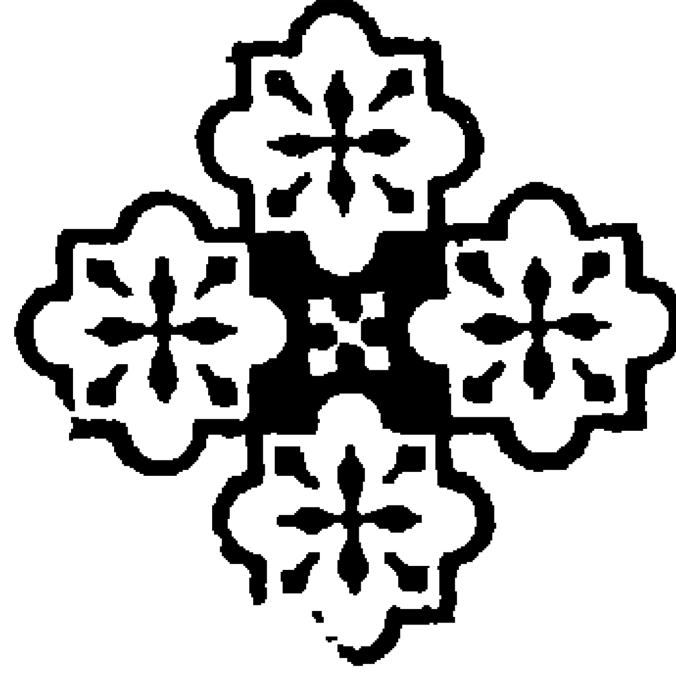
القاها فى بدء عام ٣٨٦ م ، فيها شكر أسقف انطاكية فلافيانوس الذى سامه كاهنا ، ومدحه من اجل روحه الرسولى ، وسأل الشعب أن يصلى ليجعله كاهنا صالحا .

---

(14) PG 49 : 351 — 362 .
(15) PG 56 : 385 — 396 .
(16) PG 49 : 363 — 372 .
(17) PG 49 : 373 — 392 .
(18) PG 50 : 715 — 720 .
(19) PG 49 : 393 — 418 .
(20) PG 50 : 441 — 452 ; 52 : 773 — 792 .
(21) PG 50 : 453 — 470 .
(22) Hom . de Caudibus S . Pauli 2 .

١٠ — عظتان بمناسبة نفيه :

ألقى الأولى على شعبه الثائر ليلة نفيه الأول عام ٤٠٣ حيث أعلن ان الكنيسة لا تغلب واوضح الاتحاد الذى لاينفصل قط بين الراس والاعضاء(٢٣)، واذ عاد تحدث مع الجموع يشكرهم على ولائهم له مادحا الكنيسة كعروس الطاهرة (٢٤) .



(23) PG 52 : 427 — 430 .
(24) PG 52 : 443 448 .

[ثانيــا]

مقــالاته

كتب كثير من مقالاته اثناء حياته الديرية وهو بعد شماس او اثنـــاء عمله ككاهن بأنطاكية ، وقد سبق ان اشرت لبعض هذه المقالات اثناء عرضى لسيرته فى الفصلين ٢ ، ٣ . كما ترجمت بعض مقالاته الى العربية لذا رأيت عدم تكرار ما سبق الحديث عنه .

اهم هذه المقالات :

١ ـ عن الكهنــــوت De Sacerdotis :

يحوى ٦ كتب ، قامت كنيسة السيدة العذراء بالفجالة بترجمته . وهو يمثل حوارا بين القديس وصديقه باسيليوس . فيه برر خداعه لباسيليوس الذى تركه يقبل الكهنوت ثم هرب هو . كما تحـــدث عن كرامة الكهنوت ومسئولياته ، وسمات الكاهن كيف يلزم ان يكون افضـــل من الراهب فى كل شىء .

يعتبر هذا العمل « جـــوهرة الأدب المسيحى وفى نفس الوقت قطعـــة رائعة فى فن البلاغة (١) .

٢ ـ الحيـــاة الديرية :

عشق القديس الحياة الرهبانية والفكر النسكى المعتدل حتى امتزجت كتاباته بهذا الاتجاه كل أيام حياته . لقد رأى فى « اللجوء الى الدير هـــروب من الأرض الى السماء (٢) » ، والناسك فى نظره انما يسكن فى عالم آخـــر هو السماء عينها ، لا حديث له الا فى السمويات وحضن ابراهيم واكاليـــل القديسين والطغمات المحيطة بالسيد المسيح (٣) » .

وقد سبق أن عرضنا لوصفه الحياة الرهبانية (٤) .

للقديس مقالات دفاعية عن الحياة الرهبانية أو الديرية منها :

---

(1) W. A. Matt : A Rhetorical Study of St. John Chrysostom's "De Sacerdotio", W ashinzton 1944.

(2) In 1 Tim. PG 62 : 575.

(3) In Mat. PG 58 : 643.

(٤) الكتاب الاول : ٢ رهبانيته .

(أ) رسالتان الى صديقه ثيؤدور الذى سقط فى الخطيئة وكسر نذر الرهبنة ، فأرسل اليه بدعوة الى التوبة والعودة الى الحياة الرهبانية (٥)، نعود اليهما فى الفصل الخاص برسائله .

(ب) كتابان عن الندامة De Compunctione : الأول موجه للراهب ديمتريوس والآخر للراهب ستيلخوس ، فيهما ينبه القديس الى خطورة نسيان روح الانجيل وتسلل روح العالم الى الكنيسة كهنة وشعبا ورهبانا ، حتى بدت « حياة الاماتة » أو « الصلب » خيالا . كما أظهر طبيعة التوبة الحقيقية والحاجة اليها .

فى هذا العمل يعلن حزنه الشديد على الذين يغتابون ويغضبون ولا يغفروا لأعدائهم ويتعدون قوانين العفة ويطلقون ويطلبون المجد الباطل ويتدينون بتهور ... موضحا أن التوبة تهب النفس جناحين فيلجأ المؤمن الى قمم « الوحدة الداخلية » ليكون حكمه على أمور العالم الباطلة صائبا ...

(جـ) ضد المعترضين على الحياة الديرية Aduersus oppugnatores vitae monasticae ، وضع ما بين عام ٣٧٨ ، ٣٨٥ م (٦) ويتكون من ثلاث كتب يرد فيها على أعداء الحياة الرهبانية مفندا حججهم ، ومشجعا الآباء أن يرسلوا أولادهم الى الرهبان لينالوا قسطا من التعاليم السامية ، ويتدربوا على الحياة الفاضلة .

روى القديس قصة ضابط أراد ان يشجع ابنه على السلوك فى الحياة العسكرية واذ خافت أمه عليه بسبب ما اتسم به الجيش فى ذلك الوقت من اخلاقيات شريرة أقنعت زوجها أن يرسله الى احد الرهبان لينال قسطا من الحياة الفاضلة قبل دخوله الجيش . واذ أوعزت الى الراهب شجع ابنها على الحياة النسكية . وبالفعل عاد الشاب الى بيته ليجتذب شبابا حوله للايمان ، واخيرا خرج الشاب الى الجبل ليمارس الحياة الرهبانية .

أوضح القديس أن جماعات من الشبان كانوا يخرجون الى الجبل فى أنطاكية يتدربون على حياة النسك تحت قيادة الرهبان ثم يعودون الى مدنهم كخميرة للحياة الفاضلة ... لكن الآباء ثاروا لأنهم رأوا فى الرهبان أنهم يغيرون أفكار الشبان ... فاضطر القديس أن يكتب ليوضح محاسن الحياة الرهبانية على مستوى الجماعة والفرد ، مشجعا الآباء على ارسال أبنائهم للتدريب على أيدى الرهبان .

---

(5) PG 47 : 277 — 316.

(6) PG 47 : 393 — 422.

(7) PG 47 : 319 — 386.

فى الكتاب الأول يقر القديس يوحنا امكانية الحياة الامينة فى العالم ، ولكن ان تلوث العالم حتى أصبح التحكم فى الحواس يكاد يكون مستحيلا ، فهل يهجره جميع السكان ؟ قطعا لا ، لكن عليهم أن يكيفوا حياتهم دون أن يفقدوا روحانيتهم حتى لا يضطروا الى الهروب للحياة الرهبانية .

يقول القديس أن فى هذا الوقت رب البيت — وثنيا كان أم مسيحيا ، لا يجد معلمين لاولادهم أفضل من النساك .

وفى الكتاب الثانى يفترض أن أبا وثنيا غنيا ذا كرامة له ابن وحيد صار راهبا . هنا يتحدث معه القديس بأسلوب يفهمه من أساطيره وفلسفته ويلجأ الى أمثلة من سقراط : وديوجنيتس وأفلاطون وارسطو موضحا له أن ابنه لم يفعل شيئا سيئا ، فان ابنه سيبقى الابن المحب وتكون حياته أكثر نبلا وسلاما .

وفى الكتاب الثالث يوجه حديثه الى أب مسيحى ، لذا كثيرا ما يلجأ الى الكتاب المقدس . وهو يعرض القضية بطريقتين :

اولا : حالة ابن قبل الحياة الرهبانية الملائكية . فيظهر أن هذه الحياة افضل من الحياة الجسدانية فى العالم ، ويرد على كل حجج الأب الرافض رهبنة ابنه .

ثانيا : حالة ابن آخر يقضى فترة مؤقتة ، وهنا يؤكد القديس اهمية التربية المسيحية والأخطار التى يتعرض لها الشباب فى المدينة حتى وهم فى حضن عائلاتهم . تحدث عن ضرورة حث الشباب على البحث عن الحكمة ، فانهم وان عاشوا عشر سنين وسط الرهبان ثم عادوا الى الحياة اليومية يقدرون أن يهدوا انطاكية خلال حياتهم المثالية الفاضلة .

(د) اذ قارن القديس بين راهب وملك فى الكتاب الثانى من المجموعة السابقة (٢ : ٦) ، عاد فقدم هذه المقارنة بأكثر تطور فى مقال قصير يدعى Comparatio regis et monachi سبق الاشارة اليه (٩) . وهو عمل مسيحى جاء على مثال مقارنة بين فيلسوف وطاغية لأفلاطون فى كتابه التاسع عن السياسة Politica . كتبه بعد شهور من دخوله الدير لذا حمل روعة فصاحته التى اتسم بها كما جاء مليئا بالمشاعر الصادقة نحو عشقه للحياة الرهبانية ، قاصدا جذب أصدقائه اليها .

---

(8) PG 47 : 387 — 392 .

(٩) راجع الكتاب الأول : ٢ رهبانيته .

٣ ــ المجد الباطل وتربيــة الأطفــال :

سبق الحديث عنه (١٠) ، قصد منه الاهتمام بتربية الاطفال وحمــايتهم من جذور الفساد العميقة .

« يبقى فساد العالم بغير رادع ما دام لا يوجــد من يصون أولاده ، ليس من يحدثهم عن الطهارة أو احتقار الغنى والمجد وعن وصايا الله (١١)» .

٤ ــ عن البتــــولية والترمل :

(أ) وضع كتابا عن البتولية (١٢) جاءت أغلب فصوله (٢٤ ــ ٨٤) تفســـيرا مطولا لكلمات الرســـول فى ١ كو ٧ : ٣٨ ، موضـــحا أن الزواج صالح لكن البتولية افضل . وقد اشار القديس لهذا العمل اثناء عظاته على الرسالة الأولى الى أهل كورنثوس (١٣) التى ألقيت فى أنطاكية .

(ب) فى القسطنطينية أصـــدر رسالتين رعويتين أو مقـــالين يعالجان مشـــكلة سكنى النســـاك والناســـكات تحت سقف واحـــد والتى تدعى virgines Subinteroductae Syneisabtoi

الرسالة الأولى(١٤) Odversus eos qui opud se hapent subintroductas موجهة الى الكهنة حيث يدين ما قد اعتاد عليه بعضهم من السماح لبعض العذارى أن يســـكن معهم فى بيوتهم لخدمتهم تحت مظهـــر الحيــــاة معهن كأخوات مكرسات .

والثــانية (١٥) Quod regulares feminae viris Cohabitare non debeant تركز على توضـــيح انه لا يليق بنســــاء مكرسات أن يقطن مع رجال تحت سقف واحد .

كان عنيفا فى الرسالتين مما اثار عليه سخط بعض الكهنة الأشرار .

(جـ) رسالته الى شابة أرملة يكشف فيها عن مفهوم الترمل (١٦) .

٥ ــ الألم وعنــــاية الله :

(أ) كتب القــــديس اثنــاء رهبنته ثلاث كتب لصـــديقه الراهب ستاجيروس عن عنـــــاية الله بنــــا وسط الآلام (١٧) Ad Stagirium

---

(١٠) راجع الكتاب الأول : ٣ شموسيته وقسوسيته .

(11) De inani gloria et de educandis liberis 17 .

(12) PG 48 : 533 — 596 .

(13) In 1 Cor , hom 19 : 6 .

(14) PG 47 : 495 — 514 .

(15) PG 47 : 513 — 532 .

(١٦) نعود اليها عند الحديث عن رسائله .

(١٧) راجع الكتاب الأول : ٢ رهبانيته .

adaemone vexatum قامت احدى الخادمات بالكنيسة بترجمتها وتبويبهـــا وقمنا بنشرها تحت عنوان « العناية الالهية » .

(ب) كتب مقـــالين فى فترة نفيه الأخـــير ما بين ٤٠٥ و ٤٠٦ م عالج فيها الآلام البشرية ، فى المقال الاول أظهر انه لا يقدر احد ان يؤذى انســـانا ما لم يؤذ الانسان نفسه (١٨) Juad nemo laeditur nisi a se ups

قمت بترجمته وتبويبه ونشره تحت عنوان : من يقدر ان يؤذيك ؟

والمقـــال الثانى(١٩) Ad eos qui scondalizati sunt ob adversitates يعالج فيه الذين يتعثرون بواسطة المضايقين .

٦ ــ ضـــد الوثنيين واليهـــود :

له مقالان دفاعيان يبدو انهما اصـــيلان بالرغم مما تعـــرضا له من شكوك .

(أ) المقـــــال الأول عن الطوباوى بابيـــلاس وضـــد يوليان والأمم De S . Babylas, contra Julianum et Gentiles وضع حوالى عام ٣٨٢ م ، فيه يظهر انهيار الوثنيـــة فى عصر دقيوس Decius موضـــحا أن انهيارها لم يكن نتيجة اضطهاد لها ، وكتاباتها أوشكت أن تختفى لو لم يحفظهـــا المسيحيون ، أظهر عظمة الكنيسة ممثلة فى الأسقف بابيلاس الذى لم يرهب الامبراطور الشرير بل فى حزم منعه من دخول الكنيسة .

استشهد القـــديس بابيلاس ونقلت رفاته الى دافنيـــه Daphne فانتهى مجد معبد أبولون اذ تباركت المدينة برفات الشهيد .

أوضح أيضا أن يوليانوس الكافر امر بالعودة الى العبادة القـــديمة لأبولون عام ٣٦٢ فى منطقة دافنيه ، وفى ٢٤ أكتوبر من نفس العـــام احترق المعبـــد ، وبعد ٩ شهور (٢٦ يوليو ٣٦٣) هلك يوليانوس نفسه .

(ب) المقـــال الثـــــانى Contra Judaeos et Gentiles quod Christus sit Deus ، كتبه فى أواخر فترة دياكونيته ، وهو ضـــد اليهود والأمم معلنا لاهوت السيد المســـيح .. وقد انحصرت ردوده على الوثنيين فى النقـــاط التالية :

اولا : انتشـــار الايمان المسيحى وتحقيق النبوات الواردة فى العهـــد القديم عن شخص الســـيد المســـيح ، ونجاح العمل الرســـولى وتشتيت اليهود .

---

(18) PG 52 : 459 — 480 .
(19) PG 52 : 479 — 528 .

ثانيـــا : يلجأ الى اقوال السيد المسيح عن خلود الكنيسة وانتشارها، بالرغم مما تعانيه من اضطهادات وعدم كفاية العمـــل البشرى فى حيـــــاة الرسل .

ثالثـــا : تحدث عن معجزات السيد المســـيح ، لكنه لم يركز عليهـــا كثيرا لأن الوثنيين تليلوا الحساسية لهذا النوع من الأدلة .

إشار ايضا الى ان يوليانوس اصدر مرسوما لاعادة بنـــــاء الهيكل اليهودى ، فكانت نار تخرج من الأساسات وترهبهم . كما أوضح أن الصليب الذى كان علامة الموت المرعبة قد صار سر بركة :

« خلع الملوك اكاليلهم ولبسوا الصليب ، رمز موت المسيح .

صار الصليب على ثيابهم الرسمية وفوق تيجانهم .

إنه يوجد حيث تقوم صلواتهم ...

يوجد الصليب على المائدة المقدسة .

صار الصليب مشرقا فى العـــالم ، اكثر بهاءا من الشمس » .

كما تحدث عن نصرة السيد المســـيح الكاملة قائلا : « اسم المســـيح صار منتشرا ، يتعبد له ملوك وقادة وحكام ومشيرون وعبيد واحرار واصحاب مراكز ، وحكماء وبرابرة ، ومن كل الأجناس المتنوعة ، وفى كل موضع تشرق عليه الشمس خلال هذا المتسع العظيم . بهذا تعرفون معنى النبوة : وتكون راحته مجيدة (٢٠) » .

+ + +

---

(٢٠) اش ١١ : ١٠ .

[ثالثاً]

رسائله

وكتاباته الأخرى

الرسائل فى كتابات الآباء :

تعتبر القرون الثلاثة (من الثالث حتى الخامس) من اخصب القرون التى ظهرت فيها رسائل الآباء . هذه الرسائل تحسب من افضل الكتابات الآبائية فى الكشف عن حياة كاتبيها وحياة المعاصرين لهم وروح العصر الذى يعيشون فيه .

رسائل القديس يوحنا :

بخلاف رسالتاه اللتان بعث بهما الى صديقه فى الرهبنة ثيؤدور الذى سقط فى حب سيدة يهودية وكسر نذر البتولية وجد له حوالى ٢٣٦ رسالة يرجع اغلبها ان لم يكن جميعها الى فترة نفيه . ولعل القديس يوحنا قد تشبه فى ذلك بالرسول بولس الذى لم يكف عن أن يهتم بالكنائس وهو فى السجن ببعث رسائل لهم . وقد علق القديس نفسه على تصرف الرسول بولس هذا قائلا :

« ليس بعد المسافة ولا قيمة الوقت المطلوب ولا ضغط العمل ولا المخاطر او الكوارث التى تحيق به واحدة تلو الأخرى تقدر أن تنتزع حبه أو تذكره لأولاده ...

لم تكن يداه مقيدتان بالسلاسل بقدر ما كانت روحه مرتبطة ومسمرة بأولاده ، الأمر الذى اعلنه فى مقدمة الرسالة (الى اهل فيلبى) قائلا لأننى حافظكم فى قلبى فى وثقى وفى المحاماة عن الانجيل وتثبيته (١) ...

كان بولس يقطن فى العالم كله كما فى بيت واحد . هكذا كان دائم التفكير فى خلاص الكل ، غير مبال بشىء ...

لم يعق حبه شىء بشرى ما دامت جذوره من فوق فى السماء وجزاءه سماوى ... (٢) » .

---

(١) فى ١ : ٧ .
(٢) للمؤلف : الحب الرعوى ص ٦٧٧ — ٦٧٩

امتثل القديس بالرسول بولس فبعث رسائل الى اكثر من مئة شخص تشهد هذه الرسائل عن مدى اهتمامه الحي باخـــوته وأولاده الروحيين فى ســـوريا وانطاكية رغم بعد المسافة وقسوة الظروف التى احاطت به . حملت هذه الرســـــائل شهادة صادقة عن غيرته الرعــوية وأمدت الخدام بتعـــزيات ، هؤلاء الذين كانوا فى قلق وفقدوا الرجاء فى حال الكنيســـــة بالقسطنطينية .

ولعل اكبر الرســـائل وأعمقها هى السبعة عشر رسالة التى بعث بها الى شماسته أولمبياس (٣) ، والتى سبق لنا الحديث عنها (٤) .

ومن الرســـائل الهامة أيضا رســـالتان الى الأسقف اينوشيت ، الأولى (٥) كتبها قبل نفيـــه وهو فى القسطنطينية بعـــد فصح عام ٤٠٤ م ، والثانية كتبها وهو فى النفى بجبال القوقاز فى نهاية عام ٤٠٦ م .

رســــائله الى الشماسة اولمبياس :

مع قلة عدد هذه الرسائل لكنها تحمل تنوعا ، فقد جاء منها .

١ ــ بعض الرسائل مثل الثلاث الأولى قصـــيرة ، كتبها لمجرد حفظ علاقته كأسقف بالشماسة مع طلب استطلاعه عن اخبارها أو تقديم بعض اخباره لها .

٢ ــ يرتفع مستوى بعض الرسائل الى بحث لمشكلة الألم وتقترب بعضها مثل الرسائل ٧ ، ٨ ، ١٠ من مقاليه اللذين كتبهما فى تلك الفترة ، أحدهما « الى الذين ينزعجون من الخصوم » ، والآخــر « لا يقدر أحــد أن يؤذى انسانا ما لم يؤذى الانسان نفسه » .

٣ ــ حملت هذه الرســـائل الكثير من الجوانب التاريخية الخاصـــة برحلته الى المنفى وحيـــاته فى ارمينيا . كما قدمت لنـــا فكرة واضحة عن حياته التقوية وسلوكه الروحى فى هذه الفترة العصيبة ...

٤ ــ جاءت هذه الرسائل ، كل منها يكشف لنا عن ملامح جــــديدة فى اعماق نفس البطريرك المنفى .

أحس القديس بآلام الشماسة ، فكانت نصيحته لها هى قراءة هذه الرسائل ... وهو متألم كان يشاركها آلامها ، لكنه كان يدفعها للعمـــل الروحى والخدمة ...

---

(3) PG 52 : 549 — 623 .
(4) PG 52 : 529 — 536 .

(٥) راجع الكتاب الأول ــ فصل ٥ (اولمبياس) .

٥ — كان الأب البطريرك يرى فى بعض رجال الكتاب المقدس المتالمين نموذجا حيا امامه ، بل دخل معهم فى علاقة صداقة وحب روحى . هـــذا الأمر لم يكن جـــديدا عليه ، فقد مارسه أثناء خدمته قبـــل النفى ، اذ نراه يتحدث فى احدى عظاته على سفر التكوين قائلا عن الرسول بولس المتالم : « انى اعشقه ! لهذا فان اسمه دائما على شفتى ! (٦) » .

وفى رسالته الثامنة (٧) يطيل الحديث عن شخصية القـديس بولس المتألم الذى تعلم أن يموت عن كل شىء محتملا الآلام .

رسالتان الى ثيؤدور الســـــاقط :

كتبهما فى فترة وجوده بالدير حين سمع عن صديقه قد سقط فى محبة سيدة يهـــودية اغوته فترك الرهبنة ، وكان له الفضل فى رده الى طـــريق الرهبنة بقوة خلال هاتين الرسالتين المملوءتين رجاءا(٨) .

جاء فيهما : « ان تسقط هذا أمر بشرى ، اما أن تصر على الخطيـــة فهذا عمل شيطانى ! السقوط ليس محطم النفس ، لكن البقاء فى الســـقوط على الأرض هو المحطم لها ! » .

رســـــالة الى شـــابة ارملة :

وهى اشبه بمقال ، غالبا كتبها عام ٣٨٠ م ، ليعزى أرملة شــــابة فقـــدت زوجها Therasius ، ويخرجها من حالة الترمل الحـــــزنة الى « الترمل العامل » ...

قمت بترجمتها وتبويبها ونشرها تحت عنوان : رسالة تعزية .

مقـــال De non iterands coniugo فيــه ينصح العذارى أن يبقين كما هن (٩) ، غالبـــا ما نشر هذا المقـــال كملحق للمقال السابق وفى نفس التاريخ .

+ + +

---

(6) In Gen , hom 11 : 5 . PG 3 : 95 .

(7) Epis 8 : 11 d , 12 d .

(٨) قمت بترجمتها ونشرها تحت عنوان : ستعود بقوة أعظم .

(٩) ١ كو ٧ : ٤٠ .

ليتورجيته

بخلاف الأيام المعدودة فى السنة الليتورجية لدى الكنيسة الروسية واليونانية والتى فيها يصلون القداس الباسيلى فان بقية أيام السنة يصلون بقداس يوحنا الذهبى الفم .

والليتورجية المدعوة باسمه فى شكلها الحالى وضعت فى وقت متأخر عن عصره . حتى القرن السابع كانت تسمى « ليتورجية الرسل » ويبدو انها أخذت اسمها ليس قبل القرن الثامن (١) .

ويلاحظ أن مجمع Quinisexta بالقسطنطينية عام ٦٩٢ م يتحدث عن ليتورجية القديس يعقوب وأخرى للقديس باسيليوس ولم تذكر ليتورجية باسم القديس يوحنا الذهبى الفم . ولعل صيتها الرائع جاء بسبب انها خاصة بالعاصمة ، حلت محل الليتورجيات القديمة للقديس يعقوب وللقديس مرقس فى القرن الثالث عشر .

انتشرت فى شكلها اليونانى فى الأديرة الباسيلية بايطاليا وفى نصها السلافوتى البيزنطى فى أغلب مناطق روسيا . أما أقدم ترجمة لاتينية فوجدت فى مخطوط يرجع الى القرن الحادى عشر أو الثانى عشر فى جنوب ايطاليا . كما وجدت ترجمة أخرى لاتينية وضعت فى القسطنطينية حوالى عام ١١٨٠ بواسطة Pisan مفسر Les Tuscuss

الكتابات غير الأصيلة

شهرة القديس جعلت كثير من الكتابات نسبت اليه ، فقد طبع حوالى ٣٠٠ عملا غير أصيل منسوب اليه خطأ ، كما يوجد حوالى ٦٠٠ عمل فى المخطوطات منسوب اليه .

من بين المقالات غير الأصيلة مقال (٢) Opus imperfectum in Matthaeum ، نال شهرة عظيمة فى العصور الوسطى ، وهو يمثل تفسير غير كامل فى ٥٤ عظة . المؤلف الحقيقى أريوس من القرن الخامس ، وقد ظن اللاتين الى فترة طويلة انه عمل أصيل لذهبى الفم .

(1) Schaff, vol 3, p 531.

(2) PG 56 : 611 — 649.

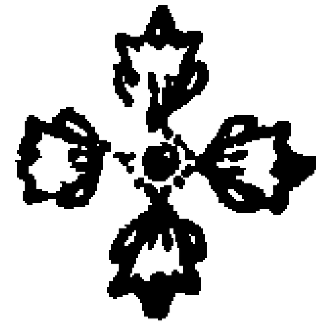
محتويات الكتاب

صفحة

صفحة

الباب الثالث

كتـــاباته





الثمن ٤٠٠ قرشاً